الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 398-399
تموز: 2018

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:
مجلة الثقافة الجديدة
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد
رقم الحساب: 11153
سويفت كود: MBIVIQBA

بالدولار:
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment– Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

ملف الذكرى الستين لثورة 14 تموز 1958

10- عن التاريخ والتأويل وحقيقة الرابع عشر من تموز ..... كامل شياع
18- من جدليات الثورة الثرية وأهدافها ..... عقيل الناصري
29- المسار السياسي لثورة تموز : الحدث والدلالة ..... سامي خالد
36- 14 تموز: الثورة الدائمة ..... مظهر محمد صالح
47- ثورة 14 تموز وحالة الصراع الطبقي في العراق ـ مجتمع مدينة الحيرة مثالا ..... عبد علي الخفاف
56- ستون عاما على صدور قانون الاصلاح الزراعي رقم (30) لسنة 1958 ..... صالح ياسر
67- ثورة 14 تموز والدولة المدنية الديمقراطية ..... إبراهيم إسماعيل
74- الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية لثورة 14تموز 1958 في العراق ..... حيدر عطية كاظم
85- مساهمة عن ثورة 14 تموز 1958 في ذكراها الستين ..... عبد الرزاق الصافي

مقالات

96- في صيرورة العلمانية... محاولة في الفهم ..... هاشم نعمة
107- نظرية غرامشي في السياسة وعلاقتها بمنظومته المفاهيمية ..... فرحان قاسم
119- عودة لنهج خصخصة الزراعة واستمرار لانتهاك مبادئ العدالة الاجتماعية ..... جاسم محمد حافظ
128- دور المؤسسات المالية في تشجيع الاستثمار الاجنبي المباشر ..... حاكم محسن محمد الربيعي
141- التأمين والعبودية: فصل بغيض في تاريخ التأمين الرأسمالي .....مصباح كمال

نصوص قديمة

152- امريكا اللاتينية : حوار مستمر بين الماركسيين والمؤمنين

نصوص مترجمة

172- بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد كارل ماركس بقلم: انغار سوتي ..... ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

184- حوار مع الفيلسوف نمير العاني ..... اجرى الحوار: فوزي حامد الهيتي

أدب وفـــــن

كلمة «أدب وفن»

196- اتحاد الأدباء يبقى صوتاً عالياً للناس: الماء والكهرباء والآذان الصمّ..

في الحدث الادبي والفني

198- سلاماً ابن التكية الحمراء

دراسات نقدية

200- سرديات الحزن وتفكيكها ..... جاسم عاصي
203- مجيد الموسوي .. رثاء الذات عبر الآخر ..... جاسم العايف

210- ملف عن الشعر الكوردي ..... اعداد :آوات حسن أمين
222- نص في المكان ....كوكب الهوى/ ميلاد مدينة ..... حسن كريم عاتي
230- شهادة...لمحات حول الترجمة وأشياء أخرى ..... علي عبد الأمير صالح

لوحتا غلافي العدد : للفنان غسان فيضي

كلمة العدد

المجد لثورة الرابع عشرة من تموز في ذكراها الستين

يمر العراق هذه الايام بظروف غاية في التعقيد والصعوبة، تؤشر على ما تحمله قوادم الأيام. فنتائج الانتخابات البرلمانية وما تولد عنها، من قوى جديدة على المستوى "الوطني"، اومن فرز داخل الكتل القديمة نفسها، ومع ما أحيته بعض نتائجها من أمال، وما اشرت له من امكانيات يمكن ان تساهم وضع البلد على سكة الخروج من مأزق نظام المحاصصة وقواه، على "**طريق ما يزال طويلا ويحتاج الى ويحتاج الى معارك نضالية عديدة ومتنوعة ومحفوفة بالانعطافات الكبرى والخطرة**".

هذه النتائج لم ترق ابدا للمتضررين، "الكبار" منهم على وجه الخصوص. فبدلا من تحقيقهم لما اسميناه في كلمة العدد السابق -397- "انتصارا باذخا" يتماشى مع بذخ ما اغدقوه في حملاتهم الانتخابية، فما ان تلمس المتنفذون ان هذه النتائج تشكل تهديدا صريحا لمواقعهم ومسؤولياتهم، وأيقن الخاسرون فقدانهم دفء كراسيهم وهيبتها، حتى بدأت قافلة الصراخ والتصريحات المشحونة بكل شيء حد المتفجرات، وانطلقت قافلة النشاطات واللقاءات والضغوط والتي وصلت تخوم تأويل ما لا يمكن تأويله.

وفي الوقت الذي ما زال (داعش) وغيره من القوى الارهابية الاخرى تتربص بالبلد، وما حدث في الايام الاخيرة من علميات خطف وغيرها، خير دليل على ان هذا الخطر ما زال داهما وربما سيتفاقم أكثر. وهكذا وبدلا من أن يعمل المتنفذون على تذليل الصعوبات وتقديم التنازلات المتبادلة لتجنيب البلد منزلقات خطيرة، بدلا من هذا كله يسعى هؤلاء - وعلى الاخص الخاسرون منهم ممن هددت نتائج الانتخابات مكانتهم ومصالحهم - الى الالتفاف على ارادة الناخب، باتخاذ سبل وطرائق غريبة بل وخطرة، قد تؤدي الى أن تكون سببا في اشاعة الفوضى وحتى تعريض السلم الاهلي الى الاهتزاز. والتجربة بينت أن مصير العراق لا يعنيهم، بل مصالحهم هي الأهم، لذا ظل شعارهم ثابتا: «**نحن ... أو من بعدنا الطوفان**».

كانت معركة الانتخابات اشد فتكا، بعد الاعلان عن نتائجها، وصكوك حساباتها مفتوحة بلا حدود؛ فمن التصريحات المتباينة والمتناقضة التي يصدرها المتنفذون في الكتل السياسية، وتقاذف الاتهامات، الى احاديث تشير الى خطر داهم.. الى تلك التي قد تتضمن شيئا من التهديد الصريح أو المضمر. ومن صراخ كبار الخاسرين في الانتخابات خوفا على الديمقراطية - وهي بحسبهم ما زالت «ديمقراطية وليدة» بينما هي تمر بأسوأ ايام مراهقتها - من التزوير الذي شابها ووصف على انه كبير وواسع، والدعوة المتكررة الى اعادة الانتخابات، الى التفجير الذي حدث في مقر الحزب الشيوعي العراقي في بغداد، ثم تفجير مدينة الصدر/ الثورة، وأخيرا وليس آخرا حريق مخازن مفوضية الانتخابات في الرصافة، والتهامها أجهزة العد والفرز الالكتروني والبعض من اوراق الاقتراع. ونجد بين هذا وذاك تقرير لجنة تقصي الحقائق التي انشأها مجلس الوزراء،

ونصل الى التعديل الثالث على قانون الانتخابات ومصادقة المحكمة الاتحادية عليه بعد نقضها فقرة من فقراته وتفسيرها فقرة اخرى. وفي النهاية نجد ان انتخابات مجلس النواب 2018 اشرت الى ما يبدو انه ضياع للحدود بين السلطات الثلاث.

ويبقى رهان المتنفذين على دوام سلبية الجماهير، وعلى ديمومة ركودها، وخوفها وتبعيتها، وعلى ما يبدو شعورا مزمنا بالعجز والدونية عندها تجاه السلطة، غير أن هذا كله لن يكون سوى رهان خاسر. فما العملية الانتخابية الأخيرة بكليتها من قوانينها ونتائجها وافرازاتها ونسبة المقاطعين المرتفعة ومآلاتها، إلا نتاج للرفض الشعبي الكبير وللضغط المتنامي بين صفوف الجماهير. بالتأكيد ان غالبية جماهير شعبنا حاليا ينتابها الكثير من القلق. وما زالت قطاعات منها تقاوم بصورة سلبية. واذا ما استثنينا الحراك الطويل نسبيا في ساحات التحرير في بغداد والمحافظات الأخرى فإن حراك الناس كان على المستوى المطلبي في غالبه ولم يتعدَ في كثير من الاحيان المطالبة بالخدمات.

ولكن تلك الايام التي تعدل قرونا سوف تأتي بالتأكيد، وستبدو الاحداث للغافلين ولكأنها انبثقت من عدم، عندما يتسيد الشعب الشوارع، وتتعلم الجماهير فن الحساب، فن التغيير، فتمسك زمام مصيرها، وتصنع تاريخها بنفسها، وسيظفر الناس لأنفسهم بحياة جديدة. وسيدرك «الكبار» حجمهم الفعلي ومكانهم الحقيقي. لقد بدأت عجلة التغيير الدوران، وزخمها في تصاعد، نعم، قد تتباطأ احيانا، وقد تحيد احيانا أخرى، لكنها ستعود دائما كما الاول، تصحح مسارها، وتستفيد من اخطائها. ومن الغباء التغاضي عنها، ومن الصعب الوقوف أمامها.

وفي هذه الايام المشحونة سياسيا واجتماعيا تمر علينا مناسبتان يجب ان نستذكرهما. والاهم قبل ذلك ان يتذكرها الفاسدون والمناهضون للإصلاح، ممن يراهنون على تأبيد الواقع.

الاولى، مرت ذكراها قبل ايام من صدور هذا العدد. ففي الثلاثين من حزيران 1920 جاءت الطلقة الأولى التي اذنت ببدء ثورة العشرين، والتي كانت ثمرة لما سبقها من نشاطات ونضالات متنوعة ضد الاحتلال البريطاني، وانتهاكاته وسياساته القمعية. وكانت الملاحم البطولية التي سطرها الثوار وابناء القبائل العراقية وما لحقها من نضالات هو ما أرغم البريطانيين على الاستجابة اخيرا لمطالب الحركة الوطنية، وتشكيل اول حكومة وطنية عراقية، مع كل الإشكالات والمؤاخذات التي رافقت تشكيلها والانتقادات التي وجهت لها. ومع ثورة العشرين ترسخت مفاهيم الوطنية العراقية والانتماء والاستقلال وأصبحت مألوفة عند العراقيين ومتداولة بينهم. وكانت البداية الفعلية للوعي الوطني وللنضال الطويل الذي اخذ ينمو مع الايام وتوج بالحدث **الثاني** وهو اندلاع ثورة 14 تموز 1958، والتي توقد في هذا الشهر، تموز، شمعتها الستين (وقد خصصنا في هذا العدد ملفا خاصا، احتفاء بها واستذكارا لها).

ان ثورة 14 تموز وبرغم الجدل المتناقض وسوء الفهم المستمر بشأنها رغم ما حققته، وعلى الرغم من انها بدأت حركة عسكرية، تبدو مثلها مثل أي انقلاب عسكري آخر، إلا أنها كانت الشرارة التي انطلق منها لهيب نضال ثوري كبير، بقي صداه يتردد سنين طويلة. لكن ما حدث صبيحة 14 تموز واستمر لاحقا كان بالأصل حصيلة تراكم سنين طويلة من النضال المتنوع والمستمر الذي قامت به جماهير شعبنا وأحزابه وقواه الوطنية والديمقراطية، وهذا الدعم الجماهيري الشعبي هو الذي منح 14 تموز مضمونه الاجتماعي ووفر له امكانيات التغيير العميقة.

ويبقى حراك الشعب حلم الطامحين الى التغيير الجذري وكابوسا يقض مضاجع المناهضين له.

المجد لثورة الرابع عشر من تموز في ذكراها الستين... والنصر لشعبنا العراقي في نضاله من أجل الكرامة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية!

ملف الذكرى الستين
لثورة 14 تموز 1958

رغم مرور ستين عاما على اندلاعها..
لم تتسربل ثورة 14 تموز 1958 بالنسيان!

في تموز هذا العام، 2018، تكون قد مرت الذكرى الستون لثورة 14 تموز 1958. ولكن ورغم مرور ستين عاما على اندلاعها إلا ان الجدل الذي ثار بشأنها ما زال مستمرا، ويبدو من صياغة بعض التساؤلات ان هناك شيئا من الغموض، او سوء الفهم، ربما، ما زال يحيط ببعض جوانب هذه الثورة ومآلها المأساوي المعروف.

ان ثورة 14 تموز، على الرغم من انها بدأت بتحرك عسكري، يذكر بالأعمال الانقلابية التقليدية إلا أن هذا التحرك كان بمثابة الفتيل الذي أطلق النهوض الثوري لملايين العراقيين والعراقيات، الذين كانوا متحفزين ينتظرون الفرصة السانحة لفرض ارادتهم في التغيير السياسي والتحويل الاجتماعي.

وكان الالتفاف الجماهيري غير المحدود حول القيادة العسكرية الوطنية، هو ما اضفى على حركتها طابع الفعل الشعبي الثوري، لا العمل الانقلابي المعزول عن الجماهير. فما حدث في 14 تموز 1958 لم يكن اذن انقلابا عسكريا عاديا، بل فاتحة تحول اجتماعي عميق، يحمل السمات الاساسية للثورة الأصيلة.

وبالمقابل، كما هو الأمر بالنسبة لقانون الثورات الاجتماعية لم تواصل ثورة تموز صعودها، بل انتكست في لحظة حاسمة من لحظات تطورها لجملة أسباب وذلك في الثامن من شباط المشؤوم عام 1963 الذي حدد مسارا جديدا للصراع، اتخذ طابعا دمويا وقيامات وحروبا داخلية وخارجية لا تنتهي. وطبيعي أن ثمة عشرات من الأسئلة وعلامات الاستفهام المكتومة في الصدور، التي تملي طرحها لكي نفهم جذور الانتكاس وأسبابه الفعلية.

ومن بين تلك الأسئلة: هل ما حدث في 14 تموز كان انقلابا ام ثورة؟ ما هو دور عبد الكريم قاسم في انجاح الثورة وأيضا في المآل المأساوي لها؟ ما هو البعد الديمقراطي في الثورة ولماذا اخفقت في بناء نظام سياسي ديمقراطي؟ ما هي الائتلافات الاجتماعية - السياسية التي تبلورت قبل ثورة 14 تموز وبعد اندلاعها؟ وما هو المشترك والمختلف في تلك الائتلافات قبل وبعد الثورة؟ ما هي اهداف ثورة تموز وما الذي تحقق منها وما لم يتحقق ولماذا؟ ما هي العوامل والقوى الخارجية، الداعمة للثورة والمناهضة لها؟ النشاط الامبريالي ودوره في عرقلة الثورة والوصول الى غاياتها المنشودة في تحرير العراق من الهيمنة السياسية والاقتصادية الأجنبية؟ الادوار المتباينة للأحزاب السياسية في دعم الثورة والصراعات التي نشبت بين تلك الاحزاب وجذورها الاجتماعية - الطبقية؟ الاصلاح الزراعي والمعركة السياسية والفكرية التي دارت حوله بين خطين متناقضين: خط يريد تطبيق اصلاح زراعي جذري (اجتثاث القاعدة المادية للإقطاع في الريف)، وخط يريد تطبيق اصلاح زراعي يقوم على تحديد سقف الملكية وتعويض مالكي الاراضي من الاقطاعيين؟

هذه اسئلة لم يعد السكوت عنها ممكنا.. فالسكوت

هو هروب لأجيال عن مواجهة الحقيقة. وليس هناك من أمل في الوصول الى اجابات مشرعة وصحيحة للأسئلة المرتبطة بتموز الخالد بغير التعامل معها، في جسارة علنية، بطريقة التفكير النقدي الجماعي وبصوت مرتفع بهدف بلورة الدروس للاستفادة منها في الظرف الحاضر، حيث المهمات الوطنية – الديمقراطية التي طرحتها ثورة تموز تواجهها البلاد اليوم، رغم اختلاف الظروف واختلاف موازين القوى.

ان عام 2018 هو عام الذكرى الستين لاندلاع ثورة تموز.. وإذ تعيد (الثقافة الجديدة) استذكار هذا الحدث المجيد في تاريخ بلادنا، فإنها تطرح القضية مجددا للنقاش العام، بهدف التحريض على تقليب الأوراق من جديد وتقديم قراءات جديدة تتجاوز الكليشات الجاهزة، قراءات تغوص في عمق الإشكاليات الكبرى التي جعلت حدوث ثورة الرابع عشر من تموز ممكنا وانتكاسها وانحرافها عن الطريق الصحيح ممكنا أيضا. وستكون ابواب المجلة مفتوحة لمساهمات تقدم قراءات مركبة وأصيلة تضيء بعض الجوانب الغامضة وغير الواضحة من هذه الملحمة الجليلة.

إن دروس ثورة 14 تموز 1958 غزيرة سواء في اندلاعها وتطورها وأيضا في انتكاسها. وهذه الدروس مفيدة اليوم أيضا حيث تمر بلادنا في مرحلة انتقالية بالغة التعقيد والصعوبة واستثنائية، مرحلة تواجه فيها مهمات يندمج فيها الوطني متمثلا بتصفية مخلفات الاحتلال ومنتجاته، بالديمقراطي متمثلا باستكمال بناء العملية التي انطلقت بعد انهيار النظام الدكتاتوري في نيسان 2003 والتي يتعين ان تفضي الى بناء دولة ديمقراطية عصرية وعراق ديمقراطي فيدرالي موحد، بعيدا عن نظام المحاصصات الطائفية - الاثنية. ومن بين كل دروس ثورة تموز ثمة درس مهم هو ان هذه الثورة انتصرت لأنها اعتمدت على وحدة القوى الوطنية والديمقراطية التي ناهضت الحكم الملكي وناصرت الثورة وساهمت في نهوضها.. في حين كان من بين عوامل انتكاسة هذه الثورة هو الصراعات التي نشبت بين هذه القوى حيث عجز العديد منها عن فهم طبيعة المرحلة التي دشنتها الثورة وترتيبها – أي تلك القوى- ترتيبا خاطئا للتناقضات بتغليب الثانوي منها على الرئيسي. علما ان النزعات الدكتاتورية لبعض قادة الثورة وعدم رهانهم على الجماهير الشعبية كان من بين العوامل التي ادت الى انتكاسة الثورة وتتويج ذلك بثورة الردة الفاشية في الثامن من شباط 1963.

وأخيرا نقول: انه ورغم مآلها المأساوي وما اكتنفها من اخطاء وما واجهها من مؤامرات وضغوط اقليمية ودولية.. تبقى ثورة الرابع عشر من تموز 1958 نقطة وضاءة في تاريخ العراق، ومعلما متميزا على طريق نضال شعبنا في الحرية والعدالة والمساواة والتقدم الاجتماعي والديمقراطية.

واستذكارا لهذه الحدث الهام في مسيرة شعبنا ووطننا اعدت مجلة (الثقافة الجديدة) هذا الملف وكرسته لمرور 60 عاما على ثورة تموز. وقد وجهنا الدعوة الى العديد من المهتمين بالموضوع للمساهمة في هذا الملف. وننشر هنا المساهمات التي وردت الينا حسب مواعيد وصولها، باستثناء مساهمة الشهيد كامل شياع حول ثورة تموز والتي كان قد كتبها قبل 21 عاما، ونعيد نشرها هنا لانها تخص هذا الحدث الكبير من جهة، وايضا بمناسبة مرور 10 سنوات على استشهاده حيث في ظهيرة يوم 23 /8 /2008 داهمته رصاصات غادرة أطلقها قتلة محترفون.

عن التاريخ والتأويل وحقيقة الرابع عشر من تموز

كامل شياع *

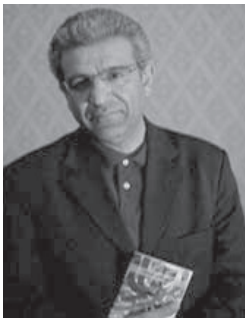

في مقدمة كتابه الأخير "عصر التطرفات" يلاحظ أريك هوبسباوم أنه "في جميع الأحوال ليس من المحتمل لمن عاش هذا القرن الاستثنائي أن يمتنع عن الحكم. لكن الفهم يظل هو الأصعب". ما الذي يجعل فهم التاريخ صعبا؟ الجواب المباشر هو لأن الفهم لا ينفصل عن الإقامة في التاريخ وصنعه والذي هو في نفس الوقت صنع الإنسان لنفسه. بعبارة أخرى أن صعوبة الفهم تبدأ من لا إمكانية النظر في التاريخ من زاوية متجردة كما هو الحال مع الطبيعة مثلا. وبما أن التاريخ هو حصيلة تداخل الذاتي بالموضوعي، المرغوب بالمفروض والخيالي بالواقعي، فقد تعددت زوايا مقاربته: إنه كليّة تبحث عن كليتها. تعدد المقاربات تحتمها عوامل إيديولوجية أو نظرية، تعكس الأولى مصالح اجتماعية أو نظرية سياسية أو خلفيات ثقافية تفسر بالاستناد إليها أحداث الماضي ويعاد تشكيلها من حيث الأهمية والأسبقيات. وعادة ما يكون اختلاف الأيديولوجيات الحديثة على الماضي امتدادا لاختلافها على الحاضر. إلا أن العكس يمكن أن يكون هو الصحيح بالنسبة للفرق والطوائف الدينية، فالاختلاف بينها يبدأ من التنافس على امتلاك حقيقة الماضي. وفي الحالتين لا يخفى الفهم المتداول، والذي ينتمي الى مجال الوعي اليومي، تحيّزه سيّما وانه يعبّر عن نفسه في شروط صراعية وسجالية مباشرة.

أما الثانية، أي الاختلافات النظرية، فتفرض نفسها بالدرجة الأولى على المختصّين بدراسة التاريخ وتتأتى من مناهج البحث كما من المفاهيم. وإذا عزف المؤرخون إجمالا عن تقديم الحكم على الماضي أو فهمه فلا يكفيهم ذلك الاختلاف، لأن أبجدية الفهم عندهم ذات ترتيب غير موحد. فمنهم من يقرأ التاريخ كسجل لإرادة الأفراد العظام، أو مآثر لعامل واحد أو غاية نهائية محددة، ومنهم من يرجعه إلى تدخّل العناية الإلهية، أو يراه كعملية خطيّة أو دورانية. وبينهم آخرون يفرغونه من المعنى والقوانين. ولكل واحدة من هذه النظريات أو القراءات نقيضها الذي يعد إمساك الصورة بالمقلوب. ومن هنا لا نستطيع أن نعثر على نسخة واحدة للتاريخ أو على تقدير إجماعي لكل صغيرة وكبيرة فيه. فالتاريخ محمول دائما على صيغة الجمع.

انه تواريخ أو روايات تنتج من داخل سياق بحث المؤرخين عن الموضوعية والحقيقة. ورغم اختلاف مقارباتهم واجتهاداتهم، فإن اعتمادهم الموضوعية أو التجرد النسبي كمعيار يهديهم إلى قراءة أحداث الماضي وفق منطقها الخاص، والى نبذ الأهواء والأحكام الجاهزة، يسمح بوضعهم في خانة واحدة هي خانة الداعين إلى إمكانية التوصل إلى فهم عقلي للتأريخ.

لكن هل هناك فعلا إمكانية من هذا النوع؟ قد يكون (ليو تولستوي) أفضل من يمثل الموقف الرافض لهذه الإمكانية. ففي الخاتمتين اللتين ألحقهما بملحمته ''الحرب والسلم'' تبنى تولستوي موقفا لا إداريا من التاريخ، موحيا بذلك بلزوم تحرير سرد أحداثه من قيود التعليمات الفلسفية، وتركها تجابهنا بتجلياتها المثيرة وامتداداتها العشوائية وانبثاقاتها المفاجئة. ولهذا فالإصرار على معرفة التاريخ ستدمر تفرّد حقيقية. فأي معنى للفعل الإنساني إذا كانت معرفته ممكنة حتى قبل الآتيان به؟ كم سيكون مرعبا كشف خبايا النفس الإنسانية؟ وما قيمة الحضور في التاريخ إذا ما صودرت منه تلك القوى الغامضة التي تحرك البشر بهذا الاتجاه أو ذاك؟ هكذا يكون أمامنا موقفان؛ واحد للمؤرخين ''الموضوعيين'' وهو يتقصى النتائج عبر الأسباب والظواهر عبر البواطن الدفينة والدوافع المباشرة عبر الضرورات الخفيّة. والأخر ويمثله تولستوي، يقف متأملا البعد السامي للتاريخ كمرادف لما هو لا نهائي وغير عادي وغير قابل لتمثيلات الوعي. بعبارة فلسفية فان التاريخ بالنسبة لتولستوي ينتمي إلى عالم الشيء بذاته، ذلك العالم الذي نقاربه بالمصادرات وحدها ولا ندرك منه إلا تجلياته الخارجية بهيئة وقائع منفردة ومعطيات جزئية في تغيره الدائم يقاد التاريخ بغايات غامضة تحيّر الفهم وتخذل الاستنتاجات الثابتة والأحكام القاطعة. فما هو خير ومفيد من ظواهره يمكن أن ينقلب بسرعة، حسب تولستوي، إلى سيئ وضار. وكذا يمكن أن تنقلب الأدوار المجيدة لإبطاله إلى كوارث.

عدم الاطمئنان إلى وجود خارطة ثابتة للدلالات التاريخية واستبعاد اجتماعها في ''عمارة'' متماسكة لم يدفع تولستوي وحده لتعليق الحكم. فهذا ماوتسي تونغ الذي لم يفهم من السياسة إلا كتدخّل واع للتأثير على حركة التاريخ وضبط إيقاعه، ينحو منحى سابق اللا ادري. فعندما سُئل مرة عن رأيه بالثورة الفرنسية، وكانت قد قاربت ذكراها المئوية الثانية، أجاب بأن الوقت لم يزل مبكرا للحكم عليها، ويحتمل رأيه أكثر من تفسير واحد. فلعله أراد التهرب من تقديم اعتراف واضح بأهمية تلك الثورة التي دشنت عصر البرجوازية. أي انه ربما أراد الاستهانة بالتراث السياسي والحقوقي للبرجوازية وذلك من منظور مستقبلي يراهن على تراث، لم يحن أفضله بعد، للاشتراكية والشيوعية من ناحية أخرى. قد تدفعنا إجابته المقتضبة للتفكير في احتمال أكثر تعقيدا، عندئذ يكون لماو سبب آخر لإرجاء الحكم على الثورة الفرنسية غير انتظار لحدث الأعظم الذي سينفي كل ما سبقه، ليبدأ التاريخ الحقيقي للإنسانية. ولعلّ سبب ماو يعود إلى تسليم غير مصرح به بزوغان التاريخ في تحولاته وفي تشكيلاته. فإذا أوحى ظاهر الأحداث أن تعاقبها الزمني

يتضمن، بل يحتم، نسخ اللاحق للسابق والمقموع للسائد، فان عمقها يوحي بخلاف ذلك. على مستوى العمق يظهر التاريخ محكوما بصيرورة دائمة لا تنتظرها لحظة اكتمال أو محطة أخيرة وتتهاوى عندها الحدود والامتيازات التراتبية للمستقبل على الحاضر وللحاضر على الماضي. فليس التعاقب الزمني هو الذي يحدد حقيقة التاريخ، وإنما التناسب المتغير للعلاقات التي تربط أحداثه. ونكون في هذه الحالة إزاء نظرة تاريخية جذرية، أي نسبية، ترفض مقولات الاستمرار والتواصل الخّطي على مستويي حدوث الحدث والتفكير فيه. أو نكون إزاء نظرة تأويلية تماهي الأحداث الكبيرة مع النصوص التأسيسية التراثية فتدعي أن وراء المتحقق فعليا آفاق كاملة غير متحققة، مثلما أن وراء النصوص المغلقة مدلولات مفتوحة وغير مطروقة بعد. وربما قاربت عبارة ماو الآنفة الذكر هذا القصد، فالثورة الفرنسية بالنسبة له ما زالت مشروعا أوليا يتطلب ترجمة جديدة بلغة السياسة والحقوق والثقافة والاقتصاد. من سيفعل هذا وكيف؟ في كتابه "مقدمة للحداثة" يقول هنري لفيفران: التاريخ يواصل مسيرته كقوة اغترابية رغم الوعي المتزايد بالاغتراب، فتجلياته الآنية تباغت حنكة الوعي وتصميم الإرادة، وتبقى عائمة في تأجيل دائم وعود النهاية التي تبشر بها الأيديولوجيات. ليس للتاريخ مثيل في إبداع التنويعات على سخرية القدر، وليس هناك من يدانيه مكرا في التلاعب بالمتناقضات. يكفي هنا أن نتذكر النتائج العكسية التي انتهت إليها أكثر أشكال التدخل فيه ادعاءً بالجذرية والشمولية، والعواقب السلبية التي تفتقت عنها أكثر الأفعال توكؤا على الوعي واليقين الفلسفيين. أي مقارنة بليغة وراء استعارة النظم الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية النهاية الحتمية من نظيرتها الرأسمالية لتترك لها ما ادعته أصلا لنفسها.. أي المستقبل؟

الاعتراف بموضوعية التاريخ، التي لا ترادف بأي حال القول بقدريته، يعادل الاعتراف بمكره الخفي ومفارقاته غير المتوقعة، أو الاعتراف بحضور الإنسان فيه طورا وغيابه عنه طوراً آخر، الاعتراف بهذه الموضوعية يعني أيضا إمكانية تصّور زمن التاريخ وزمن الإنسان (بالمعنى الوجودي أو النفسي) منخلعين وغير متطابقين.

ومشكلة الوعي الآيديولوجي ومأساته تكمن في تناسي الزمن الخاص للتاريخ، ذلك الزمن المتأرجح بين خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء، بين خلق ممكنات مرغوبة وبين وأدها في أي لحظة، مشكلة الوعي الآيديولوجي أن يؤنسن التاريخ مسقطا عليه نهاية سعيدة (بطريقة تقارن بالرؤية الأخروية للأديان والطوائف) ويستعجل محو الفواصل بين ما هو قائم وما لم يحن أوان قيامه بعد. لكن كل هذا الاختزال ضروري للآيديولوجيات لكي تمضي في تعميم منطق الجزء على الكل ومنطق اللحظة على الزمن لكي تجعل المستقبل حتمياً والطريق إليه قويم بين. بالمقابل يرد التاريخ على تمثيلات الآيديولوجيات بان يجعل إشراقها ظلاما وإرادويتها عمقا... فيوقفها بحركة واحدة في نقطة الصفر، ويريها أنها ما لم تكن مأخوذة بالهذيان فعلى الأقل بفقدان التمييز بين ما يبقى وما ينبغي

أن يزول. يمكن الآن أن نجمع ما تقدم في أربع نقاط :

أولاً؛ أن صعوبة فهم التاريخ لا تكمن فقط في التوفر على مادة دراسته من وثائق شهادات وآثار ... وإنما أيضا في تباين زوايا النظر إليه فلسفياً. وقد رأينا كيف يذهب البعض إلى أن فهم التاريخ يقف عند ظواهره دون جوهره، وانه ـ الفهم ـ لا يبرر تقديم أحكام نهائية عنه، أو انه يفترض إمكانية النفاذ إلى قوانينه مع عدم القدرة على مواكبتها دون توهمات ذاتية.

ثانيا؛ مع عدم وجود نقطة أخيرة تمنح امتيازاً لتصور الماضي وفق غاية ثابتة أو اجتماعية، تصبح معروفة التاريخ مجالاً لصراع التأويلات. فمن نقاط عدة متباينة في تزامنها أو في تعاقبها تنحدر احتمالات عدة للتأويل تمثل البعد الذاتي من حركة التاريخ. فكل تأويل يشكل مصدر إضافة لقيمة الحدث المؤول...أي لا يكتفي بالتسجيل دون إعادة التشكيل.

ثالثا؛ لا يتضمن الإدعاء بأن مقاربة التاريخ لا تتم من خلال المعرفة العلمية الدقيقة أن التأويل بحد ذاته يخلو من مسلمات أو مسبقات متحيزة. كذلك فأنه لا يخلع قيمة متساوية على جميع التأويلات المطروحة عن حدث أو سيرة أو عهد. رغم الانتقائية التي تحكم التعامل مع الوقائع والمعطيات فإن للتأويل مستويات متعددة تحددها معايير الانطباق على الموضوع، التماسك الداخلي والفائدة العلمية. ويمكن للتأويل، عند استيفائه شرط البحث أن يتجاوز إغراءات السرد ليطرح تعميمات نظرية ومعارف صلبة.

رابعا؛ لا ينفصل التأكيد على وجود تمايز في درجة موضوعية التأويلات عن التأكيد على موضوعية التاريخ والمتمثلة في استقلاله عن إرادة ووعي الفاعلين فيه واشتراطه لأدوارهم ونتائج أفعالهم. في هذه الحالة يخطئ من يماهي موضوعية التاريخ مع صورته كقوة خارجية غريبة تجهض مسعى البشر وتحاصر وجودهم. الاستنتاج الأدق المترتب على القول بالموضوعية يفضي إلى رفض معارضة التاريخ الفعلي بتمثيلاته التخيلية والمؤمثلة، والى اعتبار تحقق أو عدم تحقق التمثيلات غير مرتبط بعامل الإدارة وإنما بالكيفية التي يبسط بها التاريخ نفسه. خلاف الطبيعة التي تقودها قوى عمياء لا تعي ذاتها في الزمن, فأن التاريخ تحركه قوى واعية ويتجاذبه توتر بين الأفعال ونظام الأشياء.

لا تقترح الاستطرادات أعلاه أكثر من مقدمة عامة قد تكون مفيدة للتفكير في حدث محدد تعددت أشكال الإخبار عنه واختلفت الأحكام عليه. الحدث المقصود هو ذلك الذي وقع في الرابع عشر من تموز 1958 وحّول النظام السياسي العراقي إلى جمهوري بعد أن كان ملكيا.

سنشير إلى أربعة أنواع من الكتابة عن هذا الحدث. أولاً؛ المذكرات المنشورة لبعض الضباط الأحرار. ثانيا؛ التقييمات والمعالجات الصادرة عن المنظور القومي البعثي للسلطة. ثالثا؛ الكتابة التاريخية الأكاديمية كما تجلت في سفر حنا بطاطو "الطبقات الاجتماعية القديمة...". رابعا؛ وجهات نظر متفرقة لكتاب وصحفيين في المنفى.

كل واحد من هذه الأنواع أراد إبراز بُعد أو أكثر من أبعاد الحدث. فالمذكرات أعادت

نسج الحدث من خلال التفاصيل الجزئية والأدوار الفردية، والنوع الثاني أرخ له من زاوية آيديولوجية مسلمتها الأساسية أن عبد الكريم قاسم خطف الثورة وانحرف بها عن مبادئها القومية، وان "ثورة" البعث في 1968 هي وريثة تلك المبادئ وأداة إعادة حركة التاريخ إلى مضمارها الصحيح. النوع الثالث يدرس الحدث في سياقه التاريخي وبقدر مشهود له في سعة الاطلاع والتجرّد. أما النوع الأخير فيدعو إلى مراجعة الحدث بصورة جذرية ومن زاوية ما ترتبت عليه من نتائج وخيمة وطويلة الأمد كتدخل العسكر في السياسة وبروز الظاهرة السلطوية، ويعتبره بمعنى ما المدخل للكارثة التي أصابت العراق حاليا.

من بين هذه المقاربات المختلفة في سرد الحدث وتقييمه سنتوقف عند الاثنتين الأخيرتين لأنهما يخدمان السؤال الذي وضع من اجله هذا المقال، وهو، هل ما حدث في الرابع عشر من تموز كان ثورة أم انقلابا؟ كما نلاحظ فأن النوعين الأول والثاني من الكتابة يسلمان منذ البداية بأن الذي حدث كان ثورة وليس انقلابا. والملفت أن المقاربة القومية البعثية لم يهمها من الحدث إلا دور الإرادة السياسية في تحقيقه، ولم تعتبره ثورة إلا من باب الاستئثار به وإعادة امتلاكه. فـ "ثورة" السابع عشر من تموز 68 هي ثورة تموز 1958 بعينها ولكن بعد أن أزيح عنها رجالها غير المرغوب بهم وسياساتها غير القومية. على النقيض من هذا تقرأ دراسة حنا بطاطو حدث تموز 58 من خلال مفرداته دون الوقوع في انحيازات القوى التي تصارعت عليه، وتحلل انعكاساته على المستويات الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية دون إصدار أحكام قيمة. يبدأ بطاطو نقاشه بالرد على فكرة (ويلدمارجي غالمان) السفير الأمريكي السابق إلى العراق والتي وصفت الحدث التموزي بأنه مجرد انقلاب نفّذته حفنة صغيرة من الضباط، وبأن الحشود البشرية التي تدفقت إلى الشوارع "لم تمثل العراقيين وإنما (كانت) مجموعة من السفاحين وقطاع الطرق جنّدها دعاة محرضون" (ص 806 من الطبعة الانكليزية).

أما بالنسبة إلى حنا بطاطو فإن دور الجماهير كان أكبر وأهم مما صوره السفير الأمريكي، لكنه في نفس الوقت لم ينكر أنه في فوضى التغيير الجذري ثمة دائما دور لقطّاع الطرق ولأعمال العنف والقسوة. لقد قطع نزول الجماهير إلى الشارع إمكانية الثورة المضادة، واسند موقف المجموعة الصغيرة من الضباط التي قادت ونفذت التحرك الذي شكل ذروة "نضال جيل كامل من الطبقات الوسطى ودون الوسطى والعاملة"، وكان تتويجاً لنزعة عصيانيه تجسدت في انقلاب بكر صدقي (36) وحركة رشيد عالي الكيلاني (41) ووثبة كانون وانتفاضتي عامي (52) و(56). ضمن هذا السياق التاريخي يمكن النظر إلى حدث تموز 58 كنقلة جذرية غيرت نظاما بنظام. أما إذا تركنا مقدماته التاريخية ونظرنا إليه من زاوية نتائجه اللاحقة فسنبلغ مع بطاطو نفس الاستنتاج. يقول "ما كان ممكنا لظاهرة سياسية سطحية أن تفجر العواطف بتلك القوة، وان تثير المخاوف والآمال بتلك الجدّية كالتي تخللت الفترة المحصورة بين عامي 58 و59. إن الرابع عشر من تموز

قد جلب حقا أكثر من مجرد تغيير حكومة. فلم يقوّض النظام الملكي ولم يضعف بصورة جذرية الموقف الغربي في المشرق العربي وحسب، وإنما أيضا أثر بعمق في حظوظ جميع الطبقات الاجتماعية" (ص 806-807). ما يشير له بطاطو هنا يرتقي في الحقيقة إلى قطيعة تاريخية جلبت إلغاء المكانة الاجتماعية للطبقات القديمة من شيوخ إقطاعيين وملاكي أراض حضر، وتغييراً نوعيا في مواقع وأدوار الشرائح الوسطى ودون الوسطى والعمال وفي علاقات الملكية في الريف .

ويعود حنا بطاطو ليتعرض إلى النتائج العميقة لذلك التدخل العنفي، وذلك في مجال تفسيره للأخطاء والتذبذبات التي وقعت فيها الثورة. فيذكر من بين الأسباب، عدم وجود تجانس الطبقة الوسطى وانقسام ممثليها في الجيش الذي كان هو السلطة، وضغط الطبقات الدنيا التي كان يحركها الحزب الشيوعي. لكن الحاسم بين الأسباب، حسب رأي بطاطو، تمثل في أن كسر الثورة لبنية السلطة القديمة والتشكيلات الطبقية التقليدية قد أدى إلى "خلخلة التوازنات الحساسة بين مختلف الجماعات العرقية والطائفية في العراق, وبشكل خاص تلك التي كانت قائمة بين العرب والأكراد والشيعة والسنة" (807). في ضوء هذا يمكننا الاستنتاج بأن مأساة ثورة تموز 58 نتجت عن اقتران عدم سيطرتها على ديناميكية الصراعات بين القوى والأفكار في الداخل، مع عوامل ضغط خارجي فرضتها السياسات الاستعمارية الغربية والتيار القومي الناصري.

لا شك في أن تحليل بطاطو، كما لخصناه عكس قناعة سائدة بأن ما حصل كان ثورة، لكننا نجد اليوم من لا يكترث به ويعارض "حكمه" القناعة السائدة التي يراها متجذرة في شعارات بالية وبلاغات خطابية جوفاء. ففي العصر الليبرالي الجديد، عصر سقوط آيديولوجيات التحرر، عادت عبارة السفير الأمريكي السابق إلى العراق لتفرض نفسها في سوق التداول. الانقلاب هو الكلمة المناسبة لوصف فعل ضباط طائشين من قبل مثقفين فتنتهم، كما يبدو، الليبرالية مثلما فتنتهم قبلها الماركسية، وأغمضوا عيونهم عن عسرها وأوجاعها. وردت مفردة الانقلاب بصورة عرضية في مقالات صحفية خصصت لأوضاع العراق الراهنة، لكنها لم تعدم من يعتمدها بحجج وأدلة صورت حدث تموز 58 كجرثومة ماض استفحلت لتفتك بالحاضر. وواضح أن صفة الانقلاب تتضمن حكما سلبياً على تغيّر ضرب الحالة "الطبيعية" للأشياء ليشيع فيها اللاستقرار واللاشرعية واللامعنى. حسب القائلين به فهو وحده يفسر أصل وفصل كل صغيرة وكبيرة وقعت في العراق خلال العقود الأربعة الأخيرة، لكنه بحد ذاته لا يحتمل تفسيراً من خارجه بعوامل اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية. انه السطح والعمق معاً. فهذا الانقلاب فتح الباب على مصراعيه للتنافس على احتكار البعد السياسي، لأكثر أشكاله عنفية ولا حضارية، ومعه ظهرت نزعة إرادوية تقدّس السلطة لذاتها وتتخيل المجتمع طيناً من صلصال بيد صانع محترف هو الحاكم. وإذا كانت هذه هي حقيقة حدث الرابع عشر من تموز 58 فسوف لا يصعب مد خطوط مستقيمة بينها وبين ما تلاها وتشخيص أوجه شبه وقرابة بين دكتاتورية عبد الكريم قاسم الرحيمة

ودكتاتورية صدام الهمجية، ورغم أن الأمر لم يصل بعد إلى إجراء مماهاة صريحة بين الظاهرتين، إلا أن اختلافهما يبدو في الدرجة لا في النوع. وعلاقتهما، التي يتخللها عامل الزمن الذي يشكل مع عامل المكان الشرطين المسبقين لتحديد الظواهر وبالتالي اختلافها، هي كعلاقة الواقع بالإمكانية أو البذرة بالثمرة. ولهذا فنزع صفة الثورة عن الأولى - لأن الثورة وفق منطق المراجعين ينبغي أن تقترن بنقلة إيجابية خصوصاً في مجال الحق السياسي - يشمل الثانية المدعية وراثتها. أو بطريقة معكوسة فان الشطب على الثمار المرّة للحاضر، وهي لسوء الحظ كثيرة ولا تترك في النفس إلا مداداً قليلاً من الأمل، ييسر الاستغناء عن بذرة الشر التي زرعها العبدان كريم وسلام! ولعمري فأن هذه المعادلة الشرطية الحسنة النيّة تضع المجتمع العراقي ككل بين قويسات بانتظار استبداله بآخر ينطق بقيم الديمقراطية والمدنية من المهد.

بلغة التحليل النفسي، فإن الذي حصل في الرابع عشر من تموز 58 هو أشبه بجريمة قتل الأب (الذي هو النظام الملكي في هذه الحالة). وستلاحق لعنة غياب الأب/ الرمز فاعلي الجريمة من أفراد وجماعات إلى يوم غير معلوم. وليس من المستبعد تماما أن قصد كتابات المراجعة أو التحريفية (جرياً على عبارة بائدة لا تعني اليوم سوى التفكير بطريقة مختلفة) هو للتذكير بأن حقيقة من هذا الحجم لا تظهر إلا متأخرة وبعد طول نسيان أو إنكار. والحال فأنه مع استحالة العودة إلى أيام الملكية لا يبقى إلا أن نقرّع أنفسنا على ما فعلناه في التاريخ أو على ما فعله التاريخ بنا. الخطأ التاريخي المحكوم بظروفه القاهرة، يتحول هنا إلى محرم (تابو) يعلو على التاريخ.

من المحتمل أيضاً أن ورود مفردة الانقلاب في الكتابات المذكورة برره اعتراف مسبق بأن الذي حصل فعلاً في 58 كان ثورة انطفأ وجهها من اللحظة الأولى؛ إنها ثورة بفعل ما قوضته أي النظام القديم وليس بفعل ما تمخضت عنه، إنها ثورة ولو بالمعنى السلبي للكلمة لأنها على حدّ ملاحظة ذكية لحنا بطاطو جلبت انعطافاً عميقاً في بنية المجتمع العراقي ككل، دون أن تتمكن من الإمساك بقيادة الأمور سياسياً. ولعل ما رشحها لأن تسمى انقلاباً هو هذا الفشل السياسي تحديداً.

لكن هل يكفي الفشل السياسي الذي جاء به التنازع المحموم على السلطة بين العسكر وتسابق الأحزاب على الشعارات التعبوية الثورية، لتفسير عجز الثورة عن تحقيق ما كان ينبغي لها تحقيقه؟

لماذا لم تحتل الديمقراطية آنذاك نفس الأهمية التي تحتلها اليوم؟ هل يمكن مقارنة درجة الوعي بها في فترة ما بعد نهاية الحرب الباردة مع درجة هذا الوعي أيام التحرر من الاستعمار والاجتهاد على أنسب الطرق لدخول الاشتراكية؟ بل إذا كانت الديمقراطية دون سواها هي المطلوبة فهل يمكن تصور تحققها دون وسائط وظروف هي بالتأكيد أكثر نقصا من الهدف الذي تصبو إليه؟

حقاً أن البشر يصنعون التاريخ ولكنهم يفعلون ذلك وفق شروطه، فليس وعيهم، الذي يأتي متأخراً عن لحظته التاريخية، هو الذي يحدد كينونتهم، كما يقول ماركس، وإنما العكس هو الصحيح.

إن وعي البشر لما تحقق ولما لم يتحقق من

التاريخ هو جزء من التاريخ نفسه وجدلية التقدم والتراجع لا تمنح الأول صفة الإيجاب المحض والثاني صفة السلب المحض، ولا تعترف بامتياز للأول على الثاني. ليس التاريخ ظاهرة جمالية بل واقع ثقيل ومؤذ لأنه لا يقف دون التمادي على الغايات المنتظرة منه أو على الرغبات المسقطة عليه والتي تحاول إنهاء القصة قبل الأوان. والأسئلة الموضوعة على التاريخ هي مثل الغايات المودعة فيه لا تطرح بصورة مجردة وإنما تعايش على مستويي الوجود والفعل.

ولهذا لا تعثر على "إجاباتها" لا في زمن الممارسة المفتوح والناقص أبداً. هذه الإجابات هي مثل ثعلب ندرك منذ البداية أننا سوف لا نهتدي إلى مكانه بالضبط، ناهيك عن الإمساك به دون أن يحول ذلك من مطاردتنا له. أما عندما نتخيل الإجابات في متناول اليد، عندما نعجز عن تقدير الفاصلة الزمنية بين الفعل والوعي، بين الحدث والذاكرة. فالمجاز الأنسب للتاريخ هو مجاز القنفذ، هذا الحيوان المنطوي على نفسه يكون دائما حيث يكون وبالكاد يتحرك إذا ما اقتربنا منه. والذي يرى التاريخ وفق المجاز الأخير هو الأكثر استعداداً للادعاء بامتلاكه وبسطه وتبسيطه كيفما يشاء، وبالتالي للحكم عليه بدلاً من فهمه. ولا يساوره في هذا شك بأنه في الحقيقة يمارس عنفاً نظرياً عليه ناتج عن توهمّ مركزية ما للذات، توهمّ يرجع الغياب إلى الحضور والآخر إلى الأنا.

بالطبع فإن القول بخلاف هذا، أي الدفاع عن استقلالية التاريخ وافتراق حركته عن مخططات الذات العارفة، لا يتضمن إضفاء صنمية عليه ومصادرة حقّ نقده واحتمالات تأويله. فمعرفتنا به لا نبلغها إلا من خلال التأويلات، وهذه تتفاوت في قوتها. فنسخة حنا بطاطو عن حدث الرابع عشر من تموز 58 هي أكثر تعقيداً وإقناعا - لأنها تحديداً افترضت كل التاريخ الحديث للعراق لتفسير حدث واحد من أحداثه الفاصلة - من النسخة الأحادية للذين اعتبروا الحدث مجرد انقلاب فوقي عطّل الحركة "الطبيعية" للتاريخ وهيأها لانحدارات مأساوية.

عدا التفاوت المشار إليه فإن حجة التأويل، كما يبدو، لم توضع في موضعها الصحيح عند حصرها بالمفاضلة بين مفردتي الثورة والانقلاب. إن حدث تموز 58 فتح، ولو فترة قصيرة، آفاق خيال اجتماعي جديد لمفاهيم الشعب والسلطة، للحياة الخاصة والعامة، للقانون والاحتفال، للمعتقدات الشعبية والسياسية، للمدينة الكبيرة والتظاهر. وهذه المفردات تستحق قبل غيرها براعة التأويل لنقل فهمها من مجال الأسباب السياسية والاقتصادية المباشرة إلى مجال الدلالات النفسية والثقافية العميقة.

* في اب من هذا العام، 2018، تمر الذكرى العاشرة لرحيل الشهيد كامل شياع، الباحث والكاتب المرموق، عضو هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)، والمستشار في وزارة الثقافة العراقية. ففي ظهيرة يوم 23 /8 /2008 رحل كامل بعد ان داهمته رصاصات غادرة أطلقها قتلة محترفون. واذ نستعيد هذه الذكرى، نعيد في هذا الملف نشر دراسة مهمة كتبها الراحل في مجلة (الثقافة الجديدة)، العدد 278/ أيلول – تشرين الأول 1997 حول ثورة تموز، وذلك استذكارا لهذه الذكرى، واعتزازا بكامل الذي يبقى حيا على الدوام في ذاكرة رفاقه واصدقائه ومحبيه، وهم كُثر.

من جدليات الثورة الثرية وأهدافها

د. عقيل الناصري
مختص بسيرة الزعيم عبد الكريم قاسم
وثورة 14 تموز

(أعلم أن كمال الوجود وجود النقص فيه، إذ لو لم يكن لكان كمال الوجود ناقصاً بعدم النقص فيه)

ابن عربي

يتمحور تاريخ العراق المعاصر، منذ مطلع القرن المنصرم، بحيث نستطيع تلمس الجوانب التغييرية في السيسيولوجية والسياسية والفكرية وتمظهراتها حول ثلاثة منعطفات أرأسية، كانت تمثل، كما أعتقد، انقطاعاً تاريخياً مهماً مع أرأسيات التأريخ الماضي القريب من النواحي: الطبقية؛ وانماط الانتاج الاقتصادية؛ والأبعاد الاجتماساسية والتحولات الفكرية، بمعنى آخر إنهما يحملان في ماهياتهما طبيعة جديدة ذات نكهة خاصة اجتصادية سياسية، بل وحتى فكرياً، وهذه المنعطفات الأرأسية، حسب تاريخية تحققها وظهورها، هما:

1 - تأسيس الدولة في آب 1921؛

2 - والتغيير الجذري في تموز 1958 .

3 - الاحتلال الثالث (9 نيسان 2003 - 31 كانون أول 2011) (1)

لقد أفضى المنعطف الأول إلى فرض الانتداب البريطاني وأسر القرار السياسي والاقتصادي للدولة المركزية الملكية بعد تشكلها، و(إستيراد) ملكها، وتثبيت حدودها الرسمية وتشكل مؤسساتها وأدامت هيمنة أحد المكونات الاجتماعية (المكون السني) الموروث من الفترة العثمانية، وهيمنة النمط شبه الاقطاعي على الاقتصاد الوطني؛

بينما أفضى المنعطف الثاني: زمناً للتغيير السياسي والاجتصادي الحاسم في المجتمع العراقي. وقد أفضت إلى إنهيار الملكية وإعلان الجمهورية وتمكين الطبقات والفئات الاجتماعية المتوسطة ودونها في المجتمع والرفاه النسبي، بعد تجريد طبقة الإقطاع من قوتها الاقتصادية والسياسية، وانقطاع الاواصر مع السلطة الاستعمارية البريطانية، وإعادة بناء الاقتصاد الوطني وتحديث أنماطه.

وقد أفضى المنعطف الثالث إلى الإعادة المشوشة، بل التخريبية، لتأسيس الدولة االعراقية، والذي اعتمد على فكرة الهويات الفرعية من طائفية وإثنية ولغوية، كبديل عن الهوية الوطنية. وهذا ما وسمه الجمهورية الثالثة (9 نيسان -2003 ولحد الآن) ضمن الاستراتيجية الأمريكية للمنطقة وإحياء

سايكس - بيكو جديدة للمشرق العربي تحديداً.

ومن الناحية المنهجية، اعتقد أن أفضل منهج لمعالجة أية ظاهرة اجتماتاريخية سياسية، أن يتم تناولها ضمن الأطر التالية: نطاقها التاريخي الملموس؛ في تاريخية النشوء والتبلور؛ ضمن منظومة المفاهيم العلمية؛ وعلى ضوء الخصائص المادية الملموسة للظاهرة. ولهذا سنقتصر الحديث عن المنعطف الثاني حتى نتبين أهميتها وجدلية تطورها والمكابح التي عرقلتها.

شهد العراق المعاصر، في جميع هذه المنعطفات، صراعات انعكس بجملته على: تغيير أولويات ومعادلات وتوازنات القوى الاجتماعية وتمظهرها؛ وعلى نشاطها الاجتصادي والسياسي والفكري سواءً بالريف وحواضره وقيمه المعيارية؛ أو بالمدينة ومتجاوراتها المؤسساتية التي انبثقت بعد تأسيس الدولة على وفق معاييرها الدستورية (الغربية) التي رسمتها الدولة المحتلة وحققتها ماديا القاعدة الاجتماعية للحكم الملكي (2).

أما ما بعد الاستقلال الشكلي (1932) فتغيرت أوجه الصراع وأنصب على السلطة السياسية الأوليغارشية وصغرها وقاعدتها الاجتماعية، وبرنامجيتها المستقبلية وتحالفاتها الخارجية، فكثرت الانتفاضات الفلاحية في الريف، وفي المدن من قبل الطبقة العاملة الفتية والقوى الشعبية وأحزبها المطالبة بالتغيير الجذري لمجمل الحياة الاجتصادية والسياسية والفكرية ومن أهمها التبادل السلمي للسلطة.. هذه النضالات كانت المقدمات المادية التي تكللت بالنجاح، في ثورة 14 تموز 1958.

من أرأسيات أهداف الثورة الثرية:

تميزت حركة الضباط الأحرار في العراق منذ مطلع الخمسينيات في العراق، بسمة: وجود غائية عامة مستهدفة، كمنت هذه الغائية في صيرورة إسقاط النظام الملكي بالاساس، مع جملة أهداف تبلورت في سياق الصراع الاجتماسياسي درجة نضج الحركة ذاتها. اما ما تبلور من اهداف معلنة، فقد تمت مناقشتها شفاها بعد تشكيل اللجنة العليا للضباط الأحرار. ولهذا يكتنف هذه الغائيات المتبلورة وتلك التصورات المتبناة الكثير من الغموض والضبابية، استناداً إلى ما عرضه الضباط الأحرار أنفسهم أو بالأحرى الاشخاص المحوريون منهم في اللجنة العليا. هذا الغموض مستنبط من: خلفياتهم الاجتماعية والطبقية؛ ومساحات التباعد النفسي بينهم؛ وفضاءاتهم الفكرية المتباينة التي إتسمت بالتناقض التناحري في بعض مفاصلها؛ رغم أن جامعها الأرأس تجسد في البعد السياسي المتمثل بإسقاط النظام الملكي، حيث رأوا فيه استنزافه لذاته، وبالتالي فقدانه لمبررات وجوده الدستوري والسياسي الشرعي وضيق قاعدته الاجتماعية والسياسية وتخلف أهم عناصرها (الاقطاع والارستقراطية التقليدية والكومبرادورية الطفيلية). إذ لم يُعثر على برنامج موحد متفق عليه بين هذه الكتل، ولا حتى عند أعضاء اللجنة العليا، الذين لم يدونوا في حينها، برنامجاً مكتوباً لغائيتهم المستهدفة, وذلك لتحريم كتابة اي شيء بينهم. وأغلب من كتب عن أهداف الحركة بالتفصيل، فأعتقد جازماً، أنها دونت ما بعد الثورة بما فيهم محمد حسين الحبيب الذي

اشار فيها إلى وجود ميثاق وطني يشتمل على المبادئ الجوهرية. وأنا أعتقد أن لا وجود لمثل هذا الميثاق الوطني، وإنما كانت هناك أهداف عامة ومبادئ أساسية.

وهنا ستطرح، الضرورة التاريخية الأسئلة التالية نفسها بقوة: هل فكر ونظم القادة، المحوريون على الاقل، لحركة الضباط الأحرار، في ماهيات أهم الأهداف الغائية المستهدفة لذاتها؟ وإن وجدت فما هي هذه الأهداف؟ بخاصة فإن بعضها، كما اوردها الحبيب، يناقض الفلسفة الحياتية والفكرية لأغلبية قادة اللجنة العليا، حيث انهم متبنون للفكر العروبوي الاسلاموي بصيغته التقليدية؟ وإذا وجد مثل هذا الميثاق فهل تمت مناقشته والاتفاق عليها داخل اللجنة العليا؟ أم كُتبت بعد نجاح الثورة؟ أم انها تم استخلاصها من مطاليب الحركة الوطنية المعارضة؟ وإذا كان بالايجاب، فهل تمت الاستعانة بالقوى السياسية المدنية على بلورتها وطرحها سياسياً؟ وما مدى تطابق هذه الاهداف مع تطلعات الشعب العراقي؟ أم أنها مستوحاة من البرنامجية التي أنجزتها ثورة 14 تموز؟ وغيرها من الأسئلة.

ينفرد محسن حسين الحبيب، دون بقية اعضاء اللجنة العليا للضباط الأحرار (3).. في تحديد ماهيات هذه الأهداف وتلك الغائيات، حسب قراءته اللاحقة، ما يقارب من عشرين هدفاً ضمتها ثلاثة مستويات هي: الداخلية؛ العربية والدولية. هذا الطرح للأهداف، كما اورده الحبيب، يضع الباحث في مواجهة عدة إستفهامات عن مدى مصداقية هذا الميثاق شبه المتكامل للجنة العليا، في وقت كان معظم ضباط المؤسسة العسكرية يعانون من ضعف في مقوماتهم الفكرية والسياسية، علاوةً على كون البرنامج كان أرقى مما سطرته القوى السياسية المؤتلفة بجبهة الإتحاد الوطني آنذاك، في برنامجها المستهدف ذي النقاط الخمس، من حيث: الشمولية والسعة؛ في المدى الآني والمستقبلي؛ بصدد المضامين الاجتماعية والسياسية؛ التحالفات الإقليمية والدولية؛ طبيعة النظام السياسي؛ أوالية (ميكانزم) تداول السلطة.

وهذا لا يسعنا سوى التأمل في ما طرحه الحبيب من برنامج والقول أن فيه: تضخيم كبير للذات المهنوية للضباط؛ وللإيحاء بكونهم قادرين على إستعادة مكانتهم و(دورهم التاريخي) في السلطة؛ ولهم الأولوية في إدارتها، ليس لكونهم يتصرفون بوسائل العنف المادي حسب، بل (لمشروعهم التنموي المفترض!!) ذي الأبعاد الشاملة للمعضلات الاجتصادية/السياسية والثقافية. وهذا الأخير يمثل القاسم المشترك لكافة الحركات الانقلابية في العالم الثالث. لذا ليس من حق بعضهم أن يسطروا مبادئ معينة ويدعون إنها تمثل رأي الكل، فالاستنتاج الذي خرجنا به، بأن هذا مستوحى من عدة مصادر، كما اتصور، وأهمها:

- ما طرحته الحركة الوطنية المعارضة للنظام الملكي وبخاصة من الحزبين ذويّ المنطلق العراقوي وهما: الوطني الديمقراطي والشيوعي العراقي وبقية أحزاب المعارضة العروبية؛
- من البرنامج المتكامل الذي قدمه الحزب الشيوعي لقاسم قبل الثورة (4)؛
- مما طبقته حكومة تموز في الجمهورية الأولى (14 تموز 1958 - 9 شباط 1963).

وتأسيسا على ذلك يحاول محسن الحبيب عضو اللجنة العليا لحركة الضباط الأحرار:

أولاً: الإيحاء بأن هذه الأهداف كانت من بنات أفكار اللجنة العليا, ولو افترضنا ذلك، فأن حكومات الجمهورية الأولى (14 تموز 1958 - 9 شباط 1963) برئاسة الزعيم قاسم قد نفذت أغلبها المطلق وبما يقارب من 85 % من مجموع الأهداف المذكورة (5)؛

ثانيا: أو أن محسن الحبيب، وبصورةٍ لا شعورية، أراد بذكرها بهذا الشكل، إدانة لكل الذين خرجوا على قاسم من الضباط الأحرار وغيرهم، وهو من أولهم، وإستلموا السلطة من بعده ولم يستكملوا بقية الأهداف غير المنجزة والتي مثلت منطلق عدائهم للثورة والمتمثلة في: عدم إستكمال المشوار بالنسبة لحل القضية القومية (الوحدة العربية الفورية)؛ عدم تشكيل مجلس قيادة الثورة؛ عدم تحديد نهاية فترة الإنتقال وتشريع الدستور الدائم.

ثالثاً: يلاحظ على هذه الأهداف, أنها تتعارض مع معتقدات أغلب أعضاء اللجنة العليا، وكذلك ضباط بعض الكتل ذات التوجه القومي أو/ وتلك ذات الولاءات الدنيا المحلية كالكتلة الموصلية، الذين لم يستطيعوا الخروج من محيطهم الضيق وولاءاتهم الحالمة والساكنة، ولم يملكوا الرؤية الكلية، ولا الترابط الجدلي بين الأهداف الداخلية والعربية والدولية.

إني أميل، وبقوة الموضوعية، إلى أن ما سطره الحبيب من أهداف غائية جميعها، كما قلنا، مستقاة مما نفذته حكومات الثورة والزعيم قاسم من برامج عملية على كافة الأصعدة الداخلية والخارجية، وفي المناحي الاجتصادية والسياسية والتربوية الفكرية.. وما أعلنت عنه من مشاريع مستقبلية ونادت به من مبادئ يسترشد بها، ليس كأبعاد نظرية مجردة، قدر كونها برامج عملية نفذت فعلاً وأحدثت إنعطافاً في بنية وتركيبة الواقع الاجتصادي والسياسي والفكري بحيث بمجملها وضعت العراق على سكة الحداثة والتطور.

رابعاً: ومما له علاقة بأهداف حركة الضباط الاحرار، فيوضح النشاط السياسي لقاسم، وهو في اجواء التحضير للثورة من أنه قد طلب المشورة السياسية والاقتصادية والبرنامجية من الحزبين: الوطني الديمقراطي والشيوعي العراقي. إذا اتصل الزعيم قاسم بالحزب الوطني الديمقراطي منذ عام 1956 وطلب منه المشورة، الاقتصادية والسياسية والأكثر من ذلك أخبر الزعيم قاسم، من خلال رشيد مطلك، رسول الثورة، كما اطلقها عليه عامر عبد الله، بأن عدم موافقة الحزب الوطني يعني أنه سوف يكف عن تحقيق التغيير الجذري. بمعنى اشترط موافقة الحزب على القيام بالثورة وتحشيد التأييد الجماهيري لها (6).

أما الحزب الشيوعي فقد اتصل به في صيف 1956 من خلال ذات الشخص، وحاول التعرف على رأي الحزب بالثورة المنتظرة وأهدافها وبرنامجيتها المستقبلية. يسرد الراحل عامر عبد الله القيادي السابق في الحزب الشيوعي ذلك بالقول: "... بعد اختتام اجتماعات الكونفرنس الثاني مباشرة، عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً... وفي هذا الاجتماع قدم سلام عادل لأول مرة تقريراً موجزاً عن الشوط الذي قطعته حركة الضباط الأحرار وموقف الحزب من هذه الحركة وتطور صلاته بها، والدور الذي

يجب أن يلعبه في توحيد صفوفها وتقويم وجهتها وأهمية مساندتها ومساعدتها على الانتصار... وتقرر بالنتيجة تحرير رسالة إلى قاسم تتضمن طائفة من الأفكار والاقتراحات الاضافية وبعض التدابير العملية... اوصلنا نسخة من الرسالة إلى قاسم بواسطة رشيد... كانت من بين مطالبنا ومقترحاتنا التي تضمنتها هذه الرسالة: ضرورة إعلام الحزب مسبقاً بموعد البدء بالحركة والاتفاق على توقيتها؛ الاستمرار بالاتصالات والمشاورات لاختيار الفرصة المناسبة؛ ضمان وجود عبد الإله ونوري السعيد والملك فيصل في العراق لدى البدء في الحركة ... كانت المقترحات التي قدمناها لقاسم برنامجاً متكاملاً تقريباً لسائر أهداف الحركة الوطنية ... ولم أعد استذكر نصوصها الآن . ولكن كان بضمنها: الخروج من حلف بغداد؛ إجلاء القوات البريطانية؛ إلغاء اتفاقية الأمن المتبادل مع الولايات المتحدة؛ وبالتالي تصفية جميع الارتباطات والمواقع الاستعمارية؛ كما تضمنت ضرورة استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي؛ وتوثيق التضامن مع مصر وسورية ودعم القضية الفلسطينية وثورة الجزائر..الخ. وبالطبع جرى التأكيد في المطاليب على إطلاق سراح السجناء؛ وطائفة من المطاليب المتعلقة بتوزيع الأراضي على الفلاحين؛ وتلبية حقوق العمال ومكافحة البطالة؛ وحل مجلس الاعمار؛ وانتهاج سياسة وطنية مستقلة معادية للاستعمار.. كنا نؤكد على حق التنظيم السياسي والنقابي وعلى شرعية الحزب الشيوعي والاحزاب الوطنية الأخرى (7)".

وتأسيساً على ما طرح من الأهداف فإن المنجز منها قد تجاوز هذه الاهداف، بمساحة زمنية طويلة وبسعة اجتماعية شملت الكثير من الفئات والمناطق الجغرافية. ونستطيع، القول بكل موضوعية، إن التغيير الجذري في 14 تموز 1958 قد اعاد انتاج ذاته في سياق تحقيق غائياته وأهدافه وتحول من إنقلاب عسكري إلى ثورة بكل معنى هذا المفهوم. ومن المفروض أن تختلف أية ثورة عن الانقلاب الفوقي في سمات أرأسية هي: المشاركة النشطة للجماهير ومنظماتها بدلاً من سلبيتها؛ استمرارية التغيير مقابل الحدث الواحد؛ تغير في البنية الاجتصادية والسياسية والفكرية؛ وبالنتيجة وضع المجتمع على سكة التغيير المستدام كي يسجل تأريخاً جديداً، حسب المفهوم الهيغلي. وعلى وفق هذه السمات يمكننا إعتبار ثورة 14 تموز كانت تدشيناً لثورة عملاقة. لكن لا يمكن مقارنتها، طبعاً، بالثورة الفرنسية أو الروسية أو الكوبية (8).. التي كان لكل منها سماتها الخاصة.

وعلى ضوء ذلك بإمكاننا تبني رؤية علمية مفادها أن التغيير الجذري في تموز 1958 قد "... دشن سياقا تاريخيا يختلف جذرياً عما سبقه من حيث: نواحي القضايا التي تبنتها؛ القوى المحركة لها؛ والافق التاريخي لمشروعها التحرري..." (9). بمعنى آخر، تختلف ثورة تموز عن المرحلة السابقة لها واللاحقة، تكمن في كل من: ماهياتها وغائيتها الاجتصادية والسياسية؛ القاعدة الاجتماعية المستفيدة؛ نزعتها التحررية؛ برنامجيتها وغائياته؛ وفي طبيعة الطبقة التي قادتها؛ واخيرا في الافق التاريخي لها.. وكان للمنجز من الأهداف، عناوين أرأسية، تحلت بها سلطة 14 تموز وهي:

التوزيع العادل النسبي للثروة الوطنية من خلال الاهتمام بذوي الدخول المحدودة والفئات الاجتماعية الفقيرة؛ الهوية الوطنية العراقية؛ النظام الجمهوري؛ تكافؤ الفرص للمكونات الاجتماعية والقضاء على المذهبية السياسية.

وفي اعتقادنا أن قيادة التغيير الجذري في 14 تموز التي سبق وأن رسمت وخططت لأهداف التغيير قد استوعبت تطابق الضرورة التاريخية مع ظروفها للعراق الملكي، ولهذا كان منطلق ماهياتها السياسية والهوية الجماعية للبلد، على اساس الوطنية العراقوية، وتنطلق من هذه الأولوية في انفتاحها على الانتماء مع الارحب/ الأمة العربية، بغية بناء مجتمع عصري تعددي يجمع وسطيا بين الوطنية والقومية، وإمكانية بناء الدولة على اسس المشاركة التضامنية لأغلب المكونات الاجتماعية العراقية، وقد انعكست هذه الرؤية في الكثير من منجزاتها، التي سأعرضها بصورة مكثفة، في كل من: الاستقلال السياسي؛ سياسة تحرير الاقتصاد العراقي من الهيمنة البريطانية؛ الخروج من الكتلة الاسترلينية؛ تحديث الانماط الاقتصادية الملائمة للتطور والتوجه نحو النظام الرأسمالي الموجه؛ السياسة النفطية والإشراف عليها (تشريع قانون رقم 80؛ تأسيس شركة النفط الوطنية العراقية) (10)؛ اعتماد التصنيع قاعدة للتطور الاقتصادي وشموليته لجغرافية العراق؛ محاربة الاحتكار السياسي لنخبة الحكم؛ محاربة الاحتكار الاقتصادي لعوائل الحكم الملكي وذلك بتوسيع المشاركة في العمليات المنتجة والاستيراد؛ تعديل قانون السلطة التنفيذية ليكن أكثر ملاءمة لصيرورة التطور؛ قانون الاصلاح الزراعي؛ توحيد القوانين والانظمة العامة للمجتمع العراقي من خلال إلغاء قانون دعاوى العشائر؛ التوسع في حقول تقديم الخدمات التعليمية والصحية والخدمية؛ محاولات التخفيف من قانون التطور المتفاوت بين المدينة والريف؛ التوسع في البنى التحتية من مستشفيات وسكك حديدية وطرق وجسور ومطارات وميناء؛ قانون الأحوال المدنية وتعزيز حقوق المرأة؛ سن قانون الجمعيات والاحزاب السياسية؛ محاولات إلغاء الطائفية السياسية؛ تشريع قانوني العمل والضمان الاجتماعي؛ السياسة الضريبية المتصاعدة وقانون التركات بغية الحد من التفاوت في الدخول؛ الثورة التعليمية وتعميمها لتشمل الطبقات الفقيرة والقرى الفلاحية النائية؛ التوسع الكمي والنوعي بالتعليم وبخاصة العالي؛ إزدياد البعثات الدراسية للخارج؛ تأسيس وبناء جامعة بغداد؛ سياسة الإسكان وشموليتها لذوي الدخل المحدود والطبقات الفقيرة في المدن؛ التوسع في استحداث مؤسسات خدمية للمواطنين من مستشفيات ومدارس؛ الثورة الثقافية؛ الإقرار الدستوري للقضية الكردية والحقوق الثقافية للمكونات الأخرى؛ حرية ممارسة الطقوس الدينية والاعتراف لغير المسلمين بمناسباتهم؛ الافتقار النسبي للعنف السياسي الذي ترعاه الدولة؛ الانطلاق من أولوية العراق دون التخندق فيه؛ التضامن العربي ودعم حركات التحرر بخاصة في فلسطين والجزائر وفي الجنوب العربي المحتل؛ نبذ الاحلاف العسكرية؛ تبني سياسة الحياد الايجابي؛ الانطلاق من مصالح العراق في العلاقات الدولية؛ إنجاز مسودتي الدستور الدائم وانتخاب مجلس النواب.

ونرى، أن التركة التي خلفتها ثورة تموز 1958 والتي ابانت عن وجهها الحقيقي الأرأس قد تمثلت في: "... أولا: إمكانية قيام دولة غير طائفية، إذ لم يكن هناك أي تمييز في جهاز الدولة من قبل قاسم أو من المسؤولين رفيعي المستوى ضد جماعة إثنية معينة ... ثانيا: سمحت حقبة قاسم بقدر كبير من الخميرة الثقافية والسياسية لأواخر الأربعينيات والخمسينيات لكي تتمأسس في مجتمع مدني ناشئ... حيث إن التكاثر واسع النطاق للتنظيمات السياسية والثقافية والاجتماعية قد وفر للعديد من قطاعات الشعب الفرصة الأولى لتذوق السلطة... ثالثا: سمح النظام بتكوين بيئة لحراك ثقافي جدير بالاعتبار... اعتبر العديد من المثقفين حقبة قاسم فرصة ضائعة للتسامح وللحرية النسبية في التعبير عن الأفكار... رابعا: تمثلت إحدى أعظم تركات قاسم بسياساته في الإصلاح الاجتماعي، حيث وضع إصدار قانون رقم 80 (11) في كانون الأول لعام 1961 الإطار الذي كان له أن يحدد مفاوضات جميع الحكومات التالية... وعليه فإن قاسم هو الذي أطلق العنان للعملية التي كان لها أن تؤدي إلى التأميم الكامل للنفط 1972. ورغم أن قانون رقم 30 في أيلول 1958 قد سعى إلى تطبيق الإصلاح في ملكية الأراضي الزراعية... ففي الذاكرة التاريخية لم ينفك الإصلاح الزراعي عن الارتباط بموضوعة العدالة الاجتماعية التي كان يلهج بها الحزب الشيوعي العراقي والمنظمات اليسارية الأخرى... وأخيرا: تبقى لدينا تساؤلات تتعلق بالايديولوجيا والسلطة اللتين برزتا في حقبة عبد الكريم قاسم. إن الأحداث التي اكتنفت اندحار قاسم وإلقاء القبض عليه وإعدامه قد أوضحت بأنه، وعلى منوال ما حدث في عامي 1958 و1968 في ما بعد، كانت السلطة تغير من يتوالون عليها بفعل نشاط حفنة صغيرة فقط من الناشطين السياسيين... لم ينشئ قاسم على الإطلاق كادراً من المثقفين العضويين يمكن له أن يشكل ما يدعوه غرامشي (الكتلة التاريخية)..." (12)، (التوكيد منا - الناصري). وهذا ما تجسد في الصراع العنفي، وغير المبرر في الكثير من مفاصله، والكابح لتطور الثورة، بين قوى (الكتلة التاريخية)، كما أعتقد، والمتمثلة بجبهة الإتحاد الوطني. وكان التساؤل حول الهوية الجماعية للعراق والمتمثل في أولوية عروبة العراق أم أولوية عراقية العراق، أحد تجسيدات هذا الصراع الذي قضى في الأمد البعيد على كِلا الطرفين.

محاولة أولية في نقد المرحلة:

وحتى نستكمل الموضوعية، فلابد من إلقاء الضوء على التفاعلات والتناقضات والكابحات التي نجمت عن الثورة وطبيعتها وكذلك عن ماهيات إدارتها وسياسة الزعيم قاسم وموقفه وما شابها من نواقص. عندئذ لابد من التنويه من أن "... هذه النواقص يجب النظر إليها على ضوء الإنهماك الكبير بالصراع السياسي الداخلي والخارجي. فالمؤامرات مستمرة وسيل الدعاية المعادية من الإذاعات الخارجية تعكس تيارات عقائدية متضادة من جهات مختلفة وتخلق جواً من عدم الثقة وعدم الإطمئنان ، كثيرا ما تحول الإهتمام من الأعمال البناءة وإعمار التطوير الداخلي... " (13). من هذا الكوابح

ما يتعلق بـــ :

- ما أثاره الصراع بين التيارين الأرأسين وهما: العراقوي والعروبي، الذي كبح العديد من صيرورات البناء والتغيير وفتح الباب إلى التدخل الاجنبي نتيجة تبني سلطة تموز مبدأ الوطنية العراقية، بإعتباره منطلق لقيادة التغيير الجذري في ماهياتها السياسية، وكي تصبح اداة للصيرورة التي تحقق ذاته في افقه التاريخي والقضايا التي تبنتها، وتنطلق من هذه الأولوية في الانفتاح على الانتماء مع الارحب/ الأمة العربية، بغية بناء مجتمع عصري تعددي يجمع وسطيا بين الوطنية والقومية، وإمكانية بناء الدولة على اسس مشاركة اغلب، إن لم تكن كل المكونات الاجتماعية العراقية.

- كما لعب الصراع بين مكونات القوى السياسية للقاعدة الاجتماعية العراقوية التوجه، التي تَمَثل في عدم الإلتئام والإلتقاء الفكري والسياسي المنتظر بين القوى العراقوية ذاتها، رغم ضرورته الموضوعية والذاتية، وبينها وبين قيادة التغيير الجذري المتمثلة بالتحديد بالزعيم قاسم، وبعض القيادات السياسية للقوى الاجتماعية الحية، ورموزها السياسية، واعني في هذه الدراسة بالتحديد كامل الجادرجي والحزب الوطني الديمقراطي ورئيسه، الذي مَثَلَ، وبقية زعامة القوى العراقوية المُنطلق، جزءا مهماً وأساسياً من القاعدة الاجتماعية لذات التغيير الجذري من النواحي الفكرية والسياسية؛ كما مثلت ماهيات القاعدة الاجتماعية لهذه القوى الغائية المستهدفة من فعل التغيير الجذري ذاته؛ ولأنها الأكثر تمثيلا للتنوع الاجتماعي العراقي؛ والأكثر انعكاساً للذات الثقافية العراقية المتنوعة؛ وتمثل هذه القوى الاغلبية المطلقة للشعب العراقي نوعياً وعددياً.

- (فلو) توحدت القناعات الفكرية الأرأسية والرئيسية، على قاعدة: النسبية المشتركة؛ الممكن والمتاح وليس المتمنى البعيد؛ وإخضاع المتطلبات الذاتوية؛ والطبقية غير المتبلورة؛ والسياسية غير المترسخة؛ والحزبية الهائمة ذات البعد الفوقي؛ والرؤية الفكرية الأحادية غير واضحة الملامح؛ وتلك المتعلقة بوحدانية التمثيل الضيقة؛ إلى المصلحة الجمعية؛ وبوتقتها للمتطلب الأوسع والأرأس وهي المصلحة الوطنية العراقية في إمتدادها العربي، وبخاصة في الظروف الانتقالية العامة؛ وما تسمح به ظروف الصراعات الاجتماعية الداخلية.

- وتمثل العامل السببي الآخر في الضغط الذي مارسته الطبقات الدنيا، وهي على صواب، بغية الإرتقاء بذاتها الاقتصادية والتعليمية والخدمية، أي ضغط الطبقات الاجتماعية التي يقودها الحزب الشيوعي والقوى التقدمية الأخرى والتي تُعتبر غائية مستهدفة بين سلطة تموز وقوى اليسار، وتعتبر من أهم عناصر القاعدة الاجتماعية لسلطة تموز التي حكمت لهؤلاء ولكن لم تحكم بهؤلاء.

- وهناك أيضاً الحقيقة الأساسية جداً، وهي أن "... الثورة بنسفها بنية السلطة القديمة والتركيبة الطبقية القديمة، أخلت بالتوازن الدقيق القائم بين المجتمعات العرقية والطائفية المختلفة في العراق، وأساساً بين العرب والأكراد وبين الشيعة والسنة، والناجم عن عدم التساوي في التطور الاجتصادي لهذه المجتمعات أساساً..." (14)، كانت من أهم العوامل الكابحة لتعمق التغييرات الجذرية في الوجود الاجتماعي المستهدف. كما أن

ظروف الصراع الداخلي والخارجي أثرت سلباً على عدم بناء مستلزمات هذا الوجود حسب فلسفة سلطة تموز التقدمية.

- لقد أبطأت ظروف الصراع الاجتماعي، ورغبة بعض القوى السياسية، من صيرورة التحول البرلماني، والتداول السلمي للسلطة بين الطبقات وقواها السياسية، وكذلك سن الدستور، بعد أن هدأت نسبياً فورة الصراع السياسي الداخلي وعدم سيطرة قوة سياسية واحدة وحدها على الشارع السياسي وبسط نفوذه على كل مكونات المجتمع والموحد المتنوع ومنظماته الاجتماعية والمهنية. وإصدار العفو على منتسبي الحركة الكردية، ورغبة قاسم في تشكيل حكومة تمثل جميع الأحزاب السياسية، وغيرها من الأجواء، كما نعتقد، لكن الظروف الإيجابية المساعدة اقنعت سلطة تموز بالذهاب إلى البرلمانية كشكل للمؤسسة السياسية. لهذا أعلن الزعيم قاسم في الخامس من شباط 1963، أن الدستور سيشرع وولادة الحياة البرلمانية ستكون في شهر تموز من عام 1963. لكن انقلاب شباط أجهض هذه المحاولة (15).

أما الظروف الذاتية للقيادة السياسية متمثلة في كون الزعيم قاسم محورها الأرأس، بعد أن وضعته الماهيات التغييرية بشكل متميز وإستثنائي، في دور الوسيط في المجال الحيوي للعلاقات المتبادلة بين الطبقات والفئات الاجتماعية والمهنية وحل صراعاتها، المستنبط من فلسفته الوسطية. هذا الموقف عانى من جملة من الظواهر الكابحة لتطور الذات التغييرية بتوجهاته التقدمية، في مجتمع تصعب إدارته ولتعدد مشاكله ذات البعد التأريخي، منها مثلا: كانت إدارة الزعيم قاسم للعملية السياسية تُمارس في العديد من المواجهات العملية وتسلك طرقاً ويتبنى حلولا كان مجبرا على تطبيقها وتحمل نتائجها في زمن لا تكون فيها الظروف قد أنضجت عللها أو مسببات حلولها، أو قد يدخل معارك لم يسمح له الوقت على مواجهتها، وفي بعض الأحيان تخلق له مشاكل مصطنعة ومبوصلة بغية كبح جماح وعقر مستلزمات صيرورة التغيير. وعليه لهذا فإن إدارة العملية السياسية، إيجابياً أو سلبياً، بعد الثورة يمكن أن نرجعها، حسب إجتهادنا، إلى الظروف والعوامل التالية: بعضها مما له علاقة بمنظومة مكونات الزعيم قاسم الفكرية؛ من ردود أفعال صراع القوى السياسية؛ مما اجبرته الظروف الواقعية على القيام به؛ من الواقع الموروث السيسيولوجي الثقافي العام؛ ثقل العوامل وتناقضاتها الأساسية التي مسكت بلحمة الواقع؛ ومن صراع المراكز الرأسمالية مع السلطة الوطنية؛ كما إن بعض هذه المعوقات هو نتاج طبيعي وموضوعي لحكم الطبقة الوسطى بفئاته المتعددة والتي هي في طبيعتها ليست متجانسة ولا متناغمة ولا موحدة.

- ويمكن أن يشار إلى سبب مباشر في كبح درجة المنجز، إلا وهو عظم وسعة وعمق المسؤولية التي أخذت الثورة على عاتقها لتحقيقها، وكل منها يتفرع بذاته إلى مشاريع، منها: إعادة تغيير أسس ومبادئ الدولة وبنائها على وفق الفلسفة الجديدة للثورة؛ تطوير القاعدة المادية للانتاج الاجتماعي؛ تغيير العلاقات الاجتماعية والفكرية والتعليمية؛ رفع مستوى الفقراء وذات الدخل المحدود؛ ربط الريف بالمدينة وإلغاء ما أمكن من قانون التفاوت بين المدينة والقرية؛ تبني

سياسة الحياد الإيجابي تنطلق من المصالح المشتركة، وغيرها من المهام ذات الطبيعة الاجتصادية والصحية والتعليمية والخدمية وبناء المساكن.

- كان الزعيم قاسم يرى في ذاته تمثيل الكل، وهذه إحدى دعائم طوباويته الثورية التي غذتها ثقافته العسكرية، والموروث الفلسفي والاجتماعي والثقافي. لأنه كان ينظر إلى التكوينات الاجتماعية ويقيسها بالهوية الوطنية دون تعمق في اختلاف مصالحها وتناقض رؤاها. إن تكرار الأنا هي ليست سمة الزعامة السياسية لقاسم، بل هي سمة عامة لكل الزعماء السياسيين أو الممثلين للطبقات الاجتماعية. إذ أن قائد أي مجموعة من الناس يشعر بتضخم الذات مع الاختلاف في النسب. فالقيادة بحد ذاتها هي قمة عالية ورؤية المهام الجمعية المستقبلية ستكون ليس كما يتصورها أو يراها القابعون في وادي الطاعة والتنفيذ.

- اعتمد الزعيم قاسم في تحقيق أهدافه الجديدة على الكثير من أدوات السلطة القديمة وبخاصة في الأجهزة الأمنية والإستخبارات العسكرية وكبار منفذي قرارات السلطة التنفيذية، الذين تظاهروا بالولاء الشكلي لمشروع الثورة، وفي أحسن الأحوال الوظيفي البحت.. ما أدى إلى كبح المنجز المستهدف. وهذا ما كشفته ممارسة الأجهزة الأمنية في محاربة أحزاب القاعدة الاجتماعية لسلطة تموز وأحزابها.

- أبطأ إدارة الزعيم قاسم من استكمال إعادة بناء مؤسسات المجتمع المدني المتلائمة وطبيعة المرحلة الجديدة والمضامين الفكرية للسلطة الجديدة وفلسفتها وقواها الاجتماعية وتطلعاتها المستقبلية. كما أن هذه المنظمات الجديدة لم يستكمل وعيها الاجتماعي بتجلياته الفلسفية والسياسية والقانونية بسبب عمق الإشكاليات والصراعات التي كبحت إستكمال تطوير ذاتها.

- لم يكمل مشروع الثورة مشواره بصدد حل المشكلة القومية للأكراد إلى نهايتها المنطقية وتجسيدا للإقرار الدستوري الذي سنته الثورة في المادة الثالثة من الدستور المؤقت، وذلك من خلال تحقيق الحكم الذاتي. حيث ساهمت قوى عديدة في إجهاضه بمن فيهم بعض الأطراف القيادية في ذات الحركة التحريرية وأيضاً المحيطين بالزعيم قاسم، ودول الجوار والمراكز الرأسمالية.

- سياسة ردود الأفعال التي أتبعها الزعيم قاسم، قد أخذت دورها في إحتوائه ومشروع الثورة، مما أدى إلى ممارسة سياسة غير مخطط لها، رغماً عنه، وفي أن يصبح هو كذات في مركز الصراع الاجتماسياسي الذي أختزل إلى طرفين متناقضين عمودياً وأفقياً، كان هو يمثل أحد قطبيه المستند إلى أكثرية شعبية، والقطب الآخر مثله المناهضون على تعدد مسمياتهم وقاعدتهم الاجتماعية الضيقة. وكان الأخطر من نتائج سياسة ردود الأفعال، إن إدارة قاسم للصراع الاجتماسياسي كما يبدو متذبذبة، في حين أن مضمونها الحقيقي ينبئ عكس ذلك.

- لم تكن القاعدة الاجتماعية لسلطة تموز موحدة، كما لم تكن متجانسة فكرياً، إن لم تكن في الكثير منها في حالة تصادم. نظراً لتنوعها وتوزعها على فئات اجتماعية متناقضة لمصالح والأهداف ومختلف أواليات (ميكانزمات) تحققها، كما كان الزعيم قاسم فاقداً لأولوية توحيد مسارات التوجه للقاعدة الاجتماعية المساندة لنظامه وقواها السياسية.

الهوامش

1 - لقد خضع العراق المعاصر لثلاثة احتلالات: الأول 1914 - 1932؛ الثاني 1941 - 1947، والثالث 9 نيسان -2003 31 كانون اول 2011.

2 - من خلال دراستي لواقع العراق السياسي، توصلت إلى إستنتاج أرأس قوامه أن القوة المتحكمة بالقرار المركزي للسلطة الملكية، كان مثلث الحكم المتكون من: مؤسسة العرش، السلطة التنفيذية (الوزارة) وقوى الإنتداب لحد عام 1932، أما بعدها فقد كانت السفارة البريطانية.

3 - راجع حقائق عن ثورة 14 تموز في العراق، الأندلس 1981، المكان بلا.

4- عامر عبد الله، خواطر وذكريات، بمناسبة الذكرى الـ 25 لثورة تموز المجيدة، (الثقافة الجديدة)، العدد 144، تموز 1983.

5- حسن العلوي, عبد الكريم قاسم, رؤية بعد العشرين, ص125 - 148, دار الزوراء, لندن 1983.

6- راجع للمزيد: محمد حديد، مذكراتي، الصراع من أجل الديمقراطية في العراق، دار الساقي بيروت 2006.

7- عامر عبد الله، خواطر وذكريات، ص 18، مصدر سابق.

8- للمزيد راجع: اليعازر بعيري، ضباط الجيش والسياسة، ص175، مصدر سابق.

9- كامل شياع، هل طوت ثورة 14 تموز فصلها الأخير، (الثقافة الجديدة)، العدد310، ص, 55، بغداد 2003.

10- وقع الزعيم قاسم على قانون تأسيس شركة النفط الوطنية يوم 8 شباط.

11- يقول حسن العلوي: "... حدثني العلامة مرتضى العسكري (87 عاما) أثناء زيارتي له في لندن يوم 30 حزيران 1990، أن وزيرا من وزراء عبد الكريم قاسم أخبره بعد صدور قانون رقم 80، بأن رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم بدأ جلسة مجلس الوزراء المخصصة لمناقشة وإصدار قانون النفط رقم 80 بقوله: تعالوا نوقع على الحكم بإعدامنا ثم وقع ووقعنا بعده...". العراق، دولة المنظمة السرية، ط 3، ص 26، الشركة السعودية، جدة، التاريخ بلا.

12- إيريك ديفيس، مذكرات دولة، ص 231-228، ، ترجمة حاتم عبد الهادي، المؤسسة العربية، بيروت 2008.

13- أديث واي، أف. بينروز، العراق دراسة في علاقاته الخارجية وتطوراته الداخلية 1965-1915، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، ص 456، ج. 1، العربية للموسوعات، 1989.

14- حنا بطاطو، الجزء الثالث، ص 117، مصدر سابق.

15- يذكر عبد اللطيف الشواف: "... أما الدستور الدائم فقد طلب مني قاسم في أول 1963 دراسته ووضع مشروعه ومسودة حوله، ويبدو أنه قد طلب من وزارة الداخلية إعداد مشروع مواد أولية للدستور بالاستعانة بصيغ الدساتير الأخرى القريبة إلى النظام القضائي العراقي والمعروفة في العراق آنذاك، وقد وضعت لجنة من وزارة الداخلية نصوص الدستور... ويبدو أن هذا المشروع ودراستي القاصرة عن السلطة القضائية وربما غيرها كانت على مكتب المرحوم عبد الكريم قاسم عند القبض عليه في وزارة الدفاع ثم قتله في شباط 1963... ". المصدر السابق، ص 110.

المسار السياسي لثورة تموز: الحدث والدلالة

د. سامي خالد

لا تزال ثورة تموز بعد ستين عاماً مثار جدل واسع واهتمام كبير حول الحدث ودلالاته، ودور الجيش والضباط الأحرار وتأثيرهم في مساره، ومواقف الحزب الشيوعي العراقي وسياساته وطريقة تعاطيه مع التطورات المتلاحقة، واشكاليات التحول الديمقراطي والمآل الذي وصلت اليه الثورة.

قضايا كثيرة، اسئلة وآراء ومواقف متنوعة، كلها تدل على ان الثورة تركت بصماتها على مجمل الاوضاع والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تلت الحدث طوال العقود الستة المنصرمة.

تتمثل اشكالية الدراسة في طبيعة التعقيد والتشابك الذي تميز به المسار السياسي للثورة. وتؤكد الفرضية التي اسعى الى اثباتها، على ان 14 تموز، ثورة سياسية اجتماعية حققت منجزات هامة ولكنها لم تكتمل جراء الانتكاسة التي تعرضت لها في العام 1963 اثر انقلاب 8 شباط، مما ادى الى اجهاضها. ولم يكن ذلك المآل قدراً محتوماً، بل كان يمكن مواصلة مسارها اذا ما تمت تهيئة المستلزمات الضرورية لذلك.

سأقف باختصار عند عدد من القضايا والاشكاليات، مع التركيز على الجانب السياسي، دون اغفال تربطه مع الميادين الاخرى، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

(1)

لم تكن ثورة تموز حدثاً صدفياً عابراً، بل هي نتيجة لتوفر ونضوج مجموعة عوامل موضوعية وذاتية تراكمت منذ نشوء الدولة العراقية في العام 1921 واتضحت بصورة اكبر بعد الحرب العالمية الثانية، وما افرزته من تلك التطورات من تدهور شامل في مختلف جوانب الحياة.

فعلى الصعيد السياسي تميز البلد بحالة عدم الاستقرار وقمع الحريات وانتهاكات واسعة لحقوق الانسان. وعلى سبيل المثال لا الحصر، اعلنت الأحكام العرفية (16) مرة خلال الفترة 1920 1958 ونفّذت حملات الاعتقال والاعدام بحق الوطنيين وقادة الحزب الشيوعي العراقي.

أدى تدهور الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الى اشتداد التناقض بين عموم الشعب وقواه الوطنية من جهة، وبين الاستعمار والاقطاع والفئات الحاكمة من

جهة اخرى، وتجلى ذلك في التظاهرات والاضرابات والانتفاضات المعادية للنظام السياسي. وجاء تصاعد النضال الشعبي في انتفاضات 1948 و1952 و1956 تعبيراً عن السخط المتعاظم ورداً على الظلم ورفضاً للحكم الملكي وسياساته.

تميزت الفترة التي سبقت الثورة بالعديد من النضالات الوطنية والطبقية التي شكلت مقدمات الثورة، وساعدت على استكمال ونضوج الظروف الذاتية لها. وقد لعبت القوى الوطنية، وخاصة الحزب الشيوعي العراقي دوراً بارزاً في تلك النضالات والتي قادت الى اوسع تعبئة جماهيرية في المعركة ضد الملكية والاستعمار.

من هنا يمكننا القول ان الثورة جاءت ثمرة لعقود من التطورات والتفاعلات والنضالات على كافة الصعد، ولتراكم فعل ثوري اقترن بحركة سياسية منظمة. وبالتالي فالامر ليس، كما يدعي بعض الباحثين، مثَل حالة عفوية او صدفة عابرة او خطأ في لحظة من تطور التاريخ. ففي مثل تلك الآراء اختزال للحقائق وتشويه لمجرى الاوضاع وما افرزته من تناقضات عاشها العراق في كافة الميادين.

ومن الجدير بالتوقف هنا عند ما ذكره الباحث المعروف حنا بطاطو في كتابه (العراق – الطبقات الاجتماعية القديمة والحركة الثورية): "لم تكن الثورة نتيجة لانقلاب خطط له الضباط الاحرار، بل تظهر حدة الصراعات التي خاضها جيل كامل من الطبقات الوسطى والدنيا والعاملة، وتراكم اتجاه تمردي راسخ بعمق، تجلى في مظاهر متعددة خلال الاعوام 1936، 1948 ،1952، 1956".

(2)

كان لإسهام الجيش والقوات المسلحة دور متميز في التهيئة للثورة ولنجاحها، حيث مثَلت الثورة التعبير الواعي عن التلاحم بين الجيش والشعب. هذا التلاحم الذي شكَل ضمانة الانتصار.

وقد نجحت القوى الوطنية في التأثير على القوات المسلحة وتثقيفها بالروح الوطنية من اجل الخلاص من الحكم الملكي. وتشكلت عدة تنظيمات عسكرية، ابرزها اللجنة العليا للضباط الاحرار واللجنة الوطنية لاتحاد الجنود والضباط. ورسم الضباط الاحرار الخطط العملية للثورة، وقادوا القطعات المسلحة فجر الرابع عشر من تموز، ونفذوا التوجهات المتفق عليها، مما ساعد في انجاز المهمة المرسومة بنجاح. وعشية الثورة، وتحديداً في الحادي عشر من تموز 1958، ارسل عبد الكريم قاسم رئيس اللجنة العليا للضباط الاحرار، رشيد مطلك الى الحزب الشيوعي العراقي ليخبره بموعد الثورة. كما جرت اتصالات مماثلة مع القوى المشاركة في جبهة الاتحاد الوطني.

دلَت ثورة تموز على ان الجيش يمكن ان يلعب دوراً وطنياً ينسجم مع تطلعات الشعب وطموحاته في التحرر والتقدم. وان القوات المسلحة تتلمس معاناة الشعب وهي جزء منه، ويمكن ان تكون يداً بيد مع القوى الوطنية الساعية للتغيير.

وطوال السنوات بعد اخفاق الثورة، سعت الدكتاتوريات الحاكمة الى عزل الجيش عن الشعب وايجاد تشكيلات بديلة جديدة واذلال الجيش وزجه في حروب وغزوات وقمع ضد العراقيين.

واكدت التطورات اللاحقة بعد 2003 التأثير السلبي للقطيعة بين الجيش والشعب، مما وفر فرصة للارهاب باحتلال الاراضي والمدن العراقية. وجاء الانتصار على داعش في ظل الدعم الشعبي للجيش والقوات المسلحة.

إنه ذات الدرس الذي قدمته ثورة تموز ويتأكد في مجرى الاحداث والوقائع. مما يتطلب العمل على بناء جيش قوي موحد على اساس العقيدة الوطنية وبعيداً عن الولاءات الضيقة وحصر السلاح بيد الدولة.

(3)

أهمية الاعتماد على الشعب في عملية التغيير والربط السليم بين العوامل الداخلية والخارجية. فمثل هذا الاستنتاج ليس مجرد شعار سياسي بل خلاصة لتجربة طويلة في مختلف مراحل الكفاح التي خاضها الشعب العراقي.

فنجاح أي تغيير ثوري يستند، كما اثبتت ثورة تموز، على العامل الداخلي بالدرجة الاولى، دون اغفال دور العامل الخارجي وتأثيراته في المجالين الايجابي والسلبي. ومسار تطور الاحداث خلال الثورة وبعد انتكاستها وحتى يومنا هذا، أكد ويؤكد الدرس البالغ الذي صاغته تجربة 14 تموز والمنطلق من كون: العامل الداخلي هو الحاسم والمقرر في عملية بناء واستقرار الدولة.

ولا يحتاج المرء الى عناء كبير لكي يستخلص، ان واحداً من اهم اسباب انتكاسة ثورة تموز يكمن في استصغار العامل الداخلي واستبدال ذلك بالتعويل على القوى الخارجية المستندة الى سياسة التآمر والتدخل في الشؤون الداخلية. ودلت الوقائع على ان الانقلاب العسكري في 8 شباط عام 1963 جاء بدعم خارجي، امريكي بالدرجة الاولى.

ان تجربة العقود المنصرمة من منذ ثورة تموز وكذلك ما بعد 2003 تؤكد من جديد خطل العويل على العامل الخارجي مثلما تؤكد على خطل عدم اخذه بنظر الاعتبار. إلا ان بين الاثنين فارقاً كبيراً ينبغي اخذه بالحسبان. وهذا الاستنتاج يحتفظ بحيويته اليوم خاصة مع اشتداد وتنامي التدخلات الاقليمية والدولية في الشأن العراقي.

وها نحن اليوم، بعد 60 عاماً على ثورة تموز، شهود عيان على حجم تلك التدخلات بصور مباشرة (عسكرية) وغير مباشرة (سياسية ومالية واقتصادية وامنية) وخضوع وارتهان وتبعية قوى داخلية لتلك الدول على حساب المصلحة الوطنية. وكل ذلك ترك ويترك اثاراً سلبية ليس فقط على وحدة واستقلال الدولة العراقية وانما ايضا على أمنها واستقرارها وازدهارها.

(4)

اسهمت التحالفات الوطنية والسياسية بدور اساسي في التهيئة للثورة وفي انتصارها. ومثُلت جبهة الاتحاد الوطني المنبثقة عام 1957، القاعدة السياسية للثورة، ونجحت في تعبئة الجماهير وتحولت الى قوة شعبية فاعلة. ورغم انتكاسة الجبهة فانها حققت هدفها التاريخي وبررت ضرورة قيامها.

أكد هذا الشكل المنظم من التعاون فعاليته وجدواه من خلال نجاح الثورة التي بينت، ان الوحدة شرط الانتصار. وبهذا الصدد يقول الدكتور ابراهيم كبة في كتابه (هذا هو طريق 14 تموز): "اما اسقاط النظام القديم

وبناء النظام الجديد، فقد بدأت شروطه في تأليف جبهة الاتحاد الوطني في بداية عام 1957، بعد مخاض طويل وعسير. وعندما تم الاتصال بوسائل مختلفة بين عناصر الجبهة ومنظمات الضباط الاحرار لغرض تفجير تلك الثورة العظيمة".

ان الدرس البالغ الدلالة من تاريخنا المعاصر يقودنا الى الاستنتاج القائل: ان انتصارات الشعب العراقي اقترنت بوحدة قواه الوطنية، وان الانتكاسات ارتبطت بغياب تلك الوحدة وبسيادة حالة الفرقة والتشتت. فالجبهة الوطنية في الوقت الذي هي اطار للتحالف بين قوى سياسية وفكرية مختلفة، فهي ايضاً ميدان للصراع بين القوى المتحالفة، وهي تتطور وتتعمق من حيث الاهداف والتركيب الاجتماعي والسياسي من خلال هذا الصراع والتباين الذي لا يمكن للعملية السياسية ان تتطور بدونه.

ودلت تجربة جبهة الاتحاد الوطني على ان قوة الجبهة وتحويلها الى اداة سياسية لتأمين الانتصار تكمن في استعداد احزابها المؤتلفة لمواصلة النضال من اجل تحقيق الاهداف المشتركة التي تم الاتفاق عليها والانتقال الى اهداف اكثر جذرية. ومن الجدير بالاشارة، ان ميثاق جبهة الاتحاد الوطني رغم اهميته، لم يحتوِ على برنامج اجتماعي متكامل لمرحلة ما بعد قيام الثورة. فالقوى الوطنية المشاركة في الجبهة لم تتفق على برنامجٍ لاحق لتطور الثورة.

انطلاقاً من ذلك نقول: تكتسب قضية التحالفات اهمية راهنة من كون الدروس التي قدمتها ثورة تموز 1958 تحتفظ بحيويتها اليوم؛ حيث يكافح الشعب العراقي من اجل الديمقراطية والكرامة والحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

فالسنوات ما بعد 2003 اكدت من جديد اهمية دروس ثورة تموز في التحالفات. الا ان الطابع العام لتلك التحالفات تميز بالعجالة والتكتيكية والآنية المرتجلة. انها تحالفات تنعقد اليوم لتنفرط غداً. ولم تتعلم القوى السياسية الدرس بعد، رغم مرور ستين عاماً على الثورة. وهذا يتطلب تكريس الجوانب الايجابية واعتماد منطلقاتها العامة كأساس لتحالفات جديدة تمتلك مقومات الديمومة والفعل والتأثير.

(5)

لعل من اهم الدروس التي قدمتها ثورة تموز على صعيد المسار السياسي، يقترن بأهمية تقليص الفجوة بين الشعار والممارسة، كون ذلك يشكل حجر الزاوية في السياسة.

فالشعارات التي رفعتها الغالبية العظمى من القوى السياسية قبل واثناء الثورة ساعدت في تحديد التوجه الاجتماعي والسياسي للثورة، الا انها من جانب اخر لم تتحقق. واصبحت الخلافات والصراعات بين القوى السياسية عاملاً سلبياً كابحاً لتطور الثورة. فالقوى القومية ارادت حصر الثورة بمنظارها الضيق، بعيداً عن مصالح الشعب والوطن، وعملت على تأجيج الخصومات واثارة التوترات عبر رفع الشعارات الفورية غير المدروسة – الوحدة الفورية مع مصر – والتلاعب بالمشاعر القومية. واستند نهجها بالاساس على اسلوب التآمر وتبرير المحاولات الانقلابية والاغتيالات السياسية والانجرار وراء الصراعات الثانوية على حساب القضايا الاساسية الشاخصة امام الثورة.

أما القوى السياسية الممثلة للبرجوازية

الوطنية التي استلمت مقاليد السلطة، فقد عجزت عن السير بالثورة الى الامام بفعل طابعها المتناقض، فهي معادية للامبريالية من جهة، وتخشى الحركة الديمقراطية والتحولات الاجتماعية من جهة اخرى. لذلك فقد وقفت بقوة ضد تجذير الثورة وسعت لعرقلة توجهها الديمقراطي. وطرأ نتيجة لتلك السياسة تغير في موازين القوى الطبقية والسياسية وتحول موقعها من قوى محركة للثورة الى معيقة وكابحة لها.

واشارت وثائق المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي العراقي الى جوانب القصور في سياسة البرجوازية الوطنية: ''التي اصبحت الطبقة الحاكمة لاول مرَة في العراق، فقد استطاعت ان تحد من تقدم الثورة، وتحبسها ضمن افق البرجوازية الطبقي الاناني، وان تحتكر السلطة السياسية مستغلة محاولات الفئات القومية للاستيلاء على السلطة والاستئثار بها ''.

(6)

اثارت سياسة الحزب الشيوعي العراقي إزاء الثورة قبل واثناء قيامها وبعد انتكاستها الكثير من الجدل، فالحزب يتحمل قسطه من المسؤولية سواءً في انتصار الثورة او في انتكاستها .

خاض الحزب نضالاً بطولياً من اجل قيام الثورة وتعزيز منجزاتها ونبَه الى المخاطر المحيقة بها وقدم التضحيات الجسام دفاعاً عنها. الا انه وقع في عدة اخطاء تركت اثارها السلبية على الحزب نفسه وعلى مسار تطور الثورة ومن بينها: التحليل غير الدقيق لموازين القوى وعدم اعتماد السياسات واتخاذ الاجراءات الملائمة في الوقت المناسب، خاصة ما يتعلق بالموقف من البرجوازية الوطنية والسلطة الفردية للزعيم عبد الكريم قاسم، حيث لم يجرِ اعتماد الموقف المناسب والرصد الدقيق للطبيعة المتناقضة للبرجوازية الوطنية. وبدلاً من العمل الجاد لاحداث تحول جذري في النظام السياسي، اكتفت قيادة الحزب بنقد الظواهر السلبية وفق قاعدة كفاح – تضامن. يضاف الى ذلك نلحظ تعويل الحزب على عبد الكريم قاسم والمغالاة بدوره. وهذا الموقف اربك سياسة الحزب الذي أمّن القاعدة الجماهيرية لسياسة قاسم المتذبذبة.

فالسياسة – على حد تعبير لينين – ''يجري تقييمها ليس بموجب التصريحات، بل بموجب المحتوى الطبقي الواقعي'' .

كما لم يجر التفهم السليم لحقيقة ان المصالح الطبقية الاساسية تتشكل بالمقام الاول في مجال الحياة الاقتصادية.

لقد شخص الحزب الشيوعي بشكل صائب التناقض بين دور القوى الشعبية وطبيعة وتركيب السلطة السياسية، ولكنه لم يحدد ولم يعتمد الاسلوب المناسب لحل ذلك التناقض لصالح الشعب مكتفياً بشعار المشاركة في السلطة دون الدراسة المعمقة لذلك القرار والشروط المناسبة له.

كما لم يؤخذ بصورة جدية، التشخيص الصائب الذي قدمه الشهيد سلام عادل في اجتماع اللجنة المركزية الموسع والمنعقد في ايلول 1958 والذي عبّر فيه عن مخاوف جدية ازاء تطور الاوضاع حيث اكد: ''ان السلطة القائمة التي اسفرت عنها ثورة 14 تموز الظافرة، سلطة برجوازية وطنية ثورية تمثل مختلف فئات البرجوازية الصغيرة والوسطى والكبيرة . انها لا تمثل

كافة القوى الوطنية. ومن هنا نجد التناقض، بين واقع ان القوى القائدة للحركة الوطنية والمساهمة فيها هي قوى العمال والفلاحين والبرجوازية الوطنية، وبين واقع القوى التي اخذت بيدها زمام السلطة اثر ثورة تموز هي البرجوازية الصغيرة والمتوسطة".

"ان هذا التناقض هو السبب الرئيسي الذي يؤدي الى ايجاد وتعميق الخلافات داخل الحركة الوطنية ذاتها وبين الاحزاب والفئات الوطنية. ومن الخطأ اعتبار هذا الوضع – وجود هذا التناقض – امراً طبيعياً، كما لا يصح الاستسلام له والوقوف مكتوفي الايدي تجاهه. انه يمس صميم الاتجاه الوطني الشعبي السليم لجمهوريتنا الفتية. ان بامكاننا، بالاستناد الى تعبئة الجماهير، تخفيف هذا التناقض ومن ثم ازالته الى حد بعيد".

ان هذا التشخيص الدقيق الذي صاغه سلام عادل للاوضاع لم يترجم في ممارسة سياسية، ناهيكم عن كونه لم يصبح موقفاً رسمياً متكاملاً للحزب. وقد شخصت وثيقة التقييم الصادرة عن الكونفرنس الثالث للحزب الشيوعي العراقي هذا القصور بجرأة القول: " كان ينقصنا الاتجاه الثوري المبرمج والمتكامل لتطوير الثورة الوطنية الديمقراطية في اخراجها عن الاطار الضيق، الذي فرضه قاسم والبرجوازية الوطنية من ورائه، ودفعها الى امام لتحقيق اهدافها الاساسية ولاسيما الاصلاح الزراعي وبالطريقة الثورية، اي عن طريق الجماهير الشعبية ومن خلال تهيئتها وتعبئتها سياسياً لاقامة نظام دولة ديمقراطي ثوري".

كما توقف برنامج الحزب الشيوعي الذي اقره المؤتمر الثاني عام 1970 عند هذا الامر بالقول: "لقد كان على حزبنا في الوضع الثوري الذي بدأ في 14 تموز 1958، ان يواصل النضال على رأس الجماهير الثورية لتغيير الحكومة واقامة حكومة ديمقراطية ثورية تمثل الاحزاب والقوى الوطنية التي يعنيها انجاز الثورة الوطنية الديمقراطية دون اي تساهل في تحقيق هذا الشعار المركزي" .

ومثلما اشرنا فان هذه الاخطاء قد انعكست سلباً على دور الحزب الشيوعي وتأثيره في مجرى الاحداث. ورغم كل تلك الاخطاء ظل الحزب في طليعة قوى النضال من اجل الدفاع عن الثورة ومضمونها الاجتماعي. ووقف الحزب بشكل انتقادي جريء وملموس ازاء اخطائه والثغرات في سياق نضاله ويعد هذا الامر مقياساً للجدية في التعاطي مع الاحداث وتطوراتها التاريخية والمستقبلية. والمهم هنا يكمن في الاستفادة من تلك الدروس الغنية في مجرى النضال العملي.

(7)

لتجربة ثورة تموز، في الانتصار والانتكاسة، علاقة وثيقة باشكاليات التحول نحو الديمقراطية. تلك الاشكاليات التي تمتد الى يومنا هذا وتتضح جلياً في التطورات المعاصرة في العراق بعد 2003 .

هنا لا اريد الاستغراق في مفهوم التحول الديمقراطي الذي لم ينل ما يستحقه من جهد تعريفي لارتباطه بمفهوم الديمقراطية، ولكني اود الاشارة الى علاقة التحول بالنظام السياسي . وقد اشار البروفيسور صموئيل هنتنغتون الى ذلك بقوله: "ان الانتقال/ التحول، هو اختزال الممر بين مرحلتين، مرحلة الاستبداد، ومرحلة تأسيس السلطة

الديمقراطية". وفي ذات السياق يؤكد دوبري على بيئة التحول الديمقراطي في خضم عملية تغير الانظمة اثر الازمات السياسية.

تكمن ابرز الاشكاليات في تأثير الموروث السوسيو سياسي وطبيعة ممارسات التعددية الحزبية التنافسية في المشهد السياسي ودور المؤسسات وقدرتها على الفعل ومضامين الدستور في توزيع السلطة والنفوذ وضمانات حقوق الانسان والانتخابات ومستوى المشاركة السياسية.

ان النظرة السريعة لمسار تطور ثورة تموز تدل على الاخفاق الكبير في حل هذه التحديات/ الاشكاليات التي لا تزال قائمة حتى اليوم. وربما تفسر، ولا تبرر، طبيعة المجتمع والاقتصاد والتبعية والثقافة السياسية، بعضاً من جوانب هذه الاشكاليات واستمرار العجز في معالجتها.

فاذا كانت فترة الحكم الملكي التي تميزت بالتبعية والتخلف اسست لهذه الاشكاليات، نجد ان العهد الجمهوري 1958 - 2003 اضاف مشكلات وتعقيدات جديدة. واخفقت فترة ما بعد 2003 في تقديم الحلول الناجعة والملائمة لنصل الى الوضع الحالي في النظام السياسي الاثنو- طائفي الذي كرس حكم المحاصصة والفساد، ما زاد من درجة التوتر في المجتمع. يضاف الى ذلك حجم التدخلات الاقليمية والدولية قبل وبعد ثورة تموز.

من هنا يتطلب البحث بمنهجية علمية عن القضايا والاشكاليات المتعلقة ببناء الدولة والمؤسسات على اساس المواطنة المتساوية والهوية الوطنية المشتركة دون اغفال الخصوصيات، بمعنى الادارة السليمة والسلمية للتنوع بالاستناد الى دولة القانون والمؤسسات لا دولة التسلط والزعامات.

وقد دلت ثورة تموز، وقبلها العديد من الثورات، على ان التردد في اعتماد الديمقراطية، قولاً وفعلاً يقود الى الفشل. وان اعادة بناء الدولة على اسس صحيحة ومؤسساتية حقة بعيداً عن الولاءات الضيقة وبالاستناد الى مبادئ الديمقراطية وحقوق الانسان يشكل ضمانة للانتصار.

انها دروس الامس .. دروس اليوم. فثورة تموز بنقاط قوتها وضعفها، بنجاحاتها واخفاقاتها، تجربة ثرية وقدمت عبَرا ودروسا غنية، لا تزال تحتفظ باهميتها الراهنة.. فالتاريخ خير معلم ...

14 تموز: الثورة الدائمة

د. مظهر محمد صالح

باحث اقتصادي والنائب السابق لمحافظ البنك المركزي العراقي، المستشار المالي لرئيس الوزراء العراق. نشر العديد من الكتب والبحوث العلمية والدراسات في مجلة المجمع العلمي العراقي والمجلة الاقتصادية لبيت الحكمة وعدد من الدوريات الاقتصادية الصادرة عن الجامعات العراقية وغيرها من المؤسسات والمراكز العلمية الوطنية.

1 - تمهيد

تبعت والدي ونحن نجتاز سوق البلدة الصغيرة التي كنا نعيش فيها صبيحة يوم منتصف شهر تموز 1958 إذ كنا نسير رويدا رويدا بين كتلٍ بشرية تتجاذب اطراف الحديث الساخن حول ولادة الجمهورية وأفولِ الملكية. فهذا العم ابو سعيد يقود تجمعاً وهو في نقاش حاد ليفسر أن ما حصل امس صبيحة الرابع عشر من تموز هو ليس بانقلاب عسكري كما روج لذلك احد ضحايا التغيير وهو العم ابو سمية الذي كان يعمل في ضريبة الاستهلاك والمكوس التعسفية. فالانقلاب كما فسره الأخير هو الازاحة المفاجئة للحكومة بفعل مجموعة تنتمي الى مؤسسات الدولة، عادة ما تكون بالتعاون مع الجيش، لتنصيب سلطة مدنية او عسكرية تابعة لها بعد ان تتمكن من تغيير الحاكم من دون النظر الى ايجاد نظام بديل يلبي احتياجات الشعب. ومن هناك رد ابو سعيد المعلم اليساري المشمول بالاحكام العرفية التي سادت في العهد الملكي وتسببت بطرده من الوظيفة قائلاً بصوت جهور: أيها الناس إنها ثورة الشعب، انه التغيير الكامل لجميع المؤسسات والسلطات الحكومية في مفاصل النظام الملكي السابق، إنه التغيير الجذري الذي جاء بارادتكم لتحقيق طموحات الشعب العراقي نحو نظام سياسي نزيه وعادل يوفر الحقوق الكاملة للجميع على قدم المساواة والحرية والنهضة للمجتمع. هنا توقفتُ قليلاً كي اسأل والدي: أبتاه ما الفرق بين الثورة والانقلاب؟ أجابني قائلاً: يابني ان تاريخ الثورات يوثق بتاريخ انطلاقها في حين ان تاريخ الانقلابات تُوثق بتاريخ انتصارها... اجبت والدي واين نحن من هذا التغيير الهائل الذي حدث في العراق؟ فهل هو ثورة أم انقلاب؟ هنا سكتَ والدي قليلا ثم رد قائلاً بوثوق: يابني إنها الثورة، فالنظام الملكي قد أفل تماماً وبزغ نظام جمهوري بديل له. فقوى التغيير يابني إبتدات في صياغة

المشهد السياسي لبلادنا لتوفر مشاركة أوسع لسلطة الشعب وتحقق الازدهار المنشود للعراق، وان جموع الفلاحين الذين مروا من جنبك قبل قليل لم يعرفوا إلا الظلم بغض النظر عن اسم الظالم وجنسيته. استمرينا والدي وأنا في السير في سوق المدينة وبخط مستقيم قبل ان تكون الشمس عمودية على الارض، اذ كنا نقصد دكان القصاب الذي اعتدنا الشراء منه بصورة يومية. فالدنيا تبدلت حينها ودكان القصاب قد ازدحم بالمتبضعين القدامى الذين اشتبكوا في جدلية زوال الملكية القديمة وشرعية الثورة والنظام السياسي الجديد! وفي خضم تنوع اصناف اللحوم من الماشية المذبوحة والمصلوخة التي ازدان بها المحل، بدا لي ذلك المكان يومها اشبه بمنبرٍ سياسي مترع بنشوة التغيير. وان البلاد أمسَت مقبلَة على شعور غامض بالنور المضيء والجميع يتطلع في اطراف الحدث الكبير والتحدث بأسبابه وتلمس نتائجه، فأكثرهم بدأ يشعرنا بالنظرة المسددة بتفاؤل نحو المستقبل، مما جعلنا نتلمس موقع الشمس قبل ان نراها.

وفجأة دخل الدكان رجل في الخمسينات من عمره وكان يسير بأناة وأدب ورهبة وبرأس مهيب خلا من الشعر واصابه احمرار صامت جراء تعرضه لاشعة الشمس اللاهبة وكان وعيه في تلك اللحظات قد انجذب كله نحو سكين القصاب التي اصطبغت بالدم.. استدركت الموقف في نفسي وانا ابن العشر سنوات ماسكاً بسترة والدي بقبضة حديدية لكي لا افلت زمام بوصلتي، وقلت في سري من سيكون هذا الهائل الذي صمت الجميع عند دخوله يا ترى؟

اقترب والدي منه بلطف وهو يتلقى من عينيه الكبيرتين نظرة استلت من ذاكرته جميع ما فيها، ولكنها بثت في قلب ذلك الرجل قلقاً وهو يتلفت بخوف وكآبة وارتجفت أوصاله ...حيث شعر بأن كل شيء قد تغير من حوله.. وفجأة فتح فاه ليتكلم. فبادره احد المتبضعين وسأله: أيمكن ان تمضي هذه الحياة على هذا النحو الذي نراه ايها السيد الكريم؟ قال الرجل: نعم، اذا ما ارتضيتم العفو لنا! هنا اجاب المتبضع من فوره وبصوت كالشروق: ما جدوى الامل في المستقبل اذا كان ذلك الزمن الماضي الطويل في معترك السياسة لم يلن قلوبنا، واذا كانت عذابات السجون كلها لم تزكنا لرحمة من نحب!

هنا تعثر الرجل في الاجابة ..! فسدد الجميع نظرة جسدها ارتياح منفتح الصدرٍ ليخلو صدره من الخوف او العدوان، مشدداً القول: الدنيا تغيرت وان بقاء الحال من المحال وان زوال اليأس سيزيدني قوة وسيزيل سخريات حزينة في نفسي ربما ستثب خارج ضجيج الحياة وتلج جناح النسيان الى الابد. ثم تحفز قلب الرجل للارتياح ورفع رأسه نحو القصاب وقال له ضع في ميزانك من اليوم والى الابد نصف كيلو غرام لحم بدلاً من الكيلو غرام الواحد الذي اعتدت شراءه في الايام الخاليات... واعلم ايها القصاب انه ماكان على الثورة ان تحدث في منتصف الشهر ..! فكان حريا بها ان تحدث في نهاية الشهر حتى اتسلم راتبي من المجلس النيابي الملكي! هنا ضحك الجميع ونظر الرجل فيما حوله وهو يجفف عرق وجهه بكم قميصه وتنهد من الاعماق وهو يكبت نزوعاً نحو البكاء..

متمتما بالقول: عندما يحترموننا امواتاً نحترمهم احياءً! كان جدل الثورة حواراً في ثقافة التسامح في يوم شديد التغيير في حياة العراق السياسية، ليذكرني ذلك اليوم بقول الزعيم الافريقي المناضل الراحل نيلسون مانديلا: انه لا يوجد انسان وُلد يكره انساناً آخر بسبب لون بشرته أو أصله أو دينه... الناس تعلمت الكراهية، إذاً بامكاننا تعليمهم الحب، خاصة ان الحب أقرب لقلب الانسان من الكراهية..!! انها المبادئ السامية التي ولدها جدل الثورة في الرابع عشر من تموز وقبل ستين عاما.

2 - جدل الثورة وكُتاب الطبقة الوسطى:

تناول عدد من الكتاب والمفكرين مسألة نشوء الطبقة الوسطى في العراق ودورها المؤثر في مسار تطور تأريخ إجتماعيات علم الاقتصاد السياسي الذي قاد الى ظهور الأنموذج الديناميكي الموجب لصعود تلك الطبقة ودورها في التمهيد لانبثاق ثورة 14 تموز 1958 ومنهم صلاح حسن الموسوي وحنا بطاطو وابراهيم الحيدري ولطفي حاتم وياسين القصير وكاتب هذه الدراسة نفسه وغيرهم. فعلى الرغم من إن تاريخ الطبقة الوسطى في العراق ينتمي الى ولادة الدولة العراقية في العام 1921 وإنها تدين في نشأتها الى إنتشار المدارس النظامية والمعاهد العالية وتطور الصحافة ونمو الجمعيات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتحاق المتخرجين بالوظائف العامة، فضلاً عن استبدال طبقة "الافندية" ذات الثقافة العثمانية بشيوخ العشائر ومُلاك الاراضي "وشبه" الاقطاعيين والتي جاءت ايضاً بفعل عاملين خارجيين وهما: اولاً، شخصية الملك فيصل الاول وتغير منطق السياسة الدولية بعد الحرب العالمية الاولى والآخر هو، نجاح الثورة البلشفية في روسيا وتأثيراتها على الشرق والمبادئ الاربعة عشر للرئيس الامريكي نيلسون، والتي أعلنها في خطابه أمام الكونغرس في 18 كانون الثاني 1918 والتي ركزت على إعادة بناء السِلم والأمن الدوليين ومن بينها تركيزه على أهمية إعطاء الشعوب غير التركية حق تقرير المصير وتوفير حرية الملاحة ومرور البضائع... الى آخره والتي غذّت جميعها نشوء الطبقة الوسطى التي اتحد بزوغها مع تعاظم التعليم ونشوء البرجوازية الوطنية (السوق الوطنية) التجارية والصناعية التي كان مطلبها الأساس هو الاشتراك في السلطة وعدم اقتصاره على أبناء الطبقة الاقطاعية المتمثلة بشيوخ العشائر والشريفين من العسكر وأبناء العائلات الثرية ممن تلقى تعليمه في الاستانة أو الغرب.

وهكذا جاء التحول نحو نظام السوق بسبب تركز الاراضي بيد عدد محدود من شبه الاقطاعيين الاثرياء ليقوموا بتادية وظيفة أخرى هي حفظ النظام، ما سبب انهيار نظام الاكتفاء الذاتي لجموع الفلاحين بسبب شدة الاستغلال وحصول هجرة واسعة من أرياف العراق الى مدنها وتعرض المجتمع الزراعي الى إفتقار بشري شديد ليصبح في مصلحة المدن والعمل في قطاع الخدمات والانصهار بالطبقة الوسطى تدريجياً، بل العمل على نشأتها. فبالاضافة الى هرمية الدولة.. فهناك هرمية دينية وهرمية عشائرية وطائفية الى جانب هرمية السلطة والمكانة

الاجتماعية. إذ شكل مُلاك الاراضي في بداية الدولة الحديثة (طبقة بذاتها) ولكنهم تحولوا في أربعينيات القرن الماضي وخمسينياته الى (طبقة لذاتها) واخذت تدعو لنفسها ازاء ظهور الطبقة الوسطى التي اخذت تنشأ وتنمو وتنشط مع تزايد سكان المدن وارتفاع القانطين في بغداد الى أربع مرات بين العام 1922 وحتى العام 1957 وخصوصاً بعد تحلل نظام العشيرة الاقطاعي وتدفق الريع النفطي الذي اسهم في تفكك الهرمية الريفية، والتحول نحو اقتصاد السوق التجاري والصناعي واندماج الزراعة تدريجياً بقوة الاسواق المتنامية في المدن والحواضر. كما ان انتشار التعليم والصحة والطرق والمواصلات ساعد على ولادة قوة اجتماعية جديدة هي الانتلجنسيا او المثقفين التي تطورت لديها عوامل ايديولوجيا كالروح القومية او الارتباط بالشعور الاممي او الديني، فضلاً عن توافر قدرة منظمة في التعبير عن آرائها، مما ساعد على صعود الطبقة الوسطى وفقدان الطبقة النافذة (من مُلاك الاراضي والاقطاعيين وغيرهم) مواقعها لمصلحة الطبقة الوسطى. ومن هذا يُستدل بأن الاهمية الاساسية للطبقة الوسطى ودورها التاريخي يأتي من كونها طبقة انتقالية تلتئم فيها مصالح فئوية او طبقية مختلفة، وان دورها التاريخي في العراق اكتسب اهمية بسبب غياب الدور الفاعل للطبقتين البورجوازية والطبقة العاملة... فضلاً عن ضعف الفاعلية السياسية للطبقة العمالية الناتج عن مواقعها الاقتصادية الضعيفة بسبب نموها وتطورها في قطاع الخدمات. كما إن اشتراط نمو رأس المال البريطاني وتوسعه تطلب توافر دولة بكونها الرافعة السياسية والاجتماعية القادرة على حماية المصالح البريطانية دون اغفال لآليات نمو الطبقة الوسطى التي تلخص بموظفي الدولة من النخب المتعلمة وولوج اجهزتها الفنية والقانونية والعسكرية والادارية والامنية وغيرها .. وكذلك نمو الانتاج السلعي ودور الشغيلة والحرفيين في الاندماج بنظام السوق والإنتماء الى الطبقة الوسطى بكونها قاعدة اجتماعية عريضة آزرتها قوى الريف من صغار المُلاك الزراعيين مما يجعل أرياف العراق قوة مضافة الى الطبقة الوسطى وتوسيع قاعدتها.

إن تعدد المصادر الاجتماعية للطبقة الوسطى وتحملها ارث القيم العشائرية والثقافات المتباينة التي ولدتها الحرب الباردة، أدى الى عجز الطبقة الوسطى عن بناء نفسها في قوة سياسية قائدة تشكل مرجعية موحدة بسبب الانقسام الثقافي الذي زرع بذور تفتتها وانقسامها بين تيارات قومية/ دينية وتيارات علمانية/ اشتراكية. وعلى الرغم من ذلك، استطاعت الطبقة الوسطى أن تجتمع على هدف واحد سام هو محاربة تبعية البلاد الى الاحلاف الاستعمارية وانضوت تحت زعامة تنظيم الضباط الاحرار المحكوم بالهيراركية العسكرية والروح الانتقالية الثورية لتفجر الثورة في تموز/ 1958 وإسقاط الملكية وبناء النظام السياسي الجمهوري. لذا تشكلت الطبقة الوسطى في بنية المجتمع العراقي الحديث المولد للطبقات الاجتماعية الاخرى. فهي بحكم نشوئها المستمر والمتغير جغرافياً واجتماعياً تمتلئ وتنضج عندما تكون واضحة باحتمالات

المستقبل... ممهدة لظهور طبقات اجتماعية تتناسب وطبيعة المجتمع المتعدد الاعراف والديانات والقوميات واللغات والجغرافيات والتواريخ. فالطبقة الوسطى تبدو من خلال تاريخها أنها جدل المجتمع وحاضنته. فمنها ظهرت الشرائح السياسية والعسكرية والتجارية لاحقاً ليسهم بعضها في قيادة المجتمع العراقي نحو الحروب والتدمير ويسهم بعضها الآخر في البناء والتنمية والتعمير. وافضل نماذجها الوطنية كانت ممثلة في مجتمع ما بعد ثورة تموز 1958 ولمدة لن تتجاوز الخمس سنوات. حيث أفرز الصراع نتيجة لظهورها المفاجئ والكبير تناقضا داخليا في مكوناتها لترتد ثانية الى بنيتها المؤسسة على العقلية العسكرية والدينية والثقافية والعشائرية.

3 – البرنامج الاقتصادي منذ الاجتماع الاول للثورة

في مبنى وزارة الدفاع عقد مجلس وزراء الثورة اجتماعه الاول برئاسة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم الذي نُصب رئيسا للوزراء يوم ذاك. حيث التئم الجناح الوزاري المدني بالجناح العسكري الذي لازم تراتبيته بشدة امام القوى المدنية الوطنية التي شغلت مناصب وزارية كقوى جماهيرية محركة للثورة وغطاء ديمومتها الفاعل.

حدثني استاذي الجليل المفكر الراحل إبراهيم كبة عن بعض اسرار اجتماع اليوم الاول الذي شغل الراحل فيه منصب وزير الاقتصاد ليمثل يومها الجماهير الكادحة صانعة تاريخ الثورة وخالقة الحضارة العراقية وقاعدة الديمقراطية الحقة والمنفذة لسنن المجتمع وبانية عالم الغد في ارض عالمها الحرية والسلام في بلاد ما بين النهرين قائلاً: ان التيار القومي قد دخل مجلس الوزراء بجناحيه العسكري والمدني وهو يحمل بذور المعارضة والانقسام تحت تاثير الموجة الناصرية العامة وقت ذاك. وكانت البداية السالبة لتشتعل الساحة السياسية بصراع أدى في نهايته الى غدر الثورة وطعنها من ظهرها ذلك منذُ انسحاب التيار القومي في الاسابيع القليلة من اجتماعات مجلس الوزراء وعموم العمل الوطني المشترك. الا ان الثورة وديمومة نضالها منذ اليوم الاول تطلب اعتماد جدول اعمال ينصرف الى التصدي لقضايا اساسية ثلاث: أولها، مكافحة الفساد. وثانيها، اشاعة الخدمات والمنافع العامة ونشرهما بين صفوف الفقراء والطبقات المسحوقة. وثالثها، البحث عن انموذج بديل للتنمية يسهم في تنويع الاقتصاد الوطني والتخفيف من ظاهرتي الفقر والبطالة. ولم تمض إلا ايام قليلة وبدأ التطبيق الفعلي لمكافحة الفساد وباتجاهين أولهما تنفيذ قانون تطهير جهاز موظفي الدولة من المرتشين او ممن اثرى على حساب المال العام، والآخر هو اشاعة المساءلة المالية لتطال الموظفين الحكوميين كافة تحت مبدأ: من اين لك هذا؟ يوم كشف أولئك الموظفون الحكوميون مصالحهم وذممهم المالية كافة امام الجهات المختصة.

فبعد اشهر قليلة من انبثاق ثورة تموز 1958 أخذ الزعيم عبد الكريم قاسم مصطحباً في سيارته رئيس مجلس النواب الياباني الذي زار يوم ذاك العراق رسمياً وهو يحمل في جعبته سؤالاً واحدا هو: لماذا قمتم بثورة 14

تموز 1958؟ وهو السؤال الذي فاجأ فيه الضيف الياباني الزائر الزعيم قاسم اثناء تسلقهما ادراج مبنى وزارة الدفاع. فما كان من الزعيم إلا ان طلب من الضيف الياباني ان يجلس الى جانبه في تلك الحافلة (الخاكية اللون) وتوجها سوية الى منطقة (خلف السدة) في جانب الرصافة من شرق بغداد يوم كانت تعج بعشرات الالاف من الاكواخ تناظرها منطقة اخرى اكثر سوءاً في جانب الكرخ تسمى (الشاكرية) حيث تنعدم فيها هي الأخرى ابسط متطلبات الحياة الانسانية وتزدحم بالآلاف المؤلفة من سكان العراق من اصول فلاحية أتوا غالبيتهم هرباً من قبضة الاقطاع وظلمه من مناطق جنوب شرق العراق. وعلى الرغم من ذلك حملت الجماهير الفقيرة سيارة الزعيم عبد الكريم قاسم وضيفه الياباني على الاكتاف وهي تهتف بحياة الثورة وزعيمها. التفت الضيف الياباني الى الزعيم قاسم وسأله: من هم هؤلاء؟ اجابه انهم فقراء الشعب العراق الذين جاءت الثورة من اجلهم. ومن هنا فهم الضيف الرسمي الياباني رسالة ثورة تموز وكيف ستنطلق حكومة 14 تموز ببرنامجها الوطني الشامل في مكافحة الفقر وكيف ستنهض بهوامش المدن وعشوائياتها وتحويلها الى نواة مدنية خالية من الظلم والتخلف والتهميش الاقتصادي والاجتماعي وجعل اولئك الفقراء كقوة حضرية منتجة مندمجة بمجتمع المدنية. إذ أُطلق يومها مشروع بناء مدينتي الثورة/ الصدر في جانب الرصافة والشعلة في جانب الكرخ واشاعة الحركة الاسكانية وتشييد البنى التحتية في العاصمة بغداد وعموم العراق.

لم يستطع الانموذج القياسي الملكي للتنمية الذي تبناه مجلس الاعمار في فلسفته الانمائية ان يخلص العراق من تكاثر ونمو العقدة الريعية التي تعاظمت منذ اتفاقية تقسيم عوائد النفط في العام 1952 مناصفة بين شركات النفط الاحتكارية والحكومة الملكية للعراق. فالانموذج القياسي او النمطي للتنمية الذي استخدمته الملكية لدفع عجلة التنمية وتمويل لوازمها بعوائد النفط العالية جاءت بالتركيز على الاستثمار الواسع في البنية التحتية الزراعية لمشاريع تطوير وإرواء الاقطاعيات وتحولها نحو استخدام التكنولوجيا الزراعية الكثيفة في رقع جغرافية كثيفة السكان لتتسع حينها رقعة البطالة في قوة العمل الريفية مع اتساع الزراعة الرأسمالية في نظام بات شبه اقطاعي مزيج بالرأسمالية الزراعية. وعلى الرغم من اهمية التحول التقني الزراعي إلا انها قادت اجتماعياً الى تحرير مئات الالوف من العائلات الزراعية وقواها الفلاحية الكادحة من قبضة الاقطاع وأدت ايضاً الى التسريع في التحول التكنولوجي في الزراعة الذي اخذ طابعاً شبه راسمالي هذه المرة، ليقابله قطاع نفطي كثيف التكنولوجيا محدود جداً في استخدام العمل الفائض، ومهيمن في الوقت نفسه على الناتج المحلي الاجمالي من دون تنوع تكنولوجي في الصناعة التحويلية وخلق بروليتاريا عمالية واسعة، ما اسهمت في تضييق درجة التنوع الاقتصادي وتعظيم القوة العاملة الهامشية حول المدن في اقتصاد ضعيف في توفير دواليب الصناعة ومنتج للبطالة في الوقت نفسه.

فقطاع الانتاج النفطي العالي التكنولوجيا في مجال الاستخراج كان بمثابة البديل التلقائي

للنهوض في القطاع التكنولوجي ولكنه احادي ملازم لالغاء اهمية توليد الصناعة التحويلية. اذ اصطدم عرض العمل غير المحدود المتدفق بكثافة من الارياف قليل الخبرة والتعليم (وهو يبحث عن هامش من الريع النفطي بعد ان فقد سكان الارياف هامش ريعهم الزراعي الضئيل من نظام الاقطاع الزراعي) ليتولوا الهجرة والعيش في هوامش عشوائية حول المدن الكبيرة. اذ تمركز المهاجرون أو النازحون الجدد بالآلاف كتجمعات بشرية وهم يبحثون عن هوية اقتصادية جديدة ريعية للعمل مدعمة بنفقات عوائد النفط التي اخذت تسربها الموازنات الحكومية لدعم وسيلة عيشها وتجسدها اضطرارا تقديم اعمال يدوية هامشية وفي حركة هجرة صعودية ومسلسل نزوح قوامه مغادرة الآلاف باستمرار لأرياف جنوب ووسط العراق، صعوداً الى أعالي الأنهر والبحث عن هوية عمالية هامشية جديدة وبتدفق انساني سار على عكس جريان رافدي دجلة والفرات. وهكذا اصطدم عرض العمل الفلاحي المهاجر الهارب غير المحدود صوب هوامش المدن وعشوائياتها، تاركاً خلفه قوى شبه اقطاعية اتسمت بالتحول البطيء نحو تشييد اطر بدائية من الرأسمالية الزراعية، ما جعلت من الطبقة العاملة الجديدة المتمركزة في هوامش المدن بمثابة فائض عمل شديد الخطورة وأداة للتغيير الاقتصادي والسياسي المقبل للبلاد. فكانت النتيجة النهائية هي تردي مستوى المعيشة بسبب تردي الانتاجية بين شكلين من القطاعات الاقتصادية احدهما، قطاعات منتجة مولدة للدخل شديدة الحداثة التكنولوجية في قطاع الاستخراج النفطي. والأخرى، هي القطاعات التقليدية الخدمية الواطئة التكنولوجية ضعيفة القيمة المضافة والقليلة الاجر والدخل واختلافهما الشديد وتباينها في توليد التراكم الرأسمالي الذاتي، ما ولدت تدهوراً في مسارات النمو الاقتصادي وما لازمها من تدهور في فرص العيش. فالقوة العمالية الجديدة المهمشة حول المدن وحراكها الاجتماعي من جانب واشتداد التركز الرأسمالي الزراعي بميوله شبه الاقطاعية من جانب آخر قادا بلا شك وباتجاهين مختلفين الى التعجيل في ثورة 1958، وتمكين الطبقة الوسطى المدنية والعسكرية المنظمة سياسياً بقوتها الذاتية والموضوعية وزخم فعلها المؤثر كمادة دافعة للتعجيل في انهيار النظام الاجتماعي السياسي الذي آزره في الوقت نفسه انهيار متسارع في متلازمة المنظومة الاقتصادية الزراعية الملكية (شبه الرأسمالية - شبه الاقطاعية) والتجارية الكمبرادورية ذات الجذور الريعية الهشة.

حدثني المفكر الراحل ابراهيم كبة وزير الاقتصاد للجمهورية الاولى يوم انبثاقها، ان مشكلة البطالة والخيار التكنولوجي الصناعي كانت من اولى ركائز البرنامج الاقتصادي لثورة تموز منذ الاجتماع الاول. اذ ادركت قيادة الثورة ان تبني انموذج الدفعة القوية في التنمية وتولي اشاعة النمو المتوازن في مفاصل الاقتصاد كافة، ما يعني ان السير بالاستثمارات بحزم متعاقبة صغيرة لا يوصل الاقتصاد الوطني الى مرحلة الانطلاق وبلوغ النمو الذاتي المستدام ويؤدي الى ضياع الموارد الاستثمارية. وقد آزرت قيادة ثورة تموز فكرة ان الناتج الحدي الاجتماعي للاستثمار

لمجموعة النشاطات الصناعية يحقق معدل نمو في الاقتصاد يفوق الناتج الحدي الفردي. وهنا بدأ دور الدولة في تعظيم البنية التحتية الكلية كونها المقدمة الاساسية لتحريك النشاط الانتاجي الصناعي المؤسس لتنويع الاقتصاد ورفع كفايته. فالنمو في البنية التحتية بمقدار واحد في المئة سنوياً يؤدي الى نمو في الناتج المحلي الاجمالي بمقدار واحد ونصف بالمئة سنوياً. وهنا تصبح المشاريع رابحة جميعاً ليس بمعنى الربح الفردي وانما بمعنى الربح الاجتماعي بسبب اثر العامل الخارجي الموجب في رفع كفاية الانتاج الذي هنا يولده الاستثمار في البنية التحتية او ما يسمى براس المال الاجتماعي العلوي. وفي اطار السير ببرنامج الدفعة القوية لثورة 14 تموز 1958 تبنت قيادة الزعيم عبد الكريم قاسم برنامجاً مكثفاً في الاستثمار في مجال كهربة العراق والاستثمار في الصناعة التحويلية وتوليد قطاع عام صناعي متقدم للتغلب على عقبات التنمية وامتصاص البطالة والنمو في قوة العمل الصناعية واشاعة الرفاهية بتحسين دخل الفرد السنوي. وهكذا خلص الاجتماع الاول لوزارة الجمهورية الاولى بعد ان تبنت برنامج وزير الاقتصاد المفكر ابراهيم كبة والسير فوراً في تطبيق برنامج الدفعة القوية القائم على تكثيف الاستثمارات وعلى وفق مسار النمو الذاتي وهو مسار باتجاه التوازن كما ذكرنا تتلازم فيه المدخرات والطلب والانتاج في اطار تبادلي معتمد عالي الكفاءة غير قابل للتجزئة ومُعظّم في الوقت نفسه للوفورات الخارجية التي تقلل من متوسط كلفة الانتاج مابين الصناعات. فكانت بداية الانطلاق بالقرض الصناعي الميسر الذي قدمه الاتحاد السوفياتي السابق والذي زاد على 150 مليون دولار لاقامة ما يزيد على 70 منشأة صناعية منتجة امتدت بين صناعة الاقطان والنسيج وانتهت بصناعة المعدات الميكانيكية والكهربائية لتُشكل دالة الانتاج الصناعي الحكومي وولادة الجيل الجديد من البروليتاريا العمالية الصناعية العراقية داخل الكيان المصنعي الحكومي. بهذا عبر انموذج الدفعة الصناعية القوية للوزير والمفكر الراحل ابراهيم كبة عن القدرة على تحريك الاقتصاد الوطني بدواليب تكنولوجية مؤثرة في تجاوز معضلة التكنولوجيا الثنائية الكثيفة في القطاع النفطي والزراعي، كما كان عليه الانموذج القياسي الملكي للتنمية، ذلك لإحداث توازن في قضيتي رفع مستوى المعيشة والتشغيل الدائم لعرض العمل غير المحدود الذي ظل الريف يدفع به من حين لآخر. وهنا امسى التراكم الرأسمالي في الصناعة التحويلية رديفاً للتكنولوجيا وتنوع قطاعات استخداماتها التي استطاعت ان تتفادى قضية التكنولوجيا الثنائية للموديل القياسي الملكي القاصر (بين النفط والزراعة) لتتبنى الموديل التكنولوجي الثلاثي وهو النفط والزراعة والصناعة وهو انموذج التوازن في التنمية الاقتصادية والاجتماعية للجمهورية الاولى. ومن دون ان ننسى قانوني الارض ومصادرة ريعهما لمصلحة الشعب العراقي وهما القانون رقم 80 لسنة 1961 قانون تعيين مناطق الاستثمار لشركات النفط وهو القانون الذي أمم اراضي الاستثمار النفطي وسحبها كلياً من ايدي شركات النفط الاحتكارية الاجنبية باستثناء دائرة عملياتها. كما سبقه

تشريع قانون الاصلاح الزراعي رقم30 لسنة 1958 المعدل والذي أمم هو الآخر الملكيات الكبيرة وفتتها لمصلحة فقراء الريف وفلاحيه ووضع حدا للسلطة المستبدة لشبه الاقطاع.

4 - الثورة وحركات التحرر: الجزائر انموذجاً

واجه الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم، قصة الثورة الجزائرية بحماس وألم صامت وهو يقلب قصة الحزن الانساني في بلاد الأوراس التي جمعت بين البطولة والمأساة وبين القهر والاستعمار وبين الحرية والاستقلال حيث احدث الاستعمار الفرنسي وعلى مدى 132 عاما قبل ان تتحرر الجزائر في الخامس من تموز 1962 جروحا عميقة في البنية المجتمعية للبلاد وطمس هويتها القومية واللغوية.

اجتمع الزعيم عبد الكريم قاسم في مبنى وزارة الدفاع في بغداد بكبار القادة العسكريين والمسؤولين عن شؤون التسليح والتعبئة في الجيش العراقي، مستعرضا مرتسم التواصل مع الثورة الجزائرية، موضحا في الوقت نفسه كيف تبدأ جمهوريتنا الاولى في العراق بمد يد العون الى ثورة التحرير الجزائرية، تلك الثورة التي ابتدأت بعدد من الثوار المقاتلين لا يزيد عددهم على 1200 مقاتل.

ولم تكن بحوزة ثوارها وقت ذاك سوى 400 قطعة سلاح ووفرة محدودة من الذخائر والاعتدة. وانهم امام الجيش الفرنسي المؤلف من ألوية الكموندوز والمظليين وقوات الامن الداخلي والآلاف المؤلفة من المرتزقة المنضمين من بقية المستعمرات الفرنسية.

عُدّ الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم من اصلب القادة العرب اندفاعا وأكثرهم كتمانا في اسناد نضال قضايا البلاد العربية، والتي ابتدأت في مغربها مثلما هو في مشرقها، عندما امد الثورة الجزائرية بالمال والعتاد، وبامكانات عسكرية مفتوحة وحسب القدرة على ايصالها!

ولم يعلم سرها وقتذاك، إلا من زور حقيقتها من العرب!

اقول وبدموع دامية إن الآلاف من الشهب اللامعة والنجوم المحترقة في سماء الجزائر جاءت من عتاد الجمهورية العراقية، ولكنها لم تمر في سجلات الحقيقة وبقيت في الارشيف المجهول، وكانت من اكبر عمليات الاخفاء والاختزال والاختلاس للدور الوطني لبلاد الرافدين في الثورة الجزائرية، وان الألم الحقيقي سيظل يختص به قلب العراق المتقد وحده لا غير!

من أجل أن لا يكون التاريخ شاهد زور!

شاءت الاقدار ان التقي في مناسبة عامة خلال دراستي العليا في واحدة من عواصم امريكا الشمالية قبل اكثر من ثلاثة عقود، بشخصية دبلوماسية عربية عالية المستوى عسكرية النشأة ومن الرجال الذين عملوا في سلاح البحرية من الاقليم السوري في زمن الجمهورية العربية المتحدة في اواخر خمسينيات القرن الماضي ومطلع ستينياته، أي في زمن الوحدة بين مصر وسورية، وقد روى لي شهادته حول المساعدات العسكرية السخية التي قدمها الزعيم عبد الكريم قاسم

الى الثورة الجزائرية والتي كان يجري تجميعها وفق الخطة اللوجستية لامداد الثورة الجزائرية في نقطة تجميع عند الموانئ السورية قبل شحنها الى الجزائر وتوزيعها بين صفوف الثوار. لقد اصيب محدثي، على الرغم من حساسية وظيفته في السلك الدبلوماسي، بصحوة ضمير وهو يفصح عن دوره في تنفيذ ما انيط به للقيام بعمل او واجب لا يرضي وجدانه ازاء العراق وشعبه! قائلا: ان الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء ووزير الدفاع كان يشرف بنفسه على تدفق العتاد كي يصل الى ايادي الثوار الجزائريين المحصنين في سلسلة جبال الاوراس ليستحيل سماؤها الى لهب مشتعل يضيء الدروب لكي تنتصر الثورة الجزائرية فيها!

قلت لمحدثي الدبلوماسي وما هو دورك في نقطة التجميع؟ فاجابني: إن دوري هو ان امحو ذلك الختم المقدس الموسوم بعبارة هدية الجمهورية العراقية الى الشعب الجزائري من على صناديق العتاد المرسلة من العراق، واضعا بدلا منها عبارة مغايرة وهي: هدية الجمهورية العربية المتحدة! وبهذه البساطة اعترف بانه من قام بنفسه بتزوير التاريخ وتزوير الحقيقة الموضوعية!

عاش الزعيم عبد الكريم قاسم ومات ولم يعلم بأن سجلات العتاد العراقي المرسل الى حافاة مياه الثورة في سواحل الشمال الافريقي جاءت خالية من اسم بلاد اسمها العراق، وان شعب بلاد الرافدين قد جرى تغييب دوره في دعم الثورة الجزائرية، وربما لا يعلم ثوار الجزائر شيئا عن مصادر سلاحهم حتى اليوم!

هكذا تحررت الجزائر في واحدة من روائع الكفاح الوطني البطولي للشعوب، ولم يبق امام الشعب العراقي إلا اعادة بناء ارشيفه التاريخي وإنصاف رجالاته الابطال في قضية تحرير الجزائر وتصحيح سجلاته التاريخية، وان النيازك والشهب والنجوم المحترقة التي غطت سماء الجزائر وجبال الأوراس الشاهقة، والتي كانت من عتاد العراق لا بد من ان تسجل باحرف من نور في أرشيف العراق الوطني دون ان يمحوها أحد!

5 - الثورة المغدورة

شهدت ثورة 1958 منذ اشهرها الاولى استقطابات وانقسامات مثلها انسحاب التيار القومي باكمله من التشكيلة الحكومية سواء بجناحه المدني او العسكري، ما جعل المسار الثوري ذا غلبة على المسار الديمقراطي الذي سُحق تدريجياً تحت مطرقة العنف والعنف المضاد داخل اجنحة الجيش ومن ثم بين صفوف الاجنحة الحزبية المدنية المتناحرة. وهكذا اضطرت الدولة بغياب التمثيل الديمقراطي ان تتحول الى سلطة تدافع تدريجياً عن وجود النظام الجمهوري ولمصلحة فصائل وقوى بيروقراطية ومجموعات قومية وعرقية ودينية مختلفة متنفذة داخل جهاز الدولة الاداري والأمني والعسكري. فضلاً عن ظهور بوادر الدولة الموازية مثلتها القوى العشائرية المسلحة بدفع وتحريض من بقايا الاقطاع والدعم الخارجي او الاجنبي. ان انعدام الديمقراطية والتخندق في معسكر الدفاع عن مكتسبات النظام الجمهوري وقواه الفقيرة من العمال

والفلاحين والبرجوازية الصغيرة أدى الى فقدان انساق الاستقرار السياسي مولداً سلسلة من الانقلابات العسكرية بعد ان سبقها عدد من المحاولات الفاشلة خلال السنوات الأربع ونيف من عمر الثورة والتي نفذتها فصائل من الطبقة العسكرية الوسطى ضد حكومة الزعيم الوطني الراحل عبد الكريم قاسم الذي اعدم بالرصاص في 9 شباط 1963. حيث ادت الى سلسلة انقلابات وافرزت مساراً داكناً مفاده بان الثورة قد بدأ اغتيالها بعد التشظي الطبقي في صفوف القوى الوسطى الوطنية كبرجوازية صغيرة وغياب المرجعية الايديولوجية، فضلاً عن الانقسامات الحادة التي طالت صفوف الطبقة العاملة وطبقة صغار الفلاحين صاحبة المصلحة في ثورة تموز (بعد ان اخذ الانتهازيون والرجعيون مصادرة مكتسباتها). فالانقسام صار عمودياً وعلى مستوى الطبقات، جاء اولهما انقسام الطبقة الوسطى باجنحتها المدنية والعسكرية والتي سبق لها ان قادت الثورة بنفسها، وثانيهما على مستوى العمال والفلاحين اصحاب المصلحة الحقيقية في البناء والتغيير الثوري. كما شهدت احزاب الطبقة الوسطى وتنظيماتها كافة حالة انشقاقات واسعة وادانة الاجنحة السياسية بعضها لبعض في عدم التمثيل لجماهيرها او شرعيتها والتطرف بين اقصى اليمين واقصى اليسار، بما في ذلك الحركات القومية والاشتراكية والدينية وغيرها. وتعمق الانقسام وامتد ليطال التنظيمات العسكرية نفسها التي فقدت هي الأخرى الشكل الهيراركي الذي وحدها ووحد الطبقة العاملة والطبقة الوسطى معاً في خمسينيات القرن الماضي والذي قاد الى قيام الجمهورية الاولى للعراق بتماسك ونجاح عاليين.

5 - ختاماً: أمل الثورة الدائمة

حدث الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم نفسه وهو يتطلع الى صورة ذلك الصبي الصغير القادم من ارياف شرق دجلة وهو يحمل في تضاريس عقله حاسبة عملاقة قادرة على حل سلسلة رقمية وحسابية في ثوانٍ معدودات انه الراحل عادل شعلان، والزعيم يردد في سره: أن نؤمن بالعلم يا عادل فهي القوة وراء خلود بلاد مابين النهرين، وأن نؤمن بالحكمة والادب والمعرفة، لكي ننعم بنضارة الحياة وننهل من رحيقها، وأن نؤمن بالشعب وثورة الاصلاح، لكي نعجل بمسيرة البلاد نحو الكمال، فالحرص على تماسك الأرض والشعب هما عماد الوحدة، وان النكسة يا عادل لا تجيء الا نتيجة لخلل يصيب وحدة البلاد، ولكن مجد العراق وأمنه سيظلان يستحوذان على مشاعري بقوة. فعندما ظهر ذلك الطفل الموهوب عادل شعلان في برنامج عنوانه العلم للجميع اتصل الزعيم عبد الكريم قاسم ليهدي له ثمن جهاز تلفزيون تقديرا له، وهي هدية ثمينة في حينها. ذهب عادل شعلان في اليوم التالي الى مقر الزعيم في وزارة الدفاع، وحين عرف الزعيم بان عادل شعلان قد حضر، فقد شعر من فوره بالاحراج أمام مدير مكتبه وقال لمن معه: أليس بالامكان تأجيله حتى نهاية الشهر، كي أتسلم راتبي ومن ثم اعطيه الهدية؟... انها الثورة الدائمة.

ثورة 14 تموز وحالة الصراع الطبقي في العراق - مجتمع مدينة الحيرة مثالا

الاستاذ المتمرس الدكتور عبد علي الخفاف

الدكتور عبد علي حسن الخفاف استاذ الجغرافية والدراسات السكانية في جامعة الكوفة/ العراق، وعميد كلية الاداب فيها للفترة 2004 – 2009، ورئيسا لأقسام الجغرافية في العديد من الجامعات لمدة 16 عاما. عضو هيئات تحرير العديد من المجلات الجامعية، وعضو الهيأة الاستشارية للعديد من الدوريات العلمية العراقية والعربية. ألف وترجم العديد من الكتب. كما نشر الكثير من البحوث والدراسات. شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية. أشرف الدكتور الخفاف على العديد من اطروحات الماجستير والدكتوراه. كما انه عضو الجمعية الجغرافية العراقية، واتحاد الجغرافيين العرب، وعضو اتحاد الأدباء والكتّاب العرب.

كُتب كثير عن هذه الثورة من قبل الباحثين العراقيين وغير العراقيين. وفي هذه المقالة العلمية لا نريد ان ندخل بالتنظيرات التي تناولت اسبابها ونتائجها؛ اذ سوف يقتصر ما نشير إليه على تأجيج حالة الصراع الطبقي في المجتمع العراقي، متخذين من مجتمع مدينة الحيرة عينة لذلك.

في الصباح الباكر ومع بزوغ اشعة الشمس الاولى من يوم 14 تموز سمع البعض من الناس، ممن فتحوا المذياع ـ الراديو ـ مبكراً اعلان الثورة. لقد تمت اعادة هذا الاعلان عشرات المرات بصوت ثوري يؤكد اسقاط النظام الملكي وتأسيس الجمهورية ويطالب جماهير الشعب بإسناد الثورة. كان صوت عبد السلام عارف الذي اوكلت له هذه المهمة، بينما تولى عبد الكريم قاسم مهمة التوجه الى قصر الزهور للقبض على رموز السلطة الكبار (الملك والوصي وافراد العائلة الملكية الآخرين وقادة الحرس الملكي).

بعد ساعتين فقط وبعد يقظة الخلايا الثورية النائمة وهي محدودة العدد في هذه المدينة هتف الطليعي الثوري مهدي عبد الواحد السعدون من على الضفة اليمنى لنهر البديرية لتحية الثورة وتحية قادتها واستنهاض الهمم لتأييدها والوقوف الى جانبها، فهرولت الجموع من نخب المتعلمين، من المعلمين والموظفين والتلاميذ وبعض اصحاب المحلات الذين تركوا محلاتهم وخرجوا من السوق، ليشكلوا مظاهرة مدينة الحيرة

الاولى لتأييد ثورة 14 تموز.
مع مرور الايام الأولى للثورة اتسعت جبهة المناصرين والمؤيدين بها، وسرعان ما توجهت هذه النخبة الواعية لأهمية هذه الثورة ولقيمتها الى تشكيل (منظمات المجتمع المدني) من النقابات والمنظمات الشبابية والطلابية والنسائية. كانت هذه النقابات والمنظمات بنى اقتصادية اجتماعية سياسية جديدة على مجتمع اهالي الحيرة، يطالبون من خلالها بالحقوق ويحددون الواجبات ويتداولون الثقافة الجديدة المتعلقة بالتغيير الذي احدثته وسوف تحدثه الثورة والذي يفترض عليهم حفظ هذه العملية وصيانتها من (الاعداء) الذين يرون بالنمط الاقتصادي الاجتماعي الابوي السائد خير ضامن لهم ولمكانتهم الاقتصادية الاجتماعية. فهم من دون شك ضد هذه الثقافة الجديدة التي تريد ان تجعل من الكسبة الفقراء ومن عمال الأجرة المهمشين دورا اقتصاديا اجتماعيا. إنها حالة غريبة بالنسبة لهم وغير مستساغة بينما هي بالنسبة لهؤلاء المهمشين والمغلوبين حالة ثورية. من هذه المنظمات والنقابات التي تشكلت سريعاً كانت:
ـ نقابة المعلمين ـ المدرس حمد الحاج حسين.
ـ نقابة الحلاقين ـ عبد زيد.
ـ نقابة الخياطين ـ وهاب الحاج حسين فيروز.
ـ اتحاد الطلبة ـ يعقوب علاوي
- رجل الدين التنويري الشيخ حسن الخفاف.
ـ الشبيبة الديموقراطية ـ هادي جليل الكرمنجي هادي الحاج حسين.
ـ منظمة انصار السلام ـ الشيخ حسن الخفاف.
- السيد طالب السيد كريم.
- السيد نوري زوين.
ـ الجمعيات الفلاحية ـ بديوي ال زجري عبد الرضا شتيوي.
كانت القوى الطليعية تتسابق مع الزمن وتعمل جاهدة لنشر الثقافة الجديدة بين الناس، الثقافة الثورية التي تحفز طبقات المجتمع الحيري الفقيرة والمهمشة اقتصادياً واجتماعياً لأخذ دورها في الحراك الجديد، وكانت مهمة صعبة بفعل الامية وبفعل سيادة النمط الاقتصادي الاجتماعي الابوي لقرون طويلة، فكما هو معروف ان التغيير ظاهرة صعبة القبول والهضم حتى على المجتمعات المتقدمة، فالحالة التقليدية (الراكدة) عادة هي المقبولة والمرغوبة.
مع اتساع شعبية الثورة وتنامي قواعدها بدأ افراد الجبهة المعادية والرافضة للثورة يحاولون جمع فلولهم من الاقطاعيين والسراكيل وتجار السوق ومتعاطي الربا، فنشروا بين أهالي الحيرة ثقافة الردة مستندين الى ان الثورة بشعاراتها هي ضد (الشريعة الاسلامية) وضد التقاليد والاعراف. وبذلك طرحت هذه الجبهة في ساحة مدينة الحيرة محورين لهما كبير المساس بعقول ووجدان الناس وهما الدين من جانب والتقاليد والاعراف من جانب آخر. لقد شبهت هذه الجبهة الثورة وكأنها جاءت اساساً (ضد الدين) وحصلت اساساً (ضد التقاليد والاعراف) فبادرت جماعات هذه الجبهة وفي مقدمتهم بعض اصحاب المحلات (السادة)، الى لصق صور المرجع الديني الاعلى حينذاك وهو السيد محسن

الحكيم على المحلات وجدران السوق، وبذلك حاولوا الاستفادة من الرمزية وما لها من دور في مشاعر الناس الذين اشرنا الى انهم اميون بنسبة 98%. لقد تم احترام هذه الصور وحصل التوجيه بعدم المساس بها، رغم انها تمثل رمزية دينية إلا انها وظفت في حينها توظيفاً سياسياً يهدف الى خلق (الردة) ضد الثورة ومنجزاتها.

بعد بضعة شهور قليلة لوحظ في ساحة هذه المدينة الاهتمام بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر ورفع صوره على بعض الجدران وكان القصد من ذلك خلق جبهة من بعض المتعلمين تسير باتجاه معاكس لحركة جماهير المدينة، وهذا ما حصل في مدن العراق كافة. ان هذه المحطة الزمنية تحتاج الى المزيد من التوقف والتحليل ونشير هنا بإيجاز، وهذا هو رأينا الشخصي وهو ان الصراع الحزبي الآيديولوجي طغى على الصراع الاهم والأخطر وهو الصراع بين قوى التقدم والتغيير على مختلف آيديولوجياتها وقوى الرجعية على مختلف آيديولوجياتها ايضاً. ونرى من المفترض ادراك تلك المرحلة المهمة تاريخياً وعقد التحالف الوطني الواسع لضم كافة القوى المدركة لأهمية التغيير في الاقتصاد والمجتمع والسياسة وعبورها باعتبارها مرحلة التحرر الوطني وهو ما دعا إليه الحزب الشيوعي العراقي والقوى الديمقراطية كافة.

نحن لا نتفق مع رأي استاذنا الجليل الراحل علي الوردي بتوصيفه ثورة 14 تموز (هزة) تسببت في عودة الشعب العراقي الى التنازع، وهو برأيه تنازع جديد ويقصد منه تنازع سياسي غير التنازع السابق الذي اخذ وجوهاً متنوعة: العشائري والطائفي والمناطقي (ينظر الوردي – 2009 – 410). انها ليست هزة بل هي ثورة لها مقدماتها وأسبابها والصراع الذي حصل هو ليس تنازعا بل صراع طبقي. لم تدرك الطبقة البرجوازية الصاعدة في حينه انها في الموقف الخطأ من معاداة الثورة. صحيح ان الشيوعيين كانوا حراس الثورة إلا انهم ادركوا ان المرحلة هي ليست مرحلة (الاشتراكية) بل مرحلة التحرر الوطني وتوطيد الاستقلال وتنمية الاقتصاد الوطني التي ستقود الى تنمية البرجوازية الوطنية من جانب وتنمية الطبقة العاملة العراقية من جانب آخر.

ان ما نشير إليه أدناه كثيراً ما ملأ الصحف والمجلات والكتب بآلاف الصفحات وهو توصيف غير علمي:

ظهر التنازع الجديد (الصراع الذي فجرته ثورة 14 تموز) وهو مصبوغ بطلاء من الشعارات والمبادئ الحديثة، غير انه في اعماقه يحتوي على جذوره القديمة، وهو في الواقع غير قادر ان يتخلص منها؛ اذ هي كامنة في اللاشعور – تحاول الانفجار عند سنوح الفرصة. ولهذا وجدنا الفلاح في القرية وابن الشارع في المدينة وغيرهما من العوام الذين تتألف منهم اكثرية الشعب العراقي قد اندفعوا يتظاهرون ويهتفون ويتحمسون ولكنهم في اعماق انفسهم كانوا يبتغون من ذلك مثلما كانوا يبتغونه في هوساتهم القديمة.

وجاء بعض المتعلمين يشجعون العوام في اندفاعاتهم تلك ويؤيدونهم بالبراهين العقلية، فأصبح كل من يخالفهم الرأي لا بد ان يكون خائناً او عميلاً للاستعمار.

وانتشر الغوغاء يبحثون عن الخونة ليعتدوا عليهم كمثل ما كانوا في عام 1908 يبحثون عن دعاة المشروطية وفي عام 1924 عن دعاة السفور. انهم هم لم يتغيروا بل تغيرت الشعارات والمبادئ التي تظاهروا بها. (الوردي – 2009 – 411).

هذا هو التفسير البرجوازي سواء صدر عن الادب أم عن العلوم السياسية أم عن علم الاقتصاد أو علم الاجتماع البرجوازي، بينما يستند علم الاجتماع الماركسي الى التحليل المادي. ان ما حصل في مدينة الحيرة ومدن وارياف العراق الاخرى ليس تنازعاً جديداً على خلفية التنازعات العشائرية والطائفية والمناطقية. كلا، إنه الصراع الطبقي الذي فجرته ثورة 14 تموز. وما حصل هو ليس مصبوغا بطلاء من الشعارات وهو انعكاس لما هو كامن في اللاشعور. كلا، لكل طبقة شعاراتها تلجأ اليها في محطات الصراع. وكلا، مرة ثالثة فابن الشارع هو ليس ابن الشارع بما لهذا التوصيف من دلالات اجتماعية قيمية، بل هم المهمشون الذين تم تجريدهم من ابسط حقوق الحياة. وكلا، للمرة الرابعة، هؤلاء العوام هم الطبقات الضعيفة والمسحوقة والتي تدار شؤونها دون ارادتها، بل حتى دون درايتها! انهم يهتفون لأهداف ادركوها من خلال الطليعة الاجتماعية الثورية، الطليعة يصفها علم الاجتماع البرجوازي (بالنخبة). وكلا، للمرة الخامسة فان المتعلمين الذين يشجعون العوام في اندفاعاتهم، هؤلاء هم النخبة المثقفة الواعية وطنياً وطبقياً وهم لا يشجعون العوام بل يتقدمونهم في نضالهم من أجل الثورة. وهؤلاء المهمشون الذين اتاحت لهم ثورة 14 تموز فرصة النضال الطبقي والوطني واسعة هم ليسوا غوغاء بل هم جماهير فاقدة لشروط الحياة. ونقول: للمشروطية مرحلتها الزمنية وأسبابها فهي ثورة بشروطها، وللثورة والدعوة الى (السفور) هي الاخرى لها مقدماتها واسبابها ونتائجها؛ فالمناضلون من اجل التغيير، المشروطية والسفور ولعل غيرها الكثير، هي ليست ذات الحال. كلا، لكل منها مبرراتها التاريخية (الدايلكتيك) فليس من المعقول ان نصف الحال بان الناس هم الناس وقد تغيرت الشعارات!

كثيراً ما يلجأ علم الاجتماع البرجوازي الى التفسير الساذج لبعده عن القوانين الحقيقية التي تقود الى التغير في المجتمع.

لقد اضطرت الطليعة الثورية في مدينة الحيرة، مثل غيرها من مدن العراق، ولأجل الحفاظ على الثورة، الى تشكيل المقاومة الشعبية والتشجيع على الانخراط بها.

ان شدة الصراع الطبقي وتعميقه في مجتمع الحيرة، كما تمت ملاحظته بصورة مباشرة وعشناه في تفصيلاته، حصل بفعل ما افرزته الثورة من (3) قضايا ثورية طبقية ذات اساس اقتصادي ونتائج اجتماعية.

أول هذه القضايا هي ان الطبقات الفقيرة والمهمشة في المدينة التي لم يكن لها قرار داخل المنظومة الاقتصادية في المدينة على بساطتها وداخل المنظومة الاجتماعية المحكومة بهيمنة التقاليد (الابوية)، تفاجأت ان اصبح لها ما يعطيها القدرة على ابداء الرأي وتحديد الموقف بنعم او لا، عبر النقابات والمنظمات التي انتمت اليها، واصبحت تتابع المواقف من مصيرها ومستقبلها يومياً، وتقرأ الادبيات التي تخصها أو يُقرأ لها في الاقتصاد والسياسة. وهذا هو

التغيير الذي حصل بل هو تثوير التغيير، والحقيقة ان هذا الحال الذي تغير كان يمكن ان يتحقق ويحصل من دون الثورة، ولكن بعد خلق الضرورات التاريخية مما يستلزم عدة عقود من الزمن.

ومن القضايا الملموسة وتعد من المكتسبات وهي ثاني قضية، هي صدور التشريعات التي حددت يوم العمل (8) ساعات، بعد ان كان هذا اليوم يبدأ من طلوع الشمس وحتى غروبها اي 12 ساعة او حوالي 14 ساعة. ان تقنين يوم العمل وجدولته بحد ذاته تثوير للتغيير في حساب الوقت واحترام الوقت ومعرفة قيمته، وهو الآخر قد يحصل عليه هؤلاء العمال بعد سنوات طويلة إلا ان تحقيقه بفعل الثورة كان اختصاراً لزمن التغيير. انه مكسب ثوري ملموس لصالح هذه الطبقة التي لا يملك افرادها سوى جهدهم العضلي يبذلونه للحصول على قيمته المادية يعتاشون عليها.

اما القضية الثالثة فهي تخص الفلاحين الذين يعيشون في قرى منطقة الحيرة، والذين نقدر تعدادهم حينذاك بحوالي (500) نسمة من الذكور والإناث والصغار والكبار. كان مكسبهم الثوري هو قانون الاصلاح الزراعي، فكان بمثابة ثورة اقتصادية اجتماعية. فقد حقق لهم حقوقهم الاقتصادية خارج (الكرم الابوي)، كما حقق لهم مكانتهم الاجتماعية خارج (الرعاية الابوية)، وتحت شعار الارض لمن يزرعها.

ان قانون الاصلاح الزراعي ثورة بحد ذاته لم يقتصر تأثيرها على سكان القرى المحيطة بهذه المدينة، بل امتد ليخترق الحدود البلدية لها، فتخلص الفلاحون من الاضطرار للبيع (على اخضر)، بيع حصتهم المتواضعة جداً من المحصول قبل نضجه وحصاده، تخلصوا من المرابين في سوق الحيرة.

عمّقت هذه القضايا الثلاث الحالة الطبقية في مجتمع مدينة الحيرة وريفها وعمقت الصراع فتحديد ساعات العمل كان لصالح العمال، ولكنه اضر بمصالح ارباب العمل. والانتساب الى النقابات والمنظمات أدى الى تراجع الانتماء القبلي والاسري (تراجع السلطة الابوية) فبعد ان كانت المرجعيات تتمثل برؤساء القبائل والاسر (آل بو) فان هذه المنظمات والنقابات حلت محل تلك المرجعيات التقليدية. ولا شك ان اصحاب هذه المرجعيات التقليدية فقدوا مكانة اجتماعية متميزة كانوا حريصين اشد الحرص للإبقاء عليها والاحتفاظ بها.

وقانون الاصلاح الزراعي عمّق كثيراً موضوع الصراع الطبقي في القرى، أي في مجتمع الريف، فقلص كثيراً من مصالح الاقطاعيين (غير المشروعة) وقدمها كحقوق للفلاحين. وكان لهذا القانون الاقتصادي نتائجه الاجتماعية داخل هذه القرى؛ إذ فقد الاقطاعيون والسراكيل مكانتهم الاجتماعية، فكان هذا القانون قانوناً اقتصادياً اجتماعياً هدف الى تغيير واقع الريف بشكل عام.

ان هذه المكاسب التي قدمتها الثورة كانت مرفوضة من قبل الطبقات التي خسرت بعض مصالحها باعتبارها (غريبة) على التقاليد والأعراف. وقد بحث البعض لها من تفسير ليضعها (ضد الدين) .

الى جانب ما تمت الاشارة إليه لا بد من التنويه الى ما تحقق بفعل الثورة من تثوير لعملية التغيير في مكانة المرأة داخل الاسرة وداخل مجتمع الحيرة؛ فقد تم تأسيس رابطة

حقوق المرأة في هذه المدينة فلنتصور داخل هذا المجتمع (الراكد) الذي تشيع بينه ثقافة (المرأة تكرم من طاريها) يوجد مكتب (بيت صغير) وعليه قطعة دلالة بعنوان (رابطة الدفاع عن حقوق المرأة). لقد توجهت النخب النسوية على محدودية اعدادهن الى البيوت لتعليم النساء القراءة والكتابة وحقوقهن داخل الاسرة وخارجها، لاسيما ضرورة دخول المدارس، وتدريبهن على بعض المهن والاعمال. فلأول مرة تسمع المرأة الحيرية احاديث عن الاقتصاد والمجتمع والاسرة والسياسة وعن دورها الرائد في الحياة الاسرية ودورها في الحراك الاقتصادي والاجتماعي، فتغيير مكانتها يرتبط بتحريرها اقتصادياً، فيتنامى دورها داخل الاسرة وفي طبقتها الاجتماعية. وقد حددت ذلك بشكل دقيق النظرية الماركسية "لاهاي – 2011–31 " .

كذلك حصلت مثل هذه المكاسب للشباب وللطلاب فكانت لهم مرجعيات هي منظمة الشبيبة الديمقراطية ومنظمة اتحاد الطلبة والى جانبها منظمة انصار السلام، فكانت منظمات ثقافة جديدة لمجتمع الحيرة، وقد ولدت للناس هناك القناعة بأن لهم دورهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في الحراك التاريخي لمدينتهم ولمنطقتهم.

صحيح ان مجمل التغيرات التي حصلت بفعل الثورة والتي اشرنا الى اهمها وبإيجاز كان من الممكن ان تحصل بفعل التطور الزمني الا ان الثورة هي عملية تعجيل زمني "غدنز – 2005–724" تختصر الزمن وهو تفسير اجتماعي برجوازي للثورة، يخص ما تؤول إليه من نتائج. نظن ان علم الاجتماع الماركسي يقر بذلك ويختلف بأسباب الثورة التي يفسرها بمنظور الصراع الطبقي وما يحصل فيه من دايلكتيك.

فالثورة اذن تغيير اقتصادي اجتماعي ومن ثم سياسي وليس اسقاط سلطة او حاكم كما يحصل في الانقلاب. وللثورة وكما حصل لثورة 14 تموز، موقف داعم للتغيير يختلف عن المواقف الأخرى وهي:

1 - موقف يرفض التغيير ويرى الحياة في السكون بفعل سطوة التقاليد والأعراف الموروثة على تصرف الفرد متذرعاً بالدين. وهذا الموقف غالباً ما يحصل في المجتمعات المعزولة التي يضعف معها الاحتكاك والتداخل والتفاعل مع المجتمعات الاخرى. ويعد المجتمع العراقي لا سيما في تلك الفترة من المجتمعات العربية المعزولة مقارنة ببلاد الشام، لبنان وسورية، ومصر وبلدان المغرب العربي. كما يعد مجتمع مدينة الحيرة في عزلة شديدة بفعل ان الموقع الجغرافي للمدينة متطرف عن طرق النقل والمواصلات حينذاك.

2 - موقف يؤمن بالتغيير عبر الزمن اي التطور خارج عملية التثوير، وتشير الادبيات السياسية والفلسفية الى نموذجين تاريخيين لذلك هما الثورة الفرنسية والتطور الديمقراطي البرلماني في انجلترا. انه موقف تتمسك به الطبقة الرأسمالية والطبقة البرجوازية. لقد وقفت البرجوازية التجارية الصغيرة في سوق الحيرة منادية بهذا الموقف ومنددة بالثورة كذلك كان حال الاقطاعيين.

3 - موقف يرى في الثورة عملية تعجيل زمني. على ان البعض من الباحثين يرون ان لهذا التعجيل الذي يختصر زمن التغيير له رداته السلبية، فيرى علم الاجتماع

البرجوازي ان أية عملية تغيير تحتاج الى هضم عبر الزمن حتى لا تكون نشازاً. ولعل في هذا التنظير حسب رأينا بعض الصحة في بعض الجزئيات. اما علم الاجتماع الماركسي فانه يفسر (الردة) هي حالة الصراع الطبقي، فأهل الردة هم الطبقات الخاسرة لمصالحها، وهذا لا يحصل عند حصول الثورة البروليتارية فحسب بل كما هو معروف تاريخياً في جميع الثورات ولعل الثورة الفرنسية (1798) مثالاً واضحاً لذلك.

ان التعجيل الزمني للثورة نلمسه في مدينة الحيرة عندما شكلت النخبة الطليعية في المدينة في ايلول من نفس العام وفداً يرأسه الشيخ حسن الخفاف وعضوية السيد طالب السيد كريم والسيد نوري زوين، لمقابلة زعيم الثورة عبد الكريم قاسم وتقديم الولاء والتأييد للثورة وطرح مطالب المدينة واحتياجاتها المهمة والملحة وكانت:

1 - ايصال شبكة الكهرباء من (ابو صخير) الى الحيرة؛ إذ كانت المدينة تعيش في حالة ظلام دامس، إلا من بعض الفوانيس المعدودة في سوق المدينة وفي بعض ازقتها الكبيرة.

2 - ربط الحيرة بشبكة المياه الصافية من (ابو صخير)، فقد كانت النساء على وجه الخصوص ينقلن الماء من نهر البديرية أو من نهر (جحات) جنوب المدينة الى بيوتهن ويستعمل للشرب ولغيره. وتقوم بتصفيته بمادة الشب الاسر المتعلمة والميسورة الحال، أو يتم شراء الماء من الباعة الذين ينقلونه على الحمير ويتجولون به داخل الازقة.

3 - تعبيد الطريق الواصلة بين (أبو صخير) والحيرة وهي بطول كيلومتر واحد.

4 - جعل الحيرة هي محطة التوقف الاخيرة لباص نقل الركاب (الحكومي) القادم من النجف الى (أبو صخير) للتقليل من عزلة المدينة وتسهيل حركة وانتقال سكانها الى (أبو صخير) والى مدينة النجف.

5 - تأسيس مدرسة للبنات وهو المطلب الذي اغاض شيوخا بالمدينة وكبار السن فيها باعتبار ذلك خرقاً للدين وللتقاليد والاعراف.

6 - تعيين طبيب الى جانب الموظف الصحي في المستوصف الموجود في المدينة.

7 - تأسيس متوسطة في (أبو صخير) للبنين والبنات.

لقد تم تنفيذ هذه الطلبات جميعها خلال بضعة شهور، فكانت من المنجزات الاقتصادية الاجتماعية التي قدمتها الثورة لهذه المدينة ولسكانها. ونعود ثانية ونقول ان هذه البنى التحتية المهمة للمدينة لا بد من ان تبنى ويتم تأسيسها عبر الزمن إلا ان ذلك سوف يحتاج الى زمن ليس بالقصير. من هنا تلمست هذه المدينة عملية التعجيل الزمني وتثوير الوقت بغاية الاصلاح والتجديد والتغيير.

ومع تنامي الوعي بين سكان هذه المدينة عبر ارتباطاتهم بالنقابات والمنظمات ازداد التفاف الجماهير الفقيرة فيها بالثورة، فشكّل ذلك الالتفاف كتلة شعبية واسعة مع الثورة، انفرد بعيداً عنه ومعزولاً البعض القليل ممن لم تحصل لديه القناعة بهذا الانقلاب الاجتماعي، وممن تضررت مصالحه.

الحقيقة، نقول ان هذه المدينة في عام 1959 اي بعد مرور اقل من نصف عام غدت مغلقة لأنصار الثورة دون منافس،

وهذا حال جميع المدن العراقية في حينها كما نعتقد. فكان الشارع في هذه المدينة وفي غيرها من مئات المدن، شارع بثقافة جديدة وبوعي عال لصيانة التغيير والسير به الى الامام. ونحن نرى، وهو اعتقاد شخصي، أن الذي جعل مدينة الحيرة مغلقة لصالح فكر الثورة وفكر التغيير هو عاملان: الوعي اولاً والمصالح الطبقية ثانياً. وقد جاء هذا التراتب بفعل عدم نضج العمال (عمال الاجور اليومية) في هذه المدينة. انهم اشباه عمال فلا يملكون أية خبرة وأي تخصص مهني وحرفي، ويملكون فقط جهودهم العضلية التي يبيعونها بصورة غير منتظمة، اي عند الحاجة إليها، فهم في الغالب في حالة بطالة. اما الوعي الوطني والطبقي فتولته الطليعة المجتمعية من التلاميذ والمعلمين والموظفين وبعض اصحاب المحال في السوق.

بفعل الواقع السياسي الذي هيمن عليه حراس الثورة من الشيوعيين واليساريين والديمقراطيين، جبهة المعاديين، تعمل على تحييد السلطة وتخيفها بأن الآخرين من داخل وخارج البلاد يصفون العراق بأنه صار (شيوعياً) وكأن الشيوعية (سبة) وهو بلد عربي اسلامي، في الوقت الذي حدد فيه الشيوعيون هذه المرحلة التاريخية كونها مرحلة التحرر الوطني ولم يفكروا اطلاقاً، حسب متابعاتي الشخصية ووجهة نظري، باستلام السلطة ونقل البلد الى مجموعة البلدان الاشتراكية وفلك الاتحاد السوفيتي، كما توصف الحالة، ونذّكر بالشعار الذي نزل الى الشارع وله معانيه السياسية المهمة وهو (ماكو زعيم الا كريم خروشوف كال بموسكو). لربما حسب اعتقادنا ان الشيوعيين قد استعانوا بالقيادة السوفيتية للاستشارة في تحديد الموقف من الزعيم عبد الكريم قاسم، فكانت الاستشارة هي حفظ الثورة وتعميق مرحلة التحرر الوطني، وفعلاً لو حصل ونفذ التوجه لاستلام السلطة السياسية لكان العراق افغانستان الاولى بفعل محيطه الاقليمي.

نجح المعادون، حسب تقديرنا، في توجههم المرحلي لتحييد السلطة فكان خطاب عبد الكريم قاسم في (كنيسة مار يوسف) محطة اولى استثمرتها القوى المعادية والقوى السياسية الأخرى التي عملت بنظارة الآيديولوجية الضيقة، فبدأت الهجمة الرسمية ومن القوى الأخرى التي بدأت تجمع فلولها في مدينة الحيرة ما اضطر بعض افراد النخبة الطليعية الى الهجرة من المدينة، فهاجر الشيخ حسن الخفاف بعد التهديد بقتله من قبل بعض السراكيل الى النجف، وهاجر السيد طالب السيد كريم الى بغداد والسيد نوري زوين الى النجف، والبعض هاجر الى كربلاء والى الديوانية. والبعض من افراد هذه النخبة انسحب من الساحة وأخذه النكوص والبعض الثالث رحل من الحياة.

توالت هذه الردّات المضادة للثورة وجماهيرها حتى كانت آخرها انقلاب 8 شباط (14 رمضان) في عام 1963 فدخلت البلاد في الجمهورية الثانية وفي تاريخ جديد. نرى ان عملية التحييد التي اعتبرها المعادون مرحلة وقتية وليست الهدف هي التي قتلت الثورة وقتلت زعماءها.

دخلت المدينة بمرحلة جديدة من تاريخها، فظهر فيها بعض الشباب الذين حاولوا تأسيس ثقافة الوحدة والحرية والاشتراكية

بين ناسها، فلم يستطيعوا التوغل في صفوفهم؛ فالوحدة العربية لا تعنيهم بشيء، فلا تتعلق بحياتهم المعيشية اليومية والحرية تعنيهم قطعاً وكذلك الاشتراكية ودون ان يتلمسوا شيئاً. انتهت هذه المرحلة بانقلاب آخر ذي طابع ناصري شعاره: حرية - اشتراكية -وحدة ولم يتلمسوا شيئاً ايضاً حتى حصل الانقلاب الثالث في 1968 وعاد الشعار "وحدة حرية اشتراكية". ولم يشعر اهالي الحيرة بتحقيق هذا الشعار سوى ببعض التشريعات المحدودة ذات الطبيعة الاشتراكية. استمرت هذه الجمهورية الرابعة (35) عاما، ولم تحصل مدينة الحيرة على بنى تحتية جديدة اطلاقاً سوى حصتها من الطرق الريفية المعبدة فتم تعبيد الطريق مابين المدينة وقرية الدسم الكبيرة لمسافة 8 كيلومتر.

حصل اسقاط النظام بل اسقاط الدولة من قبل الامريكيين في 2003 ولا ندري ماهي شبكة الاسباب الفعلية التي دفعتهم الى ذلك، لا بد من ان المستقبل سوف يفصح عن هذه الاسباب حيث قدم الامريكيون الكثير من الخسائر البشرية والمادية!

المصادر

1 - الدعمي، لاهاي عبد الحسين (2011) المركز العلمي العراقي ـ بغداد.

2 - غنديز، انتوني (2005) علم الاجتماع ـ المنظمة العربية للترجمة ـ بيروت.

3 - الوردي، علي (2009) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ـ دار ومكتبة دجلة والفرات ـ بيروت.

ستون عاما على صدور قانون الاصلاح الزراعي رقم (30) لسنة 1958
حل القضية الزراعية ما زال على جدول الأعمال

د. صالح ياسر
باحث اقتصادي

في المجتمعات التي يشكل فيها الفلاحون الأغلبية في المجتمع تعد المسألة الزراعية واحدة من القضايا التي دارت وتدور حولها صراعات متنوعة وتتبلور حولها وضمنها تحالفات وتكتلات تؤثر على المجرى العام للصراعات الأساسية في المجتمع عموما وفي الريف خصوصا.

بداية، تقتضي الضرورة المنهجية التعرف على طبيعة العلاقات الانتاجية التي كانت سائدة في الإقتصاد العراقي منذ سنوات الثلاثينات والسنوات التي أعقبت ذلك وحتى اندلاع ثورة الرابع عشر من تموز 1958. ويمكن تشخيص نوعين من هذه العلاقات وهما (1):

1. تطور سريع ورسوخ العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية في الريف العراقي وانعكاس تأثيراتها ومفعول قوانينها الإقتصادية على مجمل الإقتصاد العراقي وعملية النمو فيه.
2. نمو متواصل في العلاقات الرأسمالية في مرحلة التداول وخاصة التجارة الخارجية مع البدء في عملية النمو في العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في القطاعات الإقتصادية الأخرى بصورة تدريجية.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن نمو العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في القطاع الصناعي اتخذت مسارين الأول مرتبط باستثمارات أجنبية في قطاع النفط الخام والقطاعات الأخرى المرتبطة به، والثاني مرتبط بنمو الصناعة الوطنية وباستثمارات البرجوازية الصناعية الناشئة حديثا. وعليه فقد تميز الاقتصاد العراقي بكونه اقتصادا تسوده العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية شبه الاستعمارية.

ويعتبر التخلف السمة المميزة للنظام السائد في الزراعة العراقية قبل ثورة تموز 1958. إن علة التخلف الزراعي والذي يتمثل ببؤس الفلاح وتخلف القوى المنتجة في الزراعة، تكمن في (2):

1. نهب الشركات الأجنبية لثروات العراق بشكل وحشي فض، وفرض أسعارها الاحتكارية على أثمان المنتجات المصدرة الى الخارج وفرض أسعار احتكارية لوسائط النقل البحري.
2. العلاقات الإقطاعية وعلاقات ما قبل عصر الإقطاع من رسوم واستقطاعات تأتي على معظم ما ينتجه الفلاح، إضافة

الى الربا الفاحش ونهب التجار وإرهاق الفلاح بالديون.

3. الضرائب غير المباشرة.

غير أن تحديد السمة المميزة للنظام السائد آنذاك في الزراعة غير كاف، وحده، لفهم جوهر المشكلات التي كان يعاني منها هذا القطاع. إذ لا بد من تحديد الجانب الآخر من القضية ونقصد به طبيعة هذا النظام.

حدّد الحزب الشيوعي العراقي النظام الذي كان سائدا في الريف حينذاك بكونه نظاما شبه إقطاعي وأساسه الملكية الكبيرة للأرض ونظام المحاصصة حيث يبتز ملاك الأراضي ريع الأرض. كما أن هذا النظام شبه رأسمالي كذلك لأن معظم المنتج يوجه للسوق بهدف المبادلة (3).

وهذا التحديد يعكس ولا شك فهما سليما للآثار التي خلفها زحف العلاقات الرأسمالية الى الزراعة، وارتباط الإنتاج الزراعي بالسوق الرأسمالية. كما أن الإشارة الى استحواذ الرأسمال الأجنبي بالتعاون مع الملاكين العقاريين على الفائض الاقتصادي المتحقق في الريف يعكس فهما واضحا لعلة التخلف الأساسية في العراق يومذاك.

لقد أدى التسليع المتواصل وسيادة النقود ونمو الإنتاج الموجه للسوق على حساب الإنتاج الطبيعي، الإنتاج الموجه لسد حاجات المنتجين مباشرة الى مجموعة من النتائج الهامة، من بينها:

- تهديم العلاقات العشائرية (البطرياركية) التي كانت سائدة في الريف في حينه؛
- اتساع الهوة وتعمقها بين الفلاحين وملاك الأراضي ووسائل الإنتاج الأخرى، وقاد ذلك الى تبلور اصطفاف طبقي حاد في الريف قوامه القطبان الأساسيان: الفلاحون المقدر عددهم بالملايين وقتها من جهة، وملاك الأرض ووسائل الإنتاج الأخرى من جهة ثانية.

ومن المؤكد أن هذه السيرورات لم تكن بمعزل عن عاملين مهمين آخرين هما هيمنة الاستعمار الإنكليزي ونمو البرجوازية التجارية الكبيرة والدور الذي لعباه في ذلك. ويحق للمرء التساؤل عن طبيعة هذا الدور والأهداف المرجوة منه. إننا نشاطر التشخيص الذي قدمه د. كاظم حبيب (4) حين أشار الى أن الهدف من وراء ذلك كان يستهدف توفير الشروط المناسبة لإدامة السيطرة الاستعمارية وتحقيق أهدافها من خلال:

1. إيجاد فئة اجتماعية تتميز بموقع إقتصادي – إجتماعي وسياسي متين ومؤثر تستطيع توجيه الفلاحين، مستفيدة من العلاقات العشائرية والتقاليد الأبوية السائدة، الوجهة التي تخدم مصالح الإحتكارات الأجنبية وترتبط معها مصلحيا ومصيريا.

2. التخلص من الإنتاج المتخلف جدا والموجه لأغراض الاكتفاء الذاتي بشكل أساسي وتشجيع الإنتاج لأغراض السوق (التبادل) عبر تطوير الإنتاج السلعي الصغير في إطار العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية.

3. تحقيق تحالف إقتصادي – سياسي بين كبار الملاكين والبرجوازية التجارية من جهة وبين هاتين الفئتين والبرجوازية الأجنبية من جهة.

لقد كان لتطور النظام شبه الإقطاعي السائد في الريف العراقي نتائج مدمرة على الريف بشكل خاص وعلى الإقتصاد الوطني بشكل عام. فقد أدى الاستغلال الفظيع في الريف

من طرف الملاكين والشيوخ والسراكيل والمرابين وغيرهم الى النتائج التالية (5):

• تقلص حصة الفلاح من المنتج الى دون مستوى الكفاية، بحيث أصبحت حصة العائلة الفلاحية من المنتج لا تكفيها حتى موسم الحصاد الثاني.

• أصبح الفلاح مغرقا بالديون وبالتالي؛

• حرمان السوق الداخلية (وخصوصا الصناعية) من الفلاحين كباعة ومشترين.

• وأدى هذا الوضع الى انكماش السوق المحلية وبالتالي تقلص أفق تطور الصناعة الوطنية التي لا يمكن لها أن تتطور بمعزل عن هذه السوق وبدفع منها.

التناقضات وتجلياتها الملموسة في التشكيلة الاجتماعية في الريف العراقي

وانطلاقا من التوصيف السابق للنظام السائد في الريف العراقي بكونه نظاما شبه إقطاعي (6) يقوم على الاستغلال الذي يتعرض له الفلاحون من قبل الملاكين والشيوخ والسراكيل والمرابين وغيرهم، فإن التناقض العميق والحاد والذي لا يقبل المصالحة السائد في حينه، وهو التناقض التناحري بين الفلاحين والإقطاعيين والفئات المرتبطة بهم ولا يمكن حله إلا بتصفية الإقطاع والعلاقات الاستغلالية المرتبطة به والقائمة عليه.

من الناحية النظرية يمكن تصور حلّين لهذا التناقض:

- الأول والذي يمكن أن نسميه بالحل الجذري، حيث إن حل هذا التناقض سوف يؤدي الى قطع جذري – أي شكل جديد نوعي للملكية.

- أما الثاني فهو الحل الذي لن يقود الى قطع جذري بل يظل يدور في أفق الملكية الخاصة.

ويمكن الاستنتاج بأن الملاحظات السابقة تبين أنه كان هناك وعي دقيق بطبيعة التناقضات السائدة في الريف والزراعة العراقية حينذاك. ففي الوقت الذي جري التأكيد في أكثر من مكان على تصفية العلاقات الإقطاعية وشبه الإقطاعية السائدة فإن المقصود هنا ليست تصفية كل أشكال الملكية الخاصة بل على العكس من ذلك جري الحث على توسيع قاعدة الملكية الخاصة في الريف من خلال تحويل الفلاحين المستعبدين المجردين من أراضيهم الى فلاحين متحررين يملكون أراضيهم الخاصة بهم. ويبدو أن هذا الموقف كان ينطلق من تشخيصه الأعم لطبيعة المرحلة التاريخية التي تمر بها البلاد حينذاك بمحتواها البرجوازي، وبالتالي فإن المحتوى الاجتماعي للتحولات المنشودة في الريف وقتذاك يجب ألا يخرج عن هذا الإطار.

ولا بدّ من التأكيد هنا على أنه ومن أجل فهم المناخ الذي كان الحزب يبلور في ضوئه موقفه من المسألة الزراعية، لا بد من التذكير بالأجواء السائدة في الريف العراقي في تلك الفترة والتي امتازت بالانتفاضات والهبات الفلاحية والعشائرية ضد الإقطاع وضد مؤسسات الدولة التي كانت تدعمهم باستمرار.

كما أن من الضروري الاشارة أيضا الى ان الحزب كان واعيا لحقيقة أن نضال الفلاحين لن يصل الى نهايته بدون فهمهم لحقيقة أن نضالهم هو جزء من

النضال العام الذي يخوضه الشعب وقواه السياسية ضد النظام شبه الإقطاعي – شبه الاستعماري، وتأكيده على التعاون والتنسيق بين كادحي الريف والمدينة. وهو بهذا التحديد الواضح كان الحزب يسعى لخلق الأسس الضرورية لبلورة علاقة النضال المشترك بين العمال والفلاحين، والذي سيشكل لاحقا المنطلق والقاعدة الرصينة لأطروحة تحالف العمال والفلاحين ضمن إستراتيجية الثورة الوطنية الديمقراطية في ضوء الفهم الماركسي لها.

والخلاصة، انه وبغض النظر عن جملة من الصعوبات الموضوعية والذاتية، ومن بينها المستوى النظري الذي كان سائدا في الحزب في حينه، وهو ما زال قيد التشكل حينها، فان هذه الملاحظة لا تنتقص من محاولة الحزب الشيوعي العراقي لإنضاج مواقفه بصدد القضايا التي كانت تواجه الزراعة والاقتصاد العراقي عموما. فقد استطاع الحزب أن يبلور سياسته تجاه القضية الزراعية بشكل أولي، الأمر الذي أتاح له بلورة خط طبقي مستقل في مضامينه العامة، يميزه عن بقية القوى والأحزاب السياسية العاملة آنذاك.

ويبدو الجوهر الطبقي لبرنامج الحزب لحل القضية الزراعية واضحا لدى مقارنته بالبرامج الزراعية للأحزاب الأخرى، وفي هذا تكمن أهميته التاريخية. فهو ينحاز على درجة بالغة الوضوح الى جانب الفلاحين من خلال تفتيت الملكيات الكبيرة وتوزيعها على الفلاحين بهدف إلغاء جوهر الاستغلال الإقطاعي القائم على الاستحواذ على الملكيات الكبيرة، أو الدعوة الى النضال لوقف نهب أراضي الفلاحين أو الملاكين الصغار.

ويبدو أن الأساس النظري الذي ارتكن اليه الحزب عند صياغته لسياسته في الريف وموقفه من فئات هؤلاء الملاكين يقوم على الثلاثية المعروفة: كسب (الملاكين الصغار) – تحييد (الملاكين المتوسطين) – مصادرة (أراضي الملاكين الكبار).

غير انه لابد من ملاحظة استدراكية هنا وهي ان مواقف الحزب هذه لا تتعارض مع مطلبه الإستراتيجي في تصفية الملكية الخاصة الكبيرة للأرض، وعلى أهمية إرضاء حاجة الفلاح الى الأرض، والذي كان يؤكد عليه بين الحين والآخر.

أي اصلاح زراعي كان يحتاجه الريف العراقي بعد اندلاع ثورة تموز 1958؟

حين اندلعت ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958 بدا واضحا أن البلاد دخلت مرحلة جديدة نوعيا من تاريخها الحديث، اكثر حيوية ولكنها اكثر خطورة، وأن آفاقا كبيرة قد انفتحت لإدخال إصلاحات جدية في كافة جوانب الحياة الاقتصادية/ الاجتماعية/ السياسية، بيد أن عمق الإصلاحات وسعتها، والوتيرة التي تتحقق فيها كانت تتوقف، شأن كل الثورات، على طبيعة السلطة التي تنبثق عنها والعلاقات المتبادلة بين الطبقات وتوازنات القوى وسلوك القوى الأساسية، وعوامل داخلية وخارجية أخرى.

ومن بين تلك القضايا غدا الإصلاح الزراعي مطلبا ملحا يواجه الثورة الجديدة وجها لوجه، وكان لا بد من إصدار قانون ينظم هذه العملية الجوهرية، التي كانت

تطول اخطر القضايا في الريف، وهي قضية تغيير شكل الملكية الزراعية وتصفية أسس النظام السابق. وهنا دار صراع صاخب حول سبل حل المسألة الزراعية بين خطين سياسيين وفكريين:
* خط البرجوازية الوطنية ومن يلتف حولها؛
* وخط القوى اليسارية والديمقراطية، وأساسا الحزب الشيوعي العراقي.
وقد كشف انتصار الثورة العاجل قصور القوى السياسية المختلفة عن تكوين وجهة نظر واضحة ومحددة، إزاء المسألة الزراعية، كما هو الأمر بالنسبة للقضايا الكبرى الأخرى. فقد كان واضحا، ومنذ زمن بعيد، أن حلا لابد من اتخاذه بشأنها، وان أي حل لابد أن يستند أولا وقبل كل شيء، الى تغيير وضع ملكية الأرض الزراعية باعتبارها تمثل جوهر المشكلة ومصدر مشاكلها المتفرعة، غير أن المسألة الجوهرية التي لم تكن واضحة عند جميع القوى، وان بشكل متفاوت، هي حدود ملكية الأرض الزراعية. كانت هذه القوى تنادي بتحديد ملكية الأرض الزراعية، ولكن كانت هناك أسئلة تفصيلية تطرح نفسها بحدّة، من قبيل:
* ما هو سقف هذه الملكية؟
* ثم كيف ستتم عملية تحقيق الإصلاح الزراعي المنشود؟
وهذا ما لم يكن قد اتضح، وان بشكل متفاوت، لدى جميع القوى السياسية الوطنية حتى لحظة اندلاع الثورة.
وبعبارة اكثر تبسيطا يمكن القول أن جوهر الصراع في حقل المسألة الزراعية بعد ثورة 14 تموز 1958 كان يدور حول سؤال حاسم قوامه: أي إصلاح زراعي يحتاجه الريف العراقي آنذاك؟
في مسعى الإجابة على السؤال السابق، كان موقف السلطة الجديدة يتحدد بالأسس التالية:
* الإقرار بالملكية الخاصة للأرض، سواء كانت ملكية كبيرة أم فلاحية؟
* العمل لاستبدال العلاقات شبه الإقطاعية في الريف بعلاقات رأسمالية، وارتباطا بهذا، السعي لتصفية النظام القبلي والعلاقات القبلية.
* اتخاذ البرجوازية الريفية والرأسمالية الزراعية التي ستنمو بعد تطهير الريف من العلاقات شبه الإقطاعية، معبرا لنفوذها الى جماهير الريف وكسب الفلاح المتوسط.
* تمكين الملاكين من التحول الى عناصر رأسمالية في ما تبقى لهم من الأرض وتحميل الفلاحين أعباء هذا التحول.
هكذا، إذن، وفي 30 أيلول/ 1958، أي بعد مرور حوالي شهرين ونصف من اندلاع ثورة 14 تموز صدر القانون رقم 30 الذي عرف في ما بعد بـ(قانون الإصلاح الزراعي رقم 30)، الذي نقل صدوره وتطبيقه الصراع الاجتماعي في الريف الى مرحلة نوعية جديدة، وطرح مجموعة من الإشكاليات التي استحثت إجابات ملموسة ومحددة من خلال تطبيقه.
كشف تطبيق القانون رقم 30 عن حقيقة المواقف الطبقية المتنوعة إزاء المسألة الزراعية، والمصالح الطبقية التي تدفع بالأحداث في هذه الجبهة الهامة من جبهات الصراع الطبقي، فمثلما سعت البرجوازية الى أن تدفع بقانون الإصلاح الزراعي بالاتجاه الذي لا يصفي الملكية

الكبيرة، عملت أيضا على عرقلة تطبيق القانون بوسائل شتى، وبذلت جهودها من اجل أن تبعد الفلاحين ذاتهم عن المشاركة في التطبيق وحصره في أيدي الأجهزة الحكومية. وبالمقابل، وقف الحزب الشيوعي العراقي بقوة وراء تطبيق القانون والتسريع بعمليات الاستيلاء، وكان الحزب يدرك بأن القانون على علاته، يوجه ضربة قوية الى النظام شبه الإقطاعي.

والخلاصة، فقد دارت بين القوى الديمقراطية، وأساسا الحزب الشيوعي العراقي، من جانب والبرجوازية المحلية ومن ورائها قوى اليمين الرجعي والملاكون الكبار، من جانب آخر معركة أخرى ميدانها هذه المرة تطبيق الإصلاح الزراعي.

حفلت السنة والنصف الأولى من عمر الإصلاح الزراعي بالكثير من الأحداث والصراعات، وكانت، في واقع الحال، أوسع واعقد تجربة يتم خوضها في الريف. وفي ضوء ذلك برزت الحاجة الى تلخيص هذه التجربة واستخلاص الدروس منها وإيضاح موقف الحزب الشيوعي من قضايا الإصلاح الزراعي، كما أظهرها واقع الصراع في الريف. وقد ألّف الحزب لهذا الغرض لجنة خاصة كانت مهمتها تتلخص في جمع البيانات الضرورية لإعداد تقرير حول هذا الموضوع ومن ثم مناقشته ليأخذ صيغته النهائية، وبعد مناقشات مستفيضة اخذ التقرير شكله النهائي وطرح على الرأي العام العراقي تباعا في جريدة "اتحاد الشعب". ونشر في ما بعد في كراس صدر عن دار بغداد للطباعة والنشر بعنوان: "تقرير عن مسائل في الإصلاح الزراعي" (7).

يعالج هذا التقرير جملة من قضايا الأرض والإصلاح الزراعي والحركة الفلاحية، غير أن قراءة تفصيلية للتقرير تسمح ببلورة أربعة محاور كبرى يرتكز عليها، وكل محور يتضمن مجموعة من الاشكالات.

* المحور الأول: ويتضمن محاولة إنتاج مجموعة من الأدوات والمفاهيم، تستخدم في تحليل الواقع الملموس ـ الريف العراقي، يدور المحور حول جملة قضايا:

- مقدمة نظرية تاريخية مكرسة للدور الذي لعبه تطور الإنتاج السلعي في تفكيك العلاقات العشائرية. وكيف يؤدي تطور هذا النمط من الإنتاج الى مجموعة من الآثار التدميرية على أشكال الإنتاج الأخرى، وأساسا الإنتاج السلعي الصغير.

- استعراض ميكانيزم التحول من الإنتاج الطبيعي الى الإنتاج السلعي، وشرط ذلك التحول، وخصائص السوق المرافقة لهذا التحول في ظروف إنتاج سلعي ضمن إطار اقتصاد متخلف وتابع.

- شرح لدور النقود وسيرورات التسليع وانتشارها الذي يؤدي الى تمايز طبقي واضح وبروز أشكال متنوعة للاستغلال.

- ثم يتحدث التقرير عن إشكالية ملكية الأرض في الشرق انطلاقا من سؤال جابه الفكر التاريخي دائما وهو: لماذا لم يتوصل الشرقيون الى ملكية الأرض حتى بشكلها الإقطاعي؟

* المحور الثاني ويتضمن إشكالية التناقضات وتجلياتها الملموسة في الثورة البرجوازية الديمقراطية. يشخص التقرير في البداية طبيعة ثورة الرابع عشر من تموز 1958 بكونها ثورة برجوازية ديمقراطية من حيث علاقات الإنتاج، وانطلاقا من ذلك

يحدد طبيعة التناقضات خلال هذه المرحلة من تطور الثورة، مشيرا الى نوعين:
- الأول، هو التناقض بين العمال والرأسماليين الوطنيين في هذه الثورة ويعتبره، بحسب التسمية الواردة هنا - تناقضا جزئيا، أي تناقض داخل الشعب، أو بحسب المادية التاريخية تناقض داخل معسكر الثورة، ويمكن حله عبر تسويات وتنازلات متبادلة.
- الثاني، تناقض عميق وحاد ولا يقبل المصالحة، أي تناحري بين الفلاحين والإقطاعيين ولا يمكن حله إلا بتصفية آخر بقايا الإقطاع.
إذا قبلنا بهذه الأطروحة أمكننا الاستنتاج بأن التناقض الرئيسي/ السياسي كان يوجد في الريف ومصير حله يعتمد على كيفية حل الصراعات الكبيرة التي كانت تدور هناك بين القطبين المتعارضين: الفلاحين والإقطاعيين.
ونظرا لطبيعة الثورة، أي كونها ثورة برجوازية ديمقراطية فإن حل هذا التناقض لا يؤدي الى قطع جذري - أي شكل جديد نوعيا للملكية - بل إنه يظل يدور في أفق الملكية الخاصة، ولهذا استدرك صائغو التقرير موضوع الحديث بأن أكدوا أن محو بقايا الإقطاع "لا يعني بأي وجه من الوجوه محو كل أشكال الملكية الخاصة بل العكس تماما - أي أنه يعني توسيع قاعدة الملكية الخاصة بتحويل الفلاحين المستبعدين المجردين من أراضيهم الى فلاحين متحررين يملكون أراضيهم"، وبالتالي فإن المحتوى الاجتماعي للثورة الزراعية الفلاحية، بحسب تسمية التقرير، ضد الملكية الكبيرة هو محتوى برجوازي ديمقراطي وليس بروليتارياً بعد.
* المحور الثالث ويتضمن مجموعة من الإشكاليات المرتبطة بقانون الإصلاح الزراعي رقم 30 وتطبيقاته، في هذا المحور ثمة محاولة للإجابة على سؤالين حاسمين هما:
- الأول: لماذا تحفظ الحزب على قانون الإصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958؟
- الثاني: وبالمقابل لماذا أيده برغم تحفظاته عليه؟
وقبل الإجابة على السؤال الأول، لا بد من التأكيد على حقيقة مهمة هي أن القانون رقم 30 جاء حلا وسطا بين اتجاهين:
- الاتجاه الأول، الذي كان يدعو الى الاكتفاء بالحد الاعلى نسبيا من الملكية الكبيرة للأرض وتطمين حاجات قسم من الفلاحين الى الأرض.
- والاتجاه الثاني، الذي يمكن تسميته بالراديكالي الثوري الذي كان يدعو الى تخفيض الحد الأعلى الى حدود ملكية الفلاح الغني، وتمكين الأكثرية الساحقة من الفلاحين، خاصة الفقراء منهم، من تملك الأرض.
وبالرغم من التحفظات التي أخذها الحزب الشيوعي على القانون المذكور، فإنه اعتبره خطوة تقدمية في مجمله نظرا للظروف السائدة آنذاك. وأشار "تقرير مسائل في الإصلاح الزراعي" الى أن الحزب تبنى قانون الإصلاح الزراعي للعديد من الأسباب من بينها (8):
أولا- لأن هذا القانون صدر عن سلطة وطنية من حكومة الثورة واستجابة لمصلحة وإرادة جماهير الفلاحين الغفيرة الواعية، ولذا فإنه أشبه بمنهاج مشترك للحركة الوطنية في

ميدان الإصلاح الزراعي وفي النضال المشترك ضد الإقطاع.
ثانيا- إن مجرى إعلان القانون كان اقوى ضربة عنيفة - بعد ثورة 14 تموز - ضد سلطة الإقطاع وهيبته وأقوى مشجع وحافز للحركة الفلاحية.
ثالثا- لأن القانون يخفض مساحة الإقطاعيات واقتصاد الإقطاعيين بنسبة الثلث تقريبا.
رابعا- إن صدور القانون جعل بيد الحركة الفلاحية سلاحا شرعيا كان ضروريا لتعبئة وتنظيم أوسع الجماهير في الريف.

تحفظات على القانون

غير أنه وبالرغم من الملاحظات الايجابية السابقة فإن التقرير المذكور يسطر مجموعة من التحفظات على قانون الإصلاح الزراعي رقم 30 وبالتالي يجيب على السؤال التالي: لماذا جرى التحفظ على القانون المذكور؟
إن ابرز التحفظات كما وردت في التقرير هي (9):
أولا- أن القانون لم يصف ملكية احد من كبار الملاكين بل وضع حدا أعلى للملكية الزراعية (ألف دونم من الأراضي المرواة و2000 دونم من الأراضي المطرية). إن لهذا التحديد نتيجة مهمة وهي أن تحديد الحد الأعلى بهذه المساحات يترك نصف الأراضي الزراعية المستثمرة بيد الملاكين، وبمعنى آخر يترك نصف الفلاحين من دون شبر من الأرض.
ثانيا- إن القانون أقر مبدأ التعويض للملاكين والزم الفلاحين الذين ستوزع عليهم الأراضي بدفع التعويض خلال عشرين سنة. واذا دفعنا هذه الملاحظة الى نهايتها المنطقية امكننا القول ان صائغي القانون كانوا يهدفون الى تحميل الفلاحين تكاليف الانتقال الى الاوضاع الجديدة.
ثم يشخص التقرير المناورات والصراعات التي دارت حول كيفيات تطبيق القانون رقم 30 والآثار المتنوعة التي ترتبت على تطبيقه، ومن أهمها:
- إن القانون خلق الشروط لتطور هائل للحركة الفلاحية وساعد في تصاعد نضالاتها المطلبية وتبلورت، في مجرى الصراع، أشكال متقدمة لتنظيمها النقابي والسياسي.
- وكل ذلك أدى الى تسريع وتيرة الصراعات الاجتماعية والطبقية في الريف وانعكاساتها على عموم المجتمع. فقد حدث تمايز طبقي واجتماعي حاد وتبلورت تحالفات وتكتلات جديدة وبالتالي صار مطلوبا التأكيد على بلورة موقف متقدم من القضية الزراعية، وفي هذا الصدد أكد التقرير على أن الخطة الصائبة في تطبيق قانون الاصلاح الزراعي في هذه اللحظة هي:
أولا: تجريد الملاكين من الأراضي الخاضعة للإصلاح الزراعي ومن السلطة التي يمارسونها على فلاحيهم، وبالتالي تقويض دعائم الإقطاع في الأراضي المستولى عليها.
ثانيا: توزيع الأراضي المستولى عليها على الفلاحين بتمليكهم إياها.
* المحور الرابع ويتضمن الإشكاليات المرتبطة بالسياسة الطبقية للحزب الشيوعي العراقي في الريف في الظروف الجديدة التي نشأت بعد ثورة 14 تموز وبعد صدور قانون الإصلاح الزراعي. ينطلق التقرير من تشخيص حالة الريف في هذه المرحلة، مشيرا

الى انه يشهد ثورة زراعية فلاحية، هدفها إزالة بقايا الإقطاع وأساسها الملكية الكبيرة للأرض، ثم يشخص التناقض الرئيسي في الريف، الذي جرت الإشارة إليه في مكان سابق، ثم بعد ذلك يسعى التقرير لتحديد أدق لمعالم اللوحة الطبقية/ الاجتماعية في الريف العراقي عشية ثورة 14 تموز والسنوات التي تلتها. وهناك محاولة جادة في التقرير، في ضوء المستوى الفكري الذي كان سائدا آنذاك في الحزب وطبيعة الأدوات المنهجية المستخدمة، لتحليل الوضع في الريف على أساس تكوينه الطبقي واعتماد مجموعة من المعايير لضمان تمييز سليم يسمح بالتفريق بين الطبقات والمراتب داخل كل طبقة في الريف العراقي.

يعتمد التقرير معيارين منهجين:

- معيار الملكية/ تملك الأرض.
- معيار الاستغلال الطبقي.

ونظرا لأن الفلاحين لا يعتبرون طبقة متجانسة من الناحية المنهجية، ونظرا لوجود مراتب متعددة في أوساطهم، لذلك واجهت التقرير مشكلة ترسيم الحدود بين هذه المراتب بشكل صحيح بهدف صياغة سياسة سليمة وتكتيكات ملموسة تجاه كل مرتبة.

ولضمان ترسيم صحيح للحدود بين هذه المراتب انطلق التقرير من سؤال حاسم: هل الفلاح مستثمر (بكسر الميم) أم مستثمر (بفتح الميم)؟ وهذه هي القاعدة العامة لتمييز الفلاحين حسب مراتبهم الثلاث التالية:

- فقراء الفلاحين، وما يميزهم هو أنهم لا يستثمرون عمل غيرهم، بل أن الآخرين يستثمرون جزئيا أو كليا عمل هؤلاء الفلاحين.
- الفلاحون المتوسطون، القاعدة العامة هي اكتفاء الفلاح المتوسط ذاتيا، لكنه يستثمر أحيانا عمل الآخرين.
- الفلاحون الأغنياء، وما يميزهم هو انهم يستثمرون عمل الآخرين كقاعدة عامة.

وارتكانا الى هذا التحديد استنتج التقرير بأن هناك حاجة ملحة لبلورة سياسة حزبية صحيحة وواقعية تجاه المراتب الفلاحية الثلاث تقوم على الثلاثية المعروفة: اعتماد ـ اتحاد ـ كسب، أي:

- الاعتماد على فقراء الفلاحين وهم الأكثرية، وان تنظيما حزبيا متينا من هؤلاء هو ضمانة ضد الانتكاسة.
- الاتحاد مع الفلاحين المتوسطين.
- محاولة كسب الأغنياء من الفلاحين عبر تكتيكات ملموسة.

ولكي يكتسب النضال في الريف صيغته العملية والملموسة دعا التقرير الى البحث عن أشكال ملموسة، من أهمها تشكيل الجمعيات الفلاحية وضرورة الاختيار الصحيح لقياداتها دون فرض أوامر فوقية.

كما ميّز التقرير ثلاث مراتب للملاكين هي:

- صغار الملاكين.
- متوسطي الملاكين.
- كبار الملاكين.

وهنا بلور التقرير السياسة الطبقية الملموسة من هذه المراتب عبر ثلاثية محددة هي: كسب ـ تحييد ـ مصادرة، أي:

- النضال لكسب صغار الملاكين عبر العمل السياسي وكذلك من خلال تطمين مصالحهم الاقتصادية.
- تحييد الملاكين المتوسطين، من خلال الإبقاء على ملكيات الوطنيين منهم، باعتبار

ذلك الثمن الذي يمكن للحركة تقديمه لهم لقاء عدم انحيازهم لصف معسكر أعداء الثورة.

- مصادرة أراضي الملاكين الكبار وإجلاؤهم عن الريف، ومن خلال التمييز بين المعادين للثورة والموالين للجمهورية يمكن ضمان حق التعويض القانوني لمن من لم يقف موقفا معاديا، وعدم تعويض الخونة.

لقد كان الإيقاع السريع والعنيف للصراعات السياسية والطبقية المحتدمة خلال السنوات الأولى من عمر ثورة 14 تموز والأسئلة الجديدة التي طرحتها قد ألقت بثقلها على كل القوى السياسية، محدثة صراعات فكرية وجدلا صاخبا داخلها وفي ما بينها، حول أفق الثورة الوطنية الديمقراطية وإمكانيات الانتقال بها الى حدود جديدة تتجاوز الحل البرجوازي التقليدي.

وباختصار، منذ لحظة اندلاع ثورة 14 تموز 1958 كان هناك صراع يدور بين خطين سياسيين وفكريين متقاطعين حول جملة من القضايا من بينها القضية الزراعية والصراع داخل الريف وسبل حله، والتي ساهم القانون رقم 30 لسنة 1958، بما حمله من مضامين، في تسريع عملية الاستقطاب وبلورة حلول ملموسة وواقعية لهذه القضية في الريف، وان لم تصل الى نهاياتها المنطقية الصحيحة بسبب جملة من الأسباب والعوامل لا يتسع المجال للخوض في تفاصيلها هنا لأنها تحتاج الى معالجة خاصة. ولهذا يمكن القول: أن هناك العديد من المهمات التي طرحها القانون آنذاك ما تزال تتمتع براهنية، رغم مرور 60 عاما على صدوره.

ففي ضوء الأزمة التي تعيشها الزراعة والريف العراقي اليوم، والناجمة عن سياسات النظام المقبور والسياسات الاقتصادية التي اعتمدها الاحتلال، وأيضا انعدام وجود إستراتيجية تنموية عند القوى التي قادت العملية السياسية خلال الفترة بعد 2003، وفي ظل السياسات التي طبقتها الحكومات المتعاقبة، يتضح الاتجاه البارز لتمايز الفلاحين وإفقار فئات واسعة منهم من الشرائح الوسطى والصغيرة، وهذا يخلق أرضية لطرح بديل فلاحي ديموقراطي لا بد من تدشين نقاش بشأنه لبلورة عناصره.

ان التأكيد على ضرورة تدشين النقاش حول هذا البديل الزراعي، بعد مرور ستين عاما على ثورة تموز وفي هذه اللحظة بالذات يعود الى جملة عوامل واسباب من بينها:

- المحاولات التي طرحتها الحكومات المتعاقبة بعد 2003 (وقبلها ايضا) لـ "تدمير" أشكال الإنتاج ما قبل الرأسمالي أو رسملتها بقوة الأمر الواقع. ويتجلى هذه الترسمل واضحا عندما نعود للوسائل التي تتجلى بخلق الأرضية لرسملة القطاع الزراعي بدأ من "تدمير" الإنتاج السلعي الصغير (مزرعة العائلة) الى تأسيس الشركات المساهمة الى إيجار أراضي الدولة للشركات الزراعية مرورا بإخراج الدولة من أي نشاط في القطاع الزراعي.

- تسعى الوسائل أعلاه أيضا الى تحرير الأرض ذاتها كسلعة لصالح كبار الملاك والرأسمالية الزراعية، يقابله تحول أعداد كبيرة من فقراء وصغار الفلاحين إلى أشباه بروليتاريا.

- "الرؤية" التي طرحتها الحكومات المتعاقبة وخصوصا منذ حكومة المالكي

الاولى تراهن على اعتماد سياسات تقوم على مبدأ العمل حسب آليات المنافسة في سوق ما زالت قيد التشكل وغير مقننة مما سيؤدي إلى الآثار التالية:

(1) هجرة آلاف الفلاحين المستبعدين عن الإنتاج الريفي إلى أحياء عشوائية. وستظهر مجددا نماذج من مدن الصفيح التي ستفضي أيضا الى إعادة إنتاج الفقر والتهميش بمديات جديدة بكل ما يحمله ذلك من مخاطر اجتماعية على السلم الأهلي.

(2) تهميش نسبة متصاعدة من الفلاحين لصالح التركيز على إثراء أقلية.

(3) انتقال الفقر من الريف إلى المدن: أحياء عشوائية، بطالة، أعمال غير ثابتة.

ويمكن القول ان مقاربة مختلف الحكومات للإشكالية الزراعية في العراق ليست مقاربة أصيلة بل هي ترتكن الى نمط التطور الغربي بالأساس. ولكن لا بد من التأكيد هنا على استحالة تكرار هذا النموذج لجملة أسباب لا يتسع المجال للدخول في تفاصيلها، بل فقط الإشارة الى اختلافها عن تجربتنا من حيث الظروف والشروط. طبعا قد يجادل المدافعون عن رسملة القطاع الزراعي قائلين: إن المسألة الزراعية في أوروبا قد وجدت الحل في الهجرة من الريف، فلماذا لا تكرر بلداننا هذا النموذج بفارق زمني قدره قرن أو قرنان؟ ولكن هؤلاء ينسون أن الصناعة والخدمات الحضرية في القرن التاسع عشر كانت تحتاج إلى أيدٍ عاملة أكثر. وأن الفائض عن حاجتها قد هاجر إلى الأمريكتين. و"العالم الثالث" اليوم لا يملك هذه الفرصة، وإذا كان عليه أن يكون منافساً كما يفرضون عليه، فإن عليه اللجوء إلى التقنيات الحديثة التي لا تحتاج لأيدي عاملة كثيرة. إن الاستقطاب الناتج عن التوسع العالمي لرأس المال، يمنع بلدان "الجنوب" من تكرار نموذج "الشمال" بفارق زمني.

الهوامش:

1 - كاظم حبيب، دراسات في الإصلاح والتعاون الزراعي الإنتاجي، بغداد، 1976، ص 35.

2 - كتابات الرفيق فهد. من وثائق الحزب الشيوعي العراقي. الطريق الجديد ودار الفارابي، بغداد – بيروت، 1976، ص 2012.

3 - لمزيد من التفاصيل قارن: خيري، زكي: تقرير عن مسائل في الإصلاح الزراعي. دار بغداد للنشر والطباعة، بغداد، 1960، ص 6 ولاحقا.

4- كاظم حبيب، دراسات في الإصلاح والتعاون الزراعي الإنتاجي...، مصدر سابق، ص 36.

5- قارن: كتابات الرفيق فهد. من وثائق الحزب الشيوعي العراقي...، مصدر سابق، ص 205 – 207.

6- قارن: كتابات الرفيق فهد. من وثائق الحزب الشيوعي العراقي...، مصدر سابق، ص 205.

7- زكي خيري، تقرير عن مسائل في الاصلاح الزراعي...، مصدر سبق ذكره.

8- زكي خيري، تقرير عن مسائل في الاصلاح الزراعي...، مصدر سابق، ص 25 - 26.

9- المصدر السابق، ص 23.

ثورة 14 تموز والدولة المدنية الديمقراطية

د. إبراهيم إسماعيل

الدكتور إبراهيم إسماعيل من مواليد عام 1952. أكمل دراسته الجامعية عام 1974 في جامعة الموصل، ونال شهادة الدكتوراه عام 1990 من أكاديمية العلوم المجرية وشهادة دكتوراه علوم عام 2006 من الجامعة السويدية للعلوم الزراعية في مادة فسلجة النبات ويعمل أستاذا لهذه المادة في الجامعة المذكورة. أصدر 3 كتب في مجال تخصصه العلمي، ونشر 64 بحثاً علمياً في المجلات العالمية. كما نشرت له عشرات المقالات التي تعني بالشأن السياسي والاجتماعي في الصحف والمجلات العراقية والعربية.

في تموز من كل عام، وحين تضاء قناديل العيد ويستذكر العراقيون أريج ظفر مؤود ومذاق حرية مستلبة، تُذكى بينهم جمرة الحوار وتُشهر ذات الأسئلة القاسية، لتفضي الى تناقض مضن بين من يرى فيما حدث إنقلاباً عسكريا، فتح أبواب الجحيم على البلاد، وأضفى الشرعية ''الثورية'' على تدخل العسكر في السياسة وعلى إقامة الحكم التوليتاري البشع، الذي قطع الطريق على إقامة دولة مدنية ديمقراطية، وبين من يعتبر ما حدث ثورة وطنية تحررية، فتحت أبواب التطور والتقدم وأنقذت البلاد من التبعية والهيمنة الإستعمارية، واسقطت نظاما رجعيا إنتهج كل أشكال القهر السياسي والقومي والطائفي، وكان سبباً في كبت الحريات وغياب العدالة الاجتماعية!

وهناك في طيات هذا التناقض، من يرى بأن حفنة من الضباط المتهورين، أحلت نفسها بالقوة محل نظام دستوري أو شبه دستوري، كان قد أطلق مشروعاً واعداً لإعمار البلاد، فيما يرى آخرون بأن إقدام قطعات عسكرية، تتمتع بحس وطني متميز، على إشعال شرارة الثورة لا يعيبها، بعد أن قامت الجماهير الشعبية بإستكمال التغيير الثوري، بقيادة مجموعة من القوى السياسية الوطنية، التي لم تحتج لأكثر من ساعة لتجمع 100 ألف مواطن قاموا بدعم 3000 عسكري ممن أشعل الشرارة! ويمتد هذا التناقض حد تقييم رجالات الحدث، وقائدهم الأول، بين من يرى فيه شخصية مراوغة كتومة ذات ميول فردية حادة، رغم نزاهته ووطنيته (1)، وبين من يرى فيه وطنياً كبيراً ورمزاً يحتذى به (2)!

وكي يصل الحوار البناء لمبتغاه، لا بد أن يتم الإعتراف بالترابط الجدلي بين الإجابة على تلك الأسئلة وبين فك لغز سقوط التجربة، على يد عصابة صغيرة ومنبوذة، تمكنت بسرعة فائقة من الإجهاز على ثورة شعبية فريدة، دعمها ملايين البشر، يوم لم تكن فكرة المليونيات معروفة بعد! ويبدو

إن أية مساهمة في هذا الحوار لا بد أن يرتكز الى تحليل الفترة التي سبقت وأعقبت الحدث مباشرة، والى جملة العوامل الذاتية والموضوعية التي غيّبت تحقيق مشروع شامل لبناء دولة مدنية ديمقراطية قادرة على الصمود في بحر التحديات التي احاطت بالبلاد وما زالت.

الثورة المدنية الديمقراطية ودولة الإستبداد

يرتكز قيام الدولة المدنية الديمقراطية، كنقيض لدولة الإستبداد الديني أو الأوليغارشي أو التوليتاري، على مقومات أساسية، تتمثل في جانبها السياسي بسّن دستور يصوغه الجميع ويؤسس عقداً إجتماعياً، لا مكان فيه لأي تمييز أو إقصاء، وبالإستقلال الوطني الضامن للمساواة مع بقية الأمم، وبمبدأ سيادة القانون (الحق فوق القوة) وبإحلال دولة المؤسسات محل سلطة فرد أو عدد من الأفراد (الأمة فوق السلطة) وبالفصل بين سلطات ثلاث، تشريعية وتنفيذية وقضائية، وبالتداول السلمي للسلطة. وتتمثل المقومات تلك في جانبها الاجتماعي بصيانة الحريات الخاصة وحقوق الإنسان والقبول بالتنوع وتحريم إستخدام العنف أو الدعوة إليه لحسم أي شكل من أشكال الإختلاف، والمساواة التامة بين المواطنين بمختلق قومياتهم واديانهم وطوائفهم، وفي المقدمة من ذلك المساواة التامة بين الرجل والمرأة، وتوفير الخدمات الصحية والتعليمية وتطوير ودعم الثقافة الوطنية ومنتجيها من المبدعين للجميع.

ولأن عشرات التجارب في العديد من بلدان العالم، بإختلاف مستويات تطورها، قد أثبتت عجز الناس عن التمتع بحقوق سياسية متكافئة في ظل تباين مريع في دخولهم وأدوارهم الإقتصادية، سادت القناعة اليوم بأن للديمقراطية وجهين متكاملين، لا تتحقق الا بتكاملهما، وجه سياسي وآخر إجتماعي. وإن الربط المفتعل بين الإقتصاد الرأسمالي والحرية، خرافة فضحتها الأزمات المتكررة للرأسمالية. وكشف إنهيار الأنظمة الشمولية في أوربا الشرقية نهاية القرن الماضي، فشل الناس في الشعور بالرفاه الإقتصادي ما لم يقترن بحريات وحقوق سياسية. ولهذا جرى ويجري اليوم نضال عنيد من أجل توثيق العلاقة بين الحرية والعدالة الاجتماعية، تلك العلاقة التي لم تعد وسيلة لتخفيف الإستغلال الطبقي في إطار الدولة الوطنية فحسب بل وأيضا سبيلاً للقضاء على التمييز ضد الشعوب الفقيرة والأقليات والنساء، ومن أجل حماية البيئة والسلم العالمي.

وتعد دولة الإستبداد، بمختلف صورها، النقيض الأخطر للدولة المدنية الديمقراطية، فهي تُخضع الشعب لرأي القائد أو مجموعة القادة، وتُجبره على التسبيح بحمدهم وترديد أفكارهم، وتحجب بالعنف أية آراء مخالفة لها، فيما تُغيب كل أشكال التعددية أو تُقام تعددية شكلية لا تتمتع بأية قاعدة اجتماعية. وربما يوجد في دولة الاستبداد دستور، لكنه لا يمثل عقداً إجتماعيا لأنه عقد مفروض من المستبد على المجتمع، يصادر به المستبد الحريات ويسعى به لتأبيد سلطاته.

ولعل من أكثر الأمور خطورة عند الإنتقال

من دولة الإستبداد الى الدولة المدنية الديمقراطية، تجاهل حقيقة تؤكد أن هذه عملية تاريخية متدرجة، تشترط وصول كل القوى الفاعلة في المجتمع الى القناعة التامة بضرورة السيطرة على أدوات العنف وإدارة الصراع سلمياً وتنظيم العلاقة بين الطبقات الاجتماعية وبينها وبين مؤسسات الدولة.

هل كان العراق دولة مدنية ديمقراطية قبل 14 تموز؟

قبل محاولة الإجابة على هذا التساؤل، لا بد من إلقاء نظرة على تكوين الدولة العراقية عام 1921. فمن المعروف قيام المستعمر البريطاني بتكوين المملكة العراقية، ورسم حدودها بقوته ـ برضا الجيران أو رغم أنفهم ـ وإنشاء ما تحتاجه من مؤسسات وهياكل سياسية واقتصادية، وذلك من أجل ضمان السيطرة على العراق بأيسر السبل وأقل التكاليف. وقد سّلم الإنكليز قيادة هذه المملكة الى مجموعة من الضباط العثمانيين، الذين نقلوا ـ جراء نزعتهم القومية العروبية ـ ولاءهم من المستعمر التركي الى المستعمر البريطاني. وكي يوفروا لهذه القيادة شيئاً من الشرعية، جرى استيراد ملك مسلم وعربي هاشمي (بما له من قدسية مفترضة) كان المستعمرون الفرنسيون قد "اغتصبوا" عرشه في سوريا، وجمعوا حوله ما يحتاج من الأعيان والمشايخ. وبغية إيجاد قاعدة اجتماعية لهذا النظام، خلق الإنكليز طبقة من الإقطاعيين (عبر توزيع اراضي الدولة على شيوخ القبائل والسادة بما عرف بالأراضي الأميرية الممنوحة باللزمة)، وفئات من التجار والمصرفيين ورجال الأعمال المهتمين بتوفير الأسواق الجديدة والثروات الأولية للتوسع الرأسمالي. ولم يمر سوى عقد واحد حتى شهدت التشكيلة الاجتماعية تغييرات بنيوية، تمثلت في نمو كبير لفئة الفلاحين المعدمين في الريف، ممن فقدوا حريتهم وصاروا جزءاً من الأرض التي وزعت على الإقطاعيين، وإتساع الفئات الوسطى جراء زيادة عدد المتعلمين والنمو النسبي للإنتاج الصناعي، فيما ساهمت مشاريع الحكومة والإنكليز في خلق طبقة عمالية واعدة.

وسرعان ما فضحت هذه المتغيرات، غربة الدولة الفتية عن المجتمع، وكشفت عن فشل الإنكليز والنظام الملكي في إقامة دولة مدنية ديمقراطية، فالى جانب العجز عن تسريع بلورة الهوية الوطنية الجامعة وتحجيم الإنتماءات العشائرية والطائفية والقومية وما لها من أحكام وأعراف متخلفة وسطوة متميزة لرجال القبيلة والدين ومؤسساتهم (3)، شكل تمركز الثروة لدى قمة السلطة (التي تمثل فيها 50% من كبار الرأسماليين و82% من الاقطاعيين) (4) قطيعة مع المجتمع، الذي كانت غالبية جماهيره تعاني من فقر مدقع. والى جانب حرمان هذه الجماهير الواسعة من الثروة الوطنية ومن الخدمات ومن المشاركة في الحياة السياسية، حُرمت البرجوازية الوطنية وفئات المتعلمين من تلك المشاركة، في تناقض صارخ مع نمو دورها في الإنتاج الصناعي وفي الهياكل الإدارية والاجتماعية. وقد أدت الزيادة المضطردة لدور النفط في الدخل الوطني (وصلت الى 69% قبيل 14 تموز) الى تداخل

السلطة السياسية بالسلطة الاقتصادية، الأمر الذي أفضى بمجموعه الى اشتداد الطابع العنصري الطائفي للسلطة وتعمق غربتها عن قاعدتها الاجتماعية، وبالتالي لجوئها لتقليص الدور الشكلي للمؤسسات الدستورية ولممارسة العنف من أجل حماية إستبدادها (5). وهكذا افتقدت البلاد الى التعايش السلمي والأمن الجماعي والمساواة في الحقوق والواجبات والحريات المختلفة، إضافة الى عدم الإعتراف بالتنوع.

ولعل أبلغ وصف لما كان يعيشه العراق هو ما شهد به صنّاع ذلك الواقع، حيث يشير تقرير السفير البريطاني ببغداد عام 1957 الى تلكؤ برنامج الإعمار بسبب العزلة السياسية للنظام داخلياً وعربياً وإنخفاض وارداته ووصول العجز المالي الى 8.5 مليار، إضافة الى تنامي سريع للمعارضة، أجبر الحكومة على إغلاق المدارس وفرض الرقابة على الصحف وشن حملات قمع كبيرة (6). وهكذا فإن الحديث عن وجود أي شكل للدولة المدنية الديمقراطية قبل 14 تموز 1958، يبدو أمرا مجافيا للواقع ومحض تقييم أيديولوجي غير منصف.

14 تموز 1958

في صبيحة هذا اليوم، قام الجيش العراقي باستخدام العنف لتغيير النظام القائم، لأول مرة بنجاح تام. ولم يمض سوى وقت قصير حتى تحول هذا الانقلاب العسكري الى تغيير ثوري في بنية الدولة والمجتمع، شمل إسقاط النظام الملكي "الدستوري" وإنجاز الإستقلال الحقيقي للبلاد، التي حُررت من الهيمنة الأجنبية والأحلاف الإستعمارية، وإضعاف النفوذ الإستعماري في المنطقة كلها، وتوجيه ضربة موجعة للعلاقات ما قبل الرأسمالية وتحطيم السلطة الاجتماعية لمالكي الأرض، والسعي لاستبدالهم بالفئات الوسطى وتعزيز مواقع البرجوازية الوطنية ودمج مئات الآلاف من العمال والفلاحين في الحياة السياسية والعملية الإنتاجية.

وقد شكل ذلك كله ذروة لنضال سلمي خاضه جيل كامل من الطبقة الوسطى والبرجوازية الصغيرة والطبقة العاملة، تمظهر في انتفاضات كبيرة أعوام 1948، 1952 و 1956. ويمكن الإشارة الى أن استخدام العنف من قبل الجيش والشعب عام 1958 لم يكن سوى معادل موضوعي لعنف المستعمر أثناء احتلاله للبلاد وإقامته للكيان العراقي، وعنف الشريحة المعزولة التي نُصّبت لقيادة هذا الكيان. كما جاء نتاجاً لعجز القوى الوطنية عن انتزاع السلطة بطريقة سلمية جراء اسباب كثيرة يأتي في مقدمتها غياب هوية جامعة في المجتمع (7).

ورغم أن قوى الثورة قد ضمت أحزاباً برجوازية وعمالية، فإن السلطة التي أقيمت غداة نجاحها اقتصرت على مختلف فئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة وإن بقيادة مطلقة للجيش كقوة أساسية وليس كذراع ضارب لها. لقد أراد العسكريون الذين إستلموا السلطة، المحافظة على شكل ومضمون الدولة التي استلموا قيادتها مع تحقيق الإستقلال الوطني وصيانة الثروة الوطنية وخلق أجواء من الثقة بين الدولة والمجتمع، فأنجزوا من أجل ذلك سلسلة من الإجراءات الهادفة، لتحقيق بعض

التوازن في توزيع الثروة، وتعزيز الدور الاقتصادي للبرجوازية الوطنية عبر تقليص الهيمنة الأجنبية على السوق. ولتصفية العلاقات شبه الإقطاعية في الريف والتي سببت تخلفاً في الإنتاج الزراعي، وأعاقت جراء ذلك التطور الصناعي وأبعدت مئات الآلاف من المواطنين عن أية فعالية اقتصادية أو اجتماعية، سنّت الحكومة قانون الإصلاح الزراعي الذي حدد سقف الملكية الزراعية، وحرر 40% من الأراضي الزراعية ووزعها على الفلاحين، وسعى لتخفيف الإستغلال عبر تنظيم العلاقة بين مالك الأرض والفلاح، وذلك لدمج الفلاحين في العملية الإنتاجية وتطوير دورهم الاقتصادي والاجتماعي.

ماذا تحقق على طريق الدولة الديمقراطية

شكل التغيير الثوري في 14 تموز الخطوة الأولى الحقيقية لإقامة الدولة المدنية الديمقراطية في العراق، حيث أُشركت كل المكونات العراقية في إدارة الدولة، بشكل أو بآخر، سعياً لبلورة هوية وطنية جامعة تحقق السلم الأهلي الشامل وتضمن احتكار الدولة لأدوات العنف. كما أُنجزت جملة من المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية، سعياً لإعادة الثقة بين الدولة وقاعدتها الاجتماعية ورُسمت معالم أولية لتنمية وطنية مستقلة (8). كما خطت حكومة 14 تموز خطوات مهمة على طريق العدالة الاجتماعية عبر تفتيت الملكية الزراعية للأرض ودمج الفلاحين في النشاط الإقتصادي والسياسي ودعم النشاط الإنتاجي للبرجوازية الوطنية. وقد تم إنشاء العشرات من المنظمات الجماهيرية والجمعيات والنقابات التي سعت لتعبئة الجماهير وجذبها الى العمل من أجل الحرية ولقمة العيش، وبالتالي تحقيق التحول الديمقراطي سياسيا واجتماعيا.

وعلى طريق التحديث، باعتباره أهم قاعدة لبناء الدولة المدنية الديمقراطية، تم سّن أول قانون تقدمي وحضاري لضمان المساواة بين الجنسين، ورفع الحيف عن النساء ودمجهن في النشاط العام للمجتمع، وإطلاق حملات لمحو الأمية الأبجدية والحضارية، وتحقيق توزيع أكثر إنصافاً ليس للثروة فحسب بل وأيضا لبرامج التنمية والخدمات وللنتاج المعرفي والإبداعي. وقد ضمنت الحكومة في عامها الأول، والى حد كبير، حرية الإبداع والاعتقاد والبحث العلمي، وانحازت الى قيم التقدم العلمي والتنظيم المناسب للعلاقة بين الدولة والدين مستثمرة التراث التقدمي للعقلانية الإسلامية.

غير أن كل هذه الإنجازات، التي أرست لبنات مهمة للدولة المدنية الديمقراطية، بقيت قلقة لغياب قاعدتها الإساسية المتمثلة ببناء دولة المؤسسات الديمقراطية. ففي الوقت الذي ألغت فيه حكومة 14 تموز، البرلمان الملكي بغرفتيه والمحكمة الدستورية، وقوّضت سلطة الأرستقراطيين ومالكي الأرض، احتكر العسكريون كل السلطات، وجمع مجلس الوزراء السلطتين التنفيذية والتشريعية، وأصدر دستورا مؤقتاً، أغفل تحديد فترة الإنتقال التي سُّن أساساً لتنظيمها، وتبنى الضباط المتنفذون في الحكومة ما يروق لهم من قوانين (9)، مدعّين بأنهم يستندون في قراراتهم الى إرادة الشعب، دون أن يبرهنوا على ذلك بتفويض شعبي واضح.

ولم تك تستكمل السنة الأولى على قيام الثورة، حتى بان التناقض واضحاً بين كل الإجراءات التغيرية والإنجازات التقدمية وبين تبني المركزية الشديدة، وكذلك بين الميول الفردية والطبيعة غير المتجانسة لقمة السلطة (المتكونة أساساً من عسكريين مختلفي الميول، لا يمثلون بدقة التنوع المكوناتي) وبين قاعدتها الاجتماعية التي كانت مكوّنة في الغالب من العمال والفلاحين والبرجوازية الصغيرة. ولعل أبرز مؤشر على هذا التناقض التحذير الذي أطلقه الحزب الشيوعي العراقي منذ البداية (أيلول 1958) ودعوته لوضع برنامج واضح لإقامة دولة ديمقراطية.

وتتحمل أحزاب جبهة الإتحاد الوطني شيئاً غير قليل من المسؤولية عن هذه المشكلة، حيث لم تحدد عملياً دور الجيش في الحياة السياسية بعد إنتصار التغيير، الذي خلا بيانه الأول من أي استعداد للعسكر على العودة الى ثكناتهم بعد إنجاز مهمتهم. وتزداد تلك المسؤولية حين نرى تبني بعض هذه الأحزاب لما كان يعرف بالشرعية الثورية واحتقارهم للديمقراطية الدستورية، هذا التبني الذي ظهر حتى لدى الحزب الوطني الديمقراطي، حين تخلى جناح واسع منه عن مطامحه الدستورية مقابل وزارات مهمة في حكومة 14 تموز، مما أدى الى استسلام الفئات الوسطى لتصاعد النزعات الاستبدادية لدى قمة السلطة.

وفي عاميها الأخيرين، أدى التطور المتفاوت للمكونات العراقية، التي غيّرت الثورة في أدوارها، وعدم قيام رأسمالية زراعية لتحل محل طبقة الإقطاعيين البائدة في الريف، وتضارب مصالح أقسام البرجوازية الوطنية مع بعضها وتبعيتها الشديدة للدولة، وعدم تجانس الفئات الوسطى وإشتداد تبعيتها الى الدولة كرب عمل وكمنجم للرفاه والخدمات، الى تصاعد في النزعة الاستبدادية، وبالتالي الى تراجع خطير عن السير على طريق بناء الدولة المدنية الديمقراطية، فتم تقليص تدريجي للحريات العامة، ثم صار هناك صوت واحد يجيب على كل الأسئلة، ولأنه صوت لأبي الشعب (10)، فكل إجاباته صحيحة بالضرورة!

وكان بديهياً أن تؤدي كل هذه التراجعات الى عزلة النظام عن المجتمع من جديد، لا سيما حين تخلى الكثيرون من الضباط عن الزعيم عبد الكريم قاسم الذي سعى لإبعاد الجيش عن السياسة (متناسيا بأنه وانصاره عسكريون أيضاً ويشملهم شعار الجيش فوق الميول والاتجاهات)، دون أن يتمكن من تصفية نفوذ أعدائه في الجيش، الذي لم يعد هناك من سند للنظام غيره!

إن ما حدث خلال 1961 – 1963 في العراق مثل بداية تقليص النشاط السياسي والاقتصادي للمجتمع، وإحتكار العسكر لوسائل العنف وحلولهم محل المجتمع في دولة تسلطية أو في نواة ما اسماه الراحل فالح عبد الجبار بالدولة الكليانية (11).

ولعل أبلغ وصف للتراجع المريع عن السير في طريق الدولة المدنية الديمقراطية ما سجله الحزب في الذكرى الرابعة لقيام الثورة ببيانه (8 تموز 1963) حيث أشار الى إنحراف الحكومة في سياستها الداخلية لصالح القوى الرجعية واعتمادها عليهم في قمع الحقوق والحريات الديمقراطية وتزوير تاريخ نضال الشعب. وانتقد البيان بشدة سياسة النظام في قمع المنظمات والنقابات

والجمعيات المهنية الوطنية. ودعا الحزب الى النضال لصيانة الاستقلال الوطني وحل أزمة كردستان حلاً سلمياً ديمقراطياً عادلاً وإنهاء الفترة الاستثنائية وإقامة مجلس تأسيسي منتخب وإقرار دستور دائم. وحين لم تعط قيادة الثورة وباقي الأحزاب الوطنية إذاناً صاغية لهذه التحذيرات الحريصة والدقيقة، تمكنت حفنة من المنبوذين من تنفيذ المخططات الاستعمارية وأغرقت البلاد في حمام دم، أغلق الطريق أمام إقامة دولة مدنية ديمقراطية حتى يومنا هذا.

واليوم وفي الذكرى الستين لهذا الحدث الوطني الهام، فإن أي تقييم موضوعي لأدوار الشخوص والأحزاب والمنظمات في مسار ما جرى، سواءً في الإستسلام لأحلام غائمة أو لأوهام رومانسية أو لتغليب النزعات الإنسانية، خيّرة أو غير خيّرة، لن يقلل من إحترام مبادرات الجميع ومن ريادتهم في النضال لتحقيق هدف ما زال يرنو اليه كل العراقيين، فلهم ولذكراهم، راحلين وأحياء، أنحني وأضع قلبي زهرة وفاء.

الهوامش:

1 - حنا بطاطو (1999): العراق الكتاب الثالث ص 121.

2 - عقيل الناصري (1998): مجلة تموز/ العدد 9، مالمو السويد ص 17.

3 - حنا بطاطو ـ المصدر السابق ص 427.

4- حنا بطاطو ـ المصدر السابق ص 429.

5- فالح عبد الجبار (2017): كتاب الدولة ـ اللوياثان الجديد ص 120-104.

6- الثقافة الجديدة (1998): العدد 283 ص 75.

7- يذكر السيد نصير الجادرجي في مذكراته (دار المدى، 2017، ص 450) بأن والده السيد كامل الجادرجي زعيم المعارضة الوطنية للنظام الملكي تحفظ على دعم الضباط الأحرار، إلا بعد التأكد من إنتصار حركتهم التي وقعت في 14 تموز 1958.

8- إبراهيم كبة (2008): الوضع الاقتصادي 1960-1958. الثقافة الجديدة/ 325 ص 65.

9- تشير د. نزيهة الدليمي، أول وزيرة عراقية بعد 14 تموز الى أن تجربتها الشخصية اكدت لها ان من العسير عليها طرح أي مشروع لا يرتضيه رئيس الوزراء حينها، ففيما لم تجد صعوبة في طرح مشروع قانون الاحوال الشخصية واجازته، كان مستحيلا عليها تعديل المواد ذات المحتوى الرجعي في قانون الجمعيات لعام 1960 او قانون البلديات بسبب رفض الزعيم لهما. الثقافة الجديدة 284/1998 ص 15.

10- كانت تجري في طاجكستان إنتخابات رئاسية يفوز بها دوما أمام علي رحمانوف، ويبدو أن الرجل قد ضجر من هذه اللعبة، فتحول بمرسوم جمهوري الى أب للشعب كله، ولا يحتاج أحد لأن ينتخب أباه، ولهذا فهو أب مدى الحياة للشعب!

11- فالح عبد الجبار ـ المصدر السابق ص 131.

الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية لثورة 14 تموز 1958 في العراق

م . م . حيدر عطية كاظم
كلية التربية - الجامعة المستنصرية

حيدر عطية كاظم، من مواليد 1980 حاصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من كلية التربية – الجامعة المستنصرية في العام 2002، وحاصل على درجة الماجستير في عام 2013 من كلية التربية – الجامعة المستنصرية، عن الرسالة الموسومة "الموقف الرسمي والشعبي من سكان الاكواخ 1932 - 1963 - بغداد انموذجا" بتقدير امتياز. طالب دكتوراه في الكلية ذاتها في طور كتابة اطروحته الموسومة "الفقراء في العراق والموقف الرسمي والشعبي منهم 1939 - 1958 دراسة تاريخية". شارك في العديد من المؤتمرات. كما له عشرات المقالات التاريخية المنشورة في عدد من الصحف العراقية، اضافة الى عدد من البحوث. له عملان منجزان: عبد الكريم قاسم وسكان الصرائف في بغداد، وسكان الصرائف في بغداد، دراسة في تاريخ العراق الاجتماعي.

المقدمة :

تعد ثورة الرابع عشر من تموز 1958 في العراق، انعطافة تاريخية بارزة في تاريخ العراق المعاصر؛ إذ أسقطت هذه الثورة النظام الملكي الذي حكم العراق لفترة قاربت الأربعة عقود، وأعلنت ولادة النظام الجمهوري فيه.

لقد هزت ثورة 14 تموز العراق من أقصاه إلى أقصاه هزاً عنيفاً، وفجرت تناقضاته السياسية والاجتماعية والثقافية أيضا.

كما لم تكن ثورة 14 تموز حدثاً مفاجئاً أو عابراً في حياة أو تاريخ العراق وإنما، كانت له مبرراته وممهداته، فطبقاً لقانون تراكم الأحداث عمودياً، فإن مجموعة أحداث وانتفاضات وحركات سياسية وغيرها شهدها العراق إبان العقدين الأخيرين من عمر النظام الملكي، هي التي خلقت وهيأت الظروف الملائمة للتحرك الثوري الذي تفجر في الرابع عشر من تموز 1958.

الابعاد الاجتماعية والاقتصادية لثورة 14 تموز 1958 في العراق:-

1- الاسباب السياسية والاجتماعية والاقتصادية لثورة 14 تموز 1958 في العراق:

لكي نفهم ما حدث يوم 14 تموز 1958 علينا أولاً أن نقف أمام أحوال العراق السياسية

والاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في العراق قبل 14 تموز 1958، والتي في مجموعها تشكل الأسباب التي وقفت وراء تلك الثورة.

كان النظام السياسي الذي ورثه العراق عن الدولة المنتدبة (بريطانيا) هو نوع من الحكم الديمقراطي النيابي، الذي يشبه إلى حد ما الأنظمة الديمقراطية في الدول الغربية. وكان العراقيون يتوقون أن يتطور هذا النظام ليصبح في الوقت المناسب نظاماً ثابتاً ونيابياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لكن بعد انتهاء الانتداب فقد هذا النظام معناه، لأن النخبة الحاكمة كشفت عن ميولها للتفرد بالسلطة المطلقة والاحتفاظ بها لنفسها غير مبالية باللعبة البرلمانية، فبقيت السلطة السياسية مدة ليست بالقصيرة في يد طبقة سياسية تمثل الجيل القديم أساساً.

لقد أدى احتكار تلك الطبقة للسلطة السياسية واستخدامها للمحافظة على مصالحها الخاصة، ووقوفها بالضد من كل محاولات الطبقات الأخرى، لا سيما الطبقة البرجوازية المتنامية للمشاركة في الحياة السياسية وتعزيز فرص الاستفادة من الثروة الوطنية، إلى انتشار التذمر والنقمة بين أكثرية الشعب العراقي. ولم يكن اعتباطاً أن يبشر أحد النواب المعتدلين الطبقة الحاكمة بسوء المصير عندما قال ما نصه: "كل نظام إذا كان المتمتعون به أقلية من الناس والمحرومون منه الناقمون عليه أكثرية الناس فإنه نظام لا يدوم".

إن أحد الأسباب الأساسية لإزاحة النظام الملكي يعود أساساً لرغبة الطبقة السياسية فيه بالتفرد بالسلطة وغلق الأبواب أمام ممثلي الطبقات الأخرى، خاصة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فهي لم تسمح للطبقة البرجوازية الوطنية أن تحتل مكانها الطبيعي في إدارة الدولة خاصة أنها أصبحت مؤهلة لذلك. وعندما لجأ ممثلو هذه الطبقة مع غيرهم من أبناء الفئات الاجتماعية الأخرى، إلى وسائل النضال لتحقيق أهدافهم، غير أنهم لم يجدوا الطرق مغلقة فقط وإنما، جوبهوا بأشد إجراءات القمع لإبعادهم عن الحياة السياسية، ما زاد من عمق الهوة القائمة بين الطبقة الحاكمة في العراق الملكي وسائر الطبقات الأخرى.

لا نبتعد عن الحقيقة إذا ما ثبتنا هنا أن ذلك قد تجسد في السنوات الأربع الأخيرة من عمر النظام الملكي والتي عدت بأنها حرجة، مكنت نوري السعيد خلالها لا أن يهيمن على حياة البلاد السياسية بشكل غير مسبوق فقط وإنما، أوكلت إليه الطبقة السياسية التصدي للحركة الوطنية تمهيداً لطرح مشاريع إقليمية في المقدمة، منها حلف بغداد. لقد كان حكم نوري السعيد إبانها استبدادياً، أستطاع أن يقضي فيها على كل نشاط سياسي تقريباً، وكان يعتمد أساساً على دعم الجيش وعلى كفاءة رجالات الأمن. كانت ميول السعيد الاستبدادية نابعةً من طبعه ومزاجه واعتقاده بأن الاستبداد الوسيلة الصالحة للحكم، فضلاً عن ثقافته العثمانية التي ساهمت في تجمده على نمط واحد من التفكير، والذي لم يهتم بالرأي العام العراقي، ناهيك عن تدريبه العسكري في مرحلة الرجولة المبكرة، واعتقاده وتصوره أن عراقاً مستقراً ومرفها ذا نفوذ لن يصبح حقيقة إلا بحكم رجلٍ قوي واثقٍ وحليفٍ لبريطانيا. بعد أن وافق رأس النظام الملكي على كل شروطه لعودته إلى الحكم. شكل نوري السعيد وزارته الثانية عشرة التي استهلت حياتها بعدة مراسيم لم يسبق لها مثيل في تاريخ العراق. لقد طالت مراسيم نوري السعيد كل جوانب الحياة السياسية والحزبية،

وقضى فيها تقريباً على المعارضة السياسية، بعد أن أهدر شرعية الأحزاب، وألغى حرية إبداء الرأي والصحافة وكمم الأفواه.

لم يقف استبداد نوري السعيد عند هذا الحد وإنما، ألقى في غياهب السجون الألوف من أحرار العراق ووطنيه، ولعل عبد الكريم الأزري كان مصيباً عندما قال إن أسباب التذمر العام، هو الكبت المؤلم للحريات والتضييق على الناس من التعبير عن أمورهم المالية، وإن هذا الكبت سيؤدي إلى الانفجار.

بعد هذا كله، لم يكن غريباً أن تؤدي تلك السياسة إلى النقمة والسخط الشعبي العام، وبالتالي دفع الكثير من العراقيين إلى سوح الكفاح ضد النظام الملكي بغية إسقاطه.

والغريب حقاً أن نوري السعيد، صاحب الخبرة الطويلة بشؤون الحكم والعارف بطبيعة الشعب العراقي، لم يدرك أن تلك السياسة والإجراءات تعني إغلاق كل ميادين السياسة للشعب العراقي، والتي قد تضطره إلى اتخاذ قرارات خطيرة لإثبات وجوده والتعبير عن ذاته. كما أن نوري السعيد أخطأ في تقدير أو معرفة مزاج شعبه ومشاعره، مما جعله محط كره واستياء فئات عديدة. فهو في نظر الجمعيات الإسلامية المحافظة رجل عصري جداً في سياسته الداخلية، في حين يسعى في سياسته الخارجية إلى تحالف العراق واعتماده كلياً على القوى المسيحية الاستعمارية التي سبق لها أن حكمت العالم الإسلامي. بينما كان القوميون العرب يعتبرونه خائناً للقضية العربية، وأداةً بيد الدول الاستعمارية، لإعادة سيطرتها على بلدان الشرق الأوسط. أما اليساريون الذين لا تعني لهم القومية شيئاً كثيراً، فكان مصدر سخطهم على السعيد هو قطيعته التامة لكل صلة سياسية أو ثقافية أو اقتصادية مع دول الكتلة الاشتراكية. وهكذا قضى نوري السعيد على نفسه عندما أوجد الفرص المناسبة لقيام ثورة ناجحة في العراق.

أما بالنسبة إلى أحوال العراق الاقتصادية التي كانت سائدة قبل ثورة 14 تموز، فإننا نقول، إن النظام الملكي اعتمد اعتماداً واضحاً ومنذ السنوات الأولى لتأسيسه على فئات محدودة في المجتمع أهمها، شيوخ العشائر، الملاكين الكبار، فضلاً عن السيطرة البريطانية التي كان جل اهتمامها هو المحافظة على مصالحها في العراق. وعليه لم يكن غريباً والحالة هذه أن تكون التحولات في البنية الاقتصادية والاجتماعية بطيئة جداً، فنجم عن ذلك أن يبقى العراق يخوض في ظروف معقدة وصعبة تفاقمت أكثر بعد حركة مايس 1941، والتي تمثلت بظهور ثلة من الملاكين والتجار الجدد من أثرياء الحرب، كما توسعت دائرة الاستغلال، وعانى الناس بهذا من الغلاء الفاحش وارتفاع تكاليف المعيشة. ولا نظلم أحداً عندما نقرر هنا أن السمة الغالبة على الاقتصاد العراقي في فترة ما قبل ثورة تموز هي التبعية الواضحة للاقتصاد الرأسمالي وخصوصاً الاقتصاد البريطاني، وقد تمثل ذلك بشكل واضح لكل ذي بصيرة في استمرار عضوية العراق في الكتلة الإسترلينية. واحتكار شركات النفط الغربية للنفط العراقي واستحواذها على الأرباح الطائلة جراء ذلك.

وإذا ما أردنا أن نوضح بعضاً من جوانب أحوال العراق الاقتصادية فإننا نقول، إن التباين كان كبيراً بين الطبقة الحاكمة وبين الشعب؛ إذ تكونت الطبقة الأُولى من الإقطاعيين وإضرابهم الذين يملكون كل شيء في العراق، وإن الثراء أهم ما يميزهم بينما، كانت الأكثرية من الشعب العراقي تعيش في حاجة وعوز

مخيف، إذ أن أكثر من 60 % منهم يسكن الأكواخ. لقد كانت سياسة الحكومات العراقية المتعاقبة في العهد الملكي تهدف إلى تغليب الطبقة الإقطاعية على بقية طبقات الشعب، عن طريق هضم حقوقهم، وهذه حقيقة أكدتها السفارة البريطانية في بغداد عندما قالت في أحد تقاريرها أن الحكومة العراقية، كانت تعطي الفرصة للأغنياء ليصبحوا أكثر غنى كما أنها لم تعطِ الشعور للشعب العراقي بأنها حكومته، الأمر الذي أدى إلى انقسام العراق على معسكرين اقتصاديين، هما البلاط والحكومة وأنصارهم، والجزء الأكبر من الشعب العراقي.

من المناسب جداً هنا أن نترك السفارة البريطانية في بغداد تضع النقاط على الحروف، فقد ذكرت في إحدى برقياتها السرية للغاية التي أرسلتها في 19 شباط 1958 إلى وزارة الخارجية البريطانية بينت فيها عمق الهوة واتساعها بين الحكومة العراقية وما بين عموم الشعب العراقي عندما أكدت: "أن الحكومة غريبة عن الشعب وتخدم مصالح الطبقة الحاكمة وليس الشعب بأكمله".

كما ساهمت السياسات الاقتصادية لحكومات النظام الملكي في تفجير ثورة 14 تموز، فقد ظلت تلك الحكومات تنظر إلى الإصلاح نظرة شكلية في وقت أصبح يشكل حاجة ماسة جداً، خاصة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي أصبحت معها المطالبة بالإصلاح الاقتصادي تلقى آذاناً صاغية، وتثير الحماس بين أوساط الشعب العراقي، لا سيما أن عوائد العراق أخذت تتدفق بمقادير تكفي لتحقيق الإصلاح المنشود، غير أن الفئة الحاكمة وقعت تحت تأثير فكرة مفادها، أن كبح جماح الفيضانات، وتنظيم شؤون الري كفيلان مهمان لحماية ما يمكن بناؤه في العراق. وقد عزز فيضان أواخر آذار 1954 العارم هذه الفكرة لدى المسؤولين العراقيين الذين باتوا مقتنعين بأن كل ما يبنى في العراق من مشروعات يبقى مهددا بالفيضان ما لم تتم السيطرة على أنهاره، حتى أن "مجلس الإعمار" لم يهتم كثيراً بقطاعات الاقتصاد الأخرى قبل سنة 1956 التي شهدت افتتاح المرحلة الأولى من مشروع الثرثار.

لقد أدت تلك السياسات من بين ما أدت إليه، أن تعيش الأغلبية من الشعب العراقي في مستوى اقتصادي متدنٍ جداً، بسبب انخفاض دخل الفرد، لدرجة أن الأكثرية لا تستطيع أن تحصل على حاجاتها الضرورية لإدامة الحياة، فضلاً عن تفاقم البطالة وصعوبة الحصول على فرص العمل، وعليه لم يكن غريباً والحالة هذه أن يؤكد أحد تقارير السفارة البريطانية في بغداد الذي كتب بتاريخ 22 نيسان 1958، أن هدف المعارضة الأساس في ميدان الاقتصاد قد تركز على العمل من أجل فرض إعادة توزيع عوائد النفط بين الناس بصورة أوسع. من هنا نستطيع أن نلاحظ أن هدف تحقيق العدالة الاجتماعية تحول إلى أساس الثورة المرتقبة. الحقيقة التي أشار إليها خليل إبراهيم حسين مؤرخ ثورة 14 تموز عندما قال: إن الوضع الاقتصادي المتردي للشعب العراقي كان وسيلة لدعم موقف وأحقية الثوار في القيام بثورة 14 تموز 1958 في العراق، ولفضح ادعاءات النظام الملكي في الإعمار.

لم تلعب العوامل الاجتماعية دوراً قليلاً في تهيئة الظروف والأسباب التي أدت إلى انهيار النظام الملكي. فالثابت أن طبيعة النظام السياسي الملكي ساهمت من خلال جملة من التشريعات والسياسات في ازدياد الفوارق

الطبقية بشكل يندر له مثيل في ذلك الوقت.
لتفصيل ذلك نقول: إن الحكومات العراقية المتعاقبة والسماعة للمشورة البريطانية، سعت إلى توفير الأساس القانوني. لتجريد الفلاحين من حق التصرف بالأرض الزراعية، وهو حق اكتسبوه وتوارثوه عبر عقود من الزمن وكرسته تقاليدهم وأعرافهم. لعلنا لا نبتعد عن الحقيقة إذا ما قررنا هنا، أن ما اصطلح عليه بعملية التسوية لم تخرج عن كونها في واقع الحال عن نزع مستمر لحقوق الفلاحين في التصرف بالأرض، ومنحها ظلماً لشيوخ العشائر وملاكي المدن وكبار موظفي الدولة على شكل ملكيات كبيرة. ولتقريب الموضوع للأذهان أكثر نلاحظ، أنه كان لكبار المسؤولين نصيب ملحوظ في نهب الأراضي وطرد الفلاحين منها، بعد أن تشابكت مصالحهم الشخصية في الحفاظ على الملكيات الزراعية الكبيرة بمصالح كبار الملاكين الآخرين، فمن بين 23 رئيساً للوزارة تعاقبوا على الحكم في العراق منذ تشكيل الدولة العثمانية، كان منهم ستة عشر رئيساً يملكون الأراضي الزراعية الواسعة.
هكذا جرى بعد ذلك بسياسات وإجراءات عملية، تأكيد التمايز الطبقي الصارخ وتبريره، عن طريق تثبيت كل الحقوق للإقطاعي. بالمقابل تم تجريد الفلاح من حقوقه، ما سمح للإقطاعي في نهاية الأمر أن يمارس كل ضروب الوحشية والقسوة والنهب والتجويع ضد الفلاح، وسلك في سبيل ذلك سلوكاً لا إنسانياً ولا حتى أخلاقياً، ولا عجب والحالة هذه أن تتنزل تلك الأوضاع والظروف القاسية وغير الإنسانية بالفلاح إلى مرتبة القنّ. ويلحُّ علينا المقام أن نلاحظ أنه ترتبت على ظهور الإقطاعية بهذه الفظاعة أن لا تكون العلاقات الإنتاجية والاجتماعية في أسوأ حالها فقط وإنما، قسمت الريف والعراق عموماً إلى سادة يملكون كل شيء، وفلاحين لا يملكون سوى قواهم الجسدية الخاوية من الجوع والمعرضة للأمراض المختلفة، يخدمون هؤلاء السادة طيلة السنة، مقابل حصة قليلة من الإنتاج، لا تكاد تكفي لسدّ رمقهم، ليبقوا متأرجحين بين الموت والحياة. لذلك بات بؤس الفلاح عارياً وفاضحاً يستصرخ الضمائر والهمم، ويستدعي البحث عن الحلول.
ولا شك في أن وضع الإقطاعي، الذي ضاقت خزائنه بالمال المغتصب من الفلاح، والذي أخذ يبني القصور الشاهقة في الأرياف والمدن وغيرها، مخادع تتوفر فيها كل أنواع الراحة، ويبدد فيها أموالاً طائلة على فسقه وفجوره، غدا يبعث في نفوس الفلاحين النقمة الشديدة، كما يقول كامل الجادرجي.
والمؤلم حقاً والمفجع أيضاً، أن نوري السعيد أبرز شخصية في النظام الملكي في العقدين الأخيرين من عمر ذلك النظام، وأكثرهم اطلاعاً على أحوال العراق وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية، ينكر ذلك صراحة، وأمام مرأى ومسامع العراقيين. فقد قال في خطاب شهير له أمام أعضاء مجلس النواب ألقاه في السابع والعشرين من كانون الأول 1950، ذكر فيه، أن البعض من العناصر الوطنية النشيطة استفادت من القوانين واندفعت وراء استصلاح الأراضي وإعمارها بصبر وجلد على الجهد والإنفاق، حتى نجح عدد منهم في إعمار عشرات الآلاف من الدونمات فاستفادوا وأفادوا عددا غير قليل من أبناء العشائر. ومضى السعيد ليقول جملته التي لا تليق إلا بكل من لا يحترم عقول مستمعيه: "إن ما يسمونه بالإقطاع هو أشبه بشركة مضاربة

بين الملاك أو الشيخ والفلاح".
الذي يهمنا هنا أن استغلال النظام الإقطاعي للملايين من الفلاحين، الذين أصبحت أوضاعهم أسوأ مما كانت عليه أيام الدولة العثمانية، لأن الفلاحين افتقروا إلى أي ضمان ضد استغلال الإقطاعيين، لم يسفر عن عرقلة الاقتصاد العراقي وتطوره الاجتماعي فقط وإنما، جرَّ الفلاحين إلى القيام بعدة انتفاضات شعبية ضد ظلم واستغلال الإقطاعيين، والتي بلغت ذروتها في 14 تموز 1958 والتي اندفعت بها جموع الفلاحين بقوة فور اندلاعها.
ولم يكن حال الطبقة العاملة في العراق بأفضل حالٍ من الفلاحين، فقد كان العمال يعيشون في مستويات معيشية متدنية، بسبب انخفاض أجورهم، مما انعكس سلباً على سكنهم وأحوالهم الصحية الرديئة والنقص من تغذيتهم، فضلاً عن تفشي الأمية بينهم. فقد ذكر أحد المؤرخين أن نسبة الأمية بين العمال في الفترة السابقة لثورة 14 تموز 1958 وصلت إلى 85 %.
بالرغم من كل ذلك ساهمت الطبقة العاملة في العراق بدورها في الحركة الوطنية العراقية، كما نظم العمال الإضرابات للمطالبة بالحقوق الشرعية. ولم يكن عالم الاجتماع العراقي علي الوردي مبالغاً عندما أكد أن معاناة العمال خلف السدة الشرقية في بغداد وغيرها، كانت هي السبب الرئيس لتفجير الثورات وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي في العراق، التي توجت أخيراً بثورة 14 تموز 1958، ملاحظاً أنه لا يمكن إيقاف الثورات والهزات الاجتماعية العنيفة طالما وجدت هذه الأكواخ. واتفق المؤرخ الكبير حنا بطاطو مع ما ذهب إليه علي الوردي عندما قال "وكان بؤس هؤلاء المفجع، بلا شك عاملاً من عوامل المرارة الكثيفة التي أدت إلى الهيجان الجماهيري الذي أطبق على العاصمة العراقية يوم ثورة 14 تموز 1958".

2 - مواقف ثورة 14 تموز 1958 الاجتماعية:

كان أمراً طبيعياً أن يبدي قادة الثورة مواقف ايجابية مبكرة إزاء طبقات المجتمع العراقي، لا سيما الكادحة والمتوسطة منها، كون أن أغلب الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة هم من أسر حضرية حرفية أو من الطبقة المتوسطة الدنيا، ولم يكن من بينهم من ينتمي إلى طبقة الملاك الكبار أو شيوخ العشائر، إذا ما استثنينا ناجي طالب، وعبد الوهاب الشواف؛ إذ كان الأول ابناً لأحد السراكيل. أما الآخر فكان انتماؤه إلى طبقة الملاكين الدينيين ومن ذوي الدخول العالية.
لما كان الزعيم الركن عبد الكريم قاسم قد حسم خياراته وبشكل نهائي وفي وقت مبكر وهي الوقوف إلى جانب الفقراء، فإنه لم تمضِ إلا أياما معدودة على انتصار ثورة الرابع عشر من تموز 1958، التي فجرها هو وبالتعاون مع العقيد الركن عبد السلام عارف، حتى أعلن تخفيض أسعار الخبز. وفي الوقت نفسه أعلن تخفيض أسعار الدقيق الذي كانت توزعه الحكومة على المخابز والأفران، على أن تتحمل الدولة الفرق بين كلفة الدقيق وسعره الجديد. لا شك في أن هدف عبد الكريم قاسم كان تمكين الفقراء من الحصول على الخبز الذي يحتاجون إليه وبأقل الأسعار، فضلا عن ذلك حرص عبد الكريم قاسم على معرفة مدى تطبيق هذا القرار؛ ففي إحدى جولاته التفقدية للأفران وجد صاحب أحد الأفران واضعا لقاسم صورة كبيرة، فما كان منه إلا أن خاطب

صاحب الفرن "صغر هذه" يقصد صغر حجم الصورة "وكبر هذه" أي الصمونة.

كما أمر عبد الكريم قاسم ومنذ الأيام الأولى للثورة بعدم التلاعب بأسعار الحاجيات الأساسية للشعب وتثبيت الأسعار عليها. واتخذ قراراً مهماً خاصاً بالطبقة العاملة العراقية يوم 27 تموز 1958، وهو جعل ساعات العمل وأجور الساعات الإضافية خاضعة لقانون العمل، بعد أن كانت خاضعة لاجتهادات شخصية. ومضى عبد الكريم قاسم في إجراءاته التي كان يستهدف بها الكادحين والفقراء عموما. فأمر مصرف الرهون تسليف القروض المالية للعمال والمستخدمين من ذوي الدخل المحدود، بعد أن خصص لذلك مبلغ 750 ألف دينار، على أن تسترد السلفة بأقساط شهرية بسيطة. وفي الوقت عينه أسس عبد الكريم قاسم صندوقا خاصا لتقاعد الموظفين والمستخدمين في الدوائر شبه الرسمية.

ولكي تكتمل الصورة وطبيعة مواقف عبد الكريم قاسم خاصة من الفقراء، فإننا نقول إنه من الموضوعات المهمة التي أولاها عبد الكريم قاسم اهتماما خاصا، فطالما كرر في خطاباته، أن هدفه الأساس هو رفع مستوى معيشة الفقراء إلى المستوى الملائم للحياة الإنسانية الكريمة. وفي مناسبة أخرى كان قاسم أكثر وضوحا، فأكد أنه باستطاعتنا مساعدة الفقراء لرفع مستواهم إلى مستوى الأغنياء، دون العمل على المس بمستوى الأغنياء.

كما أولى عبد الكريم قاسم الطبقة الفلاحية اهتماما كبيراً. فقد ألغى أولاً نظام دعاوى العشائر الذي أثقل كاهل الفلاحين بالتزامات لم ينزل بها سلطان، وجعل الفلاحين يخضعون للقانون المدني شأنهم في ذلك شأن سكان المدن. بعد ذلك التفت إلى الإقطاع الذي أذل الملايين من الفلاحين العراقيين، فبعد جهود متواصلة استطاعت حكومة الثورة من صياغة الإصلاح الزراعي الذي دخل التاريخ بـ"قانون رقم 30 لسنة 1958" الذي أذاعه قاسم في مساء يوم الثلاثين من أيلول 1958. قال عبد الكريم قاسم في بيانه موضوع البحث، إن من أهداف ثورة 14 تموز تحقيق الإصلاح الاجتماعي، وضمان العدالة بين أبناء الشعب كافة، وتحريرهم من عوامل الفقر وأسباب الخوف، وتخليصهم من الجهل والمرض. واستطرد عبد الكريم في بيانه قائلا: "ولبلوغ هذه الأهداف لا بد من رفع مستوى المعيشة للفقير إلى المستوى الملائم لحياة إنسانيه كريمة، وإن ذلك لا يتم إلا بتشريع قانون الإصلاح الزراعي الذي يعد القاعدة الأساسية للإصلاح الاجتماعي". بعد ذلك تعهد أمام الكل بأن الأرض ستوزع على الفلاحين ليصبحوا مالكين للأرض. يؤشر ذلك نهاية الإقطاع في العراق، وبداية لعهد فيه خير كثير لأبناء الشعب العراقي.

مهما يكن من أمر، كان عبد السلام عارف من أوائل قادة الثورة الذين أبدوا مواقف لا غبار عليها تجاه طبقة الفلاحين، تعبيراً عمّا اتفق عليه "الضباط الأحرار" قبل الثورة على إنهاء الإقطاع وتوزيع الأراضي على الفلاحين وتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية؛ فعندما كان في زيارة إلى لواء الديوانية يوم 27 تموز 1958، أي بعد ثلاثة عشرة يوماً من قيام الثورة، صرح هناك أمام جموع غفيرة من الفلاحين بعبارته الشهيرة "لا إقطاع بعد اليوم لا غني ولا فقير ولا أحمر ولا أبيض ولا أسود ولا استعباد. نحن منكم وفي خدمتكم"، كما بشر عارف الفلاحين بحتمية

زوال الإقطاعيين في ظل حكومة الثورة.
كانت مسألة إنصاف الفلاحين ومحاولة رفع الظلم والحيف عنهم الشغل الشاغل لحكومة الثورة، وعليه كان هديب الحاج حمود وزير الزراعة قد خرج للجمهور بأول تصريح صحفي يخص الفلاحين قال فيه: ''إن الفلاح هو أكثرية هذا الشعب لذا فإن حركتنا الثورية لا بد أن تكون في خدمة الفلاح ورعاية مصالحه''. ومضى في القول ''وبطبيعة الحال إن حالة الفلاح العامة لا تخص هذه الوزارة فقط بل، هناك مصالح تتصل بالوزارات الأخرى وإني أحاول جهدي التعاون مع بقية الوزارات''، بعد ذلك يعترف بأن المشاكل التي تجابه الفلاح كبيرة. نترك أول وزير للزراعة في العهد الجمهوري يتحدث ''إن مشاكل الفلاح مشاكل مزمنة معقدة طال عليها الزمن، وبعزمنا الثوري سيكون جهادنا في سبيل خدمته، لينعم بطعم الحياة وحتى تكون الإنجازات عملية وعلمية''. كما بين الوزير المذكور أنه يسعى حالياً لوضع مشروع لتأمين مستوى معيشة مناسبة للفلاح، بشكل يحفظ كرامته ويشعره بأنه إنسان، لأنه كان يعمل طوال العام تحت السياط مقابل عشرة دنانير فقط.
خطا هديب الحاج حمود، وزير الزراعة خطوة مهمة باتجاه تلك الأهداف، عندما أصدر البيان رقم (1) حول قسمة الحاصلات الزراعية، الذي حدد فيه حقوق الفلاح والملاك على حد سواء. إن أهم ما جاء في هذا البيان هو تقسيم الحاصلات الزراعية بين الفلاح والملاك مناصفة بينهما، إلا إذا جرى الاتفاق على أن تكون حصة الفلاح أكثر من ذلك فيؤخذ بها، ويتحمل الملاك رواتب وأجور وكلائه ومراقبيه وكافة أعمال المراقبة والإدارة. أما الأعمال الأخرى والتي تعود بالنفع على الطرفين كأجور الكيل، فيتحملها الطرفان بنسبة حصتها. ومن الأمور المهمة التي جاء بها البيان، أن يكون الملاك مسؤولاً عن نصب المضخات وتوابعها وتشغيلها ونفقاتها، وأن وجود مضخة لغير صاحب الأرض، لا يؤثر على نسبة حصة الفلاح المقررة، بموجب هذا البيان.
لم يكن ناجي طالب وزير الشؤون الاجتماعية، بعيداً عن الفلاحين على الرغم من انتمائه إلى فئة السراكيل، فعند إطلالته الأولى عبر الصحف، أكد طالب على تخصيص أرض ومسكن للفلاحين، مبيناً أن هذا الأمر من شأنه أن يقف حائلاً دون استمرار الهجرة من الريف إلى بغداد، إذ ذكر ما نصه بهذا الشأن:''أعتقد أن الفلاح إذا ما امتلك أرضاً ومسكناً وقدمت إليه المساعدات التي تمكنه من استثمار أرضه حتى يستطيع الوقوف على قدميه، فإنه لن يفكر بالهجرة من أرضه''.
كانت من جملة ما اتخذته حكومة الثورة تجاه طبقة الفلاحين، هو إلغاء قانون دعاوى العشائر وذيوله وتعديلاته في 27 تموز 1958، وعليه أصبح هناك قانون واحد تسري أحكامه في عموم العراق، هو قانون العقوبات البغدادي. وتجدر الإشارة الى أن الهدف من إلغاء قانون دعاوى العشائر، هو إلغاء التمييز الصارخ بين العراقيين في الخضوع للقانون. فقد حكم على الفلاحين الخنوع للعرف العشائري الذي كان يمثله الشيخ الذي غالباً ما يكون جاهلاً، وبين أبناء المدينة الذين كان الفيصل بينهم هو قانون العقوبات، لذلك عد إلغاء قانون دعاوى العشائر بمثابة تحطيم قاعدة الإقطاع القضائية في العراق. ويمكننا أن نفهم قرار تبديل اسم لواء (محافظة) المنتفك إلى الناصرية، ولواء

الدليم إلى الرمادي، في هذا السياق.
كان الموقف الأهم لثورة 14 تموز تجاه الفلاحين هو إصدارها لقانون الإصلاح الزراعي رقم (30) الذي أصبح نافذ المفعول اعتباراً من 30 أيلول 1958، وبموجبه أصبح الحد الأعلى للملكية الزراعية ألف دونم من الأراضي المروية سيحاً، وألفين دونم من الأراضي الديمية، وأعطى القانون، الذي يعد ثورة اجتماعية حقيقية، الجهاز الإداري مدة خمس سنوات لإكمال عمليات الاستيلاء والتمليك.
حاولت وزارة الصحة من جانبها التعويض عن حرمان القرى والأرياف من الخدمات الصحية في عهد ما قبل الثورة، فاستحدثت لذلك مديرية خاصة لصحة القرى والأرياف أنيطت بها مهمة رفع المستوى الصحي خارج المدن. وفي الوقت نفسه طلبت وزارة الصحة من مديريات صحة الألوية تزويدها بالمواقع الريفية التي لا توجد فيها مراكز صحية ثابتة أو سيارة، بغية إدخالها في منهاج الإصلاح الصحي العام.
حظيت الطبقة العاملة بنصيب وافر من الاهتمام؛ إذ أصدرت الثورة عدة قرارات حاولت فيها رفع مستوى تلك الطبقة والتخفيف عن كاهلها بعض الشيء. كان باكورة هذه القرارات هو تخفيض ساعات العمل اليومية للعمال في المعامل الإنتاجية إلى 8 ساعات، بعد أن كانت 9 ساعات.
ومما له مغزاه في هذا الصدد، أن محمد حديد وزير المالية، أعلن بعد مرور أسبوعين على حدوث الثورة، أنه بصدد إصدار نظام ضريبي جديد من شأنه أن يقيم بعض العدالة والمساواة، وعليه قدّم محمد حديد مقترحا بتأليف لجنة من وزراء المالية والداخلية والشؤون الاجتماعية لإعادة النظر في قانون رسوم البلديات، بغية تخفيف الرسوم على العمال والكسبة الفقراء وأصحاب المهن، والذي حظي بموافقة مجلس الوزراء.
كما أقدمت حكومة الثورة على زيادة رواتب المستخدمين على الملاك الدائم بمقدار دينارين شهرياً على أن يشمل ذلك جميع التوابع والفراشين، وجميع المستخدمين الآخرين في الخدمات المدنية والعسكرية، ممن يتقاضون راتباً أسمياً يقل عن عشرة دنانير في الشهر.
اعترفت الثورة بحق العمال في التنظيم النقابي وتشكيل نقابتهم واتحادهم العام. فقد وعد ناجي طالب وزير الشؤون الاجتماعية، وفداً من العمال بإجازة حكومة الثورة لنقابات العمال عند انتهائها من صياغة قانون العمال الجديد، والذي وصفه بأنه يشتمل على امتيازات كثيرة للعمال وتضمن جميع حقوقهم.
لعل الخطوة المهمة في هذا المجال هو الإعلان عن إعداد وزارة الشؤون الاجتماعية لائحة قانون، تلزم أصحاب المشاريع الصناعية ببناء مساكن لعمالهم، وتسهيلاً لتلك الخطوة الأساسية في رفع مستوى العمال المعيشي، طالبت الوزارة المذكورة "مجلس الإعمار" بإقراضها مبلغ 150 ألف دينار تدفع إلى أصحاب المشاريع الصناعية، حتى يتمكنوا من بناء مساكن للعمال. بعد أن وافق "مجلس الإعمار" على ذلك أصبح المقترح قانوناً صدر في 16 كانون الأول 1958 وحمل الرقم 84، الذي ألزم أصحاب المعامل والمصانع ببناء مساكن ملائمة للعاملين فيها.
ويمكننا أن نشير إلى أنه صدر في آب 1958 قانون مراقبة وإيجار العقار، الذي نص على تخفيض إيجار البيوت كافة بنسب تراوحت بين 15 % و20 % تعبيراً عن رغبة الثورة

في التخفيف عن كاهل المؤجرين الذين ينتمي جلهم إلى الطبقات الكادحة. وأجرت الثورة تخفيضات عديدة على أسعار بعض السلع والخدمات، محاولة منها في رفع المستوى المعيشي للطبقات الفقيرة خاصة.

الخاتمة:

يمكننا ان نسجل هنا، ان اهمال الحكومات العراقية المتعاقبة للطبقات الكادحة والمتوسطة، كان ماثلا امام قادة تنظيم الضباط الاحرار خاصة الزعيم عبد الكريم قاسم، الذين فجروا ثورتهم سعيا لتحقيق العدالة الاجتماعية المتعطش لها الشعب العراق، طيلة حكم النظام الملكي.

ونحن في صدد تمحيص الآراء بشأن ماهية احداث الرابع عشر من تموز 958، هل كانت ثورة شعبية ام انقلابا عسكريا، نقول بانها اكتسبت كافة مقومات الثورة كونها منذ الايام القليلة من عمرها اقدمت على احداث تغيرات اجتماعية واقتصادية جسيمة. كان في مقدمتها الغاء قانون دعاوى العشائر الذي مزّق نسيج المجتمع العراقي طيلة عقود من الزمن، واقرار قانون الاصلاح الزراعي والقضاء على الاقطاع الذي عُد حجر الزاوية لنظام الحكم الملكي، فضلا عن التأييد الشعبي العرم الذي حظيت به الثورة منذ اليوم الاول من قيامها.

المصادر:

- ليث عبد الحسن الزبيدي، ثورة 14 تموز 1958 في العراق، ط2، مكتبة اليقظة العربية، بغداد، 1981.
- مجيد خدوري، العراق الجمهوري، منشورات الشريف الرضي، قم، 1996.
- "محاضر جلسات مجلس النواب"، الدورة الانتخابية الثانية عشرة، الاجتماع الاعتيادي لسنة 1950، بغداد.
- "محاضر جلسات مجلس النواب"، الدورة الانتخابية الخامسة عشرة، الاجتماع الاعتيادي لسنة 1957، بغداد.
- عبد الله شاتي عبهول:
- تجربة عبد الكريم قاسم في التخطيط الاقتصادي 14 تموز 1958 - 8 شباط 1963 دراسة في التاريخ الاقتصادي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2012.
- دراسات تحليلية في تاريخ العراق المعاصر، مؤسسة مصر مرتضى، بغداد، 2007.
- أوريل دان، العراق في عهد قاسم، ترجمة جرجيس فتح الله، منشورات الجمل، بيروت.
- عبد الفتاح علي البوتاني، التطورات السياسية الداخلية في العراق، 14 تموز 1958 - 8 شباط 1963، دار سبيريز، دهوك، 2007.
- عاكف يوسف العاني، الثورة العراقية والحكم الجمهوري، مطبعة العاني، بغداد، 1958.
- محمد حسين الزبيدي، ثورة 4 تموز 1958 في العراق ـ أسبابها ومقدماتها ومسيرتها وتنظيمات الضباط الأحرار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1983، ص192.
- خليل إبراهيم حسين، ثورة الشواف في الموصل 1959،ج1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1987.
- محمد كاظم علي، العراق في عهد عبد الكريم قاسم، دراسة في القوى السياسية والصراع الايديولوجي 1958 - 1963، مكتبة اليقظة العربية، بغداد، 1989.
- نصير سعيد الكاظمي، الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق، بلا.
- كامل الجادرجي، الإقطاع وأثره في إفساد جهاز الدولة، "صدى الأهالي" (جريدة)، بغداد، الاعداد 18 - 26، تشرين الأول 1949.
- عزيز الحاج، ثورتنا العراق وقضية الوحدة، منشورات دار الفكر الجديدة.
- حسين جميل، العراق الجديد، دار منيمنة للطباعة، بيروت، 1958.

• غصون مزهر حسن المحمداوي، التطورات الاقتصادية والاجتماعية في العراق 1958 - 1968، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية للبنات - جامعة بغداد، 2005.
• د.ك.و.، الوحدة الوثائقية: وزارة الخارجية، تقارير السفارة البريطانية في بغداد، عنوان الملف شؤون العراق، رقم الملف 733، رقم البرقية 264، 1958.
• د.ك.و.، الوحدة الوثائقية: ملفات وزارة الاقتصاد والمواصلات، تسلسل الملف 289/ 32131، عنوان الملف مخابرات عامة حول العمال، الوثيقة رقم 149.
• د.ك.و.، الوحدة الوثائقية: وزارة الداخلية، تسلسل الملف 8138/32050، عنوان الملف إضرابات العمال 1937–1938، الوثيقة رقم 3.
• عبد الرزاق مطلك الفهد، دور العمال في الحركة الوطنية العراقية 1922 - 1958، بغداد، 2005.
• عبد الخالق حسين، ثورة وزعيم دراسة في ثورة 14 تموز العراقية وعبد الكريم قاسم، ط2، دار ميزوبتاميا، بغداد،2011.
• حنا بطاطو، العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، الكتاب الأول، ترجمة: عفيف الرزاز، مكتبة الغدير، قم.
• ''اليقظة'' (جريدة)، بغداد، العدد 2981، 3 تشرين الأول 1958.
• ''البلاد''، العدد 5370، 5 كانون الأول 1958.
• ''صوت الاحرار'' (جريدة)، بغداد، العدد 18،104 آذار 1959.
• الجمهورية العراقية، وزارة الارشاد، مديرية الفنون والثقافة الشعبية، أهداف الثورة، مطبعة الحكومة، بغداد، 1959.
• ''مبادئ ثورة 14 تموز في خطب الزعيم 1958''، مطبعة الجيش، بلا تاريخ.
• ''مبادئ ثورة 14 تموز في خطب ابن الشعب البار الزعيم الامين عبد الكريم قاسم لسنة 1960''، مطبعة الحكومة،1960.
• كاركتاكوس، 14 تموز العراق، ترجمة خيري حماد، منشورات المكتب العالمي، بيروت.
• ''الوقائع العراقية''، العدد 44، 30 أيلول 1958.
• ''الزمان''، العدد 6355، 1 تشرين الأول 1958.
• ''الجمهورية''، العدد 10، 28، تموز 1958.
• ''الزمان''، العدد 6301، 28 تموز 1958.
• ''الزمان ''، العدد 6340، 13 أيلول 1958.
• ''الجمهورية ''، العدد 17، 5 آب 1958.
• ''الجمهورية''، العدد 18، 6 آب 1958.
• ''الوقائع العراقية''، العدد 2، 28 تموز 1958.
• مؤيد إبراهيم الونداوي، وثائق ثورة تموز 1958 في ملفات الحكومة البريطانية، المكتبة العالمية، بغداد،1990.
• نوري عبد الحميد العاني (وآخر)، تاريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري -1958 968، الجزء الاول، الطبعة الثانية، بيت الحكمة، 2005.
• حامد الحمداني، ثورة 14 تموز في نهوضها وانتكاساتها واغتيالها، فيثون ميديا، السويد، 2006.
• ''الثورة'' (جريدة)، بغداد، العدد 24،29، تشرين الثاني 1958.
• '' الجمهورية''، العدد 18، 6 أب 1958.
• ''الثورة ''، العدد 22، 16 تشرين الثاني 1958.
• ''الثورة''، العدد 26، 4 آب 1958.
• ''الوقائع العراقية''، العدد 101، 28 كانون الأول 1958.
• ''الجمهورية''، العدد 16، 4 آب 1958؛ ''الجمهورية''، العدد 19، 7 آب 1958.

مساهمة متواضعة في ملف (الثقافة الجديدة) عن ثورة 14 تموز 1958 في ذكراها الستين

عبد الرزاق الصافي
الشخصية الوطنية والاجتماعية
والقيادي السابق في الحزب الشيوعي العراقي

(1)

بدايةً بودي تثمين (الثقافة الجديدة) على مبادرتها هذه، خصوصاً وانها تهدف الى "التحريض على تقليب الأوراق من جديد، وتقديم قراءات جديدة" عن الحدث الكبير في تاريخ العراق الحديث، ثورة 14 تموز 1958. وطرحت العديد من الاسئلة، التي تشكل الاجابة عليها، بمجموعها، وربما بإضافة اسئلة اخرى، الهدف من طرح الموضوع. وليس من شك ان الاجابة المطلوبة لا تكفيها ثلاثة آلاف كلمة، ولذا من الطبيعي ان يقتصر الأمر، في هذه الحدود، على بعض الاسئلة، وباختصار نسبياً.

اول الاسئلة: هل ما حدث في ثورة 14 تموز 1968 كان انقلاباً ام ثورة؟ وأجيب بأن كان ثورة. ذلك ان نوري السعيد، بعودته الى رئاسة الحكومة في صيف 1954 بضغط شديد من السفيرين الانجليزي والامريكي على الوصي عبد الاله، سد كل الطرق التي يمكن استخدامها لاجراء التغيير الذي ينشده الشعب، والتخلص من السيطرة الاستعمارية المتمثلة بحلف بغداد، والنظام شبه الاقطاعي الذي يسود البلاد. واجرى "انتخابات" مزيفة جعلت مجلس النواب يخلو من أية معارضة. خصوصاً بعد فوز المعارضة الوطنية بعشرة مقاعد في البرلمان، المكون من 136 مقعداً! الأمر الذي دفع السيد نجيب الصائغ، وكان يومها سفيراً في وزارة الخارجية، الى سؤال نوري السعيد، هل من المعقول ان يخلو مجلس النواب من معارض واحد، في حين انه كان يحوي في عشرينات القرن العشرين بضعة عشر نائباً، وكذلك في سنوات الثلاثينات والاربعينات والنصف الأول من الخمسينات.

لقد كان الشعار الذي وضعه الرفيق فهد في الاربعينات "قووا تنظيم حزبكم، قووا تنظيم الحركة الوطنية" وتحقق في العام 1948 وأمكن بواسطته إشعال وثبة كانون الثاني 1948 التي اسقطت وزارة صالح جبر، ومعاهدة بورتسموث التي اراد الاستعماريون الانجليز فرضها على العراق، بدلاً من معاهدة الذل والعبودية،

معاهدة 1930.
هذه الوثبة الوطنية التي عمل نوري السعيد على الرد عليها واعلان الاحكام العرفية، بذريعة حماية مؤخرة الجيش الذي زُعم ان بعض وحداته أُرسلت الى فلسطين لمنع قيام اسرائيل، وفقاً لقرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، في حين انه كان في الواقع لمنع الشعب الفلسطيني من إقامة دولته الوطنية المستقلة استناداً الى نفس القرار، بدليل ان قيادة الجيوش العربية التي أُرسلت الى فلسطين كانت بقيادة الجنرال البريطاني كلوب باشا (ابو حنيك). وأجرى نوري السعيد انتقامه الاجرامي من الحركة الوطنية بالاحكام العرفية الاجرامية ضد مجموع الحركة الوطنية، وإعدام قيادة الحزب الشيوعي العراقي: الرفاق الأماجد يوسف سلمان (فهد) ومحمد زكي بسيم (حازم) وحسين محمد الشبيبي (صارم) الذين اقتيدوا من سجن الكوت، حيث كانوا يقضون محكومياتهم، الى محكمة عرفية عسكرية اصدرت احكامها التعسفية الاجرامية بإعدامهم، وتنفيذ حكم الاعدام الاجرامي في 14 شباط 1949.
ورغم الجراح التي عانى منها الحزب الشيوعي العراقي، واصل الاهتداء بشعار "قووا تنظيم حزبكم، قووا تنظيم الحركة الوطنية"، وقيادة انتفاضة خريف 1952، التي اسقطت وزارتين خلال أقل من اسبوع، واضطرت الفئة الحاكمة، وعلى رأسها الوصي عبد الاله ونوري السعيد، الى اللجوء الى الجيش واقامة حكومة عسكرية بقيادة رئيس اركان الجيش نورالدين محمود، والقيام بأوسع حملة اعتقالات في تاريخ العراق، حتى ذلك الوقت، شملت كل قادة الاحزاب الوطنية العلنية وحلها، واعتقال مئات الشيوعيين.
لقد جئت في بداية المقال على ما جرى في صيف 1954 على يد نوري السعيد، وكونه سد الطريق السلمي لاجراء أي تغيير في العراق، وهو ما كان يتبناه الحزب الشيوعي حتى خريف 1956، الأمر الذي حمل الحزب على تصفية الانقسام في صفوف الحركة الشيوعية، والعمل على تشكيل الجبهة الوطنية الموحدة التي ضمت حزبنا الشيوعي العراقي والحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال وحزب البعث العربي الاشتراكي، الجبهة التي سعى حزبنا الى ضم الحزب الديمقراطي الكردستاني (البارتي) الذي كان يمثل الحركة القومية الكردية يوم ذاك إليها، غير ان الحزبين القوميين العربيين الاستقلال والبعث رفضا ذلك، مما حمل الحزب الشيوعي على التحالف مع الحزب الوطني الديمقراطي الكردستاني لضم جهوده الى الجبهة. وكان اعلان الجبهة في ربيع 1957. وشكل هذا الاعلان تجسيد وحدة الحركة الوطنية.
ورافق ذلك تحرك الضباط الاحرار بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم، الذي كان على صلة بحزبنا وبالجبهة الوطنية.
واتذكر ان الشهيد سلام عادل قال انه عرض على عبد الكريم قاسم ان يقوم الحزب بالتحرك المسلح ضد النظام، وأن يتلقى الدعم من حركة الضباط الاحرار. غير ان عبد الكريم قاسم رفض ذلك قائلاً: انه هو من سيتولى البدء بالتحرك طالباً من الحزب وجبهة الاتحاد الوطني دعمه بالتظاهر.
وهكذا كان. وعندما أُذيع البيان الأول للثورة في 14 تموز 1958، هبّ الشعب عن بكرة

أبيه، فامتلأت شوارع بغداد، والعديد من مدن العراق، منذ الساعات الأولى من الصباح، بالمتظاهرين دعماً للثورة.
الأمر الذي يعني ان ما جرى ذلك الصباح لم يكن انقلاباً عسكرياً بمعزل عن القوى السياسية المنظمة في جبهة الاتحاد الوطني، وعن برنامجها الوطني. وكان تركيب الوزارة الاولى التي اعلنها عبد الكريم قاسم تضم ممثلين عن قوى جبهة الاتحاد الوطني كلها، عدا الحزب الشيوعي العراقي، وإن ضمّت وزيراً يسارياً ماركسياً معروفاً هو الفقيد ابراهيم كبة.
كما ان ما أقدمت عليه حكومة الثورة، منذ اليوم الأول لتوليها السلطة، وفي اسابيعها الأولى من خطوات تكشف عن كونها ثورة وطنية ديمقراطية وطابعها المعادي للامبريالية والاقطاع، وخصوصاً قانون الاصلاح الزراعي – رغم نواقصه – ومساهمة الفلاحين في تطبيقه، قبل الأجهزة الحكومية، وانطلاق الحركة النقابية العمالية، ومنظمات الشبيبة والطلبة وانصار السلام وغيرها.
الأمر الذي يجعل ما جرى في 14 تموز 1958 في العراق يختلف عما جرى من انقلابات عسكرية في مصر وسوريا وغيرها، التي اتخذ بعضها طابعاً معادياً للامبريالية وتبنى بعض ما تطالب به الحركة الوطنية الديمقراطية في البلد المعين في ما بعد.

(2)

ما هو دور عبد الكريم قاسم والضباط الاحرار في إنجاح الثورة، وايضاً في المآل المأساوي لها؟
ان دور عبد الكريم قاسم كان دوراً أساسياً في إنجاح الثورة، وفي المآل المأساوي لها ايضاً.
ذلك انه رفض منذ البداية ان تكون المبادرة للقوى السياسية، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي العراقي، في البدء بالثورة – كما سبق وذكرت – وأصر على ان تكون المبادرة من قبل الجيش. وليس كل الجيش، او كل الضباط الاحرار، بل ان يكون هو المبادر، مستخدماً العقيد عبد السلام عارف، دون الضباط الاحرار الآخرين. اذ لم يشكل مجلساً لقيادة الثورة برئاسته، ولم يتح للضباط الاحرار الآخرين تشكيل تنظيم، بل اعتمد في تشكيل الحكومة (الوزارة) على قوى جبهة الاتحاد الوطني برئاسته، واستصدار دستور مؤقت لا يقيده بشيء، مما ترك المجال ليكون زعيماً أوحداً للبلاد.
ولا بأس من التذكير، في هذا المجال، بأن عبد السلام عارف هو أول من اطلق شعار ”ماكو زعيم الاّ كريم“، الذي تلقفته الجماهير وعارضت به مساعي عبد السلام عارف، وكل القوميين من اتباع عبد الناصر والبعثيين، الذين رفعوا شعار الوحدة، بشعار ”اتحاد فدرالي صداقة سوفيتية، عاش نصير السلام عبد الكريم قاسم“. هذا الشعار الذي رددته جماهير الحزب الشيوعي في اول مظاهرة جماهيرية للرد على شعار الوحدة الذي رفعه البعثيون بتحريض من ميشيل عفلق، في الخامس من آب 1958 على ما اتذكر.
واتذكر ايضاً اني كنت المكلف حزبياً، وكنت يومها في قيادة منظمة بغداد، بإطلاق المظاهرة الجماهيرية، التي انطلقت في 5 آب 1958 من حديقة الملك غازي في الباب الشرقي حتى وزارة الدفاع. وخرج

عبد الكريم قاسم اكثر من مرة لالقاء خطب قصيرة. هذه المظاهرة التي قدّر عدد المشاركين فيها من قبل وسائل الاعلام بربع مليون متظاهر. الأمر الذي اعتبره الفقيد كامل الجادرجي أمراً مبالغاً به، كما يذكر الفقيد عامر عبد الله، لأن شارع الرشيد بطوله وعرضه مع ساحة وزارة الدفاع لا يمكن أن يتسع لأكثر من 150 ألف متظاهر. وعندها، كما ينقل عامر عبد الله، انه قال للجادرجي "150 ألف. هَم أنعم الله".

كما ذكر هاني الفكيكي ان البعث، وكان هو من قيادته يومذاك، قرر تحشيد قواه للتظاهر في مدخل وزارة الدفاع، قائلاً "عندما ذهبنا الى وزارة الدفاع، وجدنا ان الشيوعيين وانصارهم ملأوا الساحة".

لم نكن ندرك في ذلك الصراع الحاد الذي اشعله يومذاك القوميون، وفي مقدمتهم عبد السلام والبعثيون، من جهة، والشيوعيون والديمقراطيون من جهة اخرى، خطورة انشقاق القوى الوطنية، والصراع في ما بينها على مسيرة الثورة، حرصاً منا على تطويرها، ولم نكن نصغي لبعض الأمور التي تحمل المخاطر الجدية على الثورة، وعلى الحياة الديمقراطية والحزبية.

من ذلك مثلاً، ما نقله حلاق عبد الكريم قاسم، الذي يحتل محله مدخل دربونة العمّار في شارع الرشيد مجاوراً لمحل عمل احد اقاربي، حيث نقل الحلاق انه شكا لعبد الكريم الضجة التي تثيرها الاحزاب في صراعاتها، عندما ذهب لحلاقة الزعيم في وزارة الدفاع، الذي قال "انتظر، لن تبقى الأمور هكذا". بما يعني انه لن يدع الاحزاب المتصارعة! وقد ظهر أثر ذلك بعد أقل من سنة، في اعقاب احباط مؤامرة الشواف في الموصل بطرح شعار تجميد الحياة الحزبية، الذي حظي بتأييد الشخصية الوطنية الديمقراطية، وزير المالية يومذاك الفقيد محمد حديد. هذا الشعار الذي اعتبره حزبنا مؤامرة عليه، وعلى الحريات الديمقراطية.

ولا بد في هذا السياق من ذكر السلوك المتطرف الذي انغمر فيه رفاقنا في الموصل، وقيامهم بدور سلطة، وتشكيلهم محكمة حاكمت المتآمرين، ونفذت ببعضهم حكم الاعدام. الأمر الذي ردت عليه القوى اليمينية والرجعية، فيما بعد، باغتيال مئات الشيوعيين وتشريد عوائلهم في ظل سكوت سلطات عبد الكريم قاسم وتغاضيها عن جرائمهم.

كما ان دور عبد الكريم قاسم وبعض الضباط الأحرار في المآل المأساوي لثورة 14 تموز 1958 كان دوراً أساسياً، سواء في إصراره على الانفراد بالسلطة والحيلولة دون إقامة نظام ديمقراطي يعتمد على انتخاب الشعب لممثليه في السلطة، الأمر الذي عزله عن اوساط متزايدة بدرجة أن يضطر قطب الحزب الوطني التقدمي محمد حديد الى الاستقالة من الوزارة، مما أبكى عبد الكريم قاسم، دون ان يحول الى تغيير نهجه الخاطئ في "العفو عما سلف" وتمكين المتآمرين من تولي مناصب خطيرة في الجيش، بإسم التوازن، تمكّنهم من الاقلاب عليه.

واكثر من هذا انهيار أحد هؤلاء المتآمرين، واعترافه له بالمتآمرين الآخرين. وتملك قاسم الغرور الى درجة الامتناع عن إبعادهم عن المراكز الخطيرة التي يحتلونها، منتظراً تحركهم ليضربهم! متوهماً انه من الممكن تكرار ما حدث في الموصل من قمع

انقلاب عبد الوهاب الشواف، الذي تعاون مع القوميين والبعثيين وعملاء عبد الناصر لتحقيق تآمره.

وكان سلوك عبد الكريم قاسم بعد بدء انقلاب 8 شباط 1963 تكملة لنهجه الخاطئ المدمر الذي سمح بقيام الانقلاب ونجاحه. وذلك بصم أذنيه عن خطاب الألوف من الجماهير المحتشدة في وزارة الدفاع التي منعت اول دبابة من دبابات الانقلابيين من الوصول الى مقر قاسم، وكانت تهتف "باسم العامل والفلاح يا زعيم اعطينا سلاح"، معتبراً ان اعطاءها السلاح يعني حرباً اهلية، متناسياً ان الحرب الاهلية قامت بالفعل، وان السلاح ظل بيد المتآمرين فقط، وحُرمت منه الجماهير الشعبية، التي اوقع بها الانقلاب الكثير من الضحايا البريئة. ومن ثم عشرات الألوف ممن اعتقلوا وعذّبوا واغتيلوا تحت التعذيب من القوى الوطنية الديمقراطية وفي مقدمتهم الشيوعيون.

ولا بأس من ذكر ما كشف عنه مؤخراً لأول مرة هذا العام، أحد انصار قاسم من انه – أي قاسم – رفض الاستماع الى طلب ممثل الاتحاد السوفيتي في بغداد يومذاك للاتصال بالزعيم وعرض مساعدته في مجابهة الانقلاب!

كما ان دور الضباط الاحرار كان مهماً في إنجاح الثورة، ذلك انهم وقفوا الى جانب تحرك قاسم ودعموه في البداية، بأمل ان يستعين بهم في قيادة أمور البلد. غير ان الكثيرين منهم خابت آمالهم عندما شهدوا انفراد عبد الكريم قاسم بالسلطة، فمال بعضهم الى العمل الانقلابي ضده بالتعاون مع عملاء الاستعمار، وعملاء عبد الناصر كما كشفت الاحداث.

(3)

ما هو البعد الديمقراطي في الثورة، ولماذا اخفقت في بناء نظام سياسي ديمقراطي؟

سبق لي ان كتبت في هذا الموضوع مقالاً في (الثقافة الجديدة) في العدد 289 الصادر في تموز – آب 1999، أعادت المجلة نشره في العدد 390 - 391 تموز 2017 في باب نصوص قديمة. وكان المقال بعنوان "في ذكرى ثورة تموز، الفرصة الضائعة لإقامة الديمقراطية".

استميح القارئ لاقتباس بعض فقراته لعلاقتها بالسؤال المطروح في بداية هذا المقال. وإن كان في هذا بعض التكرار لما سبق في الجزء الاول في هذا المقال.

بعد استعراض نضال الشعب العراقي في سبيل اقامة النظام الديمقراطي بدءاً بثورة العشرين ووثبة كانون الثاني 1948 وانتفاضة تشرين 1952 وانتخابات 1954، التي افلحت فيها المعارضة الوطنية بمختلف تياراتها، بما فيها الشيوعيون، عندما وحّدت صفوفها في الانتخابات وفازت بعشرة مقاعد في البرلمان المكون من 138 مقعداً، وعودة نوري السعيد لتولي رئاسة الوزراء في اعقاب هذه الانتخابات بضغط فظ ومباشر من السفيرين البريطاني والامريكي على الوصي عبد الاله، لحل البرلمان بعد عقد جلسة واحدة فقط، وتعطيل اكثر من مئة صحيفة وغلق الاحزاب، بما فيها حزب نوري السعيد نفسه، والجمعيات، وتعطيل النقابات العمالية واسقاط الجنسية عن عدد من المناضلين الوطنيين، وفي مقدمتهم الشيوعيون، وغيرها من الاجراءات التعسفية المعادية للديمقراطية وحريات الشعب، وقمع تطلعه للديمقراطية. "وبذلك

– يقول المقال – سدّت الفئة الحاكمة الملكية الطريق على أي تغيير سلمي للسلطة نحو الديمقراطية، يؤمّن للشعب حقوقه الديمقراطية في حكم نفسه عن طريق ممثليه المنتخبين بارادته الحرة".

كان الحزب الشيوعي العراقي حتى خريف 1956 يتمسك بالطريق السلمي لإحداث التغيير الديمقراطي الذي ينشده الشعب والقوى الوطنية الديمقراطية، وهو ما جرى الاتفاق عليه بين اطراف جبهة الاتحاد الوطني التي قامت في اعقاب انتفاضة 1956 دعماً لمصر الشقيقة في إقدامها على تأميم قناة السويس، والوقوف بوجه العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الصهيوني.

غير ان ما اقدمت عليه الفئة الحاكمة بقيادة نوري السعيد وعبد الاله من وحشية سافرة وقمع تطلع الشعب الى الديمقراطية جعلت الحزب يتبنى ضرورة استخدام القوة لإزاحة النظام الملكي، والبحث عن امكانية التعاون مع الضباط الاحرار بقيادة عبد الكريم قاسم لتحقيق ذلك.

ويقول المقال المشار اليه "وقد أجمعت القوى الوطنية في جبهة الاتحاد الوطني والجيش على ضرورة اسقاط الحكم الملكي، واقامة حكومة وطنية ديمقراطية تُخرج العراق من حلف بغداد، وتحافظ على استقلال البلاد وتتضامن مع الشقيقتين مصر وسوريا قبل قيام الوحدة بينهما، وبالتعاون مع الجمهورية العربية المتحدة بعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا. ولم تحوِ برامج جبهة الاتحاد الوطني والضباط الاحرار أي شعار يدعو الى وحدة اندماجية بين العراق والجمهورية العربية المتحدة بعد تحريره من حلف بغداد والحكم الممالئ للامبريالية". ويستطرد المقال الى القول: "ولذا كان من المفروض ان تنشغل القوى الوطنية المتحالفة في جبهة الاتحاد الوطني، بعد نجاح ثورة 14 تموز 1958، التي شكلت هذه القوى قاعدتها السياسية العريضة، وعبأت الجماهير لاستقبال تحرك الضباط الوطنيين الاحرار بقيادة عبد الكريم قاسم في 14 تموز 1958، بذلك الموج المتعاظم من ابناء الشعب بمختلف ميولهم واتجاهاتهم السياسية الوطنية، وان تنشغل بإقامة النظام الديمقراطي، من حريات ديمقراطية ومؤسسات دستورية كمهمة أولى، تمهد لانجاز المهمات الاخرى لتعزيز استقلال البلاد والخروج من حلف بغداد، وإنهاض الاقتصاد الوطني والقضاء على نفوذ الاقطاعيين وتجريدهم من سيطرتهم على الاراضي الزراعية، التي هي ملك الشعب، والنهوض بالتعليم، والوضع الاقتصادي والثقافي والاجتماعي للغالبية الساحقة من ابناء الشعب".

"غير ان ما حصل هو غير هذا مع الأسف، اذ انشغلت القوى الوطنية، منذ البداية، بالخلاف حول الشعار الذي رفعه حزب البعث العربي الاشتراكي بتحريض من عفلق وإصراره، وعبد السلام عارف، الداعي الى الوحدة الاندماجية والفورية مع الجمهورية العربية المتحدة. الأمر الذي اضطر القوى الديمقراطية – وفي مقدمتها الحزب الشيوعي العراقي – الى طرح شعار الاتحاد الفدرالي".

"وكان الدافع لطرح الشعار هو تفادي فرض وحدة اندماجية بقرار فوقي تتخذه مجموعة صغيرة من الضباط والعاملين في الحقل السياسي، على الضد من ارادة

الشعب، يلغي وجود الجمهورية العراقية الفتية ويكبح تطلع شعبنا الى اقامة نظام ديمقراطي يتمتع فيه بحرياته الديمقراطية، ويؤمّن الحقوق القومية للشعب الكردي عن طريق الحكم الذاتي، والحقوق الادارية والثقافية للتركمان والاشوريين والكلدان".

كما يقول المقال "ولذا فان شعار الاتحاد الفدرالي هو، بمعنى ما، يعكس التطلع لإقامة نظام ديمقراطي وحياة حزبية شرعية في ظل الحريات الديمقراطية.. الخ".

"ومن المؤسف ان هذا الخلاف لم يبق في حدود الصراع الفكري حوله، والعمل على كسب الجماهير الى جانب هذا الشعار او ذاك، بالطرق الديمقراطية، بل تعداه الى الانتقال للتخطيط لانتزاع السلطة من عبد الكريم قاسم، التي كانت تحظى بتأييد شعبي هائل، وسلوك طريق التآمر لتحقيق ذلك، ومجابهة ذلك بالعنف المبالغ فيه وغير المبرر في بعض الاحيان، الذي ساهم فيه الحزب الشيوعي العراقي باسم "الدفاع عن الثورة" و"صيانة الجمهورية".

"وأدت النوازع الفردية للحكم لدى قاسم وتخوفه من تنامي نفوذ القوى اليسارية، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي، الى مزيد من الاجراءات المعادية للديمقراطية، والاستعانة بعناصر وقوى تنتمي الى الحكم الملكي البائد واللجوء الى لعبة التوازن التي كانت تعني إطلاق أيدي القوى الرجعية والمعادية للديمقراطية، وسياسة "عفا الله عما سلف". ولم تكن هذه القوى، رجعية كانت او قومية، تعرضت للتنكيل المبالغ فيه بسبب نشاطاتها التآمرية، مستعدة للقبول بأقل من القضاء على حكم قاسم وتصفية الحزب الشيوعي العراقي".

"وزاد الأمر سوءاً وتعقيداً اندلاع الصدامات في كردستان، التي بدأتها عناصر اقطاعية معادية للاصلاح الزراعي (مرتبطة بايران)، ومن ثم انضم الحزب الديمقراطي الكردستاني اليها واعطاها طابعاً قومياً، يطالب بالحقوق القومية للشعب الكردي، وتحولت الى حرب مدمرة".

"وهنا كان ايضاً الشعار الذي رفعه الحزب الشيوعي العراقي (السلم في كردستان) ونظّم من اجله العرائض الجماهيرية بعشرات ألوف التواقيع، والمظاهرات الضخمة، التي أدت ببعض المشاركين فيها من المناضلين المعروفين والوجوه الثقافية الى السجون تنفيذاً لأحكام مجالس عرفية نصّب فيها قاسم عناصر معادية له وللديمقراطية تطبيقاً لسياسة التوازن التي أشرنا اليها سابقاً".

"أقول هنا ايضا كان هذا الشعار (السلم في كردستان) يستهدف تخليص الوطن من كارثة الحرب ضد الشعب الكردي وتمهيد الاوضاع لنضال اكثر فعالية من اجل الحد من تسلط عبد الكريم قاسم على السلطة، وبناء حياة ديمقراطية صحيحة، تتيح العمل السياسي لكل القوى السياسية في البلاد في ظل الحريات الديمقراطية وسيادة القانون وتشريع دستور دائم للبلاد".

ويخلص المقال الى القول: "غير ان الوعي في الحركة الوطنية ككل، بكل فصائلها، مع تفاوت في درجة مسؤولية كل فصيل عما حدث، كان دون المستوى المطلوب لإنجاح الثورة في تحقيق مهمة اقامة النظام الديمقراطي المنشود".

"ولم يكن هذا بمعزل، بطبيعة الحال، عن التمسك بالمصالح الطبقية الضيقة من قبل

البورجوازية الوطنية العراقية، ورغبة العناصر القومية في التحكم بمسيرة الثورة دون سند جماهيري، بل بالاعتماد على تدخلات القوى الخارجية ودعمها، وفي مقدمتها قيادة عفلق والقوى الناصرية. وكذلك حقد العناصر الرجعية والدوائر الامبريالية على ثورة 14 تموز، ومساعيها الحثيثة (أي مساعي هذه العناصر والدوائر) لإثارة الفرقة بين قوى الثورة وتفجير الصراعات في ما بينها، واستغلال الثغرات الخطيرة في نهج حكومة عبد الكريم قاسم، للتآمر عليها وإنجاح انقلابها المشؤوم في 8 شباط 1963. هذا الانقلاب الذي وجّه أكبر ضربة للحركة الديمقراطية في العراق، ما زالت آثارها بادية للعيان حتى الآن". (أي في العام 2018 وليس فقط تاريخ كتابة المقال في تموز 1999).

وهكذا يمكن القول بكل ثقة ان تجربة ثورة 14 تموز 1958 تجربة غنية جداً بايجابياتها؛ اذ كانت حصيلة وحدة نشاط قوى المعارضة الوطنية، وحققت لشعبنا الكثير من المنجزات، وبسلبياتها الخطيرة. وفي مقدمتها احتراب القوى التي فجّرتها في ما بينها، وتضييعها فرصة اقامة النظام الديمقراطي الذي ينشده الشعب وفتحها الطريق لتولي الدكتاتوريات التي اوصلت وطننا وشعبنا الى الوضع الكارثي الذي يعاني منه الجميع".

(4)

ما هي العوامل والقوى الخارجية الداعمة للثورة والمناهضة لها؟ النشاط الامبريالي ودوره في عرقلة الثورة والوصول الى غايتها في تحرير العراق من الهيمنة السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟

بودي الاجابة عن هذين السؤالين باختصار جهد الإمكان التزاماً بالحجم الذي حددته هيئة التحرير.

كانت القوى الامبريالية قد خططت للسيطرة على العراق، وكبح نشاط القوى الوطنية الهادف الى تحريره منها. ولذا اقامت حلف بغداد الذي ضم العراق وايران وتركيا وباكستان وبريطانيا العظمى. وكانت الولايات المتحدة الامريكية تدعمه، دون ان تكون عضواً رسمياً فيه شكلاً.

ولهذا فقد اقدمت الولايات المتحدة الامريكية على إنزال قواتها العسكرية في لبنان، وبريطانيا على إنزال قواتها في الاردن فوراً، بعد نجاح الثورة في العراق، خشية انهيار الحكم في هذين البلدين تحت تأثير انتصار الثورة العراقية في 14 تموز 1958. وواصلت بعد ذلك العمل على إضعاف الحكم الجديد الذي جاءت به الثورة، ومنعه من تعميق نهجه الثوري وتعزيز منجزاته ما امكنها ذلك.

في حين وقف الاتحاد السوفيتي ودول المنظومة الاشتراكية والصين والحركة العمالية والتحررية العالمية الى جانب الثورة. وجرى تحذير تركيا من قبل الاتحاد السوفيتي من القيام بأي عمل معادي للثورة.

هذا الموقف الذي قوبل بحماس وامتنان كبيرين من جانب الجماهير العراقية تجسد بحمل سيارة السفير السوفيتي بمن فيها عندما توجه لتقديم اوراق اعترافه بالحكم الجديد، إعراباً عن ذلك، دع عنك ما قدمه المعسكر الاشتراكي، وفي مقدمته الاتحاد السوفيتي، يومذاك، من مساعدات سياسية واقتصادية وعسكرية، دعماً للثورة

وحكومتها ومساعدتها على انجاز المهمات التي تواجهها على الصعيد السياسي والاقتصادي والعسكري.
فإلى جانب الإعراب عن الوقوف بحزم لحماية الثورة والوضع الجديد، وتقديم المساعدات الاقتصادية ودعم ما اقدمت عليه حكومة الثورة من تأميم كل الاراضي التي كانت خاضعة لامتيازات شركات النفط الاستعمارية عدا التي كانت قيد الاستثمار الفعلي من قبل هذه الشركات، كان عقد اتفاقيات التعاون الاقتصادي التي دعمت الاقتصاد العراقي دعماً كبيراً في اكثر من مجال.
اما عن دور النشاط الامبريالي في عرقلة الثورة في الوصول الى غايتها في تحرير العراق من الهيمنة السياسية والاقتصادية الاجنبية والتآمر لإسقاط حكومة عبد الكريم قاسم، فبودي أن أشير، اقتصاداً بالوقت، الى كتاب "التدخل السري للولايات المتحدة في العراق خلال الفترة 1958 – 1963، جذور تغيير النظام في العراق الحديث بدعم من الولايات المتحدة الامريكية". وهو اطروحة اكاديمية بقلم الباحث ويليام زيمان، وترجمة عبد الجليل البدري – 2013. الكتاب الذي "يسلّط الضوء على التعاون الوثيق بين حزب البعث ووكالة المخابرات المركزية الامريكية (سي آي أي) للإطاحة بحكومة عبد الكريم قاسم وتصفية منجزاتها، وخاصة ما يُعرف بالقانون رقم (80) الذي سحب امتيازات التنقيب عن النفط في الاراضي العراقية من الشركات الاجنبية خارج ما كانت تستثمره فعلاً. وهو ما سبق ان جئت على ذكره قبل قليل.
وهدف البحث الذي ضمّه الكتاب هو "تبيان حقيقة الدعم المادي الذي تلقاه حزب البعث ومن وكالة المخابرات المركزية، سواءً قبل وبعد الانقلاب، او في فترات مختلفة خلال السنوات الخمس من حكم قاسم، وقيام الوكالة بعمليات سرية ضد العراق".
وأشار الكتاب الى كتاب حنا بطاطو "الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العراق" والى تأكيدات العاهل الاردني الملك حسين بأن وكالة المخابرات المركزية التقت مراراً مع حزب البعث. والى ما اخبر هاشم جواد وزير الخارجية ايام قاسم المؤلف "بأن وزارة الخارجية العراقية كانت لديها معلومات عن وجود تواطؤ بين البعث ووكالة المخابرات المركزية (سي آي أي). وفي عام 1987 نشرت ماريون وبيتر سلاكليت كتابهما (العراق منذ 1958)، وهو عبارة عن تاريخ كامل يلخص ضلوع الولايات المتحدة في الانقلاب البعثي عام 1963.
ويذكر المؤلف ويليام زيمان ان الفلسطيني سعيد ك. ابو ريش يُعد من اكثر المؤلفين إحاطة بموضوع التدخل الامريكي في العراق خلال الفترة الممتدة من 1958 الى 1963، فان كتابيه (صداقة وحشية: الغرب والنخبة العربية) الصادر عام 1997، و(صدام حسين: سياسة الانتقام) الصادر عام 2000 يعترفان بما ورد في بحوث كتاب سابقين مثل مالك المفتي وحنا بطاطو ومحمد حسنين هيكل وماريون وبيتر سلاكليت. ونضيف ما حصل عليه من مقابلات عديدة مع مسؤول الشرق الاوسط في وكالة المخابرات المركزية خلال عام 1963، وهاني الفكيكي عضو قيادة البعث خلال عام 1963 والعديد من الامريكان

والعراقيين الآخرين.
ولا يفوتني ان أورد ما صرح به علي صالح السعدي، القائد البعثي، الذي قال "جئنا الى السلطة بقطار امريكي".
ويذكر الكتاب الكثير من الوقائع والشخصيات العاملة في وكالة المخابرات المركزية (سي آي أي)، وعلاقاتها ونشاطاتها في اصطياد البعثيين، مما لا داعي للتفصيل فيه في هذا المجال. ولكني لا استطيع ان استبعد شهادة قائد بعثي سوري، اذ ورد في الكتاب ما يلي: "وبصرف النظر عن طريقة الـ (سي آي أي) في اصطياد البعثيين العراقيين فقد وصل نبأ لقاءاتهم الى القادة البعثيين في دمشق، واحتدم الجدل بين البعث السوري والبعث العراقي. ويروي القائد البعثي جمال الاتاسي، الذي كان وزيراً في الحكومة السورية وقتذاك تلك النقاشات قائلاً:
"عندما اكتشفنا هذا الأمر، بدأنا بمناقشتهم (أي البعثيين العراقيين – الكاتب عبد الرزاق) وكانوا يبررون تعاونهم مع وكالة المخابرات المركزية (سي آي أي) والولايات المتحدة بأنه لغرض اسقاط عبد الكريم قاسم والاستيلاء على الحكم. كانوا يقارنون ذلك بكيفية وصول لينين بقطار الماني للقيام بثورته قائلين انهم وصلوا بقطار امريكي".
اكتفي بهذا القدر عن الدور الامريكي خشية الإطالة، اذ لا بد من ذكر دور بريطانيا باختصار، اذ يذكر المؤلف ان "تنسيب عملاء الى وكالة المخابرات الامريكية هي طريقة اخرى ساعدت بها بريطانيا في انقلاب 1963 في العراق". ويقيناً انها ليست الطريقة الوحيدة التي قامت بها بريطانيا في العمل ضد الثورة العراقية وضد حكومة عبد الكريم قاسم.
اكتفي بهذا المقدار، حرصاً على عدم تجاوز الحد الذي حددته هيئة التحرير لحجم المقال، آملاً ان اكون قدمت مساهمة متواضعة في ملف الثقافة الجديدة لمناسبة الذكرى الستين لثورة 14 تموز 1958 المجيدة.

مقـــــالات

في صيرورة العلمانية.. محاولة في الفهم

د. هاشم نعمة

أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب - جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب. له ترجمات من اللغة الانكليزية إلى العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

بات مفهوم العلمانية من أكثر المفاهيم التي تثير الالتباس والتشوش والخلط على المستوى الفكري والديني والسياسي والاجتماعي والثقافي، خصوصا في ظل تبني الكثير من القوى والأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني فكرة بناء دولة مدنية ديمقراطية، سواء على مستوى العالم العربي عموما أو العراق خصوصا. وذلك نتيجة الفشل الذريع -على كافة الصعد- الذي منيت به تجارب الأحزاب الإسلامية التي استلمت السلطة أو شاركت فيها في بعض البلدان العربية والإسلامية. وتجري عملية منظمة ومقصودة في أحيان غير قليلة لتشويه المفهوم وإلحاق النعوت السلبية به بدوافع سياسية أو أيديولوجية أو دون قصد نتيجة قلة الإطلاع على تجليات العلمانية في تجاربها المطبقة في الكثير من البلدان. وهذا ما يجعل مفهومها يشوبه الكثير من الضبابية في نظر العموم. وفي محاولة لاستجلاء جوانب من صيرورة العلمانية وأبعادها الفكرية والاجتماعية والسياسية تأتي مقالتنا هذه لعلها تسهم بما هو مفيد في هذا الجانب الهام.

في أصل مفهوم العلمانية

استخدمت كلمة علماني في اللغة الرومانية "سيكلوم" بمعنى الزمني، والدنيوي، والمتغير والنسبي وما شابه ذلك للإشارة إلى معنى العالم أو الدنيا. أما في السياق اليوناني فقد استخدمت بمعنى الزمن والدهر أو الحقبة من الزمن. وقد استُعمل نعت علماني، ومنذ وقت مبكر داخل الكنيسة (1)، للدلالة على طبقة رجال الدين الذين يقومون على خدمة الشؤون الدنيوية لعامة المتدينين، وذلك

تميزا لها عن طبقة الرهبان والقساوسة المتفرغين لشؤون العبادة بصورة كاملة وبمعزل عن الشؤون الدنيوية. ولكن بدءا من القرن السادس عشر بدأت كلمة علمانية تتخلص تدريجيا من حمولتها السلبية منذ مرحلة النشأة، فلم يعد إذن نعت علماني يحيل على ما هو أقل مكانة روحية أو منزلة دينية واجتماعية، بل صار يدل على ما هو جليل ورفيع: أي المدني، الدنيوي، الزمني، النسبي، مقابل ما هو كنسي وديني مما بدأ يفقد شحنته الإيجابية شيئا فشيئا. ومنذ القرن الثامن عشر، شاع المصطلح على نطاق واسع، واتسع ليدل على انتقال شخص من المشغل الديني إلى المدني، ثم اكتسب المصطلح فيما بعد معنى اجتماعيا وسياسيا واضحا (2). وهذا يشير بوضوح إلى أن المفاهيم يمكن أن تتغير دلالاتها وفقا للتغيرات التي تحدث في البنية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تنشأ فيها وتتفاعل معها.

إن مفهوم العلمانية لا ينفصل عن جملة مفاهيم فلسفية أخرى، تتكامل معه وتُتممه، وينسج معها خطاب التنوير الليبرالي في أشكاله المختلفة والمتطورة، من قبيل مفاهيم الملكية، والمواطنة، والتعاقد الاجتماعي، والتسامح، والحرية، والتقدم. وقد تكاملت هذه المفاهيم في دائرة التاريخ الأوروبي، وعكست ملامح لا حصر لها من الصراع التاريخي والنظري في أوروبا. وقد توج هذا الصراع بالثورة الفرنسية في مجال الصراع السياسي التاريخي، كما توج بفلسفة التنوير النقدية في مجال تاريخ الفلسفة. وكان لكل من فلسفة التنوير والثورة الفرنسية نتائجهما المعروفة في التاريخ الواقعي، وتاريخ الأفكار والعلوم والفنون في أوروبا الحديثة والمعاصرة.

أما في العالم العربي فقد استعمل مفهوم العلمانية لأول مرة في دلالته الفلسفية التنويرية، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (3). ومنذ ذلك الحين ما زال موضوعا للسجال السياسي والفكري المتشعب بين مؤيديه وخصومه من القوى الأصولية والمحافظة.

صيرورة العلمانية

العلمانية في الممارسة والفكر لم تولد جاهزة كأي تجربة إنسانية، وإنما مرّت بالكثير من المخاضات والصراعات ذات الأبعاد الطبقية والفكرية وذلك تبعا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي نشأت في ظلها وأثرت وتأثرت فيها.

العلمانية هي نتاج عملية تمايز اجتماعي بنيوي وتغير في أنماط الوعي كصيرورة تاريخية، وهي صيرورة تمر بها المجتمعات كافة. وطبيعة صيرورة العلمنة التي مرت بها المجتمعات هي التي تحدد ليس طبيعة العلمانية التي تنتج فيها، وموقعها ومدى هيمنتها فحسب، بل طبيعة أنماط التدين أيضا.

تنحو العلمانية إلى جعل مرجعيتها مرجعية قيمية ومعنوية "معيارية" غير دينية. وتشمل الصيرورة التي تقود إلى هيمنة هذا الموقف في الفكر والسياسة والعلم والاقتصاد، كما تمر عبرها القيم والأخلاق، وكذلك المؤسسات والممارسة الاجتماعية.

في الحداثة وحدها سميت هذه الصيرورة "علمانية" أو "علمنة" بالمعنى الضيق

للكلمة. بينما هي، جزء من صيرورة تاريخية تسبق الحداثة. إنها صيرورة تاريخية طويلة تمتد إلى ما قبل تسميها عملية علمنة، تماما كما تعود أصول الدولة الحديثة إلى نويات الدولة المركزية، ولاسيما في القرن السادس عشر إلا أن تطور الدولة عملية تاريخية طويلة. لذلك فالعلمانية صيرورة تاريخية من التمايز في مجالات المعرفة، وفي البنى الاجتماعية، والممارسة الاقتصادية والعلمية والسياسية. وهي تتخذ شكل انعطاف حاد، عشية العصر الذي نسميه الحداثة، وذلك بسبب الثورات العلمية والصناعية والتحولات السياسية والاجتماعية الكبرى (4) والتي كانت تتفاعل مع التحولات الاقتصادية العالمية الكبرى التي شهدتها تلك الفترة.

بالنسبة إلى تجربة الغرب، يناقش (ستيف بروس) بأن تراجع الانتماء الكنسي ومواظبة الحضور إلى الكنيسة يمكن تفسيره بالتغيرات التي رافقت انبثاق المجتمع الحديث. وهناك خصوصا ثلاثة عوامل اجتمعت لتجعل الغرب علمانيا بصورة رئيسية، وهي تتمثل في: التشظي الاجتماعي؛ تفكك العلاقات الاجتماعية القديمة والعقلنة.

بالنسبة إلى التحول الأول في الأوضاع الاجتماعية، يحدده بروس بالتحول من الجماعات المتماسكة المغلقة، والقرى إلى مجتمع مجزأ متنوع، إلى الدولة القومية الحديثة. هذا التشظي يتوافر على عدد من العناصر. ففي الجماعات الإقطاعية ما قبل الحديثة، كانت الكنيسة مسؤولة عن عدد من النشاطات الرئيسية. فهي مسؤولة عن التعليم، والشؤون الاجتماعية، والرعاية الصحية، ولها آراء مؤثرة في العمليات الاقتصادية. ومع قدوم التحديث أصبحت هذه النشاطات تدريجيا من اختصاص المتخصصين. لذلك فقدت الكنيسة سيطرتها الشاملة. وقد تولى المهنيون مثل المعلمين، والممرضات، والأطباء، والعاملين في المجال الاجتماعي مسؤولية العمل في المجالات التي كانت في السابق من مسؤولية الكنيسة. وباتت المعايير المهنية التي يعمل وفقها هؤلاء المهنيون مطابقة للتوجه العلماني.

إلى جانب تشظي الأدوار هذا بدأ الناس ينقسمون إلى مجموعات طبقية أكثر تحديدا. بينما في عصر الإقطاع، كانت تقسيمات المجتمع ثابتة ومعترفا بها. وعلى الرغم من وجود تفاوت كبير في نوعية الحياة لكن كان الكل يعيش على مقربة من الآخر. ومع قدوم التحضر (توسع المدن) والتصنيع، بدأ المجتمع بالتشظي. وسيكون هناك ناس ينتمون إلى طبقات مختلفة ويعملون في أماكن مختلفة؛ لاسيما الطبقة العاملة التي ملأت المصانع.

وقد أثرت التغيرات الاجتماعية في البنية العقلية للسكان. حيث قاد التصنيع إلى انهيار النظام الإقطاعي وبالتالي تقدم شعور أكبر بالمساواة والديمقراطية. كذلك فإن انهيار المجتمع الإقطاعي ذي التراتبية الصارمة حيث تتوفر فيه الكنيسة على الدور المهيمن والقوي، ولد التشظي الاجتماعي الذي سار يدا بيد مع مبدأ الفردية والمساواة (5).

يناقش بروس أيضا بأن معظم الناس لم يتخلوا عن الدين لأنهم درسوا داروين، أو تعاطفوا مع (غاليلو) أو اقتنعوا بالانتقادات الموجهة للكتاب المقدس. لأنه عندما جرت

النقاشات الفكرية حول العلاقة بين سِفر التكوين والتطور، كان هؤلاء قلة مختارة. لكن هذا لا يعني بأن العلم لم يكن له تأثير على الكنيسة. ما حدث في الواقع أن العقلية العلمية همشت الكنيسة، لأن هذه العقلية تتعامل بعمليات السبب والتأثير. وتبحث عن الأجوبة والحلول التي هي بالكامل تعود إلى عالم الطبيعة، وتهجر العوالم الخارقة للطبيعة (6).

من الشائع وصف المجتمعات الغربية بأنها علمانية، إذ يفترض الزعماء الدينيون، والصحفيون، والسوسيولوجيون والسياسيون وغالبية الناس الذين لهم مصلحة عابرة في هويتهم الدينية والثقافية، بأن الغرب علماني. طبعا، هناك استثناءات ملاحظة عن هذا السياق، حيث تتحدد الأقليات خصوصا الجاليات المهاجرة بأن لها هويات دينية قوية. وهذه تبقى استثناءات على اعتبار أن الغرب يُعد علمانيا بشكل رئيس. هناك في الواقع ثلاثة أمور تُقصد عادة عندما يتم وصف الغرب بأنه علماني: الأول، هو استمرار تراجع المؤسسات المسيحية، حيث أن عدد الأشخاص الذين يذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد في تراجع. وبجانب التراجع العددي هذا، هناك تراجع في الوضع الاجتماعي لهذه المؤسسات. فمن النادر أن تتم استشارة الزعماء الدينيين كأصوات عامة وبشكل رسمي.

الأمر الثاني، هو الحديث بطريقة علمانية في الفضاء العام. المقصود هنا أن النقاشات تجري في الغالب على أساس تصورات علمانية في الإعلام، والمدارس والجامعات، وبشكل عام بين الناس وفي أماكن العمل والمنازل. لذلك غالبا ما يتم التعامل مع الدين كقضية رأي خاص وليس كحقيقة عامة. لقد قاد التمييز بين المعتقدات الدينية الخاصة والحقائق العامة إلى استبعاد اللاهوت، باستثناء عدد قليل من القضايا مثل الزواج وتعميد الأطفال ودفن الأحباب التي تتم في الكنيسة. حتى التفجيرات التي شهدتها بعض البلدان الغربية تجري مناقشة أسبابها على أساس علماني. تعزى أسباب هذا التطور غالبا إلى صعود شأن الفلسفة الليبرالية والمناهج العلمية الحديثة الناجمة عن عصر النهضة وحركة التنوير الفلسفية. علما انه كانت معتقدات المفكرين الليبراليين والعلماء الغربيين البارزين في الغالب مسيحية، ولكنهم هم أنفسهم قوضوا القوة الفكرية لمسيحية القرون الوسطى.

الأمر الثالث الذي يوصف فيه الغرب بأنه علماني، يتمثل في الملاحظات النقدية التي توجه إلى الهيئات الدينية والزعماء الدينيين. فقد جعلت علمانية الغرب منه استثناء بالنسبة إلى الاتجاهات الدينية في بقية العالم. إن استدعاء العلمانية الغربية هنا هو في جزء منه لعقد مقارنة بمناطق أخرى. حيث مازالت المسيحية تمثل قوة ثقافية وسياسية في الكثير من بلدان إفريقيا، وأمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا. فضلا عن ذلك تنمو في هذه البلدان، ولا تتراجع، في تباين ملحوظ مع ما يحدث في الغرب. ويتمتع الإسلام بقوة كبيرة في تشكيل الهوية الثقافية والسياسية في البلدان الإفريقية والآسيوية الأخرى وفي بلدان الشرق الأوسط (7) التي هي في الغالب بلدان عربية.

ويمكن أن نستخلص من ذلك، إن العلمانية هي الثمرة الطبيعية لتطور الحضارة، وما

يرافقها من ارتفاع في مستوى استخدام العقل، وتراكم المعرفة وترسيخ الميول والمشاعر الدنيوية والمادية. فهي لا تتحقق بقرار رسمي وإنما تواكب نمو المدنية. ويمكن القول أن العلمنة تنحو في الحالتين إلى أن تكون التعبير عن نمط من العقلانية يعكس حركة الحياة الجديدة، عقلانية السياسة والتنظيم الجماعي، وعقلانية الوعي وتنظيم الحياة. إنها التعبير عن تعاظم استخدام العقل والملكات الإنسانية الأخرى (8).

مع ذلك لم تكن العلمانية نسخة واحدة طبقت في الدول الغربية، إذا نرى هناك تباينات في هذا التطبيق، بحسب الظروف السياسية والاجتماعية في كل بلد، فمثلا لا يزال نظام التعليم الهولندي الرسمي يتوفر على مدارس ذات توجه كاثوليكي وبروتستانتي وأخرى ليس لها توجه ديني، علما يحق لجميع الطلاب الدراسة في جميع هذه المدارس بغض النظر عن خلفياتهم الدينية، مع هذا تظل هولندا بلدا علمانيا. كذلك ما زالت ملكة بريطانيا تترأس الكنيسة مع أن هذا البلد من أكثر البلدان الأوروبية علمانية. ونجد في الدستور الإيطالي واليوناني نصوصا تخص الدين، ولكن في كل الأحوال يظل هذان البلدان علمانيين.

التأطير النظري

غدت مناقشة انبثاق العلمانية في الغرب من خلال دراسة التاريخ الاجتماعي من أكثر الطرق شيوعا. ويكون في قلب هذا النقاش الكثير أطروحة العلمانية. وقد كان الشكل المعاصر لنظرية العلمانية قد طور خلال الستينات والسبعينات من القرن العشرين من قبل علماء مثل (بيتر بيرغر) و(بريان ولسون)، على الرغم من أنه يمكن القول بأن النظرية تعود إلى القرن التاسع عشر وإلى شخصيات مؤثرة مثل (كارل ماركس)، و(دوركهايم)، و(كمت). وأكثر حداثة، فإن صاحب الدليل الموثق والواضح لأطروحة العلمانية هو (ستيف بروس) (9) الذي سبق ذكره. وجوهر ما يناقشه هو أن تراجع المسيحية يعود إلى التغير الاجتماعي الذي مرت به المجتمعات الأوروبية، علما أن (ماركس) يعتقد أن العلمانية ولدت في الرأسمالية لكنها تكتمل فقط في مرحلة الشيوعية.

تتسق نظرية العلمانية مع نظرية الحداثة التي تقوم على نحو ما يقول منظروها في العصر الحديث، بدءا بهيغل ومرورا بماكس فيبر، وانتهاء بمدرسة فرنكفورت، وخصوصا في جيلها المتأخر مع (هابرماس)، على عقلنة المنظورات والسلوكيات الفردية، وما يصاحب ذلك من عقلنة البنى العامة للمجتمع، لصالح نظرة وضعية، أي الانتقال نحو العلمانية باعتبارها قرين العقلنة بمعناها الواسع.

وتتأسس النظرية على أطر نظرية تحدد بموجبها هوية ومضمونا للديني والعلماني على السواء، فهي تعيد رسم حدود الدين وتضبط مجالات فعله مثلما ترسم حدود العلماني ومواقع اشتغاله، فهي مثلا تحدد حضور الدين في ما يسمى بالحقل الخاص، مقابل مجال عام محكوم بالقيم العلمانية (10)، كما أشرنا إلى ذلك.

والعلمانية من وجهة نظر (فيبر) ليست مجرد تحول في مستوى الوعي والمنظورات، بل هي، أولا وقبل أي شيء، حركة تاريخية

كاسحة وجامحة تربك مختلف البنى الاجتماعية والاقتصادية السائدة. فهي ليست مجرد رؤية للكون ذات منحى دهري تبناها بعض المفكرين والفلاسفة، ولكنها بالدرجة الأولى هي تجسيد حي ومتلاحق لدهرنة البنى الاجتماعية والاقتصادية. ويرى فيبر أن العصر الحديث في جوهره عصر علماني، ليس لأن ثمة مجموعة من الفلاسفة أو المفكرين قد نادوا بالعلمانية، بل لأن البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لا تستطيع بطبعها أن تتعايش مع المؤسسات الدينية (11). علما ما زالت طروحات فيبر تتمتع بأهميتها وتعد مرجعا للكثير من دارسي العلمانية.

لقد طرحت العلمانية، كنظرية، بمعنيين؛ الأول، إجرائي سياسي، يتعلق بتنظيم العلاقة بين الدين والدولة عموما ومضمونه الحقيقي نزع القدسية عن نشاط وممارسة الدولة والحكام، وإخضاعهما للمناقشة العقلية والمسؤولية والمحاسبة. والثاني فلسفي يفيد إدارة الرأسمال الفكري وتنظيم العلاقات داخل العقل نفسه بين مصادر القيم والرموز المختلفة القديمة والحديثة، الدينية والعلمية، الروحية والمادية (12).

ويذكر برهان غليون "إذا كانت العلمانية كواقعة تاريخية تعكس تطور نمط معين من العقلنة الموضوعية والعملية في الممارسة الاجتماعية السياسية، فإن العلمانية كنظرية أو كمفهوم إجرائي ليست إلا محاولة لإجلاء حقيقة هذه العقلنة وتبيان أسبابها ومآلها" (13).

الواقع الذي تسعى العلمانية كنظرية ووسيلة فهم، الى أن تدلنا عليه، والتي تحاول بوصفها برامج تغيير وإصلاح، أن تساعدنا على تنظيمه والتغلب عليه، ليس هذا الواقع هو النشاط الديني، الذي تقوم بتنظيمه المفاهيم والمعايير والقيم والعلوم الدينية. لكنه واقع الخلط بين الدين والسياسة، بما هو خلط غير منتج ومظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية السياسية القرسطوية، ومصدر من مصادر فسادها وخراب الدولة فيها. ويتجلى هذا الخلط في إدخال المعايير والقيم الدينية في الممارسة السياسية، كما تجلى في تداخل سلطة الكنيسة وسلطة الدولة، والتضحية بالحريات المدنية لصالح سيطرة السلطة الروحية، وما نجم عن كل ذلك من حروب مدمرة دينية ودينية - سياسية استنزفت الجهد البشري على مدى قرون طويلة (14) سواء في أوروبا أو في مناطق أخرى.

هذا لا يعني أبدا أن نظرية العلمانية التي وجدت في السياق الغربي لا يمكن تطويرها وتعديلها لتأخذ في الاعتبار البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والنفسية للمجتمعات المختلفة التي تروم تبني العلمانية ومنها المجتمعات العربية والإسلامية.

وعن العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية، لم يتردد الباحث البريطاني (فراد هليداي) في القول انه لا توجد ديمقراطية دون علمانية. أما الفيلسوف الأمريكي (جون رولز)، فقد جعل من العلمانية رافعة ضرورية من روافع النظام الديمقراطي القائم على ما أسماه "الوفاقات المعقدة"، في حين شدد زميله (رتشارد رورتي) على أهمية العلمانية باعتبارها مرتكزا أساسيا لتأسيس فضاء عام مفتوح، بعيدا عن الغيبيات، واصفا إياها بالقوة "الكابحة للحوار" (15).

إذن، لا يمكن أن يكون النظام ديمقراطيا دون أن يكون علمانيا، ولكن ليس العكس

صحيحا، فيمكن أن يكون النظام علمانيا دون أن يكون ديمقراطيا، ولنا في تجارب كثيرة دليلا على ما نقول، مثل الأنظمة الاشتراكية السابقة التي كانت علمانية إلى أقصى الحدود، ونظام بورقيبة في تونس، ودكتاتوريات عديدة في العالم تبنت العلمانية.

العلمانية والعالم العربي

كانت أوروبا منذ القرن السادس عشر تتسلق سلم الاكتشافات العلمية، والابتكارات الفكرية، والمأسسة السياسية، والتنمية الاقتصادية، أما العالم العربي فقد كان يتراجع. ومنذ أواسط القرن التاسع عشر بدأت أوروبا امتلاك تأثير ثقافي ملموس في المنطقة. لذلك عند هذه النقطة دخل مفهوم العلمانية النقاش الفكري. ومن هناك بدأ نموذج ثقافي جديد بالدخول حيث تم تبنيه من قبل المتحمسين والمعجبين بالغرب أو أنه فُرض بالقوة من قبل السلطات الاستعمارية. وعلى الرغم من أن القوى الأوروبية الاستعمارية مثل فرنسا وبريطانيا جاءت إلى العالم الإسلامي بدوافع طموحاتها الإمبريالية، لكنها كانت موضع إعجاب من قبل نخبة تتكون بشكل رئيس من مثقفين ذوي تعليم غربي، وذلك في سبيل إحراز التقدم العلمي والثقافي في نظرهم. وقد تركز النقاش الأول بشأن العلمانية في العالم العربي بشكل رئيس، حول العلاقة بين الدين والدولة (16)، وحول مدى ملاءمة النجاحات الأوروبية في العلوم والتكنولوجيا وأسلوب الحكم (17) للمنطقة.

بات فكر التنوير واحدا من الأطر النظرية المرجعية الموجهة للفكر العربي المعاصر. وقد بلور المصلحون المصريون والشوام في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، اختيارات فكرية تدعو إلى قيم التنوير، وتسلم بأهمية مفاهيم ومبادئ عصر التنوير، في تطوير الفكر العربي والواقع العربي، وذلك انطلاقا من دورها العام في تطور الفكر الإنساني.

ومن أبرز هؤلاء المثقفين المتحمسين لفكر التنوير يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر فرج أنطون، وشبلي شميّل، وأديب إسحاق، وسلامة موسى، ولطفي السيد، وعلي عبد الرازق، وطه حسين. وقد ساهم كل هؤلاء بدرجات متفاوتة في إنجاز تأويل إيجابي لفكر التنوير داخل فضاء الفكر العربي المعاصر (18) على الرغم من أن بعضهم قد تراجع عن بعض مواقفه نتيجة الهجوم والتهديد اللذين شنتهما القوى الأصولية ضدهم مثل طه حسين وعباس محمود العقاد.

في ما يتعلق بمدى ملاءمة العلمانية للعالم العربي يذكر عزمي بشارة إذا كانت العلمانية تقوم على فهم الظواهر بقوانينها، والتعامل مع الدنيا من دون الحاجة إلى إقحام الغيب، وإذا كان تجليها يتمحور حول قضية التعامل مع الدولة بموجب آليات السياسة الدنيوية، حيث لا تسيّرها اعتبارات دينية، وإذا كانت نتاج صيرورة تمايز في الوعي، وبين المؤسسات تسمى العلمنة، فإنها بمعانيها هذه ليست خاصية ثقافية للغرب. والفرق بين المجتمعات العربية والإسلامية بهذا الخصوص هو في نمط حصول هذا التمايز، لا في وجود أو عدم وجود تمايز في الوعي والمؤسسات بين الديني وغير

الديني. فالتمايز بين المجالات الاجتماعية والمؤسسات، والتفكير العلمي والديني، من علامات التطور عموما، لا من علامات التطور في أوروبا وحدها (19). وهذه نظرة منطقية تتقاطع مع ما تطرحه القوى الأصولية بأن العلمانية خاصية غربية ولا يمكنها أن تتلاءم مع العالم العربي.

ويذهب محمد أركون أبعد من ذلك، إذ يشدد على أنه ينبغي أن نتجنب خطأ شائعا جدا في الأدبيات الاستشراقية، وعند المسلمين على السواء، والذي يقول بأن الإسلام لم يعرف أبدا في تاريخيه التفريق بين الزمني والروحي. هذه فكرة منغرسة في نفوس المستشرقين وعند الجمهور الغربي ككل. يجب التخلص فورا من هذه النظرية.

لقد وجدت في السابق في المجتمعات المدعوة إسلامية، تجارب يمكن أن نصنفها بالعلمانية. لكن هذه التجارب لم تصل إلى درجة الوعي الواضح بذاتيتها، ولم تلق في يوم من الأيام لها تنظيرا.

إن الإشكال النظري الذي طرحته مسألة إعادة إنتاج نموذج "تجربة مكة والمدينة" لم يُحل أبدا في تاريخ الإسلام بالشكل المشروع ومن وجهة نظر ثيولوجية. هذا ما يدعو إلى التأكيد بأن السلطة على مدار التاريخ الإسلامي كله كانت سلطة زمنية مضبوطة أو "موجهة" من قبل السيادة الدينية. هذه حقيقة مهمة جدا عكس التصورات الكبرى التي رسخت في أذهان الجماعات الإسلامية (20)، وخصوصا أحزاب الإسلام السياسي وفي مقدمتها "الأخوان المسلمون" الذين يعدون العودة إلى الخلافة الإسلامية هدفهم الأسمى.

كانت الدولة الإسلامية في البداية تبحث عن تسويغ ديني. هذا لا شك فيه، لكن في الواقع، أن تلك الدولة هي في الأساس علمانية بحسب تعبير أركون، أهم هذه الأمثلة تلك الرسالة المتعلقة بإنشاء الدولة وبنيانها والتي كتبها أبن المقفع عام 750 م. ورسالته هذه ليست إلا استلهاما لتنظيم الدولة الساسانية التي وجدت قبل الإسلام بزمن بعيد. وفي الواقع، فالدولة العباسية المؤسسة عام 750 م ليست إلا صورة منسوخة عن بنية الدولة الساسانية.

يحدد ابن المقفع في هذه الرسالة بنى الدولة ومؤسساتها، أي بنى الدولة العباسية وذلك دون الرجوع إلى الدين. يتناول الكاتب قضايا محسوسة ومادية تماما مثل أسلوب حكم سوريا والعراق، وكيفية إعادة الأمن إليهما، وقد نتج عن ذلك قرارات تخص الجيش والشرطة والقضاء. إن ابن المقفع يشرح ذلك بكلمات وتعابير وضعية تماما ودون الاستعانة بالفكرة الوهمية للقانون الإسلامي. إننا هنا بإزاء وثيقة تاريخية لا تُدحض تبين كيفية نشوء الدولة الجديدة التي واجهت مشاكل عديدة خاصة بأية دولة جديدة. حدث هذا ضمن منظور علماني بحت (21) بحسب الباحث نفسه الذي يرى أن الإسلام يقبل العلمانية.

وفي هذا السياق يشير سمير أمين في مناقشته لـ "الطوبى العلمانية والطوبى الإسلامية"، إلى أنه قد تبلور في تاريخ الإسلام اندماج السلطة والدين، وكذلك تأويل جديد للإسلام يجعله أيديولوجيا دنيوية إلى جانب كونه عقيدة دينية. وعلى ضوء هذا الواقع أقيمت مؤسسة دينية شبيهة إلى حد كبير بمؤسسة الكنيسة، مكونة من علماء وفقهاء ورجال دين بأشكالهم المختلفة. إلا

أن هذه المؤسسة نبعت مباشرة من السلطة عينها. فيعود المزج بين الدين والدولة إلى هذه العصور، لا إلى ما سبقها من تاريخ الإسلام (22). وهذه الرؤية تنفي ما يروج له الكتاب الإسلاميون بأن تاريخ الإسلام لم يعرف مؤسسة دينية شبيهة بالكنيسة، ولذلك لم تظهر العلمانية في المجتمعات الإسلامية كما ظهرت في الغرب لأن هذه المجتمعات ليست بحاجة لها.

ويذكر رجل الدين المتنور أحمد القبانجي بأنه لا بد من استحضار العلمانية ومقولة فصل الدين عن السياسة، والاعتقاد بأن الحكومة بشرية وزمنية، وأن الدين ليس من شأنه التدخل فيما هو دنيوي لأن الأمور الدنيوية من الاقتصاد والسياسة تعود للبشر بما هم بشر عقلاء يتحركون في دائرة إشباع رغباتهم وحاجاتهم الدنيوية بأدوات العقل والعلم بدون الحاجة إلى الاستمداد من الدين والوحي.

وليس فقط أن الإنسان المعاصر لا يحتاج إلى تعليمات الدين والشريعة في إطار التقنين والتشريع، بل إن ذلك غير ممكن إطلاقا، لأن الدين يتضمن أمورا ثابتة ويهتم بحاجات الناس المشتركة والفطرية والتي ترتفع فوق الزمان والمكان، في حين أن حاجات الإنسان الدنيوية وعلاقاته الاجتماعية والاقتصادية - التي تُسن القوانين على ضوئها - متغيرة باستمرار وداخلة ضمن الزمان والمكان. ولهذا لا بد من الاعتماد على أدوات العقل والعلم في تشخيص هذه الحاجات والعمل على مواجهة المشكلات ومعالجة المتغيرات بروح متحركة تنطلق من دراسة الواقع المتغير وحاجات الفرد والمجتمع الدنيوية، وصياغة قوانين ومقررات تتواءم مع هذه الحاجات وتنسجم مع هذه المتغيرات في حركة الحياة (23) المتجددة دائما خصوصا في ظل تسارع التطورات العلمية والتكنولوجية العاصفة، مقارنة بحالة الركود التي كانت تعيشها المجتمعات الإنسانية في السابق.

نرى الجماعات الإسلامية الأصولية ترفض العلمانية وتعدها انحرافا وكفرا عن صحيح العقيدة الإسلامية، وأنها لا يمكن أن تنسجم مع البنية الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والنفسية للمجتمعات العربية والإسلامية، على اعتبار أن منشأ العلمانية غربي، وكأن الحضارات في تاريخها لم تعرف الأخذ والعطاء والتلاقح الثقافي المثمر. وهو ما تؤكد عليه هذه الجماعات ذاتها وتتفاخر به باستمرار بأن الحضارة الأوروبية أخذت الكثير من الحضارة العربية الإسلامية. فإذا كانت هذه الحضارة قد أعطت فلماذا لا يمكن لها أن تأخذ؟ إذا افترضنا أن العلمانية خاصية غربية وهذا ما لا يتفق حوله جميع الباحثين، إن محاججة هذه الجماعات ضد العقل والمنطق والتاريخ.

في ما يخص إدعاء الجماعات الإسلامية أن العلمانية في الغرب مقرونة بالإلحاد، نورد هنا مثالا من بريطانيا التي يُعتقد في كثير من الأحيان أنها واحدة من البلدان الأكثر علمانية في أوروبا الغربية، لكن يُظهر الإحصاء السكاني الذي أجرته الحكومة عام 2001، أن 72% من السكان يصفون أنفسهم بأنهم مسيحيون، بل في بعض المناطق، مثل شمال شرق وشمال غرب انكلترا، هذه النسبة ترتفع إلى 80% و78% على التوالي. على العكس من ذلك،

يذكر 15,5% بأن لا دين لهم. وأظهرت دراسة في 1999 - 2000 صورة مشابهة لهذه المعطيات على مستوى أوروبا (24).
نرى باستثناء التبرير التاريخي المباشر الذي يعلل فيه السلفيون موقفهم من الغرب، لا نجد في نصوصهم أي محاولة في تأسيس موقف نظري نقدي من فلسفة التنوير في أوروبا، وغالبا ما كان يتم في نصوصهم هجاء هذه الفلسفة، أكثر من نقدها بأساليب النقد الفلسفي والمناظرة العقلية، وهذه مسألة واضحة في نصوص جمال الدين الأفغاني وسيد قطب (25) وغيرهما من أقطاب المفكرين الإسلاميين.
إن هذه الجماعات تنطلق من نظرة سكونية إلى بنية المجتمع وكأنها بنية ثابتة على الدوام، ولا يكمن لها أن تتغير على الرغم من التطورات الهائلة التي شهدها العالم في المجالات الفكرية والعلمية والتكنولوجية والتي لا يمكن لأي مجتمع أن يبقى بمنأى عنها.
تفترض المقاربة التجريبية استمرار سير المجتمع طبقا للقواعد الجارية من اللحظة المدروسة. إلا أن التاريخ يثبت عدم ثبات تلك القواعد التي تحكم المجتمع. فما كان يبدو "طوباويا" في عصر، ومتناقضا تماما مع قواعد سير المجتمع وبالتالي مستحيل الإنجاز، يصبح ممكنا في عصر تال. فمثلا: إذا كان أحد قد تقدم باقتراح العمل طبقا لمبدأ الحرية الفردية والانتخاب من أجل اختيار مؤسسة الحكم في القرن الثالث عشر في أوروبا أو الشرق الإسلامي أو الصين لكان هذا الاقتراح قد وسم بطابع طوباوي أكيد، وغير واقعي، بل متناقض مع "طبيعة البشر"... الخ. بيد أن العمل حسب هذه القواعد قد أصبح الآن طبيعيا! (26) بل أكثر من ذلك، أن الأحزاب الإسلامية سنية كانت أم شيعية التي كانت ترفض الديمقراطية كنظام حكم اضطرت إلى إدخالها في برامجها السياسية منذ التسعينات من القرن الماضي، ووصل بعضها إلى السلطة في بعض البلدان العربية عن طريق آليات ديمقراطية غربية خصوصا الانتخابات! ولكنها ظلت تنظر إلى الديمقراطية كآليات فقط للوصول إلى السلطة وترفض فلسفتها في مجمل نواحي الحياة.
في الواقع، هناك عوامل كثيرة تقف وراء تراجع العلمانية في العلم العربي، إلا أن هناك عاملا مهما ساعد على إحداث هذا التراجع يعود إلى أن الفكر العلماني لم يظهر في سياق أو أعقاب حركة فكرية فلسفية نقدية شاملة، حركة أعملت أدواتها النقدية في شتى المجالات، في القيم والدين والسياسة والاجتماع؛ وحاولت أن تصل إلى فهم أعمق للقضايا المختلفة التي ترتبط بهذه المجالات، وأن تستشف العناصر المكونة لطبيعة القيم والدين والسياسة. باختصار، إن العلمانية ظهرت في ظل شروط لم تساعد على ربط فهمنا لها بفهم متطور لطبيعة السياسة والاجتماع وما يتصل بهما (27) من علاقات متبادلة التأثير.
إذن نحن بحاجة إلى العلمنة التي تعتمد مبدأ النقد، وتشكل رغبة في تعقل شروط السلطة، مع توجه عام يتوخى تأسيس المجال السياسي كمجال معرفي مستقل عن الافتراضات الإيمانية الغيبية، تعتبر مطلبا سياسيا تاريخيا ملحا بالنسبة إلى واقع صراعات السلطة في العالم العربي. أما الوعي بدلالتها الفلسفية والتاريخية فإنه يدعم المسعى للديمقراطية، ويساهم

في تأصيل معاني الديمقراطية بالتفكير في طبيعة الدولة، أسسها ومقوماتها، من أجل أن نتمكن من بناء فلسفة سياسية تفهم وتعقل المجال السياسي في واقعنا، وهو ما يعني نفي المفارقات التي يكرسها الفكر السياسي العربي بإغفاله مبدأ مقاربة القضايا السياسية في جذورها وضمن شروطها الخاصة والعامة (28).

أخيرا هل نحن في العراق بحاجة للعلمانية؟ نعم بما أن مشروعنا الوطني الديمقراطي يتمثل ببناء دولة مدنية ديمقراطية، الدولة التي تعلي من قيم المواطنة والمساواة والعدالة الاجتماعية وتحفظ للدين مكانته وتبعده عن التلوث بأدران المصالح الحزبية والفئوية والشخصية الضيقة. هذه الدولة لا يمكن لها أن تقوم بمهامها هذه بفعالية إذا لم تتبن العلمانية التي هي تجربة إنسانية قابلة للتطور والتكيف والإغناء.

الهوامش:

1 - ذكر ذلك أيضا الباحث فالح عبد الجبار في إحدى المقابلات التلفزيونية.
2 - راجع رفيق عبد السلام، في العلمانية والدين والديمقراطية: المفاهيم والسياقات، ط 1 (الدوحة: 2008)، ص 20.
3 - راجع كمال عبد اللطيف، التفكير في العلمانية... إعادة بناء المجال السياسي في الفكر العربي، ط 1 (القاهرة: 2007)، ص 54.
4- راجع عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الأول (بيروت: 2013)، ص 408-407.
5- Graeme Smith, A Short History of Secularism (London: 2008), pp. 45-46.
6- Graeme, p. 49.
7- Graeme, pp. 1-6.
8- راجع برهان غليون، نقد السياسة: الدولة والدين، ط 5 (بيروت: 2011)، ص 332.
9- Graeme, p. 42.
10- عبد السلام، ص 26-23.
11- عبد السلام، ص 68-67.
12- غليون، ص 332..
13- غليون، ص 326.
14- غليون، ص 329-328.
15- عبد السلام، ص 68-67.
16- حول الدين والدولة، راجع كتابنا دراسات في الدين والدولة الذي سيصدر قريبا عن دار الرواد في بغداد.
17- Azzam Tamimi, Islam and Secularism in the Middle East (London: 2000), p. 17.
18- عبد اللطيف، ص 27.
19- عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الثاني (بيروت: 2013)، ص 55-54.
20- راجع محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، ط 3 (بيروت: 1998)، ص 280 - 281.
21- أركون، ص 296-295.
22- سمير أمين وبرهان غليون، حوار الدولة والدين، ط 1 (الدار البيضاء| بيروت: 1996)، ص 102-101.
23- راجع أحمد القبانجي، الإسلام المدني، ط 1 (بيروت: 2009)، ص 26-25.
24- Graeme, pp. 1-6.
25- عبد اللطيف، ص 31.
26- أمين وغليون، ص 85-84.
27- عادل ظاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، ط 2 (بيروت: 1998)، ص 6.
28- عبد اللطيف، ص 94-93.

نظرية غرامشي في السياسة وعلاقتها بمنظومته المفاهيمية

فرحان قاسم

أولا: مقدمة

من اهم إنجازات ماركس الفلسفية هي انه ربط بين المادية وقوانين التطور الاجتماعي وانتج معرفة فلسفية جديدة، تربط الفلسفة بالتاريخ، وكذلك منجزه الاقتصادي الكبير حين ربط الاقتصاد السياسي بقوانين التطور الإجتماعي، واصبحت العلاقة الجدلية بين النظرية والتطبيق هي جوهر الفلسفة الماركسية. لكن محاولات ماركس وأنجلز في مجال ممارسة النظرية واجهت الكثير من المصاعب والعقبات منذ البداية لأسباب عديدة وعلى رأسها عدم اكتمال أدوات التحليل النظرية للظاهرة الرأسمالية قبل الشروع بكتاب "رأس المال"، ما جعل روح التفاؤل التي غلبت عليها الرغبوية تطغى قبل ثورة 1848 التي قادت نتائجها (ماركس) الى التفرغ لدراسة المجتمع الرأسمالي بعمق وبهدوء، وان قراره بحل عصبة الشيوعيين ليس بسبب الحملة الإرهابية الشديدة التي شنتها قوى الرأسمال على الحركة العمالية بعد الثورة فحسب، وإنما لإعادة انتاج معرفة جديدة تقود الى كشف القوانين الاقتصادية التي تتحكم في التشكيلة الاقتصادية الرأسمالية والتعمق اكثر في القوانين الموضوعية للثورة الاجتماعية ومفهوم الدولة والمجتمع المدني.

يمكن القول بان براكسس ماركس كانت مرنة، وحدثت فيها انتقالات كبيرة بدأت بتأسيس اول حزب شيوعي اممي التكوين متعدد التيارات سعى لتحشيد قوى الطبقة العاملة الصاعدة في اوربا للانقضاض المبكر على الرأسمالية، لكن نتائج ثورات 1848 قادت ماركس الى التعمق في دراسة قوانين التطور الرأسمالي والعوامل الموضوعية والذاتية للثورة الاشتراكية، وانتقل الى تأسيس الأممية الاولى التي اعتمدت تحشيد الطبقة العاملة وتعزيز عملها النقابي، وربط نضالها من اجل مصالحها الطبقية بنضالها السياسي، لكن تعدد التيارات داخل الأممية الأولى وتوفر عوامل أخرى، قاد الطبقة العاملة والفئات المهمشة في باريس الى اعلان الانتفاضة والسيطرة على كومونة باريس، رغم تحذيرات ماركس الذي وصف ابطال الكومونة بمقتحمي السماء، تعبيرا عن شجاعتهم الفائقة من جهة ومن جهة أخرى تعبير عن عدم توفر العوامل الموضوعية في تلك اللحظة للانقضاض على الرأسمالية.

وعلى العكس فقد ادت نتائجها بماركس وأنجلز الى انتهاج سياسة جديدة تماما تبنتها الأممية الثانية، وهي نضال البروليتاريا عبر الاليات البرلمانية وتأسيس أحزاب اشتراكية ديمقراطية لها نُظمها الداخلية وسياساتها التي تقررها مؤتمراتها وفق ظروفها الخاصة. واستطاعت الحركات الاشتراكية عبر هذا الشكل من النضال، إيصال اعداد جيدة ومؤثرة من ممثلي الطبقة العاملة الى برلمانات اغلب الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة.

بعد وفاة ماركس وأنجلز وتحول رأسمالية المنافسة الحرة الى الامبريالية، انطلق صراع فكري متعدد الأوجه والدوافع والمصالح، دشنه (برنشتاين) عام 1893 بدعوته الى مراجعة الماركسية وتنقيحها، وهي امتداد لطروحات الفابية البريطانية والبرودونية الفرنسية. ورغم الدفوعات التي واجهتها البرنشاينية من قادة الفكر الاشتراكي آنذاك، إلا انها ظلت تعتمل لدى الكثيرين من قادة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية وانفجرت اثارها عشية الحرب العالمية حينما انقسمت الاشتراكية الديمقراطية بين مؤيد للحرب واعتماداتها المالية، وبين من دعا الى وحدة الطبقة العاملة الاوربية ضد الحرب، إلا ان هذا الصراع اتسع افقيا وعموديا وظهرت الكثير من الفراغات والاسئلة التي تحتاج الى ملء وإجابات منذ بداية القرن العشرين الى انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي عام 1956.

وفي غمرة احداث كبرى مثل ثورة 1905 في روسيا، واعلان الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر وصعود الفاشية وإعلان الحرب العالمية الثانية ظهرت أسماء لامعة ومدارس فكرية انجبتها الحركة الاشتراكية، وكانت جميعها تسترشد بالماركسية مرجعية لها، لكن اغلبها تعرض الى التشويه والتهميش والقمع بفعل عاملين أساسيين: العامل الأول هو ماكنة العمل الأيديولوجي في الرأسمالية الضخمة، والتي تعززت تدريجيا وتعاظمت أسلحتها بفعل الثورة العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية، واستخدامها المؤسسات الدينية المختلفة والفكر الشوفيني كأذرع مجربة لعزل الجماهير عن الفكر الاشتراكي. والعامل الثاني هو الدور السيئ الذي لعبته الستالينية في حجب وتشويه وتهميش العديد من المدارس والأسماء الفكرية اللامعة، وحولت الماركسية الى ما يشبه العقيدة الجامدة ذات النصوص المقدسة وأفرغتها من محتواها النقدي المتغير واستخدمت اعتى الأساليب ضد كل من حاول الانعتاق من عباءتها.

ثانيا: الزمان والمكان

ما دفعني الى محاولة فهم غرامشي او الوصول الى طريقة افضل لقراءته، هو حجم الاختلافات حوله بين الباحثين؛ اذ لا تستطيع ان تخرج بتصور واضح عن نظريته ومواقفه منذ بداية دخوله المعترك السياسي والصحفي لحين وفاته. فقد اختلفوا حول مواقفه من لينين وستالين وتروتسكي وبوخارين ومواقفه تجاه قسم من قادة الحزب الاشتراكي الإيطالي أو الحزب الشيوعي الإيطالي بعد تشكيله. وحول تحليلاته للظاهرة الإيطالية وخصوصا المسألة الجنوبية وموقفه من تحالف الطبقة العاملة والفلاحين وموقفه من مجالس العمال في

منطقة تورين العمالية وموقفه من الانتفاضة العمالية والوحدة الإيطالية، واختلفوا حول تحليلاته لثورة أكتوبر ومفهوم الثورة الدائمة ومواقفه من القادة اليمينيين الإصلاحيين في الحزب الاشتراكي الإيطالي وبعض قادة الحزب الشيوعي الإيطالي لاحقا. كما كثر الجدل بين الباحثين عن منظومة المفاهيم التي اعتمدها غرامشي لتحليل الظاهرة الإيطالية والعالمية، فقد ذكر قسم منهم ان غالبية هذه المفاهيم التي اعتمدها غرامشي كانت لمجرد الهرب من الرقابة الفاشية وليست منظومة جديدة لتحليل الظواهر وهم يشيرون بطرف خفي الى ان غرامشي ليس منتج مفاهيم وصاحب نظرية جديدة، في حين ارتأى آخرون أنه مفكر من طراز خاص الى حد ان هوبسباوم اعتبره "المفكر الأكثر اصالة في الغرب منذ عام 1917"، لانه وضع نظرية البراكسس. كما تسود حالة من الارتباك وخصوصا لدى الشباب المهتمين بالفكر الاشتراكي، حينما يضيعون بين تفاصيل وتناقضات الدارسين لمفاهيم غرامشي حول الثقافة والمثقف العضوي والتقليدي، ومعارك الحركة ومعارك المواقع والهيمنة ودكتاتورية البروليتاريا، والمجتمع المدني وعلاقته بالبناء الفوقي.

في هذه المساهمة لن ادخل في أي تفصيل يخص تلك الاختلافات بين الباحثين حول نظرية ومواقف غرامشي، لأنها مهمة تخرج عن الهدف من هذه المساهمة، والذي يتلخص بعرض منظومة المفاهيم التي ساعدت غرامشي في تحليل الظاهرة الإيطالية والعالمية في مرحلة الامبريالية، لتيسير استيعاب القراء لغرامشي والاستفادة من طروحاته في عصر العولمة.

ثالثا: شخصية غرامشي

لعبت الموهبة والصراع والمرأة دورا كبيرا في صناعة غرامشي المفكر؛ فموهبته ظهرت مبكرة من خلال ذكائه الحاد وذاكرته النادرة التي لا يمتلكها إلا اصحاب المواهب الكبيرة، وجديته الصارمة التي طبعت حياته في جميع المجالات، ونهم في القراءة انعكس إضافة الى تخصصه في الادب الإيطالي، فإنه تعمق في دراسة ماركس وقادة الفكر الاشتراكي ممن سبقوه او عاصروه، وعكست دفاتر السجن إدراكا عميقا لنظرية المعرفة عند ماركس، وخصوصا علاقة الخاص بالعام. ولخص غرامشي برنامجه اليومي في رسالة الى أمه حينما كان سجينا "حياتي تتدفق دائما بنفس الطريقة أقرا، اكل، أنام، أفكر ولا استطيع ان افعل أي شيء آخر"، اذ كان يقرأ وهو في السجن ست جرائد يوميا، وثمانية كتب أسبوعيا، إضافة الى مجلات مصورة ومجلات أدبية.

اما الصراع فقد أخذ اشكالا متعددة؛ صراع مع الامراض التي رافقته منذ طفولته المبكرة حتى وفاته، صراع مع الفقر الذي عانت منه عائلته بعد اعتقال والده ولما يبلغ السادسة من عمره، صراع من اجل تحقيق طموحه في التحصيل العلمي اجبره على مغادرة سردينيا الفلاحية الجنوبية الى تورينو العمالية الشمالية التي اكمل فيها تحصيله الجامعي. صراع من اجل تحديد خياراته الفكرية والسياسية تجاه ما يواجهه من متغيرات فمن نزعة قومية ضيقة فرضتها عليه عوامل التهميش الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للجنوب الايطالي وقلة وعيه وتحصيله المعرفي، الى نزعة

اممية متجذرة زرعتها فيه الحركة العمالية الناشطة في تورينو، صراع مع الاتجاهات الاصلاحية داخل الحركة النقابية الايطالية والحزب الاشتراكي الايطالي، صراعات محتدمة حول ثورة اكتوبر وقيام الاشتراكية في بلد واحد، لا تتوفر فيه العوامل الموضوعية للثورة الاشتراكية كما كان مرسوما في صياغات ماركس عن الثورة الاشتراكية، صراعات خاضها غرامشي توجت لاحقا في تأسيس الحزب الشيوعي الايطالي، صراع حول الجبهة المتحدة والموقف من ستالين، صراع من اجل وضع خارطة طريق لتحويل الماركسية الى برنامج عمل تسترشد به حركة الطبقة العاملة الايطالية من خلال دراسة متأنية تقارن بين ظروف روسيا وايطاليا واروبا، ليخرج في النهاية بنظرية البراكسس وتحالف العمال والفلاحين والهيمنة والكتلة التاريخية ودور المثقفين في العمليات الاجتماعية بعد فشل الانتفاضات العمالية في اوربا وايطاليا.

اما المرأة، فهناك ثلاث نساء لعبن دورا كبيرا في تكوين شخصية غرامشي؛ أمه التي كان يكن لها حبا واحتراما كبيرين ويشعر بفراغ كبير إذا تأخرت برسائلها في السجن إليه. وزوجته جوليا التي تعرف عليها في مشفى في موسكو، فرغم عموده الفقري المنهك والسل الرئوي الفاتك به وأمراض اخرى، فإنها هامت به حبا وأنجبت منه طفلين وأصيبت بانهيار نفسي بعد اعتقاله وحاولوا اخفاء مرضها عنه، وناتاليا اخت زوجته التي ضحت بعشر سنين من شبابها في زيارات دورية لغرامشي في سجنه تجلب له ما يحتاج، وهي التي نقلت دفاتر السجن الى الحزب الشيوعي الإيطالي.

رابعا: التجربة الايطالية

عاش غرامشي حياة قصيرة، امتدت ما بين 1891 الى 1937. واجهته مجموعة اسئلة تتعلق بالمسألة الجنوبية، والوحدة الايطالية، وفشل الحركات العمالية في اوربا وفشل حركة تورينو ومجالسها العمالية في السيطرة على السلطة، ولماذا انتصرت الفاشية ولاقت تأييدا جماهيريا، رغم استخدامها ابشع الاساليب في اضعاف الحركة الاشتراكية؟ ادرك غرامشي ان البرجوازية الايطالية لجأت الى اسلوب ميّزها عن البرجوازيات الاوربية في تحقيقها لهيمنتها على المجتمع، باعتمادها على اقامة تحالف بين البرجوازية الصناعية في شمال ايطاليا وبين ملاكي الارض في جنوبها، وتهميش دور العمال في الشمال والفلاحين في الجنوب في تحقيق الوحدة الايطالية، اي وحدة فوقية بين القوى المهيمنة وتكليف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مهمة العمل الآيديولوجي الداعم للبرجوازية وملاكي الارض في ايطاليا على عكس التجربة الفرنسية التي تحققت الوحدة فيها بفعل مساهمة فاعلة وتضحيات جسيمة من قبل الطبقات المحرومة وبفعل تحطيم القواعد الفكرية للكنيسة وإضعاف دورها في الحياة السياسية والاقتصادية الفرنسية.

لهذا طرح غرامشي فكرة تحالف العمال والفلاحين الذي يتوقف عليه مستقبل الثورة البروليتارية في إيطاليا، ككتلة تتجاوز وتنفي التحالف المهيمن من خلال بلورته لستراتيجية جديدة للهيمنة عبر دراسة أسباب هزيمة الحركة العمالية في تورينو، وعجز الاشتراكية الإيطالية عن التغلغل في الريف، وإهمال المسالة الفلاحية، مستوحيا

تجربة مجالس السوفييات بعد ثورة اكتوبر، فدعم تجربة مجالس العمال في تورينو التي سيطرت على المعامل في انتفاضة عمالية عارمة، جعلت ايطاليا تدخل عام 1919 - 1920 ما سمي بـ "الفترة الحمراء". لكن الاتجاه الاصلاحي في الحركة النقابية ولدى اغلب قادة الحزب الاشتراكي الايطالي منعت هذه الانتفاضة من الامتداد الى بقية اجزاء ايطاليا، ما سهل عملية اقتحام المعامل وإفشال الانتفاضة. وهذا المشهد هو الذي هيأ الارضية المناسبة لظهور الفاشية كما ساتناولها في عرض مفهوم الفاشية.

خامسا: منظومة مفاهيم غرامشي

1 - البراكسس:

كان لثورة أكتوبر ونظرية لينين عن الامبريالية تأثير كبير على الحركة العمالية في أوربا، سواء على المستوى النظري او الممارسة، وخصوصا ما يتعلق بانبثاق الثورة الاشتراكية في بلد لم تكن فيه الظروف الموضوعية ناضجة، وعلاقة هذه الثورة ببناء حزب ثوري من طراز خاص يتولى المبادرة بالثورة ويقود عملية البناء بعدها. كان المخاض عسيرا والصراع على اشده ليس بين الفكر الرأسمالي والاشتراكي فحسب وإنما داخل اجنحة الأممية الثانية، قبل وبعد الحرب العالمية الأولى، ما أدى في النهاية الى حلها وانشقاق الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية والحركة النقابية العمالية.

واجهت غرامشي مجموعة أسئلة كبرى سواء ما يتعلق بنجاح ثورة أكتوبر في روسيا المتخلفة، يقابلها اخفاق الثورات العمالية في اوربا المتقدمة صناعيا، أو يتعلق بخصوصيات الوضع في إيطاليا، مثل المسألة الجنوبية ودور الفاتيكان والدين وأثرهما على المجتمع الإيطالي، وصعود الفاشية بسبب فشل البرجوازية والطبقة العاملة في إيجاد حلول ومخارج للازمة في إيطاليا. هذه الأسئلة وغيرها فرضت على غرامشي منظومة من المفاهيم تساعده على دراسة الظاهرة الإيطالية والاوربية في مرحلة الامبريالية التي فتحت عهدها بحرب عالمية اعادت تقسيم العالم من جديد لصالح الحيتان المنتصرة في الحرب.

في هذا المشهد المعقد سعى غرامشي الى ما سعى إليه ماركس من تحويل الماركسية الى قوة جبارة حينما تتبناها الطبقة العاملة. أي كيفية تحويل "ردود الافعال والتمردات السلبية الى إرادة جماعية واعية ومؤثرة". "ان غرامشي المفكر الاكثر اصالة في الغرب منذ عام 1917 - كما قال هوبسباوم - قدم ستراتيجية ماركسية لحركات اشتراكية في بيئات واوضاع غير ثورية، فهو فيلسوف التطبيق السياسي العملي بامتياز"، في حين قدم (لينين) لنا إستراتيجية ماركسية لحركات اشتراكية في بيئة واوضاع ثورية. ان ابداع غرامشي في نظريته السياسية يكمن في انه ادرك ما هو خاص في روسيا وما هو خاص في إيطاليا واوربا. في روسيا القيصرية حيث الدولة تتحكم في كل شيء ومنظمات المجتمع المدني هشة وعائمة لا تأثير لها. لذلك اكد غرامشي ان حرب المناورة هي الأسلوب المناسب للحركة العمالية هناك، وبسبب تمتع منظمات المجتمع المدني بعلاقة متوازنة في المجتمعات البرجوازية الاوربية، طرح غرامشي حرب المواقع

كأسلوب لكفاح الطبقة العاملة.
ان رؤية غرامشي استندت الى اعتبار البناء الفوقي العامل الحاسم في السياسة، لأنه يتكون من عنصرين اساسيين؛ الاول هو الدولة البرجوازية التي اطلق عليها "المجتمع السياسي" والعنصر الثاني المؤسسات والمنظمات المختلفة التي اطلق عليها "المجتمع المدني"، ويتجسد العنصر الاول بعمليات القمع من خلال اجهزة السلطة القمعية بينما يتجسد العنصر الثاني بالهيمنة من خلال وسائل الاقناع والتضليل عبر المؤسسات القانونية والدينية والتعليمية والاعلامية والخدمية الاخرى، وبذلك تتحول هذه المؤسسات الى ادوات لتأبيد النظام الرأسمالي عبر ترويض العقل البشري وتحويل الفرد الى انسان ذي بعد واحد يعجز عن تصور مجتمع افضل من المجتمع الرأسمالي. وبذلك تتحول مفاهيم الديمقراطية والحرية في ظل الامبريالية، الى وسائل طاحنة للوعي النقدي وأدوات لتزييف الوعي، بدلا من ادوات لتحرير الوعي وانطلاق الذات البشرية نحو عالم يحررها من قيود الاستغلال والاغتراب والعزلة. وعلى اساس هذا التحليل بلور غرامشي براكسس جديدة على "ضوء التجربة الاوربية والايطالية في مرحلة الامبريالية، تهدف الى تخليص الجماهير من الجمود والاخيلة البدائية وتحويل الوعي الساذج الى وعي نقدي"، من خلال هيمنة بديلة لهيمنة الرأسمال، هيمنة تبدأ من تحت، تمهد لانهيار النظام الرأسمالي، تتولاها الطبقة العاملة وحلفاؤها المتضررون من النظام الرأسمالي ويشكلون كتلة بشرية هائلة تقودها وترسم ستراتيجيتها وتكتيكاتها احزاب ثورية اطلق عليه غرامشي "الامير الجديد"، ويلعب المثقفون العضويون فيها الدور الفاعل، لخلق وعي نقدي يستند الى المنهج الماركسي في تحليل الظواهر.

2 - مفهوم الفاشية

اختلفت اراء الباحثين حول ظاهرة الفاشية؛ فمنهم من اعتبرها أداة ضاربة موغلة في الوحشية لتحقيق هيمنة رأس المال في ظل الامبريالية، وآخرون اعتبروها ظاهرة مرتبطة بالخصائص الإيطالية ومسألتها القومية، وهناك من اعتبرها حركة رجعية مضادة للفكر الاشتراكي تستخدم الوسائل الأشد قمعية في التعامل مع الحركات الاشتراكية.
اعتبر غرامشي الفاشية ظاهرة انجبتها ظروف عجزت فيها الطبقتان البرجوازية والطبقة العاملة عن ايجاد حل حاسم لازمة المجتمع في لحظة ما بعد الحرب العالمية الأولى. فهي ليست ظاهرة إيطالية محضة، كما انها لم تكن آخر الحلول الضرورية للرأسمالية المهددة من قبل الطبقة العاملة نتيجة الأزمة العامة التي دخلتها الرأسمالية، لأن كبار الرأسماليين الصناعيين "استخدموا الفاشية أداة لهم، ودعموا موسوليني بعد هزيمة الطبقة العاملة 1920" وليس قبلها لكي يجهضوا والى الابد - كما تصوروا - أي إمكانية لإحيائها من جديد. بهذه البيئة السياسية الجديدة تخلت البرجوازية عن ديمقراطيتها المزيفة، وأشيعت حالة الإحباط واليأس في صفوف الطبقة العاملة وهيمنت العصابات الفاشية على المشهد، تحولت الفاشية من ظاهرة هامشية الى ظاهرة جماهيرية. يمكن القول ان ظهور الفاشية جاء

نتيجة لعجز العامل الذاتي في إيجاد حلول بعد دخول إيطاليا مرحلة الازمة، فالطبقة البرجوازية عجزت بوسائلها التقليدية أي آليات الديمقراطية البرجوازية في الحسم، كما عجزت الطبقة العاملة عن مد انتفاضتها في تورينو الى الأجزاء الأخرى من إيطاليا بسبب النزعة الإصلاحية للحركة النقابية وغلبة الاتجاه الإصلاحي على قيادة الحزب الاشتراكي الإيطالي.

3 - المسألة الجنوبية

تميز الجنوب الإيطالي بالتخلف الاقتصادي والاجتماعي على عكس الشمال الإيطالي الذي دخلته الرأسمالية الصناعية مبكرا وتحول الى مدن صناعية مزدهرة، والمجتمع الجنوبي الإيطالي يتكون من شريحة الفلاحين ومثقفي البرجوازية الريفية المتوسطة وكبار ملاكي الأرض التي كانت حليفا دائما للرأسمالية في الشمال.

في ايطاليا حصل تحالف بين البرجوازية الصناعية في الشمال وكبار الملاك في الجنوب، إذ استُبعدت الطبقة العاملة والفلاحون عن هذا التحالف، ولم يعتمد هذا التحالف على حركة شعبية، وحافظ على بقاء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في الحقل الايديولوجي. واعتبر غرامشي هذا التحالف دكتاتورية بدون هيمنة على نقيض الثورة الفرنسية التي اعتمدت على حركة شعبية واسعة.

كما درس غرامشي أسباب هزيمة الحركة العمالية في تورينو، وعجز الاشتراكية الإيطالية عن التغلغل في الريف وعدم الاكتراث للمسالة الجنوبية بشكل عام، والمسالة الفلاحية بشكل خاص، ووضع استراتيجية جديدة للهيمنة، مستفيدا من تجربة ثورة أكتوبر ومن خصائص التجربة الإيطالية، فركز على تحالف الحركة العمالية في الشمال مع حركة الفلاحين في الجنوب واعتبرها ضرورة تفرضها الظروف الموضوعية ويتوقف عليها مستقبل الثورة البروليتارية في إيطاليا.

اعتمدت التجربة الإيطالية على خطة ثلاثية الابعاد: البعد الأول هو تعزيز التحالف الستراتيجي بين البرجوازية الصناعية وملاكي الأرض والبعد الثاني هو تشتيت التحالف المقابل ما بين الطبقة العاملة في الشمال والفلاحين في الجنوب وتهميش أي دور لهما في الصراع الاجتماعي والبعد الثالث تكريس دور الكنيسة الآيديولوجي لصالح تحالفهما. ورغم التصميم المحنك لأبعاد هذا التحالف إلا انه فشل في النهاية في إيجاد حل للمعضلة الإيطالية في ظل الازمة الشاملة التي عصفت بالمجتمع الإيطالي بعد الحرب العالمية الأولى، وكذلك فشل حركة النقابات العمالية الإيطالية والحزب الاشتراكي - رغم توفر الوضع الثوري - في المضي بالثورة العمالية الى نهايتها، بسبب تعمق الاتجاه اليميني الإصلاحي فيهما، ما مهد الطريق امام الفاشية لحسم الأمور لصالحها عبر العنف والتنكيل بدعم السلطة ورأس المال الصناعي الكبير.

4 - الفلسفة والثقافة والمثقفين

الفلسفة والثقافة:

انطلق غرامشي في تحليله لمفهومي الفلسفة والثقافة من ان الانسان كائن يمتلك وعيا، لذلك اتفق مع الرأي القائل بان الفلسفة ظهرت

مع أول دهشة بدت على وجه الانسان منذ فجر البشرية. وتأثر بفكرة "كروتشة" التي اعتبرت الدين "رؤية للعالم"، وان اغلب الناس فلاسفة اذ انهم ومن خلال نشاطهم العملي في كفاحهم من اجل بقائهم يكوّنون موقفا فلسفيا للعالم من حولهم. واعتبر جميع المعارك الفكرية أيا كان مستواها، معارك فلسفية تعبر عن الصراع بين "مفاهيم مختلفة عن العالم" وان كل شخص "فيلسوف على طريقته الخاصة". واعتبر "كل منتج فكري لأي انسان ثقافة وفلسفة خاصة به ارتباطا بمستوى وعيه". وأكد ان "وظيفة الفيلسوف في حقل الفكر تعادل وظيفة الفلاح في الحقل، لأن الاثنين يعكسان موقفا تجاه الظواهر المحيطة بهما. ودعا غرامشي الى رفع مستوى الوعي لدى الجماهير ومغادرة "نخبوية الفكر" باتجاه تحقيق ثقافة عامة مجتمعية تجعل الجماهير منتجة للثقافة، وتحويل التمتع بالمعرفة والجمال والشعر والموسيقى الى جزء مكمل للتركيبة البنيوية للمجتمع الإنساني المنشود.

قسم غرامشي الوعي الى مستويين: المستوى الأول هو ان كل انسان فيلسوف بطريقته الخاصة لارتباطه العضوي بالنشاط اليومي للإنسان في عملية انتاج الخيرات المادية، وينتج رؤيته الخاصة للعالم. وهذا النوع من الوعي يشكل "العناصر المشتركة في السلوك والتفكير للمجتمع"، فتتشكل الثقافة الجمعية التي تحول الانسان الى جزء من كل تندمج رؤيته برؤية المجموع، فيصبح الانسان نسخة متكررة تفتقد الموقف النقدي الفردي للظواهر. اما المستوى الثاني فهو الوعي النقدي الذي يجعل الفرد قادرا على صياغة آرائه ورؤيته الخاصة عن العالم صياغة "واعية نقدية من خلال اختياره لنشاطه، ويكون هو نفسه المرشد والموجه "وليس العوامل الخارجية التي تصوغ شخصيته المتكررة في كل الافراد المحيطين به". ويكون قادرا على نقد "الرواسب المتراكمة في الفلسفة الشعبية"، ويكون نافيا للعناصر المتقادمة، والمتآكلة التي خلفها المستوى الاول من الوعي. وفي النهاية يساعد المستوى الثاني من الوعي على تكوين "رؤية متسقة عن العالم" تفتح الطريق للتحليل المنطقي وظهور المدارس الفلسفية المختلفة.

المثقف:

ان غرامشي ينطلق من مفهوم جديد للمثقف. فقد نظر إليه من زوايا مختلفة؛ فهو نتاج ثقافة مجتمع ومنتج ثقافة بنفس الوقت، وهو مرتبط بعنصري البناء الفوقي؛ المجتمع المدني والمجتمع السياسي. ان ظهور المثقف العضوي يرتبط تاريخيا بظهور نمط الإنتاج الرأسمالي، وهو يؤدي وظيفة تعكس دوره وموقعه في الصراع الرئيسي في التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الرأسمالية، فهو اما مثقف عضوي خدم البرجوازية وساهم مساهمة فعالة في تكوينها، حينما كانت طبقة صاعدة تسعى لتحطيم العلاقات الاقطاعية، وبعد تحقيق هيمنتها سواء على مستوى اوربا او العالم، تحول الى مثقف تقليدي يحاول تعويق عجلة التقدم وتزييف وعي الجماهير، أو مثقف عضوي ساهم بالارتقاء بوعي الطبقة العاملة من طبقة بذاتها الى طبقة لذاتها، ووضع الأسس الأولى لتنظيمها السياسي "الأمير الجديد" الحزب الثوري الذي يقع على عاتقه تحرير الطبقة

العاملة من اغلالها، عبر الانقضاض على الرأسمالية بطرائق متعددة تحددها الظروف الموضوعية لتحقيق هيمنة بديلة. اما المثقف التقليدي فقد ارتبط بالأنماط التي سبقت نمط الانتاج الرأسمالي، واستمر يمارس وظيفته رغم انهيار تلك الانماط وهيمنة النمط الراسمالي. وهو جزء من الجهاز الايديولوجي، بحقليه السياسي والمدني لسلطة راس المال والطبقات المهيمنة التي تسير خلفه، وهو يطمح ايضا في المشاركة في الصراع من اجل المكاسب الوظيفية والمنافع الاخرى، ويحرص على المحافظة على افكار المجتمع القديم ويقف على الدوام معارضا للفكر التنويري الذي تتزعمه الطبقات والشرائح الاجتماعية المضطهدة والصاعدة بنفس الوقت.

الحزب الثوري "الأمير الجديد"

اعتبر غرامشي الحزب الثوري كيانا عضويا ومثقفا جمعيا "قادرا على توحيد الجماهير وتوجيه اندفاعها العفوي، وصولا الى الحاق الهزيمة بسلطة الدولة الرأسمالية"، واعتبر تحقيق الهيمنة وظيفته الرئيسية، وبدونه يصبح الحديث عن ماركسية الجماهير والثقافة الجمعية ضربا من "اللغو والثرثرة او شكلا من الحلم لا مجال لتحققه". وحذر غرامشي الحزب الثوري "من سياسة انتظار التفاف الجماهير حوله"، ودعاه الى الإمساك بزمام المبادرة لقيادة تلك الجماهير "بمزج النضال الأيديولوجي بالنضال الاقتصادي والسياسي"، لتحقيق وحدة ثقافية اجتماعية توحد الفئات المبعثرة لخلق إرادة جمعية شعبية تمتلك رؤية مشتركة عن العالم.

ان غرامشي دعا الى بناء حزب ثوري من نمط جديد، يستند على "العلاقة الجدلية بين الطبقة العاملة والمثقفين العضويين، من اجل خلق حركة شعبية تكون أساسا للكتلة التاريخية التي من خلالها تتحقق الهيمنة العابرة لنمط الإنتاج الرأسمالي".

الهيمنة

منذ سيطرة الطغمة المالية واندماج رأس المال الصناعي برأس المال المالي وتحكم الاحتكارات بمختلف أنواعها، تمكن المركز الرأسمالي من التحكم بالسياسات الكونية وكرس تبعية بلدان الأطراف، إضافة الى قدرته بمحاصرة ثورة أكتوبر الوليدة، وقمع التوجهات اليسارية في الحركات العمالية في اوربا، واحتواء تياراتها اليمينية الإصلاحية، مسخرا البناء الفوقي بشقيه السياسي وأدواته القمعية المتطورة، والمجتمع المدني بأدواته الأيديولوجية الضخمة لترسيخ هيمنة الدولة البرجوازية. ولم تعد الدولة جهازا للحكم فقط، كما أكد غرامشي وانما أصبحت جهازا للهيمنة عبر توظيف المجتمع المدني لمصالح الطبقة المهيمنة بحيث تحقق "هيمنة طبقية اجتماعية على سائر الطبقات والشرائح الاجتماعية وكأنها تمثل الجميع". لذلك تبنى غرامشي منذ البداية شعار تحالف العمال والفلاحين، وكان يناصر الجبهة الموحدة التي طرحها لينين في المؤتمرين الثالث والرابع للأممية في أوائل العشرينات، ثم ذهب لاحقا أبعد من ذلك، حينما طرح إستراتيجية متكاملة لهيمنة بديلة، تشكل في النهاية تجاوزا لهيمنة الرأسمالية والانتقال الى الاشتراكية.

ان براكسس غرامشي أو خارطة الطريق أو ستراتيجته الجديدة في الهيمنة البديلة،

فرضتها لوحة الاستغلال الرأسمالي المتسعة، فلم تعد الطبقة العاملة الضحية الوحيدة لهذا الاستغلال الذي تجاوز الدولة القومية، وتجاوز القارة الاوربية الى اخضاع جميع القارات له. وبذلك دخلت الى حلبة الصراع شعوب وقوى اجتماعية جديدة تشترك موضوعيا مع الطبقة العاملة في كفاحها ضد الرأسمالية. كما ان دخول العلم والتكنولوجيا عنصرا أساسيا من قوى الإنتاج بدأ يحل محل اليد العاملة تدريجيا منذ عشرينات القرن الماضي، أعطى لمفهوم الطبقة العاملة دلالات جديدة، وطرح أسئلة حول علاقة العمل البشري المباشر بفائض القيمة. ان دخول ملايين الناس جبهة الداعين الى تجاوز نمط الإنتاج الرأسمالي، طرح معضلة حقيقية امام الثوريين وهي كيفية تنظيم هذا الاتساع العمودي والافقي ضد الرأسمالية الموحدة عالميا. في هذه اللحظة التاريخية الموضوعية طرح غرامشي أربع اليات حاسمة في استراتيجيته لخلق هيمنة بديلة؛ الأولى هي الكتلة التاريخية والثانية هي دور الثقافة والمثقفين العضويين تحديدا في رفع مستوى وعي هذه الكتلة، والثالثة هي دور الحزب الثوري كمثقف جمعي في قيادة الكتلة للانقضاض على النظام الراسمالي، والرابعة هي ماركسية الجماهير كأداة لخلق ثقافة شعبية توحد هذا الامتداد البشري الواسع ضد عدو واحد.

المجتمع السياسي والمجتمع المدني:

في دراسته لتاريخ الدولة في أوربا لاحظ غرامشي "ان الهيمنة ظهرت مع نشأة الطبقة البرجوازية بعد الثورة الفرنسية 1789، لان الطبقات التي سبقتها" لم تسع الى توسيع دائرتها الطبقية فنيا وآيديولوجيا، بينما سعت البرجوازية الى استيعاب المجتمع بأجمعه وإدماجه في مستواها الثقافي والاقتصادي "فانتقل المجتمع من مرحلة الدولة – الكنيسة الى مرحلة الدولة المربية، المستندة الى تعزيز دور البنى الفوقية". ان هذا الاستنتاج الذكي واللماح من قبل غرامشي، شكل الأساس النظري لاستراتيجيته وتكتيكاته لاحقا.

نشأت الدولة – المجتمع السياسي – "حينما حصل تقسيم العمل الفكري والعمل اليدوي"، وسعت الدولة الاستغلالية بتشكيلاتها الثلاث العبودية والاقطاعية والرأسمالية، الى ترسيخ وتعميق الهوة بين العمل الفكري كعمل نخبوي يخص مجاميع من المتخصصين يوظفون جهدهم الذهني لخدمة الطبقة المهيمنة، رغم استقلالهم النسبي عنها في الظاهر، وعادة يتمتعون بمستوى عيش وموقع اجتماعي افضل من الجماهير الشعبية الكبيرة التي تمتهن العمل اليدوي، وتستخدم الدولة منظومتها التربوية والقانونية والدينية ووسائل التواصل لتعزيز هذا الانقسام.

تحقق الطبقة البرجوازية السائدة هيمنتها عبر محورين أساسيين؛ المحور الأول هو المجتمع المدني باعتباره ماكنة الأيديولوجية متعددة الأوجه - وان اضطرت - تحقق تلك الهيمنة عبر المحور الثاني وهو المجتمع السياسي ووسائله القمعية متعددة الأوجه أيضا. امام هذا المشهد المحكم، طرح غرامشي ثلاثيته المعروفة؛ الكتلة التاريخية والمثقف العضوي والحزب الثوري كأدوات لصناعة هيمنة بديلة تحرر الطبقات المسحوقة وتحفزها على تجاوز الرأسمالية.

حرب المواقع وحرب الحركة

يشكل هذان المفهومان ركنين أساسيين في منظومة المفاهيم لغرامشي، لانهما يرتبطان بمفهومي الحرب والثورة، ويمكن الاستعانة بهما في تحليل الكثير من الاحداث المهمة التي مرت على البشرية، واستخدم غرامشي هذين المفهومين لفك وإزالة الكثير من الغموض حول الكثير من المنعطفات التي مرت بها حركة الطبقة العاملة.

إن مفهوم حرب المواقع يرتبط "بالكفاح الفكري والثقافي الطويل الذي تخوضه الطبقة العاملة ضد الاستغلال الرأسمالي، وهيمنته الفكرية على المجتمعات"، ويشكل "مقدمة لتحقيق تغيير عميق ومستدام". بينما مفهوم "حرب المناورة" يعني النضال المباشر من اجل الاستيلاء على السلطة السياسية. ان "الانتقال من حرب المواجهة الى حرب الموقع في المجال السياسي هو أهم مسألة نظرية سياسية تم طرحها بعد الحرب العالمية الأولى وتعد من اصعب القضايا حلا".

الحس السليم والحس المشترك

مفهوم الحس السليم عند غرامشي يعني الوعي النقدي ومعرفة الضرورة بينما الحس المشترك يعني العفوية و"غلبة الدوافع الغريزية" والأفكار الجامدة، لذلك دعا غرامشي الى "المزج بين العفوية والقيادة الواعية كتعبير عن العلاقة الديالكتيكية بين الطبقة العاملة وحزبها الثوري لتحويل الوعي الطبقي الى وعي يستند الى رؤية علمية".

ان العلاقة بين الحس السليم والحس المشترك ترتبط بعمليات الصراع الاجتماعي المحتدمة على الدوام؛ ففي الوقت الذي تسعى الحركات الاشتراكية تعزيز الحس السليم من خلال تسليح الطبقة العاملة وحلفائها بوعي طبقي يمثل أهدافها ومصالحها، فان ماكنة الفكر الرأسمالي وقواها الاجتماعية بالتقابل تسعى بكل الوسائل لتكريس الحس المشترك الذي يمثل الانشداد للماضي، ويغلب الفرعيات على المصالح الطبقية الحقيقية.

ان غرامشي سعى الى أن يلعب المثقف العضوي دورا مركزيا، في عملية الارتقاء بوعي الجماهير المشتتة القلقة، وتحويلها الى كتلة تعي دورها التاريخي في مقارعة عولمة رأس المال. كما دعا الى خلق فلسفة الجماهير الجديدة "ماركسية الجماهير" التي تنتج منظومة قيمية تمكن هذه الجماهير من الهيمنة على المجتمع فكريا وأخلاقيا قبل انهيار العلاقات الرأسمالية، وهذا يعني تحويلا جذريا من تبني "الحس المشترك والعام" والفطرة والعفوية الى تبني الفلسفة والوعي نقدي، اي الى الحس السليم. حيث يلتحم المثقف العضوي بالشعب ويمتزج المنطق بالتاريخ والممارسة بالتنظير.

الخاتمة

منذ صدور "البيان الشيوعي" قبل مئة وسبعين عاما، بذل ماركس وكبار المفكرين الاشتراكيين في مختلف البلدان جهودا مضنية من اجل استنباط النظريات السياسية التي تساعد الطبقة العاملة وحلفاءها التاريخيين في كفاحهم من اجل الانتقال من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية، وما احوجنا في عالمنا المعاصر حيث احكمت الرأسمالية العالمية بأطواقها على رقاب البشرية في كل حدب وصوب، الى ان نكمل طريق غرامشي ومن سبقوه في البحث عن نظريات سياسية تفتح سبل الخلاص من عولمة الفاقة والإتباع والهيمنة.

المصادر :

1 - غرامشي، دفاتر السجن، ترجمة فاضل جتكر، دار كنعان للنشر، 1991.
كريسي بامبر، النظرية والممارسة
2 - د. الشفيع خضر سعيد، المثقف والتغيير. متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
3 - http://www.alquds.co.uk/?p=725798
4- غازي الصوراني، تطور مفهوم المجتمع المدني وأزمة المجتمع العربي، مركز الغد العربي للدراسات، 2002.
5- رسائل السجن ج1 (رسائل السجن- ج 1 - رسائل أنطونيو غرامشي إلى أمه). ترجمة سعيد بوكرامي، دار طوى، 2014.
6- الطاهر لبيب، درس غرامشي، مجلة الكرمل
7- انطوني غرامشي، كراسات السجن. القسم الثالث - فلسفة الممارسة.
8- انطوني غرامشي، كراسات السجن، القسم الثاني.
9- كريس هارمان، كراسات السجن. ترجمة اشرف عمر، اصدار مركز الدراسات الاشتراكية. متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=480941
10- توفيق المديني، المجتمع المدني والدولة السياسية في الوطن العربي.
11- انطونيو غرامشي، دفاتر السجن - القسم الأول. متاح على الرابط التالي:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=142112
12- أنطونيو غرامشي، شجرة القنفذ والرسائل الجديدة، ترجمها عن الايطالية وقدم لها امارجي، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الاولى، 2016.
13- 13هوبسباوم، " كيف نُغيّر العالم ، أحاديث عن ماركس والماركسية خلال أعوام 1840 - 2011"،
14- أسحق دويتشر، " روسيا بعد ستالين "، ترجمة مصطفي الفقير ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979.
15- أنطونيو غرامشي، كراسات السجن- في الفلسفة
16- أنطونيو غرامشي، الأمير الحديث، ترجمة زاهي شرفان- قيس الشامي، دار الطليعة، بيروت، 1970.

إصدار قانون (35) لسنة 1983
عودة لنهج خصخصة الزراعة واستمرار لانتهاك مبادئ العدالة الاجتماعية

الدكتور جاسم محمد حافظ الساعدي

الدكتور جاسم محمد حافظ الساعدي، خريج كلية الزراعة والغابات- جامعة الموصل لعام 1974. حصل في عام 1983 على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد الزراعي – إدارة وتنظيم مؤسسات التكامل الصناعي الزراعي – من جامعة موسكو/ أكاديمية تمريازف للعلوم الزراعية. عمل استاذا جامعيا في كل من الجزائر وليبيا، ثم عاد لوظيفته كرئيس مهندسين زراعيين اقدم في وزارة الزراعة العراقية من 2010 لغاية 2017. في عام 2013 صدر له كتاب بعنوان (مدخل نظري لأشكال إدارة مؤسسات التكامل الصناعي الزراعي). كما نشر عشرات المقالات والدراسات والأبحاث.

المقدمة

إن حل المسألة الزراعية يعد من اكبر التحديات التي واجهت وتواجه الإدارات الحكومية في العراق، خاصة إذا ما أدركنا بان الإصلاح الزراعي - القوانين الناظمة لملكية وحيازة الأراضي الزراعية وأشكال إدارة الإنتاج - يقع في مركز هذا التحدي، وان جوهر الإصلاح هذا يعبر عن السياسات الزراعية والاتجاهات العامة لها في كل مرحلة من مراحل تطور الدولة العراقية، فضلاً عن اتخاذ جملة من الإجراءات في إطار ذلك التحدي، والتي من شأنها خلق الظروف الموضوعية لرفع معدلات الإنتاج الزراعي كماً ونوعاً، كالتوسع في إدخال أساليب الزراعة الحديثة القائمة على التخصص والتركيز والتكامل الصناعي الزراعي. هذا إلى جانب تطوير الجهاز الإداري المتدني الكفاءة في كل فروع القطاع الزراعي وتحسين مستوى الأداء، وفق مبادئ الإدارة الحديثة ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وإعطاء الدولة دوراً مهماً في المشاركة بالعملية الإنتاجية الزراعية وتخصيص جزء مهم من وارداتها النفطية للاستثمار في هذا القطاع الحيوي لرفع مساهمته في تكون رأس المال والدخل الوطني. ولا بد من الإشارة إلى إن العراق يعد من الدول النامية غير المستقرة سياسياً، يسودها اقتصاد ريعي أحادي الجانب انعكست نتائجه سلباً على تنمية وتطور البنية الهيكلية

للاقتصاد الوطني بفرعيه الرئيسيين الزراعة والصناعة، بسبب انعدام الرؤية الإستراتيجية والسياسات الزراعية الواقعية، الى جانب تدهور وضعف البنى التحتية للاقتصاد الوطني جراء الحروب العبثية والسياسات الارتجالية إبان النظام الدكتاتوري المقبور, التي ما زال الشعب العراقي يحصد نتائجها المدمرة ويئن تحت وطأة ثقلها.

المواد وطرق البحث

اعتمد البحث في منهجيته على التحليل الوصفي واستقراء الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والجداول والوثائق والمعطيات الأخرى وفق أدوات التحليل المادي لتحديد العلاقات بين الأشكال الاجتماعية والسياسية وأسلوب الإنتاج الرئيسي في كل مرحلة من مراحل التطور.

محتوى البحث

شهد التأريخ المعاصر لبلادنا اشتداد الصراع الاجتماعي في الريف، بعد ان عمدت سلطات الاحتلال البريطاني على تسجيل أراضي العشيرة الخصبة باسم الشيوخ، وحرمت فئات كبيرة من أبنائها من حق ملكية الأرض كما أشارت إلى ذلك الدكتورة وارنر بالقول "ان تسوية حقوق الأراضي في العراق كانت في الواقع طريقة لنزع ملكية الأرض من الزراع الشاغلين لها وإسباغها على رؤساء العشائر كملاك أراضي كبار (1) وصيرت بذلك طبقة الإقطاعيين، الذين ارتبطت مصالحهم الاقتصادية بالمستعمرين وبالنظام الملكي الذي تشكلت حكومته الأولى في أواخر آب من عام 1921. وكان لهذه الطبقة دور هام في تشديد القبضة على الحكم لمنع النشاطات الشعبية المناهضة لمصالح المستعمرين وحلفائهم الإقطاعيين ورؤساء العشائر. ولذا أصدرت الحكومة قانون اللزمة رقم 51 لسنة 1932، بناء على مقترحات الخبير البريطاني بشؤون الأراضي (السير آرنست داوسن)، وكان الهدف منها حماية هذه المصالح وحصنت الأراضي الممنوحة لهم باللزمة – حق التصرف بالأراضي الأميرية الصرفة لمدة من الزمن – من البيع أو الحجز إلا بموافقة الحكومة. وبذا تغيرت العلاقات بين أفراد القبيلة وتحول غالبيتهم إلى عمال زراعيين او مستأجرين ليس لهم حقوق في ملكية الأرض، خاصة بعد أن تجاوزت العملية الإنتاجية مرحلة الاكتفاء الذاتي (العائلي او المناطقي) ودخلت مرحلة التسويق والتبادل النقدي.

إن الإطلاع على محتوى الكم الكبير من القوانين، المدرجة في الجدول رقم (1) أدناه، التي أصدرتها الحكومة بدعوى تنظم حيازة الأراضي واستغلالها، يبين لنا بأن اغلبها صيغ لحماية مصالح الإقطاعيين وبرجوازيي المدينة، المستثمرين في الريف ولتكريس سيطرتهم على الأراضي الزراعية ولإضفاء الشرعية المزيفة على امتلاك واستحواذ رؤساء العشائر دون سواهم على الأراضي الأميرية بكل أصنافها (المفوضة بالطابو- الممنوحة باللزمة - الأميرية الصرف – وغيرها)، والتي بلغت مساحتها حوالي 98 % والأراضي الموقوفة حوالي 1.2 %, في حين كانت الأراضي الزراعية المملوكة ملكا صرفا حوالي 0,8 % فقط.

جدول رقم (1) قوانين تنظيم حيازات وملكية الأراضي الزراعية أبان الحكم الملكي في العراق*

تسلسل	رقم القانون	وظيفة القانون والغرض منه
١	٥٠ لسنة ١٩٣٢	قانون تسوية حقوق الأراضي
٢	٥١ لسنة ١٩٣٢	قانون اللزمة
٣	٢٨ لسنة ١٩٣٣	قانون حقوق وواجبات الزراع
٤	٢٩ اسنة ١٩٣٨	قانون التسوية
٥	٤٢ لسنة ١٩٥٢	قانون منح اللزمة في لواء العمارة
٦	٥٣ لسنة ١٩٥٥	قانون توزيع أراضي لواء العمارة
٧	٤٠ لسنة ١٩٥٢	قانون حسم النزاع في الأراضي الأميرية المفوضة بالطابو في لواء المنتفك

لذا فان كفاح الفلاحين العراقيين تصاعد مع تدهور مستوى المعيشة في الريف العراقي، إلى جانب أسباب أخرى، ما أسهم ذلك كله في إنضاج الظروف الموضوعية لضرورة إحداث إصلاح زراعي جذري، بدأت مسيرته في صدور أول قانون للإصلاح الزراعي وهو قانون رقم 30 لسنة 1958 بعد نجاح ثورة 14 تموز الوطنية بأسابيع، لمواجهة ما ورثه النظام الجديد من وضع كان فيه حوالي "68% من الراضي الزراعية تعود ملكيتها إلى 2 % فقط من مجموع مالكي الأراضي, في حين ان حوالي 86 % منهم يملكون 10,5 % من الأراضي الزراعة" (2). إن مشرعي قانون رقم 30 لسنة 1958 كانوا يأملون منه، في ظل ظروف الثورة المعقدة، التمهيد لإرساء الأسس الضرورية لتقويض الركائز المادية للنظام الإقطاعي، وكذلك تطوير وتنمية الاقتصاد الوطني وبالأخص القطاع الزراعي من خلال وضع حد للعلاقات الإنتاجية الإقطاعية الاستغلالية بتحديد الملكية الزراعية واحترام حقوقها وفق ما نصت عليه المادة الأولى للقانون المشار إليه أعلاه، بان لا يزيد الحد الأعلى للمكية الزراعية على (1000) دونم من الأراضي المروية سيحاً او بالواسطة، وعن (2000) دونم من الأراضي الديمية. ويحق لصاحب الأرض المستولى عليها وفقاً لهذا القانون اختيار القطعة التي يريدها. وضَمَنَ القانون له الحق في التعويض حسب صنف الأرض. لكن هذه التشريعات أفضت في نهاية الأمر إلى "إبقاء حوالي 60 % من الأراضي الزراعة الجيدة بيد الملاكين السابقين فيما حصلت الدولة على 40 % من تلك الأراضي (3). وشكلت بذلك مأخذاً على القانون وما شابه من ضعف وقصور كبيرين، نجم عنه إجراء أكثر من 40 تعديلاً. وشكلت هذه الثغرات بمجملها، الحلقة الضعيفة التي نَفَذَت من خلالها القوى المتضررة من هذا القانون، وكذلك المناهضة له، مصطفةً في إطار حلف سياسي مدعم إقليمياً ودولياً لعرقلة التنمية الاقتصادية في عموم البلاد والزراعة منها بالتحديد، ومن ثم الإجهاز على التجربة الوطنية الوليدة، خاصة وأن قانون رقم 30 لسنة 1958 اختص بإقامة وتنظيم الجمعيات التعاونية على أراضي الإصلاح الزراعي، كأسلوب إنتاجي بديل

لأساليب الإنتاج الإقطاعية وشبه الإقطاعية - كما ورد ذلك في الباب الثاني منه.

إن موقع العراق الجيوسياسي الاستراتيجي ووفرة مصادر الطاقة الحيوية – البترول– لديه، افقده الاستقرار السياسي وفرض عليه تعاقب الأنظمة الاستبدادية لإدارة شؤونه، وجعله في عين العاصفة وهدفاً لمحاولات التدخل الأجنبي المتكررة لضمان التحكم في قراراته السياسية واتجاهات تطوره الاقتصادي، وعرقلة محاولات الشعب العراقي في حشد قدراته المادية والبشرية لإنجاز مهمة التخلص من التأثيرات الخارجية المناهضة لتطلعاته في الحرية والعيش الكريم، ونيل استقلاله الوطني الناجز، وتسخير ثرواته الطبيعية لصالح استراتيجيات التنمية المستدامة ومكافحة الفقر وتحقيق أحلام الناس في العدالة الاجتماعية والمساواة. ولذا كان وما زال من الأهمية بمكان إجراء دراسة وتحليل الواقع الموضوعي للزراعة في بلادنا والعمل على تغييره لضمان نقلها إلى موقع أكثر تقدماً، وان ذلك لا يتحقق بعيداً عن تحليل أسباب نشوء وتطور القوانين الناظمة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في الزراعة، وبالأخص قوانين الإصلاح الزراعي.

وانطلاقاً من هذه الرؤية الجدلية فقد لاحظنا الأسباب الموجبة لإصدار القوانين السابقة المشار إليها أعلاه وعلاقتها السببية بطبيعة النظام السياسي السائد في وقتها، أي بحجم ودور القوى الاجتماعية النافذة في السلطة. غير ان تلك القاعدة لا تفقد قيمتها العلمية كمنهجية صحيحة لمواصلة تحليل أسباب إجراء تعديلات تناسب الظروف الموضوعية السائدة محلياً ودولياً في بداية السبعينات من القرن المنصرم، تلك الظروف التي أرغمت الأجنحة اليسارية من البرجوازية الصغيرة في الأيام الأولى لسلطة البعث البائدة على إصدار قانون الإصلاح الزراعي رقم 117 لسنة 1970، لتحسين محتوى قانون 30 لسنة 1958، عبر تأكيده على أهمية تطوير القطاع التعاوني في الزراعة وإقامة المزارع الجماعية، وذلك لطمأنة المجتمع العراقي من مخاوف النهج الاستبدادي الذي عرفت به عام 1963. فقضى القانون المشار إليه أعلاه بان يكون الحد الأعلى للملكية في الأراضي الديمية من 2000 دونم - بناء على درجة خصوبة الأراضي وموقعها من خط سقوط الإمطار - إلى 1000 دونم، اما في الأراضي المروية فان الحد الأعلى لملكيتها حصره القانون ما بين 600 دونم - لوافرة الخصوبة وتسقى بالواسطة - و300 دونم لوافر الخصوبة وتسقى سيحاً، وما بينهما. وان اقل مساحات الحد الأعلى هو 50 دونما في الأراضي التي تسقى سيحاً وتزرع تبغاً في شمال الوطن. كما عالج القانون الجديد مشكلة العلاقة بين صاحب الأرض وصاحب واسطة السقي والفلاح، تلك العلاقات التي لم يجد لها قانون رقم 30 حلاً. كما أعطي القانون الجديد للمجلس الزراعي الأعلى الذي شكل بموجبه، حق الاستيلاء على المضخات الزراعية التي تسقي أرضاً للإصلاح الزراعي أو تحت إدارته، أو إذا اعتذر صاحبها عن تشغيلها بدون سبب مشروع. ثم أعقب ذلك صدور قانون 90 لسنة 1975 الخاص بمنطقة الحكم الذاتي في كردستان، الذي أوصى بضرورة الاعتماد على الطوعية في الانتماء إلى عضوية الجمعيات التعاونية.

وقد ابدى كثير من الفلاحين اعتراضهم على هذا القانون لأسباب تعكس طبيعة العلاقات القبلية في المنطقة، وعدم ارتياحهم لتملك أراضي رؤساء قبائلهم بواعز ديني او عشائري.

كما ان هذا القانون جاء في سياق أوضاع سياسية معقدة كجزءٍ من جولات الصراع بين بغداد والحركة التحررية الكردية. ومما تقدم يتضح ان القوانين السابقة أقرت بتعدد أصناف الأرض وتعدد مراكز الحقوق القانونية تبعاً لتعدد هذه الأصناف، علماً ان غالبية أصنافها تعود رقبتها للدولة، ولذا اقتضى الأمر إصدار قانون رقم 53 لسنة 1976 قانون توحيد أصناف أراضي الدولة.

إن تأميم شركات النفط في العراق في أوائل السبعينات من القرن الماضي، وما رافقها من إيرادات طائلة نتيجة لما أطلق عليه بالفورة البترولية حينها بسبب زيادة أسعار النفط، الى جانب بعض الاستقرار السياسي النسبي، ضمن إستراتيجية التقاط الأنفاس، التي انتهجها حزب البعث لتثبيت سلطته بطمأنة المجتمع العراقي عبر تحالفات سياسية قدر لها ان تكون مؤقتة وغير موفقة - مع الحركة الكردية ومن ثم مع الحزب الشيوعي العراقي - في محاولة لتغيير ما علق في الذاكرة الجمعية للشعب العراقي من صورٍ للجرائم البشعة الي ارتكبها حزب البعث بحق الشعب وقواه الوطنية في عام 1963. ولذا سرعان ما اهتز هذا الاستقرار مع انفراط عقد هذه التحالفات، وانعكس ذلك بشكل واضح على التوجهات الاقتصادية والاجتماعية للبرجوازية الطفيلية، التي نمت وترعرعت في رحم هذا الحزب واختبأت تحت عباءته بعد ان أمنت لنفسها السلطة ووضعت تحت تصرفها ثروات العراق الطائلة، فتغيرت تبعاً لذلك التركيبة الطبقية لقياداتها، نتيجة لإثرائها غير المشروع، وأنجبت نظاماً دكتاتورياً آلت فيه الأمور كلها إلى الجناح المتطرف والمغامر من اليمين القومي الفاشي، وتجندت تحت قيادته كافة العناصر المتفسخة طبقياً من الشقاوات وقطاع الطرق والعناصر الانتهازية والوصولية، مما ادى ذلك كله إلى إتباع نهج استبدادي دموي، ألغى بعض الالتزامات والمواثيق الداخلية والخارجية خدمة لمصالح القوى الرأسمالية العالمية والرجعية الإقليمية، فَساقَ البلاد إلى حروب عبثية، ما زال يئن الشعب العراقي تحت وطأة ثقل بشاعة ما نجم عنها من خرابٍ إلى يومنا هذا.

وبعد ان واصلت حرب الخليج الأولى مشوارها الدموي الرهيب، وتبادل الطرفان تدمير البنى التحتية والمنشات الحيوية، وسيق مئات الألوف من عاثري الحظ من القوى العاملة ومختلف فئات الشعب الأخرى إلى جبهات القتال، تاركين وراءهم الحقول والمصانع عاطلة، دون ان تدار دواليب الإنتاج فيها، ما نجم عن ذلك كله تدهورٍ اقتصادي تدنت فيه كافة المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية، وانخفضت بسببه القيمة التبادلية للدينار العراقي وارتفعت معدلات التضخم، واستنزف الاحتياطي النقدي، وانتشر الفقر والأوبئة.

ولمواجهة ما سينجم عن ذلك من زعزعة حتمية للوضع الداخلي، عمدت الدولة الى توسيع ودعم نفوذ طبقة البرجوازية الطفيلية في المدينة والريف وذلك بإصدار تشريعات وقوانين أمنت لها حقوق مزيفة، ووسعت لها طريق العودة لاستغلال الفلاحين، كقانون

35 لسنة 1983 المختص بإيجار أراضي الإصلاح الزراعي للشركات الزراعية والأفراد، وما تلته من قوانين وقرارات كثيرة، تلك التي مهدت لتداعيات خطيرة وشكلت قيداً على إمكانيات تنمية وتطور المجتمع الريفي الى يومنا هذا. ثم تلته جملة من القرارات الصادرة عن مجلس قيادة الثورة (المنحل)، لمواصلة نهج تكريس حماية مصالح الطبقة الطفيلية المشار إليها سابقاً واعدت صِياغات تلك القرارات بلغة قابلة للتأويل في بيئة إدارية فاسدة. وكان ذلك كله مستوحى مما جاء به التقرير السياسي للمؤتمر القطري التاسع لحزب البعث (المحظور) المنعقد في سنة 1983، والذي حسم تحديد اتجاهات سياسات البعث الزراعية المعبرة عن حقيقة أيديولوجيته الديماغوجية، بدعوته للتمهيد إلى خصخصة منفلتة في القطاع الزراعي، لا تراعي مقتضيات العدالة الاجتماعية، وكما جاء لاحقاً على لسان رأس النظام البائد في اجتماع مجلس الوزراء بتاريخ 30/ 10/ 1986, بالقول "لا بد من ان تنسحب الدولة... أحيانا ونهائياً من هذا القطاع وتوكله للقطاع الخاص". وكان هذا وغيره من الإجراءات استجابة لشروطٍ ملزمة لمنح العراق القرض الأمريكي حينها.

وهكذا انطوت قصة الترويج على خديعة نهج اشتراكي مزيف استمر سنوات عجاف طوال، حيث اعتبر المؤتمر المشار إليه أعلاه، الى ان من بين اهم أسباب تخلف القطاع الزراعي هو إقامة المزارع الجماعية ومزارع الدولة وانتشار التعاونيات الزراعية، التي بلغ عددها (2125) تعاونية و(37) مزرعة دولة تجاوزت مساحات بعض مئة ألف دونم عام 1976، متجاهلاً هذا المؤتمر بان الحركة التعاونية تعرضت في بلادنا إلى المسخ تحت قيادة البعث، فأخرجت من وظيفتها الاقتصادية، وفُرِضَ عليها نظاماً داخلياً ألزم الأعضاء في باب واجبات العضو "الدفاع عن أهداف الثورة والحزب القائد" وغدت مؤسسة سياسية تدور في فلك الأجهزة الأمنية للدولة. وقد الحق ذلك كله بسمعتها وكفاءتها الإنتاجية أفدح الأضرار.

إنني أعتقد ان الاستمرار في العمل بقانون 35 لسنة 1983 يأتي في إطار التمهيد لمشروع خصخصة الزراعة، التي تدعو إليها الحكومة الجديدة في برنامجها الزراعي إلى تمليك الأراضي الزراعية كما ورد في "الفقرتين (12 و13) بدعوتهما إلى تمليك الأراضي الزراعية" وهذا يتناقض مع الرغبة الشعبية العامة للفلاحين في ضرورة إصدار قانون جديد للإصلاح الزراعي، يستجيب لاستحقاقات التحول الديمقراطي - المتعثر - الجاري في بلادنا ومقتضيات إستراتيجية مكافحة الفقر وتحقيق العدالة الاجتماعية، وان إجراء كهذا يخالف الشرع - كما أكد ذلك في أكثر من موقع الشهيد الصدر الأول في مؤلفه "اقتصادنا" – ويخالف القانون الذي اعتبر أن ملكية الأرض تابعة للدولة، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، وانه سيطلق يد بعض النافذين في الدولة والعشائر في الاستحواذ على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية تتجاوز ما نجم عن تأجير الأراضي وفق قانون 35 لسنة 1983 كما تشير معطيات الجدول رقم (2) لذلك. ويعد ذلك عودة خطيرة لمظاهر الاستغلال في الريف، التي تحدد ملامحها المستقبلية دراسة وتحليل معطيات الجدول في أدناه.

جدول رقم (2)

توزيع الأراضي وفق قانون 35 لسنة 1983 من بداية التنفيذ ولغاية 31 /12 /2012*

الفئات بالدونم	عدد العقود	المساحة	معدل المساحة للمتعاقد
١ _ ٢٠	٥٣٣٠٨	٥٦٨٦١٧	١٠,٧
٢١ _ ٥٠	٥٢٧٧٩	١٩٤٨٣١٥	٣٦,٩
٥١ _ ١٠٠	٢٩٥٩٢	٢٠٧٩٧٨٧	٧٠,٣
١٠١ _ ٢٠٠	١٢٢٤٠	١٦٧٢٠٨٤	١٣٦,٦
٢٠١ _ ٥٠٠	٥٢٣٤	١٨٦١٧٥١	٣٥٥,٧
٥٠١ _ ١٠٠٠	٢٢٦٣	١٧٣٠٧٨٧	٧٦٤,٨
١٠٠١ _ ٢٠٠٠	٨٧٠	١١٣٨٩٩٦	١,٣٠٩,٢
٢٠٠١ _ ٤٠٠٠	٣٠٩	١٠١١٣٧٥	٣٢٧٣,١
٤٠٠١ _ ٦٠٠٠	٧٢	٣٥٤٢٨١	٤٩٢٠,٦
٦٠٠١ _ ١٠٠٠٠	٢٦	١٩٨٠٦٧	٦١٨و٧
١٠٠٠١ _ ١٥٠٠٠	٢	٢٧٥٠٠	١٣,٧٥٠
١٥٠٠١ _ ٢٥٠٠٠	/	/	/
٢٥٠٠١ _ ٥٠٠٠٠	١	٣٠٠٠٠	٣٠٠٠٠
أكثر من ٥٠٠٠٠	١	٥٠٥٠٣	٥٠٥٠٣
المجموع	١٥٦٦٩٧	١٢٦٧٢٠٦٣	٨٠,٩

* وزارة الزراعة / دائرة الأراضي الزراعية (المعلومات تحدث سنوياً).

وتشير هذه المعظيات إلى ان هناك بوناً شاسعاً بين مساحات الأراضي المتعاقد عليها، حيث بلغت ملكية احد المتعاقدين (50.503) دونم، أي أنه يمكن لأكثر من (631) عائلة فلاحية أن توفر لها فرصة التعاقد، إذا ما افترضنا بان المعدل العام لمساحة العقد الواحد حوالي (80) دونما، في حين أن حوالي (34 %) من المتعاقدين بلغ معدل مساحة الأراضي المتعاقد عليها كل فلاح حوالي (10,7) دونم. وان حوالي (68 %) من مجموع المتعاقدين بلغ معدل مساحة كل عقد حوالي (23,8) دونم. إن من الضروري التأكيد هنا على أننا لسنا ضد القطاع الخاص ودوره الفاعل في تطوير وتنمية العملية الإنتاجية، من خلال تشجيع المنافسة وتوسيع قاعدة الاستثمارات الفردية والجماعية ورفع الكفاءة الإنتاجية وتقليل التكاليف والاستخدام الأمثل لعناصر الإنتاج، إثناء خلق المنافع عبر تطوير سلاسل القيمة المضافة، غير أننا نتحفظ على برامج الخصخصة المفلتة التي تستهدف كل مشاريع الدولة الزراعية والصناعية وتحويل ملكيتها الى القطاع الخاص من دون مراعاة العدالة الاجتماعية، لتكرار التجربة المريرة التي طبقت في الشقيقة مصر إبان حكم السادات - سياسة الانفتاح - وما زال الشعب المصري يدفع ثمن تلك السياسات فقراً وجوعاً وغياباً للحريات وفقداناً للقرار المصري الوطني المستقل.

ففي العراق اليوم بلغ معدل الفقر في ريف العمارة 72 % وفي كل من ريفي الناصرية والمثنى 65 % و63 % حسب التسلسل كما تشير الى ذلك وثائق وزارة الزراعة في تحديد مؤشرات الفقر والتفاوت حسب المحافظات.

إنني اعتقد بان المصلحة الوطنية العليا تقتضي عقد مؤتمر وطني للعاملين في القطاع الزراعي من الأكاديميين والفنيين وممثلي الفلاحين، لتحديد الاتجاهات الرئيسية للقطاع الزراعي وتحديد أشكال إدارة الإنتاج فيه لضمان رفع مساهمته في تكوين رأس المال والدخل الوطني، ولتأمين التطور المتوازن والمستدام وفق رؤية وطنية مستقلة، بعيداً عن الأوهام وتجاهل الواقع الموضوعي للقطاع الزراعي في بلادنا، كدولة نامية يناهز عدد الأميين فيها تسعة ملايين أمي - نسبة الالتحاق بالمدارس في ريفها بلغ حوالي 29% - وبلغت نسبة العاطلين عن العمل فيه 30%، وقدرت نسبة النساء العاملات في القطاع الزراعي - حسب تخمينات منظمة الغذاء والزراعة الدولية - بـ(59%) لامتهان الرجال أعمالا غير زراعية في المدن والقصبات القريبة من الريف. هذا فضلا عن غياب القوانين واللوائح الناظمة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في الريف وخاصة في ما يتعلق بتنظيم الحيازات وأنماط الإنتاج الاجتماعي وضعف إمكانات الدولة في تطبيق النافذ منها على ارض الواقع ما شكل عقبة كأداء في وجه الاستثمار الزراعي. إن غياب تطبيق التعريفة الكمركية والرزنامة الزراعية افقد المنتج الزراعي الوطني الحماية، وأدى إلى إغراق السوق بالمنتجات المستوردة. إن الطريق إلى ازدهار الزراعة يمر من خلال إعادة نشاط الحركة التعاونية الزراعية واعتماد مشاريع التكامل الصناعي – الزراعي، وإعطاء الدولة دوراً أكبر في العملية الإنتاجية في إطار مشاريع الاقتصاد المختلط، الذي حقق أفضل المؤشرات الاقتصادية في أواخر الثمانينات من القرن المنصرم في مجال الصناعات الغذائية، ويعتبر أصلح المناهج الاقتصادية لواقع بلادنا الاقتصادي والاجتماعي الراهن.

الاستنتاجات

1. عقد مؤتمر وطني للعاملين في القطاع الزراعي من الأكاديميين والفنيين وممثلي الفلاحين، لتحديد الاتجاهات الرئيسية للقطاع الزراعي وأشكال إدارة الإنتاج الرئيسية فيه، المنسجمة مع الظروف الموضوعية في هذه اللحظة التاريخية التي تمر بها تجربة بلادنا السياسية، بما يحقق الأمن الغذائي والتنمية الزراعية المستدامة وإلغاء الفوارق بين المدينة والريف بإعادة زمام المبادرة في اتخاذ القرار الاقتصادي الوطني المستقل.
2. إعادة النظر في محتوى قانون (35) لسنة 1983 وصياغة قانون إصلاح زراعي جديد يستجيب لمقتضيات واستحقاقات إستراتيجية مكافحة الفقر وإحقاق العدالة لسكان الريف والمدينة على حد سواء.
3. إيلاء الدولة دورا اكبر في المشاركة والإشراف على الإنتاج الزراعي، ومعالجة غياب التنسيق بين مختلف الوزارات والإدارات المعنية بالتنمية الزراعية، لضمان العمل المشترك في إطار وحدة عضوية. ولذا ينبغي إنشاء هيئة خاصة لهذا الأمر، إلى جانب زيادة تخصيصات القطاع الزراعي في ميزانية الدولة، وإلغاء الحلقات الإدارية العاملة في هذا القطاع، والتي تستنزف تخصيص المالية، كالمبادرة الزراعية التي يجب دمجها مع وزارة الزراعة.
4. إعادة تنشيط الحركة التعاونية الزراعية على أسس اقتصادية وليس لأهداف سياسية،

إلى جانب إنشاء مشاريع التكامل الصناعي – الزراعي قرب مناطق إنتاج المواد الزراعية الخام، وكذلك إقامة مشاريع التكامل الأفقي.

5. استعادة أراضي الدولة الزراعية المنهوبة، والمؤجرة وفق قانون (35) لسنة 1983 إبان الحكم البائد وإعادة النظر في أشكال إدارتها، كإقامة شركات زراعية مختلطة أو غير ذلك مما يحقق للبلاد الأمن الغذائي والذي يشكل جزءاً هاماً من الأمن الوطني العام.

6. حماية المنتجين الزراعيين، بتفعيل العمل بالتعرفة الكمركية والرزنامة الزراعية للتحرر من التأثير السلبي لفائض الإنتاج العالمي على تنمية وتطوير الزراعة في بلادنا، إلى جانب محاربة الفساد المالي والإداري ومكافحة مظاهر المحاباة والشللية والطائفية والمحاصصة في إدارات هذا القطاع الحيوي.

الهوامش

1 - حميد فؤاد العاني، أضواء على العملية الزراعية في العراق، دار الرواد – بغداد 2015، ص 2.

2 - خليل إبراهيم الخالد – تاريخ إحكام الأراضي في العراق – وزارة الثقافة والإعلام – دار الرشيد –بغداد – 1980 – ص 142

3 - عبد الرزاق زبير – محاضرات في الإصلاح الزراعي – ص 31 – 33.

المراجع

1 - حمدي فؤاد العاني، أضواء على العملية الزراعية في العراق، بغداد، 2015.

2 - خليل إبراهيم الخالد، تاريخ الأراضي في العراق، وزارة الثقافة والإعلام- دار الرشيد بغداد.

3 - عبد الرزاق زبير، محاضرات في الإصلاح الزراعي.

4- د. جاسم محمد حافظ، التكامل الصناعي – الزراعي مدخل نظري، مطبعة فرح، بغداد، 2013.

5- عبد الوهاب الداهري، اقتصاديات التعاون، بغداد، 1972.

6- نوزاد عبد الرحمن الهيتي،التنمية المستدامة الإطار- العام والتطبيقات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، دبي، 2009.

دور المؤسسات المالية في تشجيع الاستثمار الاجنبي المباشر

أ.د. حاكم محسن محمد الربيعي

حاكم الربيعي دكتوراه في فلسفة إدارة الاعمال. عمل رئيسا لقسم إدارة الاعمال – كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة كربلاء لمدة ثماني سنوات، وعميدا للكلية لمدة زادت على خمس سنوات. عضو الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية في القاهرة، وجمعية الاقتصاديين العراقيين والنقابة الوطنية للصحفيين العراقيين. شارك في العديد من المؤتمرات العلمية العربية والدولية. كما نشر اكثر من 80 بحثا ودراسة ومقالة في مجلات محلية وعربية ودولية. له خمسة مؤلفات في حقل الاختصاص. اشرف الدكتور الربيعي على العديد من اطاريح الدكتوراه والماجستير، وهو عضو هيئة استشارية في مجلات عديدة.

مقدمة:

لعبت المؤسسات المالية تاريخيا وتلعب دورا محوريا في تحفيز النمو الاقتصادي والتنمية. ينبع هذا الدور بشكل كبير من وظيفتها الاساسية في رسملة (capital-zation) الادخار الذي من خلاله تتم تعبئة الاموال الفائضة في تمويل الاستثمار بشكل عام والاستثمار الانتاجي بشكل خاص لأهمية هذا النوع من الاستثمار. فهو مؤشر على توجه الدولة نحو التنمية واستثمار مواردها الاقتصادية، والذي يعبر عن حسن الادارة للموارد الاقتصادية، ولتأثير ذلك على القوة الاقتصادية للدولة وانعكاس ذلك على عملتها الوطنية وميزان مدفوعاتها.

اولا- المؤسسات المالية:

المؤسسات المالية هي منشآت اعمال او وحدات مالية تشكل موجوداتها المالية الجزء الاكبر من مجمل الموجودات الكلية لها، كالنقد والسندات والقروض في حين تكون موجوداتها الثابتة الجزء الاصغر من مجمل الموجودات الكلية. أما مطلوباتها فهي الودائع كالتزام مالي لصالح المودعين باختلاف انواعها والادخارات. وكما اشير فهي مهمة وحيوية لكل اقتصاد لما للدور الذي تقوم به من اهمية كبيرة في مجمل النشاط الاقتصادي، وبمجملها تشكل النظام المالي لأية دولة. وهي مصدر الحصول على الاموال للوحدات الاقتصادية التي هي بحاجة الى التمويل لأغراض مختلفة كالتوسع في

الطاقة الانتاجية من خلال زيادة الخطوط الانتاجية او لأية اغراض اخرى تخدم الوحدات الاقتصادية، وبالتالي الاقتصاد الوطني ككل، لما لذلك من انعكاسات ايجابية على التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

أ- القطاع المصرفي:

1 – البنك المركزي العراقي:

تأسس البنك المركزي العراقي عام 1956 وهو اصلا المصرف الوطني العراقي الذي اسس عام 1947 بعد الغاء مجلس عملة العراق الذي اسس عام 1931 في لندن إبان الاحتلال البريطاني للعراق حيث كانت هناك عملات متعددة الى جانب الجنيه التركي، ثم الروبية الهندية عند احتلال العراق من قبل بريطانيا عام 1917 حيث كان سعر الصرف13.33 روبية لكل دينار. وقد حددت مسؤولياته في اصدار وادارة العملة والرقابة على معاملات النقد الاجنبي والإشراف والرقابة على الجهاز المصرفي وادارة حسابات الحكومة العراقية. وفي عام 1959 تم تحول ربط العملة المحلية بالدولار بعد ان كان مرتبطا بالجنيه الاسترليني، وكان سعر الصرف2.28 دولار لكل دينار، ثم ارتفع سعر الصرف خلال السنوات 1971 و1972 الى 3.3778 دولار لكل دينار. وعند بدء الحرب بين العراق وايران عام 1980 كان سعر الصرف 3.333 دولار لكل دينار، وبسبب الحرب والاعباء العسكرية وما خلفته من آثار، اصبح سعر الصرف عام 1989 في السوق السوداء 1,86 دينار لكل دولار. وفي الوقت الحاضر سعر الصرف 119.750 دينارا بيع، و119.250 دينارا شراء في السوق الموازية، اما الاسباب فهي قلة الطلب على الدولار، وركود السوق العراقية، وما زال سعر الصرف الرسمي 1184 دينارا لكل دولار، اي ان كل 0.00084459 من الدولار يساوي دينارا عراقيا واحدا. ويعبر ذلك عن عدم الاستقرار المالي، ويرجع ذلك الى عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي خلال الفترة التي اعقبت الاحتلال عام 2003 وهي الاتية من فترة حصار شامل لمدة ثلاثة عشر عاما، الحقت الضرر بالاقتصاد العراقي والشعب العراقي بكامله عدا تجار الحروب، ومن يدعمهم من السلطة وأصحاب الجاه.

2 - المصارف الحكومية:

2-1 مصرف الرافدين:

تأسس مصرف الرافدين عام 1941 بالقانون رقم 33 لسنة 1941 برأس مال قدره خمسين الف دينار، وله فروع داخل العراق بلغ عددها 146، كما له فروع خارج العراق في كل من مصر والاردن والامارات والبحرين ولبنان واليمن. ويمارس اعمال الصيرفة التجارية.

2-2 مصرف الرشيد:

تأسس عام 1988 بالقانون رقم 53 لسنة 1988 ويمارس النشاطات الاتية:

1 - الصيرفة التجارية.

2 - استثمار الاموال.

3 - تمويل القطاعات الاقتصادية بالأموال عند الحاجة.

4 - القيام بالخدمات المصرفية في التعاملات الداخلية والخارجية.

5 - اية خدمات مصرفية اخرى تدخل ضمن اختصاصه.

3 - مصارف متخصصة

1 - 3 المصرف الصناعي:

يتخصص هذا المصرف بتقديم قروض الى القطاع الصناعي تشجيعا للصناعة، لاسيما الصناعات الصغيرة. وقد دعم قطاع الصناعات الصغيرة والمتوسطة والورش الفردية، طيلة سنوات عديدة وكانت قيمة انتاج هذه الصناعات تشكل نسبة لا بأس بها من الناتج القومي الاجمالي، اضافة الى انها تساهم في سد الحاجات المحلية الى بعض السلع الاستهلاكية والمنزلية المعمرة ذات الاستعمال الطويل الأجل، وكانت ذات نوعيات مقبولة ونالت رضا الزبون.

2 - 3 المصرف الزراعي:

يتولى هذا المصرف تقديم القروض الى القطاع الزراعي عملا على تطوير هذا القطاع، وقد لعب دورا متميزا في ذلك الا ان هذا الدور تراجع في ظل الحكومات المتعاقبة خلال الفترة التي اعقبت عام الاحتلال. وهي امتداد لما كان عليه الحال قبل الاحتلال حيث كان العراق تحت الحصار الاقتصادي، ولمدة ثلاثة عشر عاما، فقد أثر الحصار في كل مفاصل الدولة.

3 - 3 المصرف العقاري:

يساهم المصرف العقاري في تنمية قطاع الاسكان بتقديم القروض الى طالبيها من المحتاجين الى الوحدات السكنية، وتسدد على مدى زمني مناسب. إلا ان الفوائد كانت متباينة لكنها بشكل عام ليست مناسبة قياسا بمداخيل الغالبية من الموظفين اصحاب الدخول الواطئة، وتشكل إثقالا ماليا على المواطنين، ولذلك كان البعض يتجنب الاقتراض من المؤسسات المالية.

4 - القطاع المصرفي الخاص:

عدد المصارف الخاصة يزيد على 50 مصرفا، بعضها لم تتداول اسهمه في السوق المالية، والآخر لا تتوفر عنه بيانات لدى السوق المالية, لكن هذه المصارف تساهم بتقديم الاموال الى المستثمرين كقروض وتعاملات مصرفية. وقد قدم بعضها خدمات يشار اليها بالمهنية لكن القسم الاخر عمل بشكل مختلف، واساء الى الاقتصاد العراقي من خلال ممارسات غير قانونية. ولم تتم محاسبة هذه المصارف بسبب دعمها اللامشروع من قبل بعض الجهات المتنفذة والتي ترعى الفساد على نطاق واسع.

ب – المؤسسات المالية الدولية

1 - البنك الدولي:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عقد مؤتمر في مدينة (بريتون وودز) في الولايات المتحدة الامريكية من اجل المساهمة في اعادة اعمار الدول المتضررة من الحرب، اي لإعادة بناء أوروبا وقد انضم مع المؤسسة الدولية للتنمية وهي الصندوق المعني بمساعدة الدول الاشد فقرا، ليشكلا البنك الدولي للإنشاء والتعمير حيث يعملان معا مع جميع مؤسسات مجموعة البنك الدولي والقطاعين العام والخاص في البلدان النامية لإنهاء الفقر وبناء الرخاء المشترك. وبعد خروج هذه الدول المتضررة تحديدا من الحرب ووصولها مرحلة التقدم استمرت هاتان المؤسستان بالتواجد، واصبح لهما مهام ومسؤوليات دولية لتقديم المساعدات

الى الدول النامية، حيث يقدم البنك الدولي مزيجا من الموارد المالية والخدمات الفنية منها:

1- تقديم المشورة الاستراتيجية ضمن جهود الاصلاح التي تعتمدها الحكومات لتحسين الخدمات وتشجيع المزيد من الاستثمارات ووضع الحلول.

2- يدخل احيانا شريكا مع البلدان عند ظهور التحديات وتطورها من خلال منتجات مالية جديدة (منتجات التأمين وتعزيز الائتمان ومنتجات التحوط) لمساعدة الدول الاعضاء وايجاد الحلول وتبادلها.

3- يساهم ويعمل على ضمان امكانية استدامة التقدم المحرز على صعيد الحد من الفقر وتوسيع نطاق الرخاء حيث يركز على الدول متوسطة الدخل.

4- يساهم في تحسين المناخ الاستثماري ومعالجة الاختناقات التي تعوق تقديم الخدمات وتعزيز السياسات والمؤسسات.

5- يقدم القروض والمشورة على سبيل استكمال الجهود الاخرى التي تقوم بها مجموعة البنك الدولي.

2- صندوق النقد الدولي:

اما صندوق النقد الدولي وهو المؤسسة الثانية وليدة مؤتمر بريتون وودز، هي مؤسسة دولية تعمل على صيانة النظام النقدي الدولي وتعمل اغلب الدول على دعمها للتشجيع على ايجاد قيم مشتركة من اجل استقرار النظام النقدي الدولي ونظام اسعار الصرف والدفعات الدولية الناتجة عن التبادل التجاري بين الدول وتقديم المساعدات الى الدول التي هي بحاجة الى المساعدة وتقديم النصح والارشاد على تبني سياسات الاصلاح الاقتصادي والمالي، لكن الدول التي تكون حكوماتها لها رؤية اقتصادية واضحة ووجود ولاء واخلاص وطني وخالية من الفساد المالي والاداري لا تحتاج الى نصائح هذه المؤسسة، لا سيما عندما يكون فيها كفاءات قادرة على الاصلاح الا ان السياسات ضيقة الافق تكون عادة قيدا على تبني الكفاءات، وبالتالي اتجاه البلدان نحو الهاوية كما حصل ويحصل للبعض، (الربيعي، 2009)؛ اذ يهدف صندوق النقد الدولي الى ما يأتي:

أ- تشجيع التعاون النقدي الدولي عن طريق هيئة دائمة تهيئ سبل التشاور والتعاون بشان المشكلات النقدية الدولية.

ب- تيسير التوسع والنمو المتوازن في التجارة الدولية, مما يزيد فرص العمل ورفع مستوى الدخل الحقيقي بشكل مستمر وتنمية الموارد كأهداف اساسية لجميع الدول.

ت- العمل على استقرار اسعار الصرف للعملات وتجنب المنافسة.

ث- المساعدة على اقامة نظام مدفوعات متعدد الاطراف وتعزيز التعاون والغاء قيود الصرف الاجنبي التي تعيق القيود امام التجارة الدولية.

ج- تحقيق الثقة بين الاعضاء عن طريق اتاحة موارد الصندوق العامة مع تصحيح الاختلالات والعمل على قصر امدها (http://www.albankaldawli.org).

ولكن بسبب حجم مساهمة بعض الدول في راس مال هاتين المؤسستين (البنك والصندوق الدوليين – المحرر) كالولايات المتحدة الامريكية، جعلت منها اداة بيد هذه الدول وتحديدا الولايات المتحدة الامريكية وحسب علاقة الدولة المطلوب مساعدتها،

اي التعامل سياسيا. كما حصل مع مصر عند الشروع بإقامة السد العالي، ولكن مصر رفضت شروط البنك الدولي ولجأت الى الاتحاد السوفيتي السابق الذي قدم المساعدة الى مصر واقيم السد العالي الذي ساهم في دعم وتطوير التنمية الزراعية فيها. لكن هذا البنك قدم ويقدم القروض الخاصة لإنشاء مشروعات استثمارية وحسب الدول وعلاقاتها السياسية مع المهيمنين على هذه المؤسسات، كالقرض الذي قدم الى ماليزيا لتطوير الصناعات الصغيرة فيها، حيث أدى الغرض المطلوب.

ج- سوق العراق للأوراق المالية:

بداية كان تأسيس (سوق بغداد للأوراق المالية) بموجب القانون رقم 24 لسنة 1991 حيث جاء في الفقرة ''اولا'' من المادة الثانية ما يأتي: ''يؤسس بهذا القانون سوق لبيع وشراء الاوراق المالية، يسمى سوق بغداد للأوراق المالية، يكون مقره في بغداد''. وفي ''ثانيا'': ''يتمتع السوق بالشخصية المعنوية وبالاستقلال المالي والاداري ويكون له حق التقاضي امام المحاكم والجهات القضائية والوسطاء وشهادات التمليك''، و''مؤسسة ذات نفع عام لا تستهدف الربح''، كما جاء في ''ثالثا'' من ذات المادة الثانية وفي ''رابعا'' و''خامسا''، ''يتمتع السوق بالإعفاءات والتسهيلات التي تتمتع بها دوائر الدولة''. واعفي من رسم الطابع على عقود البيع او الشراء التي تتم بين المتعاملين. اما اهداف السوق فقد حددتها المادة الثالثة من القانون وهي:

1 - تنظيم ومراقبة تداول الاوراق المالية والتعامل بها بما يكفل صحة وسلامة هذا التعامل، من اجل حماية الاقتصاد الوطني ومصالح المتعاملين.

2 - تنظيم مهمة الوساطة المالية في التعامل بالأوراق المالية وتحديد الحقوق والواجبات للأطراف المعنية.

3 - تنمية الادخار وتطوير الوعي الاستثماري عن طريق تشجيع الاستثمار في الاوراق المالية وتوجيه المدخرات لخدمة الاقتصاد الوطني.

4 - جمع وتحليل ونشر الاحصاءات والمعلومات اللازمة لتحقيق الاهداف المنصوص عليها في هذا القانون.

5 - اقامة ودعم الصلات والروابط مع اسواق الاوراق المالية العربية والعالمية والاستفادة من اساليب التعامل فيها، بما يساعد على تطوير السوق (الوقائع العراقية، 1991).

وقد تمكنت سوق بغداد للأوراق المالية منذ بدء تأسيسها عام 1991 ولغاية توقف عملها في آذار عام 2003 من استقطاب 113 شركة مسجلة فيه خاصة ومختلطة، وكان اعلى مستوى لحجم تداول الاسهم 17.5 مليون دينار. وفي 18 نيسان 2004 صدر قانون برقم 74 نتج عنه تأسيس هيئة الاوراق المالية العراقية وسوق العراق للأوراق المالية التي تستمر في ممارسة نشاطها الاعتيادي، وعقد جلساتها أمام المستثمرين في ظروف غير مستقرة، وتصدر التقارير المالية، سنوية وشهرية واسبوعية يستفيد منها الباحثون وطلبة الدراسات العليا.

د- الهيئة العامة للضرائب: تعد مؤسسة الضريبة في العراق من اقدم المؤسسات الضريبية في الوطن العربي حيث لم يظهر التشريع الضريبي في الدول العربية إلا في

الاربعينيات من القرن الماضي، في حين يعود التنظيم الضريبي في العراق الى تشكيل اول حكومة عراقية عام 1921، حيث صدر اول تشريع بقانون رقم 53 لسنة 1927. وكانت هناك مديرية ضريبة الدخل ومديرية ضريبة العقار تأسستا عام 1923، وفي عام 1982 ادمجت التشكيلات الضريبية تحت مسمى الهيئة العامة للضرائب، استنادا الى قانون وزارة المالية رقم 92 لسنة 1981. وتمارس هذه الهيئة جباية الضرائب، استنادا الى التشريعات القانونية المنظِمة للضريبة من خلال دوائرها الفرعية في بغداد والمحافظات.

هـ- شركات التأمين: قطاع التأمين من القطاعات المهمة ضمن المؤسسات المالية، ويساهم في تجميع المدخرات ومن ثم استثمارها في مجالات مختلفة وخاصة في الدول النامية، حيث يساهم في معالجة حالات الفقر والبطالة والمرض والعجز وبلوغ الشيخوخة وحالات الوفاة والخسارة ودرء الاخطار. والنشاط الذي يعنينا هنا هو المدخرات وامكانية ان تكون مصدر تمويل يساهم في تجهيز الاستثمارات ومنها الاستثمار الاجنبي المباشر. وهناك اربع شركات تشكل قطاع التأمين، تمارس نشاطها ويمكن الاعتماد اليها في التأمين للتقليل من المخاطر. كما اسهمت بعض هذه المؤسسات في الاستثمارات من خلال تشكيل محفظة استثمارية متنوعة، في فرص استثمارية توزعت بين الاستثمار في الاسهم وتقديم القروض، وبناء العمارات لتأجير مشتملاتها من شقق ومحلات الى المواطنين، حيث استخدمت لممارسة انشطة اقتصادية مختلفة. كما ساهمت في التعويض المالي للوحدات الاقتصادية التي عليها ان تؤمن على موجوداتها بموجب القوانين السائدة. كما ساهمت وتساهم في تعويض الافراد الذي يؤمنون على ممتلكاتهم من اخطار متعددة ومتباينة الاسباب.

ثانيا- الاستثمار الاجنبي المباشر:

الاستثمار الاجنبي المباشر هو اقامة مشاريع استثمارية في البلد المضيف، وفي هذه الحالة يفترض بالحكومات في البلدان المضيفة ان تختار المشروعات المجدية والتي لها انعكاس ايجابي على الاقتصاد الوطني والتي تعمل على بناء هياكل ارتكازية وتكوين رأس المال الثابت وليس التركيز على الاستثمارات المؤقتة او التجارية. ولهذا النوع من الاستثمار دوافع من وجهة نظر المستثمر الاجنبي، ومن بينها ما يأتي:

أ- دوافع الاستثمار الاجنبي من وجهة المستثمر الاجنبي:

1. البحث عن أسواق جديدة: قد تلجأ الشركات الدولية ومن اجل تحقيق مزيد من الارباح، الى البحث عن اسواق جديدة لتصريف المزيد من المنتجات القائمة، أو طرح منتجات جديدة، او زيادة الطلب عليها في الاسواق الخارجية. وفي كل الاحوال هو بحث عن مزيد من الارباح وهيمنة ايضا على الاسواق الخارجية.

2. البحث عن موارد للاستثمار: ربما يكون الدافع للبحث عن استثمارات خارج حدود البلد الأم هو الاستفادة من الموارد في البلد المضيف، او الاستفادة من انخفاض اجور العمل أو الاستفادة من المزايا الضريبية أو

توفر الامان في البلدان المضيفة، وهو عامل مهم حيث يبحث المستثمر عن البيئة الآمنة.

3. البحث عن الكفاءة: الكفاءة في الانتاج او العمل ضرورية وأساسية للشركات من اجل خفض التكاليف وتحقيق مزيد من الارباح او تقديم منتج بكفاءة واعتمادية عالية للمنتج، في اداء الخدمة المطلوبة.

4. تنويع الاستثمار لتقليل المخاطر: تنويع الاستثمارات من شأنه تقليل المخاطر التي تواجه الاستثمارات، وبالتالي ليس هناك احتمال ان تتعرض كل الاستثمارات الفرعية الى ذات المخاطرة.

5. التفاعل مع قيود التجارة: تسعى الشركات الدولية الى الاستثمار الاجنبي المباشر كاستراتيجية هجومية بدل الانتظار إذ ربما يتم اختراق اسواقها من قبل شركات دولية اخرى، ولذلك تحاول الاختراق او التفاعل مع قيود التجارة الخارجية.

ب ـ منافع الاستثمار الاجنبي المباشر للدول المضيفة:

اما منافع الدول المضيفة للاستثمار الاجنبي المباشر وهي دول نامية فيمكن تلخيصها بالآتي:

1. وجود استثمار اجنبي يساهم في امتصاص جزء من البطالة، وبمعنى اخر تشغيل العمالة من خلال توفير فرص عمل للعاطلين.
2. اكتساب المعرفة الفنية في العمليات التشغيلية والصناعية.
3. اكتساب تكنولوجيا جديدة وتدريب العمالة المحلية للإحلال محل العمالة الاجنبية.
4. المساهمة في ترجيح ميزان المدفوعات لصالح الدولة المضيفة من خلال زيادة الصادرات.
5. وجود استثمار اجنبي يعكس تطلعات الدولة المضيفة نحو مسار التقدم التكنولوجي والاقتصادي وتعزيز التنمية.

ج- مقومات الاستثمار الاجنبي المباشر:

1. التشريعات القانونية المحفزة للشركات الدولية للاستثمار، حيث تتوفر الفرص الاستثمارية والبيئة الاستثمارية الجاذبة. وكان قانون الاستثمار 13 لسنة 2006 العراقي فيه الكثير من المحفزات للمستثمرين.
2. الاستقرار السياسي والاقتصادي والأمني. ويعد هذا العامل من اهم العوامل المشجعة على الاستثمار في حالة توفره.
3. خلو البلد المضيف من كل اشكال الفساد المالي والاداري، فكثيرا ما شكلت مظاهر الفساد عائقا كبيرا امام استقطاب الاستثمار الاجنبي.
4. التسهيلات الادارية والقانونية امام طلبات الاستثمار وإزالة العوائق.
5. الحماية الوطنية لما ينتج في البلد المضيف، لأن بقاء الاستيراد المنفلت يجعل الاستثمار الاجنبي خاليا من المنفعة.
6. الاعفاءات الضريبية، وفي الرسوم الجمركية سواء كليا ولمدة محددة او تخفيض في كليهما.

ويوضح الجدول (1) ان بداية الاستثمار الاجنبي المباشر كانت عام 2004 وبمبلغ (300) مليون دولار، ثم استمر بالارتفاع والانخفاض ولكن هذا التغير لم يكن كبيرا ثم الاستقرار النسبي حتى وصل الى ادنى مستوياته عام 2013 حيث بلغ 2.862 مليار دولار. ان العراق في الوقت الحاضر بحاجة الى الاستثمار الاجنبي المباشر لاعادة المدن التي تعرضت للأضرار المادي بشكل كبير.

جدول (1)

حجم الاستثمار المباشر في العراق – مليون دولار للسنوات 2013 – 2004

السنة	2004	2005	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	متوسط المدة
حجم الاستثمار	300	515.3	383	971.8	1.856	1.598	1.396	2.062	2.376	2.862	**1.43**

Source : World Investment Report ,2013, 2014 .

ثالثا – آلية تشجيع الاستثمار:

تعمل المؤسسات المالية بشكل رئيسي على تعبئة الاموال وتلبية طلبات منشآت الاعمال التي هي بحاجة الى التمويل وتوسيع الائتمان ومد آجاله وتشجيع الصناعات المتوسطة والصغيرة. وبالتالي فان التوسع في هذه الاعمال سينعكس بشكل ايجابي على الانتعاش الاقتصادي، كما حصل في بعض الدول ومنها ماليزيا في الثمانينيات من القرن الماضي. ان هذه الانشطة المالية لهذه المؤسسات تشمل جميع القطاعات الاقتصادية، وبالتالي عمل هذه القطاعات بشكل موحد يؤدي الى نتائج ايجابية على مستوى البلد من حيث التطور والتنمية الاقتصادية.

ا- تجهيز الاموال:Supply fund))

الدور الاساسي للمؤسسات المالية هو دور المجهز للأموال لتشجيع الاستثمار، وينعكس ذلك في حجم الائتمان الى مجتمع الاعمال وقد حصل ذلك في دول اخرى عكسته تجارب هذه الدول كما حصل في ماليزيا عام 1988 حيث تجدد الثقة بالأعمال مع توحيد جهود كل القطاعات الاقتصادية، وتؤكد السياسات الحكومية على اقراض القطاعات الاقتصادية المنتجة للتوسع بالاستثمار وفق الآجال المناسبة للاستثمارات من مجموع الائتمان المصرفي المقدم من المؤسسات المالية (Abdullah 1991 ,)، كما تساهم في اقراض المستثمرين ورجال الاعمال الراغبين في الاستثمار في اسهم الشركات المطروحة اسهمها في السوق المالية.

جدول (2)
القروض والسلف- مليار دينار

ت	المصرف /السنة	٢٠٠٩	٢٠١٠	٢٠١١	٢٠١٢	٢٠١٣
١	المصرف التجاري العراقي	6.7	.360	.829	2.3	4.0
٢	مصرف بغداد	77.6	180.8	145.7	137.3	208.2
٣	المصرف العراقي للاستثمار والتنمية	4.6	15.9	47.0	89.7	126.4
٤	مصرف الشرق الاوسط للاستثمار والتنمية	63.8	142.4	188.8	1.0	2.1
٥	مصرف الاستثمار العراقي	20.6	75.8	116.2	------	-------
٦	المصرف الاهلي العراقي	16.4	35.6	49.1	67.5	115.5
٧	مصرف الائتمان العراقي	11.1	13.1	9.6	7.3	2.5
٨	مصرف دار السلام للاستثمار	8.3	115	20.2	10.9	29.8
٩	مصرف سومر التجاري	46.9	49.2	75.5	74.7	105.5
١٠	مصرف بابل	13.7	28.1	69.8	53.6	190.5
١١	مصرف الاقتصاد للاستثمار والتمويل	67.5	138.1	151.0	166.7	-------
١٢	مصرف الخليج التجاري	31.7	35.3	67.1	167.4	241.0
١٣	مصرف الموصل للتنمية والاستثمار	60.4	64.5	82.6	202.3	153.4
١٤	مصرف الاتحاد العراقي	13.1	39.4	32.3	155.5	257.1
١٥	مصرف الشمال للاستثمار والتمويل	116.2	222.2	267.7	443.1	489.2
١٦	مصرف كردستان الدولي للاستثمار والتنمية	75.5	9.0	4.5	12.9	18.0
١٧	مصرف اشور الدولي	3.1	16.4	43.8	50.6	97.0
١٨	مصرف المنصور للاستثمار	13.4	34.7	65.7	67.4	89.8
١٩	المصرف المتحد للاستثمار	109.6	261.9	280.0	384.0	537.8
٢٠	مصرف دجلة والفرات للتنمية والاستثمار	52.3	44.1	44.1	207.8	184.0
٢١	مصرف ايلاف الاسلامي	29.3	23.9	69.4	47.1	199.5

ب - توسيع في الائتمان: (Expand Credit)

التوسع في الائتمان هو قيام المؤسسات المالية بتقديم التسهيلات الائتمانية على أوسع من ان يقتصر على قطاع دون قطاع آخر. ويعمل ذلك على توسع فرص الاستثمار للراغبين من المستثمرين ورجال الاعمال، وسيؤدي ذلك الى توسيع القاعدة الانتاجية والخدمية، اضافة الى القطاعات الاخرى، وبالتالي تنويع الاستثمار وفي مختلف القطاعات للمساهمة في الانتاج الوطني والتقليل من الاعتماد على الاستيراد، وبالتالي خروج العملات الاجنبية الى خارج البلد.

ج- تمديد الآجال: (Extension of credit)

سبقت الاشارة الى الدور الأساسي للمؤسسات المالية في تجهيز الاموال الى المشروعات أو الوحدات الاقتصادية بالأموال، وهنا يأتي دور السياسات الحكومية التي تركز على تجهيز القطاع الذي تراه اكثر اهمية من غيره كالقطاع الصناعي. وعلى سبيل المثال ولتشجيع ودعم القطاع الصناعي في العراق اصدرت الحكومة العراقية عام 1989 اعفاء ضريبيا للقطاع الصناعي، تشجيعا للصناعة ولمدة عشر سنوات، ولذلك ساهمت وتساهم المؤسسات المالية بمد آجال الائتمان الذي يقدم الى القطاعات الاساسية للاقتصاديات الوطنية، لا سيما عندما تتعرض الشركات الى العُسر المالي او احتمالات الافلاس، تعمل المؤسسات المالية على مد آجال الديون والسماح بإعادة هيكلية الشركات التي تتعرض الى العسر المالي.

د- تشجيع الصناعات الصغيرة:

Promotion of small Industries

تشكل هذه الصناعات مكونا مهما من مكونات الصناعة الوطنية في الاقتصاديات الوطنية لا سيما في الدول النامية وبالتوافق مع الاهداف الوطنية – الاجتماعية والاقتصادية ضمن فلسفة الدولة وسياستها العامة، من حيث المساهمة في الموازنة العامة ومن حيث تشغيل القوى العاملة والمساهمة في القضاء على البطالة، وكما يوضح الجدول (3). لقد تضاءل دور هذا القطاع بشكل كبير بسبب عوامل عديدة من ابرزها المشاكل التي واجهت العراق والتي توزعت بين حروب خارجية واحتراب داخلي، لا سيما خلال الفترة التي اعقبت عام الاحتلال الذي ادى الى الحاق الضرر الكبير في المجتمع العراقي واقتصاده ككل وفقدان الدعم المالي من القطاع المصرفي وعدم توفر الحماية للمنتج الوطني وهو واجب اساس لحماية المنتجات الوطنية، والتي تقوم بها مختلف الدول. وقد أثر ذلك بشكل سلبي في تقليص حجم الطلب على منتجات المؤسسات المتوسطة والصغيرة الامر الذي ادى الى خروج البعض منها عن هذه الصناعات. في الوقت التي اعدت هذه الصناعات من الاهمية بالنسبة لاقتصاديات الكثير من الدول ومنها دول متقدمة. وكما يلاحظ من مجريات الاحداث ليس هناك استراتيجية واضحة او خطة محددة لإنعاش هذه الصناعات. وكما موضح في الجدول رقم (3) فان اعداد هذه المنشآت يتقلب من سنة الى أخرى ويعني ذلك خروج منشآت ودخول أخرى الى هذا القطاع، وبالتأكيد الخارجة لمواجهتها مشاكل، والداخلة الى هذا القطاع دخلت بمنتج جديد، ومدى اثبات نجاحها وقبولها يكون لها موقع في هذا الحقل من الصناعات. فبعد ان كان عدد هذه المنشآت 31040 عام 1997 انخفض الى 20000 منشأة عام 2001 ثم الى 11620 عام 2006 ثم ازداد الى 47281 عام 2011 وهو ارتفاع كبير، ويمكن ان يكون سبب ذلك السعة الاقراضية للقطاع المصرفي ونشوء وحدات اقتصادية فردية للبعض ممن اثروا على حساب المال العام، وبعض هذه الوحدات الاقتصادية معروفة وتتلقى الدعم المادي والمعنوي بشكل يفوق ما تحصل عليه منشآت القطاع العام.

جدول (3)
بعض المؤشرات عن المنشآت الصغيرة للفترة 1997-2016

السنة	عدد المنشئات	عدد العاملين	قيمة الانتاج (مليون دينار)
١٩٩٧	٣١٠٤٠	٧١٣٥٣	١٢٩٥٥٨٤٨٤
٢٠٠١	٢٠٠٠٠	١٤٢٧٢٤	٤٦٩٦٠٧٩٦٩
٢٠٠٦	١١٦٢٠	٤٦٣٧٩	١١٩٣٧٥٦٧٩٤
٢٠١١	٤٧٢٨١	٤٥٣٨٥١	٣٨٩٦٢٦٧
٢٠١٦	٢٥٩٦٦	٨١٩٢٠	.٢٩٧٨٨١٦

هـ الاستشارات المالية والاستثمارية
Financial and Investment Adviser

تساهم المؤسسات المالية في تقديم المشورة الفنية ودراسات الجدوى الاقتصادية والمالية للمشروعات الاستثمارية المقترحة، وبالتالي تساعد الادارات على اتخاذ القرارات النهائية في قبول او رفض هذه المشروعات، أو إجراء تقييم الاداء الاقتصادي والمالي للمشروعات القائمة من اجل الوقوف على مستويات الاداء. وفي ضوء ذلك قد تعمل الادارات على اجراء تغييرات في سياساتها التشغيلية والمالية والادارية على سبيل الاصلاح وتحسين الاداء بناء على نتائج التقييم.

و- المساهمة في التعافي للوحدات الاقتصادية
(Role in corporate Recovery)

التعافي هو العملية التي تعيد منشآت الاعمال من حالة الضعف او الانهاك فيها الى الحالة السابقة، حالة النشاط الافضل. وقد نال تعافي الشركات اهتماما كبيرا بعد الركود الاقتصادي الذي حصل في بعض الدول ليس من مدراء الشركات فقط بل ومن القادة السياسيين. وجاء الاهتمام الاكثر من المصرفيين. حيث ان اسباب الفشل في الشركات اسباب عديدة في مقدمتها عدم كفاءة الادارة، وقد شكل هذا السبب نسبة 70 بالمائة من اسباب الفشل، وعملا على تعافي هذه الوحدات الاقتصادية تساهم المؤسسات المالية في تعافي هذه الوحدات وبإدارات جديدة.

ز- الاشراف والتنظيم
(Supervision and Regulation)

من يستعرض تاريخ النشاط المصرفي يكشف فشل بعض البنوك، نتيجة الاقراض غير السليم وكانت الازمة المالية الامريكية التي سميت عالمية، ظلما، مثالا على ذلك ولذلك اعربت المصارف عن حاجتها الى مزيد من الحرية والغاء القيود والتوجه نحو التحرر وحرية انتقال المال خارج حدود بلدانها، وبالتالي فهي ميالة لازالة كل انواع القيود والمحددات لحركة الاموال والكادر.

ح – توجهات جديدة
(New Directions)

ساهمت العولمة في الكثير من التغيرات وتحديدا في المجالات السياسية و الاقتصادية والمالية، ما استدعى ان تكون هناك توجهات جديدة ولا سيما في مجال التكنولوجيا المستخدمة في الانشطة المالية أو الاستثمارات من نوع آخر، وكما هو معلوم ان للتكنولوجيا الحديثة دورها الفاعل في تحسين الانتاج ونوعيته، إذا ما احسن استعمالها بكفاءة عالية، وهو ما يحتاج الى قوى عاملة مؤهلة ومدربة، وتحسن استعمال التكنولوجيا الحديثة.

ط- إعادة توجيه الدور التنموي في الاقراض Developmental Role Reorientation in Lending

ضمن التوجهات الرشيدة للسياسات الحكومية هو اعادة النظر في القروض الممنوحة من قبل المؤسسات المالية. فإذا كان التركيز في الاقراض على قطاعات دون اخرى، بحيث ان هناك قطاعات مهمة لم تحظى بالإقراض تتم اعادة القروض من قبل المؤسسات المالية في اعطاء الاولوية الى القطاعات المهمة، كالقطاع الصناعي، مثلا، والذي حظي بالاهتمام في الكثير من الدول، ومنها ماليزيا. كما حظي بالاهتمام في العراق، ولكن الظروف التي احاطت بالعراق كان لها الاثر السلبي في كل شيء. وبسبب الاقراض السيئ بقيت بعض هذه المؤسسات المالية تعمل ولفترة طويلة على سياسة الاقراض المدعوم، كضمان وكشكل من اشكال التأمين بالضد من الاقراض السيئ.

الخلاصة والاستنتاجات

ان ما تعرض اليه العراق من احداث سياسية وعسكرية على مدى اربعين عاما لم يشهده بلد آخر إلا ما تعرضت إليه بعض الدول في الحرب العالمية الثانية. وهي الان في عِداد الدول المتقدمة. وعند البحث عن أسباب ذلك سنجد انها الاخلاص الوطني واعتماد العلم والمعرفة في اختيار القيادات الادارية وعدم وجود الفساد المالي في هذه الدول. اما في العراق فكان الحال على العكس من ذلك، حيث عسكرة الاقتصاد لحروب عبثية وحصار واحتلال وفساد اجمالي وخراب بعد الاحتلال لغياب النظرة الثاقبة لما يجب ان يكون عليه مستقبل العراق. وفي ضوء ذلك يحتاج العراق الى استقطاب الاستثمار الاجنبي المباشر للنهوض بالقطاعات الاقتصادية، الى حال يجب ان تكون عليه من زمن لولا الحروب. وهذا يتطلب اعادة هيكلة القطاع المصرفي واسناد قياداته الى المؤهلين من اصحاب الاختصاصات والكفاءات ممن يجيدون التعامل بالآليات الداعمة والمحفزة للاستثمار الاجنبي المباشر والذين يتسمون بالولاء الوطني، ومحاربة كل اشكال الفساد المالي والإداري وتفعيل القضاء من خلال سيادة القانون على الجميع دون استثناء وحسن الادارة وتوفير الامن والسلام وبناء الوحدة الوطنية واحتواء واستيعاب الاخر على اساس هوية واحدة هي عراقية المواطن.

المراجع

1 - التقارير السنوية لسوق العراق للأوراق المالية للسنوات 2008 - 2013

2 - المجموعة الا إحصائية للسنوات 2009 – 2016 .

3 - الربيعي، حاكم محسن محمد، الازمة المالية العالمية - الاسباب والمضامين والتداعيات، ط1، 2009 . النجف

4- Abdullah.NIk,Ibrahim , Role of financial Institutions in Investment ,Journal Economic Malaysia ,21&22,1990.

5- World Investment .2013. 2014 report.

6- http://www.albankaldawli.org/ar/who-we-are/ibrd.

التأمين والعبودية: فصل بغيض في تاريخ التأمين الرأسمالي

مصباح كمال

تعلم مصباح غازي عسكر كمال مبادئ التأمين في بغداد عندما بدأ العمل في شركة التأمين الوطنية (1968) بعد حصوله على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة بريطانية (1967). غادر العراق سنة 1977 لإكمال دراسته العليا في بريطانيا.

حيث حصل على شهادة ماجستير في العلوم الإدارية عام 1978 وبدأ العمل في إحدى شركات وساطة التأمين وإعادة التأمين في لندن، ولا يزال يمارس العمل .نشر العديد من المقالات التأمينية في مجلات تأمينية عربية وإنجليزية. ساهم في إعداد معجم انجليزي - عربي لمصطلحات التأمين وتعاون مع أحد زملائه على ترجمة كتاب عن إدارة الخطر. يدير مدونة إلكترونية اسماها مجلة التأمين العراقي http://misbahkamal.blogspot.com/ **مكرسة لدراسة قضايا التأمين في العراق من موقف نقدي، أطلقها لعدم وجود مجلة تأمينية عراقية.**

"إن الدول الرأسمالية الحديثة هي نتيجة تاريخ من العبودية وإبادة الشعوب والعنف والاستغلال، لا يقلّ الرعبُ فيه عن الصين أيام ماو تسي تونغ أو الاتحاد السوفييتي أيام ستالين. لقد وُلد النظام الرأسمالي هو الآخر ممزوجاً بالدم والدموع، ولكنه، بخلاف الستالينية والماوية، عاش مدة أطول وكافية لينسى جزءاً كبيراً من تلك الأهوال".

ترّي إيغلتون، لماذا كان ماركس مُحِقّاً، (2011)، الفصل الثاني، ص 13-12 في الأصل الإنكليزي للكتاب.

ترجمه عن الألمانية: إرينا داوود، ماجد داوود، طرطوس - الرمال الذهبية، 2014-2013، سورية.

واحدة من الأهوال والمجازر المرتبطة بها التي لم يذكرها تيري إيغلتون بالنص هو تجارة العبيد (الهولوكوست الأفريقي) عبر الأطلسي بين الدول الأوروبية الكولونيالية (بريطانيا، فرنسا، إسبانيا، البرتغال وغيرها) وجزر الهند الغربية والبرازيل وأمريكا الشمالية. المثل الأشهر في هذا الهولوكوست هو رمي العبيد في البحر من على ظهر السفينة زونغ عام

1781، وهو ما سنحاول أن نعرضه في هذه الورقة من منظور التأمين، مع التأكيد على أننا لا ندعي بأن هذه الورقة ترقى إلى بحث تاريخي في المصادر.

سكوت الكتابات التأمينية عن تأمين تجارة العبيد

نزعم أن التأمين على العبيد كبضاعة أو القتل الجماعي للأفارقة لم يلقَ عناية في الكتابات التأمينية، فهذا النوع من التأمين وما ارتبط به من رمي البشر في البحر لا يجد له ذكراً، حسب علمنا، في الكتابات التأمينية العربية (1)، وحتى الكتب الموضوعة باللغة الإنكليزية عن التأمين، وخاصة التأمين البحري وتاريخ سوق لويدز، لا تذكرها (2). لكننا نجد إشارات مهمة لها في كتاب أريك وليامز الرأسمالية والعبودية (3). ونجد عرضاً لها أيضاً في كتاب عن تاريخ التأمين وإعادة التأمين (4) ودراسة موثقة عنها (5). وهناك كتاب مهم لمؤرخ متخصص بتاريخ تجارة العبيد الثلاثية الأبعاد عبر الأطلسي (أوروبا، أفريقيا الغربية، جزر الهند الغربية/ الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية) مكرّس للموضوع يتناول جوانب مختلفة ومنها الجانب التأميني (6). وقد اعتمدنا على هذه المصادر في إعداد وكتابة هذه الورقة.

الخلفية العامة

إهمال الكتابات التأمينية لانشغال صناعة التأمين بالتأمين على العبيد والسفن التي كانت تنقلهم والفظاعات المرتبطة بها - رمي العبيد المختطفين في البحر jett-son - الذي بدأ في القرن الخامس عشر وتزامن مع ظهور النظام الرأسمالي، مدعاة للتساؤل. ترى هل سبب هذا الإهمال هو الخجل من إبراز هذا الفصل الكريه في تاريخ التأمين برغم أن المحصلة النهائية كان رفض مكتتبي التأمين تعويض أصحاب السفينة زونغ؟ لقد كان مكتتبو التأمين جزءاً من النظام السائد وقيمه وممارساته ومن المشاركين في تجارة العبيد من خلال توفير الحماية التأمينية لهذه التجارة. وتاريخياً، ترجع العلاقة بين التأمين ونظام العبودية إلى ما قبل القرن السابع عشر، أي قبل تسليع العبيد، كما يؤكد مؤرخ متخصص (7). يقول وليامز، إن جميع الطبقات في المجتمع الإنكليزي قبل 1783 كانت تشكل جبهة موحدة فيما يتعلق بتجارة العبيد. فالتاج، والحكومة، والكنيسة، والرأي العام عموماً، ساندت تجارة العبيد. نعم، كانت هناك بعض الاحتجاجات إلا أنها لم تكن فعّالة (ص 39). ويذكر في نفس الصفحة أن حملة للتجارة بالعبيد انطلقت برعاية من الملكة إليزابيث الأولى (1533-1603).

يربط (أريك وليامز) بين تجارة العبيد عبر الأطلسي ومختلف الصناعات والخدمات المالية وغيرها، ومنها التأمين (ص 59). ويذكر أن لويدز، كغيرها من شركات التأمين، كانت تقوم بالتأمين على العبيد وعلى السفن التي كانت تنقلهم عبر الأطلسي، وكانت مهتمة بشكل قوي بالأحكام القانونية المتعلقة بتحديد "الوفاة

لأسباب طبيعية" و"الأخطار البحرية" أثناء المجازفة البحرية (ص 104). الاقتباس التالي من كتاب نشر أواخر القرن الثامن عشر يلقي الكثير من الضوء على هذا الاهتمام:

The insurer takes upon himself the risk of the loss, capture, and death of slaves, or any other unavoidable accident to them: but natural death is always understood to be excepted: - by natural death is meant, not only when it happens by disease or sickness, but also when the captive destroys himself through despair, which often happens: but when slaves are killed, or thrown into the sea in order to quell an insurrection on their part, then the insurers must answer.

يتحمل المؤمِن [شركة التأمين] بنفسه خطر خسارة العبيد أو القبض عليهم أو موتهم أو أي حادث آخر لا يمكن تجنبه يتعرضون له: ولكن من المفترض دائماً أن الموت الطبيعي يُستثنى من ذلك:- ويعنى بالموت الطبيعي، ليس فقط عندما يكون [الموت] بسبب اعتلال في الصحة أو المرض، ولكن أيضاً عندما يُنهي الأسير [العبد] حياته بسبب اليأس، الذي يحدث في كثير من الأحيان، ولكن عندما يُقتل العبيد، أو يُلقون في البحر لقمع تمرد من جانبهم، فعلى المؤمنين [شركات التأمين] الاستجابة [لطالب التعويض] (8).

ولنا أن نشير بعجالة إلى أن المناخ الفكري في إنجلترا كان مناصراً لتجارة العبيد من خلال النظرة الدونية لغير البيض، كما هو الحال مع الفيلسوف التجريبي الإنجليزي جون لوك (1632-1704) الذي كان مساهماً في الشركة الأفريقية الملكية Royal African Company التي تخصصت في تجارة العبيد ومن ثم الذهب والعاج، والفيلسوف والاقتصادي والمؤرخ الأسكتلندي ديفيد هيوم (1711-1776). والسياسي والفيلسوف أدموند بيرك (1723-1792) (9).

قضية زونغ: رمي العبيد في البحر

في العام 1781 اشترى قبطان يعمل لدى وليم گرگسونWilliam Gregson، أحد المشتغلين في تجارة العبيد في مدينة ليفيربول البريطانية، سفينة شراعية هولندية لنقل العبيد. كانت محتجزة في ساحل الذهب وتحمل اسم زورغ Zorgue، نيابة عن گرگسون وشركائه. وقبل أن تبدأ السفينة في تجارة العبيد تمَّ تغيير اسمها لتكون زونغ Zong.

بدأت زونغ رحلتها من ساو تومي Sao Tome في غرب أفريقيا، متجهة عبر المحيط الأطلسي نحو جامايكا وعلى متنها 442 من العبيد الأفارقة و17 ملاحاً بإمرة القبطان لوك كولنغوود Luke Collingwood. بسبب تعرُّض السفينة لرياح غير مواتية وخطأ ملاحي فقد استغرقت رحلتها 108 أيام بدلاً من 61 يوماً. ولكن قبل ثلاثة أسابيع من وصولها إلى محطتها النهائية فإن 7 من

ملاحي السفينة و62 عبداً ماتوا بسبب سوء التغذية والمرض. كما أن العشرات من العبيد كانوا يعانون من الأمراض ومعرضين للموت بسببها. وعند اكتشاف شح مياه الشرب على متن السفينة قرر القبطان كولنغوود إنقاذ أكبر عدد من ملاحيه والبضاعة البشرية بإصدار الأمر لرجاله لاختيار العبيد الأكثر مرضاً ورميهم في البحر. وهكذا وخلال ثلاثة أيام تم قتل 132 عبداً. هذه هي الخطوط العامة للقضية لكن التفصيلات التي يعرضها لمؤرخون ترسم صورة أكثر تعقيداً لاختيار قبطان السفينة ومساعديه والملاحين والتعامل مع العبيد على ظهر السفينة.

كان القبطان يعرف بأن مكتتبي التأمين البحري يدفعون التعويض في حالة رمي البضاعة في البحر jettison من أجل إنقاذ السفينة والملاحين. الرمي في البحر إجراء ملاحي قديم، وأحد الأشكال البسيطة لما يعرف باسم العوارية العمومية general average ويعتبر من الحوادث التي تغطيها وثيقة اللويدز الكلاسيكية (10). وكما جاء في دراسة حديثة: "يتحقق حادث الرمي في البحر عندما يقوم ربان السفينة برمي قسم من البضاعة في البحر تحت ضغط أحوال طارئة لتفادي غرق السفينة، أو لتصحيح توازنها الذي اختل بسبب تعرضها للأنواء البحرية، أو لمنع وقوع تلك الأموال في أيدي دولة عدوة" (11). وكان العبيد يعتبرون ببساطة بضاعة كالأخشاب والمعادن والحيوانات. ولذلك كان رميهم في البحر، في حالة تعرض السفينة لخطر ما، موضوعاً للتعويض بموجب غطاء وثيقة التأمين المعتمدة لدى لويدز، لكن هذه الوثيقة لم تكن تغطي حالات الوفاة الطبيعية أو البضائع القابلة للتلف بسبب طبيعتها كالفواكه.

لقد استقرت الممارسة آنذاك على أن الأفارقة الذين يموتون بشكل طبيعي – بسبب المرض أو سوء التغذية أو سوء المعاملة أو اليأس – لم يكونوا يشكلون موضوعاً للمطالبة بالتعويض عن وفاتهم. لكن قتلهم بسبب تمردهم كان قابلاً للتعويض بالمبلغ المؤمن عليهم كبضاعة.

كانت صياغة وثيقة لويدز للتأمين البحري معقدة وفيها تكرار، ولفائدة القراء نقتبس النص الإنجليزي (12) متبوعاً بترجمتنا له.

Touching the Adventure and Perils which we the Assurers are contented to bear and do take upon us in this Voyage, they are of the Seas, men-of-War, Fire, Enemies, Pirates, Rovers, Thieves, Jettison, Letters of Mart and Counter-Mart, Surprisals, Takings at Sea, Arrests, Restraints and detainments of all Kings, Princes and People, of what Nation, Condition or Quality soever, Barratry of the Master and Mariners, and of all other Perils, Losses and Misfortunes that have or shall come to the Hurt, Detriment, or

Damage of the said Goods and Merchandises and Ship, etc, or any part thereof.

[نضمن بهذا] نحن المؤمنون ما له علاقة بالمجازفة [البحرية] والأخطار التي ارتضينا تحملها ونأخذها على عاتقنا في هذه الرحلة، وهي [أخطار] البحار، رجال الحرب، الحريق، الأعداء، القراصنة، روفرز [القراصنة]، اللصوص، الرمي في البحر، خطابات التفويض بمهاجمة سفن العدو وخطابات التفويض بالانتقام من سفن دولة معتدية، الاستيلاء على السفن بالقوة أو الشَرَك، توقيف السفينة في ميناء، القبض، الإيقاف والمنع والاحتجاز من جميع الملوك والأمراء والشعوب، [العائدة] لأية أمة وفي أية حالة وبأية صفة، خيانة الرُبّان والملاحين، وجميع الأخطار الأخرى والخسائر والمحن التي تُلحق الأذى أو الضرر أو الأضرار بالبضائع والسلع والسفن المذكورة، وما إلى ذلك، أو أي جزء منها. [التأكيد من عندنا]

مطالبة أصحاب السفينة زونغ بتعويضهم عن رمي العبيد في البحر

عندما وصلت السفينة زونغ إلى ميناء ليفيربول تقدم أصحابها بمطالبة لتعويضهم بواقع 30 جنيها إسترلينيا عن كل عبد رُمي في البحر، وكانت حجتهم أن قبطان السفينة اضطر إلى رميهم بسبب نقص مياه الشرب، أي أن ما قام به كان من باب الضرورة - التضحية بالبعض لإنقاذ البعض الآخر. رفض مكتتبو التأمين المطالبة فلجأ أصحاب السفينة إلى المحكمة التي قضت لصالح أصحاب السفن، لكن محامو المكتتبين أثاروا مسألة فنية تتعلق باختفاء سجلات السفينة وأن المطالبة تنطوي على غش لتحميل المكتتبين كلفة خسارة رحلة بحرية غير مربحة. كما استدعوا الاعتبارات الإنسانية وحقوق الإنسان لدعم موقفهم الذي أثار نقاشاً حامياً بين الناس واعتبار رمي العبيد مجزرة وليس مجرد رمي بضاعة مشحونة من السفينة (13). وانتهت قضية گرگسون ضد جلبرت (Gregson v. Gilbert) لتعرض ثانية أمام المحكمة العليا، ولكنها لم تنجح وتخلّى أصحاب السفينة عنها بسبب الشكوك الكثيرة التي أثيرت على سوء تصرف القبطان والظروف المحيطة بدعوى نقص مياه الشرب (سقوط الأمطار أثناء انحراف الرحلة عن مسارها وتوفر فضل من الماء بعد وصول السفينة إلى نهاية رحلتها) واختفاء سجلات السفينة، إضافة إلى الضغط المستمر لدعاة إلغاء العبودية.

يجمع الكتاب المتخصصون على أن الاستفادة من غطاء وثيقة التأمين الخاصة بالسفينة زونغ كانت الدافع وراء فعل القتل الجماعي للأفارقة. لو كانت شح ماء الشرب المتوفر هو السبب، لماذا لم يتم الإبقاء على حياة الأفارقة؟ لأن ذلك كان سيؤدي إلى وفاة البعض منهم أو معظمهم قبل الوصول إلى جاميكا، وبالتالي فإن أصحاب السفينة، تجار العبيد، لن يتمكنوا من المطالبة بالتعويض عن وفاتهم (وفاة طبيعية) في حين أن رمي 132 منهم في

عرض البحر، يمكّنهم من الحصول على تعويض بمقدار 30 جنيها استيرلنيا لكل واحد منهم.

من مفارقات هذه القضية لجوء محامي المكتتبين (ثلاثة محامين) إلى اعتبارات إنسانية لرد دعوى المطالبة بالتعويض في زمن كانت فيه مفاهيم حقوق الإنسان لا تمتد لغير البيض. وهم في ذلك كانوا متوافقين مع دعاة إلغاء العبودية. ومن المفارقات أيضاً أن دعوى المطالبة بالتعويض أمام المحكمة رُدت على أساس أنها قائمة على الغش وليس القتل العمد للأبرياء.

تبين قضية زونغ رواج التأمين على تجارة العبيد في سوق لويدز بموجب وثيقتها المطبوعة للتأمين البحري، وفهْمُ أصحاب السفن والتجار لهذه الوثيقة والخسارة التي لا تغطيها (خسارة العبيد، البضاعة البشرية) لأن سببها (الوفاة لأسباب طبيعية وليس بسبب حادث) لا يصنف كأحد الأخطار البحرية في حين أن رمي البضاعة البشرية بسبب التمرد يكون مضموناً بموجب الوثيقة. لم تكن هناك مبادئ أخلاقية تقيد حرية التأمين فقد كانت العبودية تجارة كغيرها من النشاطات التجارية وكان ممارسو هذه التجارة بحاجة إلى وثيقة تأمين عليها لضمان ديمومة عملهم وأرباحهم.

وتبين القضية أيضاً كيف أن رئيس القضاة، اللورد مانسفيلد، اتخذ موقفاً لضمان عدم تشويش المبادئ الأساسية لعقد التأمين رغم أنه حكم في قضية سابقة (1772) بعدم جواز ترحيل عبد من إنجلترا إلى أمريكا (14). وهكذا فإن حق العبيد في الحياة في قضية گرگسون ضد جلبرت صار ضحية على مذبح الموقف التقني المجرد لرئيس القضاة، اللورد مانسفيلد، الذي ترأس المحكمة في هذه القضية، عندما قال "إن حالة العبيد هي نفسها كما لو أن الخيول قد ألقيت من على ظهر السفينة في عرض البحر".

تثير قضية زونغ مسألة تحويل الإنسان إلى ملك عيني، سلعة، يمكن الاستحواذ عليه، وهو قابل للبيع والشراء، ويمكن التأمين عليه. إن امتلاك البشر بهذه الصفة يعطي أصحاب الملكية حق التصرف بها كما يشاؤون. وكما ذكر نائب المدعي العام في هذه القضية أمام المحكمة العليا فإن التأمين على السفينة زونغ قد "حدد أن الأفارقة المؤمن عليهم هم بضائع وممتلكات، وسواء كان هذا الأمر صحيحاً أو خاطئاً فإنه لا علاقة لنا به"(15). وكما يبين جيمس والڤن فإن نائب المدعي العام اختزل موضوع القتل الجماعي إلى خيار بسيط وقاس وهو: أن ما حدث في السفينة زونغ كان إجراء لتجنب شر أكبر (16).

إلغاء التأمين على تجارة العبيد

مع ظهور قضية زونغ للعلن نشأت وتعززت حركة نشطة وقوية في بريطانيا لإلغاء تجارة العبيد كان من أشهر دعاتها غرينفيل شارب (1735-1813) Gre-ville Sharp، وعضو البرلمان وليم ولبرفورس (1759-1833) William Wilberforce الذي ارتبط اسمه بقانون إلغاء تجارة العبيد (17). لقد حاول

شارب إثارة دعوى جزائية ضد أصحاب السفن وطاقمها إلا أن قانون الجريمة كما يبدو لم يكن ينطبق على زونغ، ذلك لأنه لم تكن هناك سابقة قانونية تقضي بأن صفة البشر لا تنتفي عندما يتحولون إلى بضاعة مشحونة في سفينة. فالعبد بهذا المقياس ليس إنساناً بل سلعة يمكن التصرف بها والتأمين عليها.

في ظل هذا الوضع فإن الممارسات التأمينية المرتبطة بوثيقة لويدز للتأمين البحري لم تعد قابلة للصمود أمام التحول الفكري البطيء الذي بدأه دعاة إلغاء العبودية. وهم بذلك قد مهدوا السبيل لتعديل الوضع القانوني والتأميني.

إن ما أثار حنق الداعين لإلغاء العبودية هي حقيقة أن القتلة، تجار العبيد وبطانتهم، كانوا يتحدثون علناً عمّا قاموا به دون أي خوف من اتهامهم باقترافهم لجريمة إبادة جماعية. كان الأمر سهلاً عليهم: تقتل أولاً لاعتبارات تجارية ثم تطالب بالتعويض، وإن رفض التعويض تلجأ إلى المحكمة. لم يكن هناك أي وازع أخلاقي أو ديني يردعهم. فتحقيق الربح والتراكم من تجارة العبيد يأتي في المقدمة.

ألغيت تجارة العبيد رسمياً في بريطانيا بموجب قانون إلغاء تجارة العبيد لسنة 1807 وتضمن في المادة الأولى منه حظر التجارة بالعبيد والمادة الخامسة حظر التأمين على هذه التجارة، ومن يمارسها يخضع لغرامة 100 جنيه إسترليني/ وثلاثة أضعاف قسط التأمين (18). ولفائدة القراء نقتبس النص الإنجليزي للمادة الخامسة أولاً (للتعرف على صياغتها واللغة المماثلة للغة وثيقة لويدز للتأمين البحري) متبوعاً بترجمتنا لها.

V. And be it further enacted, That from and after the said First Day of May One Thousand eight hundred and seven, all Insurances whatsoever to be effected upon or in respect to any of the trading, dealing, carrying, removing, transshipping, or other Transactions by this Act prohibited, shall be also prohibited and declared to be unlawful; and if any of His Majesty's Subject's, or any Person or Persons resident within this United Kingdom, or within any of the Islands, Colonies, Dominions, or Territories thereunto belonging, or in His Majesty's Possession or Occupation, shall knowingly and willfully subscribe, effect, or make, or cause or procure to be subscribed, effected, or made, any such unlawful Insurances or Insurance, he or they shall forfeit and pay for every such Offence the Sum of One hundred Pounds for every such Insurance, and also Treble the Amount paid or agreed to be paid as the Premium of any such Insurance, the One Moiety

thereof to the Use of His Majesty, His Heirs and Successors, and the other Moiety to the Use of any Person who shall inform, sue, and prosecute for the same.

وبالإضافة إلى ذلك فقد شُرّعَ أنه اعتباراً من وبعد أول يوم من شهر مايو سنة ألف وثمانمائة وسبعة، فإن إجراء جميع التأمينات أياً كانت على أو فيما يتعلق بأي تجارة، تعامل، حمل، تحويل، مناقلة أو معاملات أخرى تصبح محظورة بموجب هذا القانون. كما أنها تعتبر محظورة وتعلن بأنها غير قانونية؛ وإذا كان أي من رعايا صاحب الجلالة، أو أي شخص أو أشخاص من المقيمين في هذه المملكة المتحدة، أو داخل أي من الجزر أو المستعمرات أو المناطق أو الأقاليم التي ينتمون إليها، أو في حيازة أو تحت احتلال صاحب الجلالة، قد قام بمعرفته وعن قصد بالاكتتاب أو إجراء، أو تسبب أو استدرج للاكتتاب بها، أو تنفيذها، أو القيام بأي من هذه التأمينات غير المشروعة أو التأمين، فإنه أو فإنهم سوف يُغرّمون ويدفعون عن كل مخالفة مبلغ مائة جنيه عن كل تأمين، وكذلك ثلاثة أضعاف المبلغ المدفوع أو المتفق عليه كقسط تأمين لمثل هذا التأمين، يستخدم نصفه من قبل صاحب الجلالة وورثته وخلفائه، والنصف الآخر لاستخدام أي شخص يقوم بالإبلاغ وبذل الهمة والمقاضاة بشأن هذه التأمينات.

كانت نهاية القضية على يد محامي المكتتبين الذين أقنعوا المحكمة بالغش الذي تقوم عليه مطالبة أصحاب السفن، وبدلاً من متابعة القضية فقد تخلى أصحاب السفينة عن القضية دون صدور حكم من المحكمة.

لقد كانت قضية زونغ حقاً المفتاح الذي آذن بنهاية التأمين على تجارة العبودية.

الهوامش:

1 - لا يرد له ذكر في أحد الكتب العربية "الكلاسيكية" عن التأمين البحري: جمال الحكيم، التأمين البحري: دراسة علمية عملية قانونية (القاهرة: د.ن، ط 2، ط1 1955).

2 - على سبيل المثل:

Frederick Templeman, Marine Insurance: Its Principles & Practice (London: Macdonald & Evans Ltd, 4th Edition, 1934. First Ed 1903)

D E W Gibb, Lloyd's of London: A Study in Individualism (London: Macmillan & Co Ltd, 1957).

هناك إشارة للعبودية في هذا الكتاب، ص 11، ضمن نظام الإلزام بالعمل للخدم (العمل بالسخرة) لفترة معينة، وهم من الإنكليز والويلشين والاسكتلنديين، في جزر الهند الغربية والساحل الشرقي لأمريكا الشمالية التي ازدهرت في النصف الثاني من القرن السابع عشر واستبدالهم فيما بعد بالزنوج (دون شرح لاختطافهم من أفريقيا وشحنهم كبضاعة إلى أمريكا الشمالية).

أما كتاب:

Harold E Raynes, A History of British Insurance (London: Sir Isaac Pitman & Sons Ltd, 1964. 1st Ed. 1948)

فلا يرد فيه ذكر لتأمين تجارة العبيد أو قضية زونغ، لكنه يعرض مساهمات اللورد مانسفيلد، رئيس القضاة في إنجلترا،

في تطوير قوانين التأمين وإجراءات المحاكم الخاصة بها، ص 158 على سبيل المثل.

3 - على سبيل المثل:

Eric Williams, Capitalism and Slavery (London: Andre Deutsch, 1964, first ed. 1944), p 46.

يبين أريك وليامز أن رأس المال المتراكم من المتاجرة في العبيد والسلع المنتجة من عمل العبيد عبر الأطلسي ساهمت في تمويل صناعة تكرير السكر البريطاني وتقطير شراب الرام وتصنيع المعادن وصناعة الأسلحة والقطن والبنية التحتية للنقل وحتى محرك البخار لجيمس وات. فرضيته الأساسية هي أن الأرباح المتأتية من "التجارة الثلاثية الأبعاد" بين أوروبا وأفريقيا والعالم الجديد قدمت إسهاما هائلا للتنمية الصناعية في بريطانيا. وهو ما لم يعتمده ماركس بشكل مستقل عندما كتب فصل "ما يسمى بالتراكم" (كارل ماركس، رأس المال، المجلد الأول، عملية إنتاج رأس المال، 2013)، ترجمة د. فالح عبد الجبار، ص 880 وما بعدها. ومع ذلك فقد أشار ماركس إليها: "إن اكتشاف مناجم الذهب والفضة في أمريكا، واقتلاع سكانها الأصليين من مواطنهم واستعبادهم ودفنهم أحياء في المناجم، وبدايات غزو الهند الشرقية ونهبها، وتحويل أفريقيا إلى ساحة محمية لصيد ذوي البشرة السوداء، إن ذلك كله يميز فجر عهد الإنتاج الرأسمالي. وتؤلف هذه العمليات الرغيدة العناصر الرئيسية للتراكم الأولي." (المصدر السابق، ص 24).

لمتابعة مناقشة هذه الأطروحة راجع:

Robin Blackburn, The Making of New World Slavery: from the Baroque to the Modern, 1492-1800 (London: Verso, 1997).

وجاء ذكر زونغ في سياق الحكم الذي أصدره اللورد مانسفيلد (1705-1793)، كبير قضاة إنكلترا: "إن حالة العبيد هي نفسها كما لو أن الخيول قد ألقيت من على ظهر السفينة في عرض البحر." وسنعرض ذلك فيما بعد.

4- Harold James, Peter Borscheid, David Gugerli & Tobias Straumann, The Value of Risk: Swiss Re and the History of Reinsurance (Oxford: Oxford University Press, 2013), p 30.

5- Geoffrey Clark, "The Slave's Appeal: Insurance and the Rise of Commercial Property," Ch 3 in The Appeal of Insurance, edited by Geoffrey Clark, Gregory Anderson, Christian Thomann and J-Matthias von der Schulenburg (Toronto: University of Toronto Press, 2010), pp 52-74.

6- James Walvin, The Zong: A Massacre, The Law & the End of Slavery (New Haven: Yale University Press, 2011).

7- Geoffrey Clark et al, op cit, p 57-58; also, note 22, p 72.

8- John Wesket, A Complete Digest of the Theory Law and Practice of Insurance, London, 1781, p. 525, quoted by James Walvin, op cit, page 112.

9- هناك دراسات ومقالات متناثرة في الإنترنيت حول موقف بعض المفكرين الكبار من تجارة العبيد، يبين كتابها أن تطور هذه التجارة ارتبط بتأسيس إيديولوجية عنصرية لتبريرها، اعتمدت على الحَطّ من القيمة الإنسانية للأفارقة وغير البيض عموماً واعتبارهم بدون حضارة ووصمهم بالكسل والخمول وأكلة لحوم البشر. أنظر على سبيل المثل:

Friday Interview: John Locke and Slavery
https://www.carolinajournal.com/news-article/friday-interview-john-locke-and-slavery/
Making excuses for Hume: slavery, racism and a reassessment of David Hume's thoughts on personal liberty
https://www.academia.edu/890401/Making_excuses_for_Hume_slavery_racism_and_a_reassessment_of_David_Hume_s_thoughts_on_personal_liberty

The Roots of Modern Racism
http://www.thecritique.com/articles/the-roots-of-modern-racism/
Nathaniel Adam Tobias, "British Utilitarianism's justification of Negro Slavery"
https://www.academia.edu/3043942/British_utilitarianisms_justification_of_Negro_slavery?auto=download

10- كانت وثيقة التأمين تكتب بخط اليد وتم طباعة وثيقة اللويدز لأول مرة عام 1680-1681، ولم يتغير شكل وصياغة الوثيقة التي صارت تعرف باسم Lloyd's S & G Policy لغاية إعادة النظر بها وتنقيحها سنة 1779.

11- بهاء بهيج شكري، المعجم الوسيط في مصطلحات وشروط التأمين، الجزء الثاني (عمان: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2016، ص 11-9.

12- النص مقتبس من كتاب جيمس والڤن، ص 114-113.

13- يتناول جيمس والڤن أطروحة "الضرورة" في الفصل الثامن من كتابه: James Walvin, op cit, p 138-159.

14- تفاصيل القضية المعروفة باسم قضية سومرست Somerset Case معروضة في James Walvin, op cit, p 130-136، وكذلك Geoffrey Clark, op cit, p 63

15- نقلاً عن James Walvin, op cit, p 145

16- James Walvin, op cit, p 145-146

17- James Walvin, op cit, passim

18- يمكن قراءة نص هذا القانون باستخدام الرابط التالي:
Georgii III, Session 1, cap. XXXVI, http://www.pdavis.nl/Legis_06.htm 47

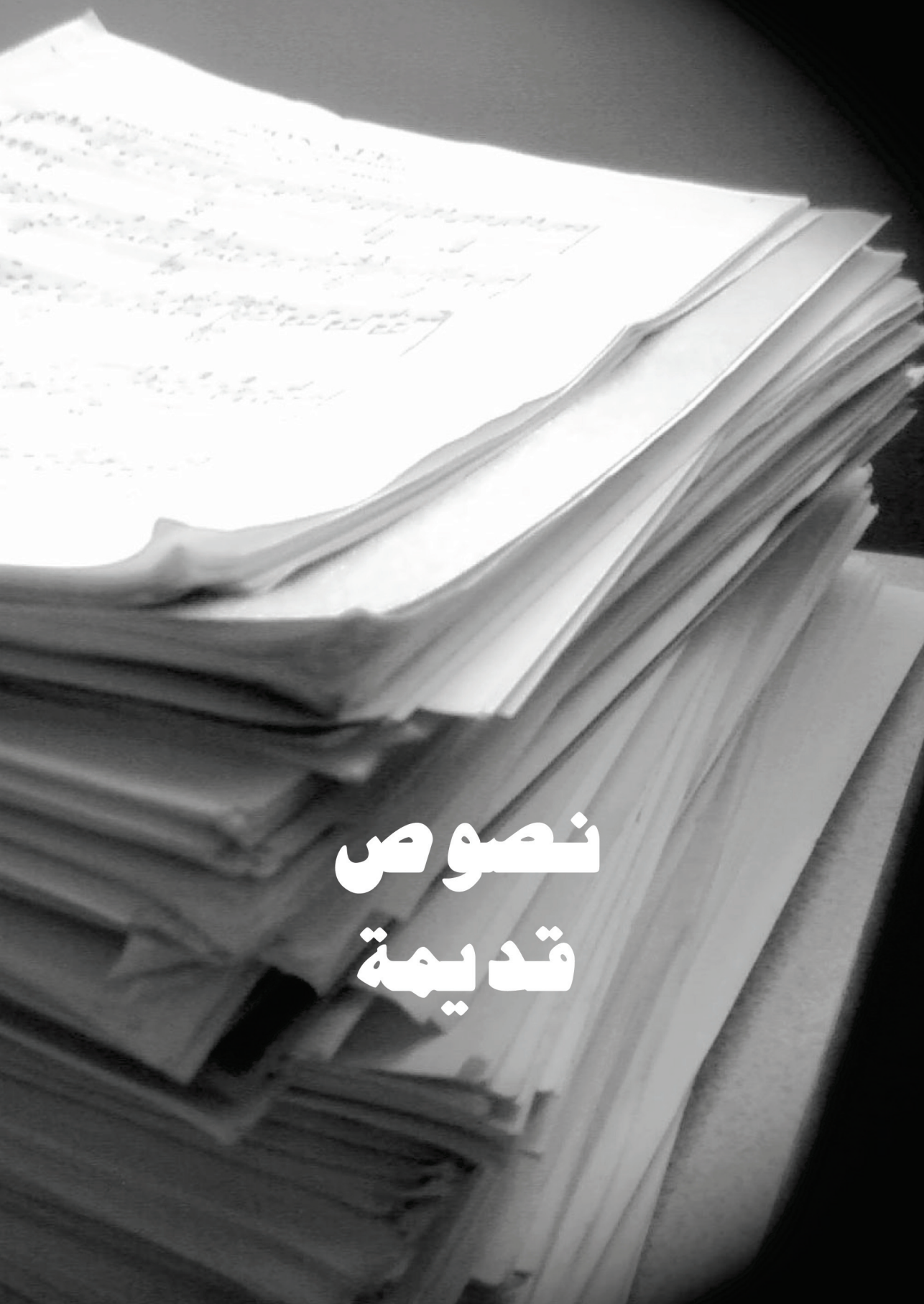

نصوص قديمة

أمريكا اللاتينية:
حوار مستمر بين الماركسيين والمؤمنين*

فريق بحث

نظمت لجنة المجلة في قضايا بلدان اميركا اللاتينية وحوض الكاريبي ''طاولة مستديرة'' عالمية في براغ حول موضوع ''الحوار بين الشيوعيين والمسيحيين في ظل الازمة الحالية في المنطقة'' ساهم فيها اختصاصيون بارزون في مسائل الدين والكنيسة. وعرضت للبحث فيها تقارير خ. روساليس لعضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الارجنتيني، و.خ.ف كارنيادو عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي، وأو. ميلياس (غيابياً)، عضو اللجنة السياسية وسكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الشيلي، والبروفيسور ن.أ. كوفالسكي الدكتور في علوم التاريخ (الاتحاد السوفياتي). وأسهم في المناقشة ممثلو الاحزاب الشيوعية والعمالية في الارجنتين وبوليفيا والبرازيل وغويانا وهندوراس وكولومبيا وكوستاريكا وبنما وبيرو وشيلي والسلفادور واكوادور وجمايكا.

ونقدم في ادناه عرضاً لمواد المباحثات، أعده ألفارو اوفييدو الذي ساهم في المناقشة.

تناول آني أم خط استراتيجي؟

لنلاحظ فوراً ان جميع الخطباء، إذ قصدوا، اول ما قصدوا، الاوضاع الخاصة في قارة امريكا اللاتينية، لم يتحدثوا عن عقلانية الحوار والتعاون مع المسيحيين فحسب، بل وكذلك عن ضرورة تعميقه والتوصل الى مستويات جديدة من التفاهم، آخذين في الاعتبار التغييرات الحاصلة في العالم. ذلك ان العصر ذاته يتطلب بحثا مثابراً عن طرق تبادل المعلومات والآراء في قضية على هذه الدرجة من الاهمية بالنسبة للممارسة الثورية.

ليست قضية العلاقات بين الماركسيين والمؤمنين بجديدة على الشيوعيين، فقد عرض كلاسيكيو الماركسية اللينينية مبادئ عامة لحلها. وفي ما بعد، اكتسبت الحركة الشيوعية العالمية خبرة اضافية مستمدة، مثلا، من تشكيل جبهات موحدة في الثلاثينات ضد الفاشية وخطر الحرب. وبعد ان اعلن موريس توريز سياسة ''اليد الممدودة''(1)، كانت وثائق ذلك العصر تثير دوما مسألة توسيع التعاون مع جمعيات المؤمنين.

وفي غضون الحرب العالمية الثانية،

كانت الاحزاب الشيوعية المقاتلة في ظروف السرية في البلدان التي احتلها الهتلريون توجه اعضاءها الى وحدة الاعمال مع جميع القوى المعادية للفاشية، من ضمنها المسيحيون الذين انضموا الى حركة المقاومة. ومن المعروف ايضا ان الكنيسة الارثوذكسية الروسية تعاونت في سنوات الحرب الوطنية العظمى اعوام (1941-1945) مع الدولة السوفياتية والشعب السوفياتي الذي تحمل الاعباء الرئيسية للمعركة ضد النازيين.

وبعد الانتصار على الفاشية، دعت جميع الاحزاب الشقيقة تقريباً في البلدان التي تنتشر فيها الكاثوليكية الى تنسيق الاعمال مع المسيحيين والمؤمنين عموماً. وصيغت اسس مثل هذا الموقف في وثائق جماعية اقرتها اجتماعات الاحزاب الشيوعية والعمالية، منها ميثاق السلام (عام 1957) الذي دعا الناس ذوي الارادة الطيبة الى ان يساهموا، بغض النظر عن معتقداتهم السياسية او الدينية، في درء حرب جديدة. واشار بيان المشاركين في لقاء عام 1960 الى ان أية فوارق ذات طابع سياسي أو ديني او اجتماعي ينبغي ألا تكون عائقا في طريق وحدة الشغيلة (2).

اما الاجتماع العالمي للأحزاب الشيوعية والعمالية، الذي انعقد في عام 1969، فقد كان دقيقاً في هذا الصدد؛ إذ اشار الى انه في ظروف استفحال التناقضات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، تفتحت في العديد من البلدان، آفاق جديدة لتحالفات عريضة مع جماهير المؤمنين. وجاء في بيان الاجتماع أن الشيوعيين على يقين من ان جماهير المؤمنين تتحول على طريق الاتصالات الوثيقة والنضال المشترك الى قوة نشيطة تعمل على تحقيق تغيرات اجتماعية عميقة(3).

كما ان اجتماع الاحزاب الشيوعية في بلدان امريكا اللاتينية وحوض الكاريبي عام 1975 أكد هذا الاستنتاج: ''ان المسيحيين، وخاصة الكاثوليكيين، والقساوسة العاديين وحتى بعض ممثلي المقامات الكنسية العليا يشاركون بهمة متعاظمة في النضال الشعبي من اجل التقدم الوطني والاجتماعي. وتلهمهم فكرة كنسية تقف الى جانب الشعب... وترفض المساومة مع الرجعية والامبريالية. ويناهض ممثلو الكنيسة البارزون الارهاب الفاشي ويدافعون عن الحقوق الديمقراطية والتقدم الاجتماعي''(4).

لقد ادخرت خبرة غنية نسبياً للعلاقة، بل وفي احيان كثيرة للتعاون بين الشيوعيين والأوساط اليسارية التجديدية من الكنيسة الكاثوليكية في امريكا اللاتينية – الشغيلة المؤمنين والمراتب الدنيا من الاكليروس، بل وحتى بعض ممثلي الاسقفية. وتمكن هذه الخبرة من الاستنتاج القائل بأن الحديث لا يدور البتة عن السياسة الآنية التي تمليها الاعتبارات التكتيكية، بل عن النهج الاستراتيجي المديد في النضال من اجل السلام والتقدم الاجتماعي والديمقراطية والاستقلال الوطني، الامر الذي اكده فيديل كاسترو منذ بداية السبعينات اكثر من مرة'' (5). ويرى عدد من الخطباء ان الاعمال المشتركة للماركسيين والمسيحيين قد تصبح عاملاً من عوامل بناء الاشتراكية في القارة.

القضايا الجديدة، الاسئلة الجديدة

ثمة جوانب جديدة في تطور العالم المعاصر، وخاصة امريكا اللاتينية، ذات علاقة بالتناقضات لا في الكنيسة نفسها فحسب، بل وفي اطار الرأسمالية عموماً. وهذه الجوانب، كما قال الخطباء، في "الطاولة المستديرة"، تحدد بصورة جديدة مهام الاحزاب الشيوعية في سياق النضال من اجل اجتذاب الشغيلة وغالبيتهم من المؤمنين، الى العملية الثورية، ذلك انه يستحيل ان تتم تحولات اجتماعية عميقة دون مساهمتهم النشيطة.

يزداد عدد الناس في أمريكا اللاتينية، الذين يتوصلون، بغض النظر عن آرائهم الدينية الى الاستنتاج القائل بضرورة النضال ضد النظام الذي ينزل الضربات بالشغيلة دون ان يفرق بين من يؤمنون بالله ومن لا يؤمنون، وتصطدم سياسة الاتحادات الاحتكارية فوق القومية وسائر الاحتكارات التي تلقي اعباء الازمة على كاهل الشغيلة، بمقاومة متزايدة من الشعوب التي ترفض التسليم بالتحكم الامبريالي. ومساهمة المؤمنين في هذا النضال تفوق التقدير.

هذا وان خطر هلاك البشرية في الكارثة النووية وادراك الصلة بين سباق التسلح ونهب البلدان "النامية" يساعدان على تنور الجميع. وتتضح عبثية النفقات العسكرية بجلاء حين نرى سكان المناطق الشاسعة من الكوكب يعانون وطأة الجوع والأوبئة والظروف المعيشية غير الانسانية.

ولقد ادى الواقع المأساوي الى تغيرات عميقة في الممارسة الدينية للجماهير المسيحية ومنظماتها في امريكا اللاتينية، والكنيسة الكاثوليكية قبل غيرها. وإذ راحت تتكيف مع متطلبات العصر لم يكن لها إلا ان تولد تيارات تجديدية برزت في مؤتمري مجلس الاساقفة الاميركي اللاتيني "سيلام" في ميديليين عام 1968 وبويبلو عام 1979 وتشكلت نظرياً في اطار لاهوت التحرير مع "اختياره الغالب لمصلحة الفقراء" وتحديه لأوساط الكنيسة المحافظة (6). وان الاختيار لصالح الفقراء الذي اعلنه انصار التجديد يتعارض، حسب رأي المنظرين الرئيسيين للاهوت التحرير، مع المبدأ المسيحي العام القائل بحب ذوي القربى دون اية تفرقة اجتماعية، ولكنهم يشرحون في الوقت نفسه ان "حب المظلومين؟" تعبّر عنه المساهمة في نضالهم التحرري، بيد ان "حب الظالمين" يعبر عنه تغيير العالم على نحو لن يستطيعوا معه استغلال ذوي القربى. وبالتالي، يستطيعون ان يكتسبوا من جديد "صورة انسانية". ويثير هذا الطرح للمسألة غيظ الرجعية الاكليركية وادارة واشنطن اللتين تصفانه بصفة "التخريب" لا غير. وفي القارة مناطق يعتبر فيها حتى الانجيل من ادب العصيان، ويتهدد الاعدام رميا بالرصاص من عثر عليه عندهم.

وإذا اصبح مثل هذا الكتاب مؤلفاً انفجارياً، فلم يتم ذلك بذنب الماركسية البتة. ذلك ان قراءته الجديدة في الظروف القائمة، ظروف الفقر والاستغلال والظلم، إذ تعبر عن اماني المعدمين وآمالهم في حياة افضل، تثير احتجاجاً على المضطهِدين (بالكسر)، وإن كان هذا الاحتجاج حسب تعبير لينين، يبرز "تحت غطاء ديني" (7).

من المعروف ان المسيحية نشأت في امبراطورية روما كدين للعبيد، والمظلومين

تحت شعار المساواة للجميع. ولم يعتبر الارقاء في ذلك الحين الا "حيوانات ناطقة"، وكانوا يستطيعون الاعراب عن طموحهم الى العدالة في شكل واحد فقط كان في متناولهم هو الشكل الديني. وفيما بعد استخدمت الطبقات السائدة دين الناس البسطاء من اجل تثبيت سلطتها.

اما الجديد، فيتلخص في ان هذا التوق الى العدالة والى حياة اكثر كرامة اصبح في أيامنا هذه قابلاً للتحقيق. وان اللقاء خلال قرون بين مثل المسيحية المبكرة واهداف الحركة الثورية المعللة بالبراهين العملية، يفتح الآفاق امام التغيرات الاجتماعية وبناء مجتمع اكثر انسانية. ويشير فيديل كاسترو وهو يعتمد على تجربة جزيرة الحرية، الى ان مجتمع العدالة لم يعد طوباوياً في امريكا اللاتينية انه لو حاولت الكنيسة انشاء دولة مبنية على المثل المسيحية العليا لكانت تشبه كوبا في الكثير من النواحي (8).

إن الوقائع الجديدة – وهي نتاج عملية متناقضة ليست دائماً تقدمية البتة – تطرح عدداً من المتطلبات امام الشيوعيين. ولاحظ المشاركون في اللقاء اننا لا نستطيع ان نقف موقف اللامبالاة من حركة جماهيرية عريضة جدا، وإن كانت غير متجانسة ومزدوجة في الكثير من النواحي. هذه الحركة التي تتفتح امامها آفاق رحبة للتطور والتي تبحث عن مكانة خاصة بها في المعارك الثورية المعاصرة. ولا يجوز معالجة هذه القضية البالغة الاهمية بالنسبة للثورة في امريكا اللاتينية والبقاء في اسر مواقف الماضي ورسومه البيانية، والماركسية المبدعة، الغريبة عن اية عقيدة جامدة وكل ركود فكري تلزم الشيوعيين بأن يكونوا في مستوى النزعات العصرية في العملية الثورية.

ويتوقف اتجاه سير الجماهير المسيحية على الاجوبة التي سنعطيها. يطمح المؤمنون عموماً الى التحرر، ولكن آمالهم قد تكون عديمة الجدوى، اذا لم نناضل معا من اجل تصفية استغلال الانسان للانسان. وبما ان الفراغ الايديولوجي يستحيل وجوده، فان الايديولوجيات غير الماركسية والمعادية للتحولات الحقيقية ستمارس تأثيرها على الجماهير وستضللها أو تحد من نشاطاتها، اذا لم تتغلب الافكار الماركسية الثورية.

اعرب المشاركون في الطاولة المستديرة عن قلقهم لتأخر المعنيين بالفكر الماركسي اللينيني في دراسة القضايا المطروحة للنظر وفي تنسيق الخبرات المدخرة وجوانبها الجديدة وكذلك في استخدام الاستنتاجات الحاصلة استخداماً عملياً. وهذا نقص جدي وتلافيه ليس في مصلحة الاحزاب الشقيقة في امريكا اللاتينية فحسب، بل وكذلك في مصلحة الحركة الشيوعية جمعاء. وأشير في اللقاء الى ان الماركسيين في امريكا اللاتينية يمارسون عملهم آخذين في الاعتبار وقائع الحركة المسيحية وسياستها. ويقوم هذا العمل على معايير تتعدى الحدود الوطنية، سواء أكان الحديث يدور عن الاكليروسيين الرجعيين أم الاصلاحيين المعتدلين أم انصار التجديد. ولكن ينبغي تكثيف اعمال البحث العلمي في هذا المجال من اجل تحديد المواضيع المستقبلية ومن اجل تنشيط تبادل الآراء والمعلومات، الذي بدأ منذ فترة بين الشيوعيين، وطبعا من اجل خطوات ملموسة يمكن ان تساعد المسيحيين والماركسيين في بلدان القارة على حل

القضايا المشتركة بتضافر الجهود. وان ايجاد لغة مشتركة مع المؤمنين هو المهمة التي يمكن لتنفيذها ان يمارس تأثيراً عظيماً على الجماهير الشعبية.

التعاون مع المسيحيين

أشار الخطباء بالإجماع الى ضرورة تطوير العلاقات مع الاوساط التجديدية في المسيحية بروح الاخلاص والاحترام المتبادل. وان النظرة المادية الى العالم هي على طرفي نقيض، طبعاً، مع النظرة الدينية الى العالم. واكدت الممارسة التاريخية صحة الماركسية اللينينية. ولكنه من اجل العمل المشترك يجب الا يطالب احد اطلاقاً بأن يتخلى عن معتقداته الفلسفية أو الدينية. ونحن، إذ نؤيد لاهوت التحرير، لا نتحول ابدا الى دعاة له. والحال ان الفهم الصحيح لهذا التيار يساعد على فضح القوى الكنسية، اليمينية والرجعية عموما التي تسعى الى استخدام الشعور الديني من أجل تبرير السلبية والرضوخ في ظروف الاستغلال والظلم والتعسف.

وأكد المشاركون في المناقشة ان الشيوعيين مدعوون الى الادلاء برأيهم الراسخ في ان كل اشكال "الديساروليةّ" (9) في امريكا اللاتينية منّيت بالفشل، وانه موضوعياً لا يبقى ثمة من وجهة النظر التاريخية، مخرج آخر من الازمة سوى التغيرات الثورية. ويجب العمل بين المؤمنين دون فرض آرائنا عليهم ودون ان ننسى موضوعة لينين القائلة بأنه "لا يمكن تنوير البروليتاريا بأية كتب وبأية مواعظ مهما كانت، اذا لم ينورها نضالها الخاص ضد قوى الرأسمالية الظلامية"(10). بيد ان تنوير الشغيلة سياسياً وتقاربهم مع الماركسية يتعثران، من جهة، بسبب عقم الفكر الجامد الذي يفرق بيننا وبين المسيحيين، وكذلك التنازلات في المسائل المبدأية، من جهة اخرى.

ان حجر الزاوية في العلاقات مع المؤمنين هو موضوعة مؤسسي الماركسية اللينينية المعروفة التالية. يجب ان تخضع الدعاية للمهمة الرئيسية التي هي تشديد نضال المستغلين (بالفتح) الطبقي ضد المستغلين (بالكسر). وهذا الطرح للمسألة لا تمليه اعتبارات التكتيك او المنفعة المؤقتة وإنما تمليه متطلبات الديالكتيك المادي، تركيز الجهود في تحويل تلك الظروف الاجتماعية التي اصبحت اليوم البيئة المغذية الرئيسية للدين.

ولهذا السبب بالذات كان لينين يدعو الى جذب العمال المؤمنين الى الحزب، مؤكداً اننا ولا شك ضد اية اهانة، مهما صغرت، لاعتقاداتهم الدينية، و"اننا نجذبهم للتثقيف بروح برنامجنا"(11). ويلاحظ فيديل كاسترو بهذه المناسبة انه من الناحية السياسية الصرفة "يمكن للمرء ان يكون ماركسياً دون ان يتخلى عن مسيحيته، وان يعمل مع الماركسيين الشيوعيين على تحويل العالم"(12).

يعتبر الحوار مع المسيحيين شكلا من اشكال الصراع الآيديولوجي البعيد عن النزعة التوفيقية، ولكن جدالنا مع المؤمنين لا يجوز، كما اشير في اثناء المناقشة، ان يفزعهم، متحولاً الى نزاع تناحري في مجرى النضال المشترك، بل يجب ان يدل على ان الماركسية اللينينية تعاليم تتضمن كل الاسس العملية العميقة، وقد

اكدت صحتها الممارسة الاجتماعية، وهي تستجيب لمصالح البروليتاريا وجميع المظلومين.

ولاحظ المشاركون في اللقاء ان عددا من المسائل الجديدة يظهر في هذا المجال. فبعض اعضاء الحزب، اذ يقترب من الكاثوليكيين، قد يبتعد احياناً حتى عن الاسس الفلسفية للنظرة الماركسية الى العالم. ونقول لهؤلاء الرفاق: يجب اعطاء الاولوية لكل ما يوحدنا، إلا انه لا يجوز ابدا التضحية بالمبادئ. علما بأنه من الهام جداً معرفة كيفية مساعدة المسيحيين، الذين يتخلون عن الآيديولوجيا الاصلاحية اليمينية المعادية للماركسية والحزب، على الانخراط في النشاط الثوري وإيجاد مكانهم الى جانب المظلومين. ومن المهم طبعاً تعريفهم بمبادئ الماركسية اللينينية بالاستناد الى مصادرها الاساسية، لا بتلك الصورة الكاريكاتورية لهذه المبادئ، والتي تقدمها الرجعية.

ثمة ظاهرة جوهرية أخرى: ان عددا كبيرا من المسيحيين، إذ يسمون انفسهم ماركسيين ويشاركون في النضال الثوري السياسي، يتوخون ان يستوعبوا الآيديولوجيا العلمية، ولكنهم لا يعملون ذلك بالقوة الكاملة المطلوبة ولا يصلون الى حد التخلي عن معتقداتهم الدينية.

وهكذا، فإن الواقعية الملموسة تطرح مطالب جديدة على الاحزاب الشيوعية في المجالين النظري والعملي على حد سواء. وأشير في اثناء المناقشة الى انه لكي نكون في مستوى هذه المطالب، من الضروري ألا يغيب عن بالنا ان الماركسيين والمسيحيين يمكن ان يجدوا في سياق حوارهم دون التنازل عن مبادئهم، الكثير من القواسم المشتركة في مواقفهم من القيم الاخلاقية المفهومة والعزيزة على جميع ذوي الارادة الطيبة.

واكثر من ذلك فإن الحياة في عدد من بلدان امريكا اللاتينية تدفع المؤمنين والماركسيين الى اتحاد في اطار منظمات تلعب دور الطليعة. وهذه الظاهرة جديدة تماماً في الحركة التحررية في ايامنا. وعلى سبيل المثال، يدخل نشطاء مسيحيون وقساوسة كاثوليك في قيادة جبهة التحرير الوطني الساندينية التي هي مرحلة التحول الى حزب موحد. كما ان مسألة تشكيل طليعة ثورية موحدة تطرح في السلفادور. ويدور الحديث هنا لا عن الحوار والتعاون فحسب، بل وكذلك عن اندماج يضع قوى سياسية في منظمة متلاحمة واحدة – فصيلة الثورة الطليعية.

الامكانات الوطنية ومصاعب الحوار

بحث اللقاء في خصائص الوضع الملموس المرتبط بمكانة الدين في مختلف بلدان امريكا اللاتينية. فلننظر في وضع الكنيسة والمؤمنين وكذلك موقف الاحزاب الشيوعية في المنطقة منهم، محاولة منا لإعطاء صورة عامة للموضوع الذي يهمنا، استناداً لتقديرنا الاول وفي ضوء مداخلات المشاركين في الطاولة المستديرة ومقالات الصحف في السنوات الاخيرة.

مارس الحزب الشيوعي الارجنتيني منذ بداية الاربعينيات، سياسة "اليد الممدودة" في علاقاته مع الكاثوليكيين. واستمر في ممارستها في العقود الاولى بعد الحرب، رغم ان الكنيسة حملت آنذاك، كمؤسسة

اجتماعية، راية التيارات المحافظة والرجعية والمعادية للشيوعية والسوفيات، ولم تكن تخفي عداءها لمطالب العمال والتحويلات التقدمية، أيا كانت. وحتى في ذلك الحين كانت الميول الديمقراطية تتجلى في الاوساط الكنسية، وان بوجل شديد.

اما الآن، حيث تفاقمت التناقضات الكنسية وبرزت عمليات التمايز بصورة ملحوظة، فيرفض الشيوعيون في الارجنتين جميع مظاهر العداء المبتذل للاكليركية ومحاولات النظر الى الكنيسة والتيارات القريبة منها باعتبارها قوى اجتماعية رجعية صرفة.

ذلك ان القسم الاكثر محافظة من الاسقفية الارجنتينية، وان كان كالسابق يحتفظ بمواقع ثابتة جداً في القيادة الكنسية العليا وبين القساوسة في الجيش وفي منظمات رأس المال الكبير في المدينة والريف، يفقد بالتدريج دوره القيادي، اذا نظرنا الى الاوضاع نظرة موضوعية. وبرز بين رجال الدين فريق خاص من الاساقفة والاحبار الذين تطوروا نحو اليسار بصورة ملحوظة ويؤيدون اكثر مطالب الجماهير التقدمية ويروجون لاهوت التحرير، الامر الذي كلف البعض حياتهم. ويفهم العديد من رجال الدين وقادة المؤسسات الدينية ان: لا بد من الاستعاضة عن لغة الكنيسة البالية بلغة جديدة، اكثر صلاحية ومفتوحة للبحث في القضايا الاجتماعية وأماني المعدمين والمظلومين، لكي لا يفقدوا الصلات مع الجماهير. والحق يقال ان هؤلاء الرجال لا يخلون من الاوهام الطبقية والمعادية للشيوعية ويسعون الى درء انتشار الروح الراديكالية بين رعاياهم. ولكن، إذ نأخذ في الاعتبار حتى هذه المواقع المحافظة التي لا تتعدى اطار الاصلاحية الوجلة، يمكن ان نجد فيها دوماً "مجالات للتفاهم" تتيح لنا امكانية ممارسة سياسة التحالف مع المجددين في مسائل كالنضال من اجل السلام والحريات الديمقراطية وكذلك النضال الى حد ما من اجل توزيع اكثر عدالة للخيرات المادية.

لا ينفك الشيوعيون في الارجنتين عن العمل بين المؤمنين، ويفهم الحزب، ان مهاما معلقة عديدة ستواجهه في هذا الطريق. وفي مركز كودوفيليا لدراسة الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي الارجنتيني، هناك فريق خاص للبحوث في الشؤون الدينية أعد في الآونة الأخيرة عددا من المطبوعات (13)، بهدف اعداد كوادر النشطاء اعدادا نظرياً للحوار والتعاون مع جماهير المؤمنين.

في البرازيل، حيث شملت العمليات التجديدية اوساطا واسعة من رجال الدين، لعب جناح الكنيسة الأيسر دورا ملحوظاً في النضال ضد الدكتاتورية العسكرية التي حكمت في الجمهورية اكثر من 20 سنة (1964 - 1985). هاكم ما جاء في وثيقة الحزب الشيوعي البرازيلي البرنامجية: كانت الكنيسة الكاثوليكية في احلك مرحلة من التنكيل الفاشي بين أولئك القلائل الذين وجدوا أنفسهم قادرين على رفع اصواتهم لفضح جرائم الدكتاتورية وتعسفها امام الملأ. وعملت الكنيسة ذلك بثبات وجرأة، مساهمة بحزم في تكوين رأي عام داخل البلاد يدين النظام" (14).

وفي ظروف انعدمت فيها احزاب علنية، كانت الكنيسة اليسارية تلعب جهاراً دور بوق المعارضة، وقد نظمت سوية مع بعض

الشخصيات التقدمية حملة من اجل عفو عام واسع لا يحده حد، ودعت في ما بعد الى اجراء مناقشة لاصلاح الدستور.

إن وزن الكنيسة الكاثوليكية البرازيلية، التي تضم 110 ملايين مؤمن، كبير جدا في الكاثوليكية العالمية. ويشكل رعاياها حوالي ثلث جميع الكاثوليكيين في امريكا اللاتينية، الذين اخذوا يتحركون في السنوات الاخيرة، الامر الذي يشهد عليه وجود اكثر من 100 ألف جماعة مسيحية دينية (15)، بقوة ديمقراطية جماعية كبيرة. ومارس لاهوت التحرير تأثيره حتى في الاوساط الكنسية العليا، ويفعل فعله الآن في مستوى الاسقفية البرازيلية الاكثر عدداً في العالم الكاثوليكي والتي تضم 367 اسقفا وخمسة كرادلة. وطرحت الاسقفية البرازيلية في احد مؤتمراتها الاخيرة مسألة تعميق عملية اشاعة الديمقراطية في البلاد، وأقرت وثيقة تدعو جميع الكاثوليكيين الى البحث في مسألة توسيع مشاركة الشعب في حياة البرازيل الاقتصادية والاجتماعية. وإذ تؤيد الكنيسة جهاراً إجراء الاصلاح الزراعي، اكدت موقفها هذا واقترحت نقل كل ممتلكاتها العقارية في الريف (حوالي 180 الف هكتار) الى ايدي الدولة، إذا اقدمت الحكومة على تغيير بنية ملكية الارض في الريف.

اما في تاريخ شيلي المعاصر، فمرت فيه العلاقات بين الشيوعيين والكاثوليكيين الذين يشكلون غالبية المؤمنين المطلقة بمرحلتين ساد فيهما وضع سياسي مغاير تماما. في سنوات سلفادور الليندي الثورية اعوام 1970-1973، كانت علاقتها مع الكنيسة تتميز باحترام متبادل وكذلك بمشاركة جماهير المسيحيين على نطاق واسع في العملية الثورية الجارية. وتتعلق المرحلة الثانية بقيام اقسى دكتاتورية فاشية في البلاد. ولكن حتى في هذه الظروف، وبالرغم من دسائس المحافظين الذين رفعوا رؤوسهم بعد تعيين كردينال جديد في سانتياغو، احتلت الكنيسة مواقع معادية للفاشية ولاقى نشاطها اكثر من مرة استجابة ايجابية من الشيوعيين. على عكس ذلك، تتعرض دوماً لتهجمات واهانات نظام بينوشيت، من الاعتقال والنفي وحتى قتل بعض القساوسة وحصار المعابد المسلح ولغمها. وفي هذه الظروف فان الشيوعيين والكاثوليكيين يوطدون في علاقتهم اليومية وصلاتهم المتبادلة من اجل النضال المشترك في سبيل الحرية، والدليل الساطع على ذلك، مثلاً العلاقات الودية بين الخلايا الحزبية المحلية والجماعات المسيحية الدنيا.

ينطلق الحزب الشيوعي الشيلي من مبدأ عدم التدخل في شؤون الكنيسة الداخلية ويدعو بحزم وصراحة الى التفاهم والنشاطات المشتركة بين انصار التغيرات الثورية وجماهير الكاثوليكيين والمسيحيين. ويبذل الحزب قصارى جهده لكي يصبح ذلك صفة مميزة للديمقراطية والتحولات الثورية المقبلة في البلاد(16).

كما يلاحظ سعي الكنيسة المتزايد الى مراعاة امزجة الفئات الشعبية في بارغواي التي ترزح تحت حكم اقدم دكتاتورية في القارة. وشمل هذا السعي حتى ممثلي المقامات العليا من الكنيسة، الأمر الذي يعكس التغيرات الجوهرية الحاصلة في وسط اسقفية بارغواي، التي كانت منذ أمد قريب تلعب دور احدى ركائز النظام

الدكتاتوري الرئيسية. إذ يستخدم المطران رولون مواعظه لانتقاد نظم سترويسنر، وفي العام الماضي، نظمت في شوارع آسونسيون مسيرة للقساوسة والراهبات تدعو الى السلام والحرية والعدالة من اجل جميع الذين يعانون الفقر المدقع. وشجب المشاركون في المظاهرة موجة اعمال التنكيل التي انقض بها النظام على العائلات الفلاحية. وفي وسط الاكليروس الكاثوليكي والمؤمنين تشق الطريق بالتدريج الفكرة القائلة بضرورة الحوار والتعاون والاعمال المشتركة بين الشيوعيين والقوى الديمقراطية كافة.

ويرى الحزب الشيوعي في بارغواي ان ثمة ما يكفي لدى الشغيلة المسيحيين وغير المؤمنين من المصالح المشتركة للاتحاد في سبيل التحرر من الاستغلال والاضطهاد والفقر المدقع. أما الكنيسة ذاتها، فانها كذلك ".. تجابه اكثر فأكثر الدكتاتورية التي تتهم الاساقفة والمراتب الدنيا من الاكليروس بالتواطؤ مع النشاط التخريبي"(17).

تعتبر بوليفيا من بلدان القارة، التي تتمتع فيها الكاثوليكية بتأثير كبير جداً مع وجود تيارات دينية اخرى. وبعد مجمع الفاتيكان المسكوني الثاني عام 1962- 1965، ظهرت تغيرات ايجابية، رغم تشبث بعض الاوساط الكنسية بالمذاهب الرجعية القديمة، وذلك في ما يتعلق، مثلاً، بقضايا وضع الشغيلة الاجتماعي الاقتصادي وحقوق الانسان والديمقراطية ومقاومة الانظمة الدكتاتورية التي نكلت اكثر من مرة بالمؤمنين، بما في ذلك قتل القساوسة. وافسحت هذه الظواهر الجديدة وردود الفعل على لاهوت التحرير، في المجال للحوار بين الشيوعيين والمسيحيين ونضالاتهم المشتركة، دفاعاً عن المصالح الوطنية ومطالب الجماهير الشعبية. ومنذ امد قريب حددت الكنيسة البوليفية بلا مواربة موقفها من قضايا البلاد الرئيسية.

اولاً، قامت بوساطة بين السلطات وعمال مناجم "سيغلو العشرون" و"كاتافي" الضخمة، حين اضرب العمال عن الطعام احتجاجاً على السياسة الحكومية الرامية الى إلغاء التأميم واغلاق عدد من المؤسسات. ثانياً، ادانت جمعية اتباع الكنيسة الكاثوليكية البوليفية ادانة حازمة وبتأييد من القيادة الكنسية، الانزال الذي قامت به الولايات المتحدة في 14 تموز عام 1986 بحجة مكافحة تجار المخدرات، ووصفته بكونه انتهاكا لسيادة الوطن. واخيراً، نعتت الاسقفية في احدى وثائقها الدين الخارجي بأنه "لا أخلاقي"، قائلة بأن الكف عن تسديده مبرر من وجهة النظر المسيحية، اذا اخذنا في الاعتبار جوانب هذه القضية الاجتماعية والسياسية والانسانية الصرفة (18). ويؤكد الاساقفة، وهم يلمحون بلا مواربة ولا مداراة الى صندوق النقد الدولي، ان "المنظمات الدولية المعروفة، تفرض على بوليفيا مخططاتها التي تقع اعباء تنفيذها على كاهل اكثر فئات السكان فقراً".

ويتميز وضع الكنيسة الكاثوليكية في بيرو بأن فيها، الى جانب تيارات محافظة وحتى رجعية، اوساطاً تجديدية نافذة يلهمها فكرياً احد مؤسسي لاهوت التحرير القسيس والعالم اللاهوتي غوتيريس. وعلى سبيل المثال اعترفت اسقفية بيرو في عام 1971 بأفضليات الاشتراكية، إلا ان اعداء التجديد

تغلبوا في الاسقفية من جديد منذ اواسط الثمانينات (19). ويقدر غوتيريس وانصاره الماركسية عالي التقدير كتعاليم عن تطور المجتمع ويستخدمون بعض احكام الماركسية في اطروحاتهم اللاهوتية.

وجدير بالذكر ان التكتل اليساري الثاني في البلاد من حيث اهميته، وهو وحدة القوى اليسارية التي تضم الحزب الشيوعي في بيرو ايضاً، يطبق في الواقع العملي التعاون بين المسيحيين والماركسيين، وزعيمه بارانتيس رئيس بلدية ليما، يسمي نفسه "ماركسياً مسيحياً". ويبذل جهده لإقامة الاتصالات والتعاون مع الجماعات المسيحية الدنيا، ولا سيما مع انصار لاهوت التحرير، إذ يعتبر ان لاهوت التحرير، خلافاً للاهوت التأملي، نجم عن وضع بيرو المأساوي ويرتبط به بجذور قديمة.

ان اكبر معضلة اجتماعية في بيرو هي وضع الفلاحين الذي لا يطاق. ومأساة الفرق الجبلية المهملة والاضطهاد القاسي الذي يتعرض له الذاهبون للعمل في المدن وعذاب الجوع وظروف المعيشة غير الانسانية. هذه الوقائع تؤثر في وعي اتباع الكنيسة الديني، وتدفع المؤمنين الى استيعاب افكار الاشتراكية. كما ان تجربة الثورتين في كوبا ونيكاراغوا مع سياستهما الرامية الى اتحاد وثيق بين المسيحيين والماركسيين تمارس تأثيراً ملحوظاً في المجددين وجماهير المؤمنين، التي اخذت تتحرك.

كما يرى الشيوعيون في الاكوادور ان مثل هذه الوحدة للاعمال ليست ممكنة فحسب، بل وضرورية ايضاً. لقد جاء في القرار السياسي الذي اتخذه المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي في الاكوادور عام 1981 قوله: "ان النهج الاستراتيجي الذي رسمه حزبنا يتطلب رص صفوف جميع القوى الديمقراطية والوطنية والمعادية للامبريالية في النضال من اجل ثورة تحررية ذات افق اشتراكي... وتتوفر ظروف مناسبة للاعمال المشتركة مع فرق ذات نفوذ من الكاثوليكيين الذين يتخذون مواقف تقدمية..." (20).

اما بالنسبة للسكان من شغيلة الهنود الحمر فان ما يدعى الكنيسة الشعبية التي أنشأت شبكة من مدارس الابرشيات مع استخدام الراديو قد اضطلعت بدور هام في ايقاظ وعيهم واصبح ل. بروانيو الاسقف السابق في محافظة ريوبامبا، الذي يتمتع بشهرة واسعة في امريكا اللاتينية هو الملهم الرئيسي في هذا النشاط. وقد اطلقت الرجعية عليه اكثر من مرة صفة "الشيوعي". وفي عام 1973 عرضه الفاتيكان لـ "تجربة" خاصة، بل واعتقلته السلطات في عام 1976 بتهمة "النشاط التخريبي". لقد ساهم اسقف الهنود الحمر وانصاره لدرجة كبيرة في التغلب على العداء للشيوعية بين جماهير الكاثوليكيين وفي تعزيز التضامن بين العمال والفلاحين في الاكوادور والشعوب الاخرى في أمريكا اللاتينية، المناضلة من اجل تحررها.

حاولت الاوساط اليمينية استخدام زيارة البابا يوحنا بولس الثاني للاكوادور عام 1985 لتوطيد مواقعها. وعارضت فكرة وحدة الشغيلة في النضال من اجل التحولات الاجتماعية. إلا ان هذه المقاصد منيت بالفشل. فمئات الآلاف من الهنود الحمر ملأوا الشوارع والساحات والطرق المؤدية الى العاصمة، مطالبين بأن تهب

الكنيسة لنصرة الفقراء. وكتبت، آنذاك جريدة الحزب الشيوعي في الاكوادور المركزية "بوابلو" تقول: "انهم كثيرا ما يتهموننا نحن الشيوعيين، باننا اعداء للمؤمنين، إن ذلك كذب في كذب. ما نحن إلا اعداء لاستخدام الدين من قبل الطبقات الحاكمة التي تحاول اخماد لهيب نضال الشعب في سبيل مصالحه. اننا نثق بالتعاون بين الشيوعيين والمسيحيين الذين يناضلون من اجل حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية، وضد الحرب وسباق التسلح..."(21).

لقد اتحد قسم من الكاثوليكيين في الاكوادور سياسياً في ما يسمى حركة المسيحيين اليساريين الثورية، التي تعتبر حليفة للشيوعيين. وقسم كبير من المؤمنين يصوتون في الانتخابات لصالح الحزب الشيوعي والاشتراكيين. وليس من قبيل المصادفة ان جميع المرشحين المنتصرين في الانتخابات الاخيرة في محافظة تشيمبور اسو حيث يسكن ويعمل اليوم بروانيو هم من الشيوعيين او الاشتراكيين.

تلعب الكاثوليكية دوراً ملحوظاً في كولومبيا ليس في المجال الديني الصرف فحسب، بل وكذلك على مستوى سلطة الدولة، لأن هذه البلاد "كونكورداتا" (22) مع الفاتيكان. وفي الكثير من النواحي تشربت هذه الكونكورداتا بالروح التقليدية اكثر من الاتفاقيات المماثلة حتى مع بلدان كاثوليكية اصلية مثل اسبانيا والبرتغال.

تبرز في الكنيسة الكاثوليكية الكولومبية ثلاثة اتجاهات اساسية: الاتجاه اليميني المتطرف الرجعي الذي يوحد بعض الاساقفة وقساوسة الجيش الذين يسترشدون بمبدأ الوطني السيئ الصيت وكذلك القساوسة "التقليديين" وضمن هذا الاتجاه اتباع سافرون للظلاميين كالأب ليفيغر الذي تروج افكاره على نطاق واسع في كولومبيا، ولعدد كبير منهم صلات بـ "ابوس ديي" (23). والاتجاه الثاني هو الاتجاه المحافظ الاصلاحي الذي يمثل غالبية رجال الدين. وإذ يعارض هذا الاتجاه التجديديين على المكشوف او بصورة مستترة، يشكل العقبة الاساسية في طريق انتشار لاهوت التحرير. وأخذ الاصلاحيون "المعتدلون" على عاتقهم مهمة تشهيرها اللاهوتي، مستندين في ذلك الى المساعدة المالية من مختلف "الصناديق" المسيحية في جمهورية المانيا الاتحادية. واخيرا، يأتي التيار الثالث الاكثر قرابة من القوى اليسارية ويعتبر اتجاها تجديدياً حقاً. ويرتبط بأكثر مسلمات لاهوت التحرير بنزعة راديكالية. وان المشاركين فيه، ومنهم فريق من القساوسة الذين انخرطوا في نضال الشعب المسلح، كثيراً ما يتخذون في نشاطهم مواقف تقدمية – من الديمقراطية المتسقة الى الثورية.

ان العناصر المحافظة الاصلاحية تشكل الغالبية في الكنيسة الكولومبية. ولكن هذه الغالبية، المعادية للاهوت التحرير والمتربية على المعاداة للشيوعية، ترى ان حركة الانصار والنشاط "التخريبي" في البلاد لا يمكن "استئصالهما" بقوة السلاح وحده. ولهذا، فإن هذه الغالبية هي ايضا تقترح تحقيق الاصلاح الزراعي والاجراءات الاخرى التي من شأنها ان تضمن للسكان حياة سليمة والتشغيل والحق في التعليم والمسكن والخدمات العامة.

ويرى الشيوعيون الكولومبيون ان وحدة كل القوى المناضلة من اجل التحولات يمكن

تحقيقها على أسس مختلفة من الاعمال المتفق عليها عند تطابق مؤقت للاهداف الى النضال المشترك في سبيل حل المهمات الطويلة الامد مع استخدام الاتفاق في المسائل الملموسة التي تطرحها الحياة. وعليه، فان الحزب الشيوعي الكولومبي يسعى الى ايجاد لغة مشتركة حيث أمكن مع جميع الذين لهم مصلحة في المحافظة على الهدنة (24) والتحولات الاجتماعية السياسية، المساعدة على اقامة سلطة الشعب في كولومبيا وسيرها نحو الديمقراطية المتقدمة. وبين هذه القوى تحتل الاوساط المسيحية، وضمنها بعض ممثلي المقامات الكهنوتية العليا، مكانة لا يستهان بها.

تختلف الحياة السياسية في فنزويلا بصورة جوهرية عنها في كولومبيا، ففي فنزويلا، التقاليد الدنيوية قوية جداً. إذ ان تقسيم الوظائف التام بين الكنيسة والدولة خاصية تميز هذه البلاد منذ اكثر من نصف قرن. والزواج المدني والطلاق والتعليم تحت اشراف الدولة، وهي وقائع لا يعارضها احد من الكاثوليكيين. ويدين الشعب الفنزويلي بالكاثوليكية على ''طريقته الخاصة''، اي بلا تعصب. وفي مسائل الاعتقاد الديني، الفنزويليون متسامحون الى اقصى حد، الأمر الذي يفسح المجال كثيراً لعمل الحزب السياسي والايديولوجي بين المؤمنين.

ويقيم الحزب الشيوعي علاقات مع الكنيسة الكاثوليكية ترتكز على احترام متبادل خال من أية تهجمات من اي طرف على الطرف الآخر. ويمكن اعتبار هذه الاتصالات حسنة مع بعض الاوساط الكنسية. ولا يدور الحديث حول ذلك القسم من الكنيسة، الذي ربط مصيره بلاهوت التحرير، اي الاكليروس ''المنتفض'' والتجديدي فحسب، بل وكذلك حول القساوسة الذين قليلاً ما يتعرضون للأفكار الجديدة، ولكن يواصلون التقيد بالتقاليد الليبرالية في الكاثوليكية الفنزويلية.

وإذ، يُقدر الحزب الشيوعي الفنزويلي عالي التقدير التعاون مع الشخصيات الدينية المشار اليها في المسائل الملموسة، وإذ يعمل الحزب في مصلحة الشعب، يرفض المناورات الخفية والاعلانات الديماغوجية إزاء الكنيسة. ولا تعتبر مادية الشيوعيين وعدم ايمانهم عقبة كأداء في طريق نشر الماركسية في الحركة العمالية الفنزويلية ولا يعرقلان ممارسة سياسة التحالفات العريضة مع القوى الديمقراطية كافة. هذا هو نهج المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفنزويلي (تشرين الاول 1985)، الذي من شأنه ان يساعد البلاد في التغلب على الازمة الشديدة التي اصابتها في السنوات الاخيرة.

الوضع في امريكا الوسطى وحوض الكاريبي

اثارت خبرة التعاون بين المسيحيين والماركسيين، المكتسبة في كوبا الاشتراكية، اهتماماً خاصاً لدى المشاركين في ''الطاولة المستديرة''.

ورغم ان الاسقفية الكاثوليكية في هذه البلاد، التي كانت قبل بداية الستينات مرتبطة بالولايات المتحدة واسبانيا فرانكو، أيدت في البداية الثورة المضادة ودانت علناً تنفيذ الاحكام بالجلادين والقتلة من عشيرة باتيستا وعارضت الاصلاح الزراعي،

أبدت القيادة الكوبية الثورية منذ ذلك الحين احتراماً للمشاعر والحاجات الدينية للمؤمنين، وضربت امثلة على ضبط النفس وهدأت الشعب المستاء من موقف المقامات العليا في الكنيسة. وقامت السلطة الجديدة بكشف القناع عن ممثليها والكاثوليك العاديين الذين تستروا في نشاطهم المعادي للوطن بدوافع دينية، إلا ان المعابد في كوبا لم تغلق ولم توضع العراقيل في طريق تأدية الشعائر الدينية.

وبعد التغلب على المجابهة الحادة التي حفزتها الاكليريكية الرجعية، ابتدأت عملية تدريجية لتكيف الكنيسة مع اوضاع كوبا الجديدة لا تخلو من تناقضات وترددات. ويمكن ان نرجع أول مظاهر هذه العملية الى عام 1969، حين ناهضت الكنيسة محاصرة الولايات المتحدة لكوبا. أما الكنيستان الانجيلية والبروتستانتية المتمثلتان في البلاد بحوالي خمسين جماعة دينية غير متجانسة تماماً من حيث قوامها، فكانت منذ البداية تميل الى المواقف الليبرالية والتقدمية. كما طرحت الثورة الكوبية مسألة احترام الشعائر الدينية غير المتعلقة بالمنظمات الدينية، ولكن المنتشرة جدا في العهد الاستعماري بين افقر فئات السكان.

مكنت هذه السياسة في الدفاع عن الثورة وتطويرها من توحيد مختلف القوى التي قادتها خبرتها الخاصة الى الماركسية اللينينية. وهذه تجربة ذات عبرة كبيرة نظراً للاوضاع الحالية في امريكا اللاتينية. وثمة بين قادة كوبا اليوم شخصيات من رجال الدين الكاثوليكيين والبروتستانتيين سابقاً او نساء كنّ اعضاء في منظمة ''مع الصليب في سبيل الوطن'' التي اسست بهدف فضح مكائد المقامات العليا في الكنيسة والاكليريكية الرجعية. هذا، ويتضمن دستور الجمهورية مبادئ حرية الاعتقاد وتأدية الشعائر الدينية. ومن اجل تطبيق هذه المبادئ توفر كذلك مستلزمات مادية مناسبة.

في نيكاراغوا، بعد الاطاحة بدكتاتورية سوموسا فضلت المقامات العليا في الكنيسة الكاثوليكية بكل قوامها تقريباً ان تعقد تحالفاً مع المعارضة المرتبطة في ظروف نيكاراغوا ارتباطاً وثيقاً بالثورة المضادة. وملهم هذه القوى هو رئيس اساقفة ماناغوا م. اوباندو- اي- برافو الذي تمت ترقيته مؤخراً الى رتبة الكاردينال مكافأة على اعماله المشبوهة. ولا تخفي الاسقفية المحلية موقفها الانتقادي من الجماعات المسيحية الدنيا، وتطالب بسحب القساوسة من الحكومة، وبينهم وزير الخارجية م. د. اسكوتو ووزير الثقافة أي كاردينال. ويؤيد هذا النهج مجمع الاساقفة في امريكا اللاتينية والفاتيكان.

كتبت مجلة ''سوليداريداد'' الكولومبية في هذا الصدد تقول: ان موقف يوحنا بولس الثاني من نيكاراغوا يتباين بصورة حادة مع قبوله المتسامح بكوبا. لقد قبل الثورة الاشتراكية الكوبية كظاهرة لا رجعة فيها. ويرفض في الوقت نفسه التسليم بالإرادة التي اعرب عنها بصورة راسخة شعب نيكاراغوا الذي اعتزم هو الآخر القيام بثورة. ويبرز سؤال: ما هو مرد هذا الاختلاف في الموقف؟ يخيل للمرء ان روما تنطلق من دوافع سياسية صرفة وليس من دوافع انجيلية ..'' (25).

بيد ان دور المقامات الكاثوليكية العليا في

نيكاراغوا، رغم كل تعقد العلاقات المتبادلة بين الدولة والكنيسة، لا يمكن اعتباره ابداً دورا حاسما، ذلك ان الجماعات المسيحية الدنيا المتحدة في ما يسمى الكنيسة الشعبية والعديد من القساوسة المتمثلين في مؤسسات الدولة وحتى في الحكومة، كما ذكرنا، يساهمون بقسطهم العظيم في قضية الدفاع عن الجمهورية واعادة تعميرها.

أما سياسة الساندينيين في المسألة الدينية فصاغها رئيس البلاد دانيال اورتيغا بوضوح إذ قال: لم تنتقص الثورة ولن تنتقص ابدا من حرية الدين وتأدية شعائره، الأمر الذي تشهد عليه الصلوات العامة اليومية التي لا تصطدم بأية عراقيل. واضاف الزعيم النيكاراغوي قائلا: " ولكننا لن نسمح ان يستخدموا هذه الحرية يوما لتبرير الارهاب والاعمال المضادة للثورة"(26). وتجري حكومة الانبعاث الوطني في الوقت الحاضر، انطلاقاً من هذه المواقف بالذات، مفاوضات رسمية مع الاسقفية المحلية والفاتيكان.

تتبع الاسقفية المحلية في السلفادور عموماً الخط الموالي للولايات المتحدة وتؤيد نظام دوارتيه المعادي للشعب. ومع ذلك، فان سياسة جبهة فارابوندو مارتي للتحرر الوطني – الجبهة الديمقراطية الثورية (27)، لاقت تفهماً لدى بعض الاساقفة في مجرى الحوار من اجل الخروج من النزاع المسلح الذي يخرب البلاد. واصبح رئيس اساقفة سان سلفادور أ. ريفيرا – اي – داماس وسيطا بين الطرفين المتحاربين.

ولعبت الجماعات المسيحية القاعدية التي نشأت في السلفادور في الستينات دوراً ملحوظاً في تلاحم الشغيلة التنظيمي. وفي عام 1980، نشأ ما يسمى المركز التنسيقي للكنيسة الشعبية. وإذ اتبع المركز الاسقفية، كان في الوقت نفسه ينسق نشاط الجماعات ورجال الدين الذين ربطوا مصيرهم لـ"الاختيار لصالح الفقراء". وكان يمثلهم المرحوم رئيس الاساقفة أ. روميرو الذي قتل بالرصاص في اثناء القائه الموعظة. وكان يدعو الجنود الى عدم اطاعة الاوامر حين يجبرون على التنكيل بالشعب.

تتصارع الآن في السلفادور سلطتان: احداهما السلطة القديمة، الاستغلالية التي تتراجع بالتدريج عن مواقعها، والسلطة الجديدة الثورية التي تسيطر في قسم كبير من البلاد وتوسع مجال تأثيرها. وثمة في المناطق المحررة هيأة ادارية محلية اخذت على عاتقها تنظيم التعليم العام والعناية الصحية والانتاج والدفاع الذاتي. ويقدم لها مساعدة كبيرة القساوسة والرهبان والمؤمنون العاديون. وعليه، فإن الكنيسة في السلفادور منقسمة على نفسها عملياً ايضاً. وان المنظمات السياسية الخمس التي تشكل جبهة فارابوندو مارتي تراعي بصرامة مبدأ احترام العقائد الدينية. وتتوفر في المنطقة التي تسيطر فيها جميع الظروف الضرورية لتأدية شعائر الكنيسة. وتساهم الاوساط الدينية التقدمية مساهمة هامة في حل معضلات البلاد، إذ تنظم مساعدة انسانية للسكان من قبل مختلف الكنائس في الولايات المتحدة الامريكية واوربا.

وتتمتع الكنيسة المحافظة الى حد ملحوظ في كوستاريكا بنفوذ كبير وتلعب دورا معاونا للطبقات المسيطرة. فتؤيد، مثلاً، الآن حملة معادية للثورة شنها في نيكاراغوا الكاردينال اوباندو اي برافو، واضطلعت في حملة

انتخابية، جرت في بلادها كوستاريكا، بدور قوة ضاربة للرجعية، ودعت الى عدم التصويت لصالح الشيوعيين وابداء الحد الاقصى من الخضوع والطاعة. ولكن ذلك لا يمنعها من ان تقوم تحت ضغط النضالات الشعبية الجماهيرية، بوظيفة الوسيط بين الشغيلة وارباب العمل وابداء تفهم معين لمقترحات السكان ومتطلباتهم.

ويولي حزب طليعة الشعب في كوستاريكا اهتماماً خاصاً للعلاقات مع رجال الدين، دون ان يستثني من عدادهم ذوي المقامات العليا. ذلك ان مصالح المسيحيين المنظمين والشيوعيين تتفق حين يدور الحديث حول النضال في سبيل السلام والتضامن الاممي والدفاع عن حقوق الانسان او الاعمال المشتركة في المنظمات العمالية والفلاحية الجماهيرية المناضلة من اجل تحسين الظروف المعيشية وغيرها من مطالب الشغيلة.

ان عدد رجال الدين في هندوراس غير كبير بالمقارنة مع سائر بلدان امريكا اللاتينية؛ اذ يوجد قسيس واحد لكل 15 الف نسمة من السكان، بينما يوجد في السلفادور المجاورة، مثلا قسيس واحد لكل 8 آلاف نسمة. وفي نهاية الستينات وبداية السبعينات، نشأت في الجمهورية شبكة واسعة من الجماعات المسيحية الدنيا التي تؤيد بحزم مطالب الفلاحين حول الاصلاح الزراعي. وتحت قيادة الاسقف ن. دانتونيو تم وضع برنامج لاعداد زعماء هذه الجماعات سماه الملاك العقاريون "برنامجاً شيوعياً".

اتخذ اصحاب اللاتيفونديات والجيش عددا من اجراءات التنكيل بالقساوسة التقدميين والفلاحين. فقتل 12 مؤمناً (بينهم امرأتان) واثنان من رجال الدين في مجزرة دبرت في 25 حزيران عام 1975 في مركز سانتا كلارا لاعداد الفلاحين الديني، وفي ضيعة لوس اوكونيس من محافظة اولانتشيو. كما تعرض للملاحقات والرقابة المبادرون في تدريس اعضاء الجماعات المسيحية الدنيا عن طريق الراديو، والموظفون في مراكز اعادة اعداد المؤمنين والمنظمات الوطنية الاخرى ذات الطابع الديني. وكان رد فعل الاساقفة على التهجمات على الكنيسة وجلاً جداً.

وتعارض المقامات الكهنوتية العليا عموما النزعات الجديدة التي ظهرت في الكاثوليكية الهندوراسية بتأثير من لاهوت التحرير، وكثيرا ما تقف مواقف رجعية من القضايا الرئيسية التي تهم البلاد والمنطقة كلها. وفي الوقت نفسه يقوم العديد من رجال الدين بعمل كبير في مجال تقديم المساعدة للاجئين السلفادوريين ولأولئك الهندوراسيين الذين طردوا من منطقة الحدود حيث تجري الحرب غير المعلنة ضد نيكاراغوا. ويتعاونون مع المنظمات الشعبية المناضلة في سبيل حقوق الانسان والسيادة الوطنية والسلام. ويرى رجال الدين من المراتب الدنيا بوضوح متزايد من هم المسؤولون الحقيقيون عن تردي الوضع الاقتصادي الداخلي واشتداد الخطر المخيم على السلام في امريكا الوسطى. كما ان تغير الامزجة الفكرية للذين يشكلون اسس الكنيسة الكاثوليكية الهندوراسية يؤثر لا محالة في آراء اقطاب الكنيسة، بضمنهم بعض الاساقفة من الذين يميلون الى تفهم ضرورة التحولات الاجتماعية.

وفي غواتيمالا، حيث بلغ افقار جماهير

الفلاحين بعد التدخل الامريكي الشمالي في عام 1954، ولا سيما في المناطق الجبلية، مقاييس خطرة، اخذت تنشأ جماعات مسيحية دنيا في مرحلة مبكرة نسبياً. ففي اعوام 1965 - 1970، شرع المسيحيون في التنظيم التعاوني من اجل تحسين معيشتهم. وهب الآن المؤمنون اعضاء الجماعات المسيحية الدنيا ضد التنكيل والاستغلال. وبعد ان احتل الجيش الحكومي المناطق الداخلية من البلاد، انضمت الجماعات المسيحية القاعدية الى الحركة الثورية. ويبلغ عدد اعضاء بعض الجماعات 1500 - 1800 شخص. وتنظر في اثناء انعقاد جمعياتها في مسألة المشاركة في العمليات القتالية وتبت عن طريق التصويت بمن يجب ان يحملوا السلام، ومن ينبغي عليهم ان يقوموا بالعمل في الحقل.

ادى كل ذلك الى استقطاب عام بين قوى البلاد الدينية، واتخذت الرجعية تدابير "لتعزيز" المنظمات اليمينية التي كادت ان تضمحل، ومنها "اوبوس ديي" وشتى انواع الدورات المسيحية والطوائف الدينية المعادية للشيوعية. وبلغ الأمر مداه حيث اسس احد الدكتاتوريين المتأخرين، ريوس مونت "كنيسة" خاصة به وقريبة من انصار النزعة الدينية الاصولية في الولايات المتحدة. وكانت ترمي الى هدف مزدوج: التغلغل في صفوف المؤمنين ذوي الميول الثورية وكذلك تأييد التنكيل وتبريره.

الا ان الاسقفية الغواتيمالية، التي لم ترغب في انحطاط سمعتها، اضطرت الى اللجوء احيانا الى فضح اكثر اعمال الرجعية كراهة بين السكان. وعلى سبيل المثال، انتقد رئيس اساقفة غواتيمالا ب. بينادوس ديل باريو حكومة الولايات المتحدة لأنها ايدت برامج تعقيم الشغيلة على نطاق واسع من مناطق البلاد الوسطى والشمالية الغربية (28).

وفي جمهورية الدومينيكان ايدت الكنيسة الكاثوليكية على طريقتها، خلافاً لغالبية المنظمات السياسية اليمينية، بعض مطالب الجماهير الشعبية المتعلقة بأوضاع الشغيلة الشاقة في صناعة السكر والزراعة، وأدلت بتصريحات لصالح النضال التحرري الذي يخوضه شعب هاييتي المجاورة. واعرب مجمع الاساقفة في الدومينيكان عن ارتياحه للدور الايجابي الذي لعبته الكنيسة الكاثوليكية في هاييتي في الاطاحة بدكتاتورية دوفالييه واستحسن رفض العمال الموسميين في هاييتي الاستكانة للعمل الشاق الذليل في مصانع السكر الدومينيكانية، وأيد حق شعب هاييتي في تقرير المصير. واقترح من اجل اجراء الاصلاح الزراعي، مصادرة الاراضي البور وتوزيع اراضي الدولة على الفلاحين.

رحب الحزب الشيوعي في الدومينيكان بهذا الموقف للهيئة الكهنوتية وأيده، مشيراً في الوقت نفسه الى الطابع المحدود لاقتراحات الاسقفية، مثلاً، في قضية الارض. وأشار بخاصة الى الواقع المتمثل في ان المقامات الكاثوليكية العليا تتبنى "اسلوباً جديداً في السلوك ولغة جديدة" يناسبان "متطلبات العصر"(29).

وفي بنما والمكسيك تتكرر الحالة بصورتها العامة للاوضاع الناشئة في جمهوريات أمريكا الوسطى، حيث لم تعد السلطات الكنسية قادرة على اغماض العين عن القضايا التي تهم شعوبها، وحيث تتعاون "الجماعات المسيحية" ورجال الدين من

المراتب العليا مع السكان المعدمين بمزيد من التوثق والنشاط. وحسبنا ان نضرب مثالين على ذلك: لقد اعلنت الاسقفية المكسيكية ان تجميد الدين الخارجي هو الوسيلة الوحيدة لانقاذ البلاد من الاخطار الداهمة، وتنتقد الكنيسة البنمية الناس الذين يعلقون يافطة "شيوعي" على كل نصير للتغيرات الاجتماعية.

اما بلدان حوض الكاريبي الناطقة باللغة الانكليزية فتتميز فيها الصورة الدينية العامة بطيف اوسع من الالوان. واذا كانت المسيحية تتغلب هنا ايضاً، فإن الدور القيادي فيها يعود الى الكنيستين البروتستانتية والانكليكانية، لا الكاثوليكية السائدة في امريكا اللاتينية. وفضلا عن ذلك، تنتشر في المنطقة مذاهب روحانية وبعض المعتقدات الشرقية والاسلام. ومرد كل ذلك الى اختلافات في التطور الثقافي التاريخي لأمريكا "الرومانية" وأمريكا "الانكلوسكسونية". وكانت القضايا التي تعرضت لها "الطاولة المستديرة" تمس كذلك شعوب حوض الكاريبي الناطقة باللغة الانكليزية، إذ انه من المعروف جيدا ان التناقضات الداخلية عامة ولاهوت التحرير خاصة تميز سائر فروع المسيحية ايضاً.

يسترشد الشيوعيون في جامايكا في علاقتهم مع المؤمنين بفكرة اساسية تقول بضرورة عزل العدو الرئيسي الذي هو الامبريالية والرجعية المحلية. ويعززون عرى التعاون مع فئات المؤمنين الديمقراطية في النضال ضد الحرب وحل قضايا الوطن الملحة. وساهم عدد كبير من المسيحيين الديمقراطيين في اعمال لجنة جامايكا للدفاع عن السلام، كما شارك مع "مؤتمر الكنائس الكاريبي" في ندوة دراسية للقوى المحبة للسلام. وساهم في هذه الندوة ممثلو جميع التيارات السياسية في البلاد، 30 منظمة اجتماعية وجماهيرية و10 كنائس مختلفة، الأمر الذي يسمح بالحديث حول الابعاد الوطنية الحقة لنشاط لجنة جامايكا المذكورة.

لقد لعبت الكنيسة في غويانا، ولا سيما الكنيسة الكاثوليكية، دوراً سلبياً في النضال من اجل الاستقلال عن التاج البريطاني، إذ دعت الى معاداة الشيوعية وأيدت النظام الاستعماري. اما الآن، بعد مرور عشرين سنة على نيل البلاد الاستقلال، فقد حدثت تغيرات في موقف رجال الدين، فشجبوا تزييف الانتخابات العامة في كانون الاول عام 1985، الامر الذي تعرض من جرائه بعض شخصيات الكنيستين الكاثوليكية والانكليكانية للملاحقة من قبل السلطات. وتعارض الاوساط الدينية انتهاك الحكومة لحقوق الانسان. ويفسح كل ذلك في المجال للحوار والتعاون بين الشيوعيين والمؤمنين في سبيل انتصار الديمقراطية الحق في غويانا.

ولكي نستكمل الوصف العام للاوضاع الدينية في منطقة امريكا الوسطى على الصورة التي تبدت في سياق المناقشة في "الطاولة المستديرة" نذكر ان الجمعية العامة للسكرتارية الاسقفية الاقليمية نعتت في وثيقتها "النظرة الرعوية الى وضع الانسان في امريكا الوسطى" الفقر وعنف الدولة والتخلف الاقتصادي بأنها تشكل البلايا الرئيسية التي يصطدم بها السكان المحليون. وجاء في الوثيقة ان اقتصاد المنطقة وقع في تبعية شديدة لرأس المال الدولي الذي يتصرف

بلا رحمة بمصائر الشعوب، إذ يحرمه من امكانية حل قضاياه الخاصة. كما تتعرض للانتقاد سياسة النهب التي يمارسها صندوق النقد الدولي. ودعا رئيس الاساقفة أ. ريفيرا- اي- داماس (السلفادور) و ب. بيناغوس ديل باريو (غواتيمالا)، اللذان ساهما في اعمال جمعية المؤمنين الى الصلاة من اجل الا تقتحم الولايات المتحدة بلداً من بلدان امريكا الوسطى(30).

ان العرض العام المختصر للعلاقات المتبادلة بين الكنيسة والمؤمنين والقوى اليسارية يمكننا من التأكيد أن الجهود الرامية الى تعزيز العملية الديمقراطية في أمريكا اللاتينية وحوض الكاريبي حيث يرزح ملايين الناس تحت وطأة الفقر المدقع تلاقي اليوم تأييداً من اكثر اوساط الكنيسة تبصراً وبضمنها بعض ممثلي قيادتها. وهذا ما يفسح موضوعيا في المجال للحوار والتعاون بين الشيوعيين والمؤمنين ويرفعهما الى مستوى اعلى. الا ان الامكانات الجديدة تقدم في الوقت نفسه مطالب جديدة الى الاحزاب الشقيقة وسائر القوى الثورية والديمقراطية المناضلة في سبيل السلام والاستقلال والتقدم الاجتماعي.

(*) الثقافة الجديدة، العدد 183/ آذار 1987، ص 60 - 75.

المصادر

1 - قال موريس توريز (السكرتير العام الاسبق للحزب الشيوعي الفرنسي – المحرر) في خطابه الذي القاه امام اذاعة باريس في 17 نيسان 1936: " نمد نحن غير المؤمنين يدنا اليك، ايها الكاثوليكي، عاملا ام مستخدما، حرفيا ام فلاحا لأنك أخ لنا وتشغلك الهموم ذاتها التي تشغلنا". المحرر.

2 - انظر "وثائق اجتماع ممثلي الاحزاب الشيوعية والعمالية" موسكو 1960، ص 29 باللغة الروسية.

3 - انظر "الاجتماع العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية" براغ 1969، ص -27 28، باللغة الروسية.

4- امريكا اللاتينية في النضال ضد الامبريالية ومن اجل الاستقلال الوطني والديمقراطية ورفاهية الشعب والسلام والاشتراكية" موسكو 1975، ص -44 45.

5- fidel y la religion conversaciones con frei betto, 1985.

6- للمزيد من التفاصيل عن لاهوت التحرير انظر: الفارو اوفييدو، ستيبان ما مونتوف "لاهوت التحرير" هل هي "هرطقة" جديدة؟ "قضايا السلم والاشتراكية" 1986 العدد 3. المحرر.

7- لينين، المؤلفات الكاملة المجلد 4، ص 228 باللغة الروسية.

8- , p 263 fidel y la religion

9- الديساروليه (من كلمة "التطور" الاسبانية نظرية اصلاحية برجوازية نشأت في امريكا اللاتينية بعد الحرب العالمية الثانية وانتشرت على اوسع نطاق في الخمسينات والستينات. كانت تهدف الى التغلب على التأخر في بلدان القارة عن طريق التجديد التدريجي للبنى الاقتصادية في اطار الرأسمالية. المحرر.

10- لينين. المؤلفات الكاملة، المجلد 12، ص 146، باللغة الروسية.

11- المصدر ذاته، المجلد 17، ص 422.

12- fidel y la religion , 333.

13- واهمها كتاب روساليس "المسيح و(أو) الماركسي؟ الشيوعيون والدين". لمزيد من التفاصيل انظر، ايستيبان اونيا. هل يمكن ان نكون معاً؟ "قضايا السلم والاشتراكية" 1985، العدد 7. المحرر.

14- uma alternative a para a crise brasileira. Sao Paulo, 1984, p 98.

15- للمزيد من التفاصيل حول الجماعات المسيحية الدنيا انظر: "قضايا السلم والاشتراكية" 1986، العدد 3. المحرر.

16- للمزيد من التفاصيل انظر: اورلاندو ميلاس. النضال ضد الفاشية والكاثوليك الشيليين. "قضايا السلم والاشتراكية" 1984، العدد 9. المحرر.

17- adelante, 1986, p 4.

18- granma, 14 de febrero da 1986.

19- informe latinoamericano, 1986.

20- resolucion politica del x del congreso del pantido comunista del Ecuador. 1982, p 16 , 17.

21 el pueblo , 1985, p 3.

22- اتفاقية بين الفاتيكان وحكومة دولة معنية حول وضع الكنيسة الكاثوليكية وحقوقها وامتيازاتها. المحرر.

23- "اوبوس ديي" منظمة سياسية دينية اسست في عام 1928 بهدف " شن الحملات الصليبية الجديدة على الشيوعية". المحرر.

24- المقصود اتفاقية الهدنة التي تم التوقيع عليها في 28 أيار (مايو) 1984 بين حكومة كولومبيا وتشكيلات الانصار. يعتبرها الشيوعيون اول خطوة في طريق اشاعة الديمقراطية في البلاد. المحرر.

25- solldaridad , 1986, p 46.

26- granma, 1986.

27- جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني نشأت عام 1980، وهي تحالف عسكري سياسي بين خمس منظمات ثورية، يسارية وبضمنها الفصائل القتالية للحزب الشيوعي في السلفادور. فالجبهة الديمقراطية الثورية اتحاد سياسي اوسع بكثير من حيث قوامها، يتضمن ما يزيد على 100 منظمة سياسية ونقابية واجتماعية وغيرها من المنظمات الجماهيرية التي تعارض النظام الصنيعة. المحرر.

28- granma, 28 de adosto, 1985

29- habian los comunistas , p 4.

30- cono sur press, 1984.

نصوص مترجمة

بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد كارل ماركس
فلسفة الممارسة (1)

بقلم: انغار سوتي*
ترجمة: رشيد غويب

في الخامس من ايار سيبلغ عمر ماركس 200 عاما. ان نظريته هي مفتاح لمعرفة وتغيير العالم. لقد أهدى كارل ماركس للعالم حركة تفكير لا تساعدنا فقط على فهم العالم الذي نعيش فيه بشكل أفضل فقط، بل لنشكله بأنفسنا أيضاً. وافترض، ولنتحدث بلغة غوتا في "فاوست"، انه ساعد على كشف "ما يجعل العالم متماسكا في اعماقه". وبذلك صاغ ادعاء بالحقيقة. ولفترات طويلة لم يكن ذلك شائعا. اما الآن، حيث يبدو انقاذ البنوك، والحروب الساخنة، والتفاوتات الفاحشة حقيقية، وهناك اخيرا مناقشة حول ما هو واقعي وحقيقي. بل وحتى في الفن هناك عودة للواقعية.

كان افتراض ماركس الأساسي هو وجود قوانين الطبيعة التي اكتشفها، المثير لاعجابه تشارلز داروين. وفي مقابل ذلك، أراد اكتشاف قوانين المجتمع، واتجاه حركة قوانين البشر في المجتمع، التي سارع التصنيع الرأسمالي الى تطويرها بشكل لا يصدق. وهذا ما ادركه ماركس: فنحن البشر لسنا، كما يفترض علم النفس التطوري المبتذل (البدائي) قردة نرتدي بدلات حديثة، بل يمكننا التصرف بحرية في الظروف الطبيعية. سلوكنا لا تحدده العوامل الوراثية مسبقا. نحن الذين ننشئ الطبيعة، حيث تعمل الاجناس البشرية على تغييرها باستمرار. لقد رأى فريدريك إنجلس، صديق ماركس ورفيق دربه، هذا الاختلاف عن القرود، وأكد دور العمل في تجسّيده(2). يمكن للقرود ان تستخدم الادوات، وربما يمكنها غرس الاغصان في تلال النمل الابيض ومن ثم لعقها. ويمكن للنسر المصري ان يرمي حجرا على البيوض لكسرها، ومن ثم شفطها. لكن الإنسان لا يحتفظ بأدواته ويهتم بصيانتها فحسب، بل يقوم بواسطة هذه الادوات، بصنع أدوات جديدة. ويمكن للمرء ان يقول مع عالم النفس الماركسي كلاوس هولتسكمب: ظهور تاريخ الاجناس "قفزة نوعية" في الانسان(3) ومعه "حرية التعامل الذاتي" وامكانية التحرر(4).

منهج ثوري

لقد كان ماركس مقتنعا بأن الرأسمالية ليست نهاية التاريخ. كانت تلك خطوة

ضرورية لأنها كشفت عن قوة المجتمع البشري (باعتبارها شروطا مادية لحياة حرة للجميع) وصولا الى نقطة تطورت فيها الى قوة تدمير، وعلى الناس التخلص منها. ورأى انجلس في معرفة القوى الدافعة، التي تجعل من عالم ما بعد الرأسمالية ممكناً، بل ضروري، إذا لم تتحول الرأسمالية إلى بربرية - فاشية، حروب عالمية، إبادة جماعية وانهيار إيكولوجي. وتتحول الاشتراكية، التي وصف وسيوصف بها هذا النظام، من يوتيبا الى علم(5). ان المنهج الماركسي منهج ثوري. لقد كان العلم البرجوازي التقليدي تعبيرا عن الوعي الذاتي الرأسمالي البورجوازي. فكر ويفكر ممثلوه انطلاقا من الفرد. وينطبق الشيء نفسه على مفاهيم الدولة الليبرالية البرجوازية. ومن الطبيعي ان للناس حقوقا فردية، ولم يعد بعد الآن بمستطاع الدول وطبقة النبلاء الحاكمة تبرير سلطتها بالاعتماد على الله. لكن الفهم العلمي المرتبط بذلك ينقل لنا التصور، بمستطاع المرء تحجيم اشياء العالم بما في ذلك المجتمع الى اصغر نواتاتها. وردا على هذا - بعد الفلاسفة أرسطو، لايبنتز وهيغل- جاء الفكر الديالكتيكي الماركسي. ان الأشياء التي نواجهها في العالم تظهر لنا فقط كأشياء فردية ومعزولة وحسب. ويبدو الإنسان كفرد ذي خصائص ظاهريا ثابتة: الخير والشر، الإيثار والأنانية. ذات مرة، اعترض الكاتب المسرحي الأمريكي الماركسي توني كوشنر على ذلك: ''إن أصغر وحدة إنسانية غير قابلة للتجزئة هي في الواقع انسانين، وليس واحدا'' (6).

إن تفوق الماركسية على هذه الحركات الفكرية التي تفكر دائما في الأشياء، والناس..الخ، كعلاقات، تعبر عن نفسها في الفكرالسياسي. ان الليبرالية البرجوازية استمدت الدولة من الفرد. لقد نسبت للانسان صفات طبيعية، ما قبل مجتمعية، وغير تاريخية. ومن هذه الصورة للانسان، هذه الانطلوجيا، استمدت الدولة. ولهذا تسمى طريقة التناول هذه حركات فكرية استدلالية استنتاجية. توماس هوبز، على سبيل المثال، أراد دولة استبدادية. لكنه كان من وجهة نظر فكرية تاريخية ليبراليا، ولانه وضع مفهومه للدولة من الشخصية البشرية بدلا من الله. وحتى لا يقتل الناس بعضهم بعضا في السعي وراء مصالحهم المشروعة، يجب عليهم نقل حقوقهم الخاصة إلى الدولة المهيمنة التي تتصدى لحمايتها. أما خليفته ''جون لوك''، فقد انطلق من صورة إيجابية للجنس البشري وصمم دولة ليبرالية (حارس ليلي) في نفس الطريقة الاستنتاجية والاستدلالية والمنهجية الفردية (7). الليبرالية البرجوازية تقول هكذا ''الانسان جيد''. والمحافظة البرجوازية تقول ''الانسان سيئ''. وعلى أساس هذه الافتراضات، على سبيل المثال، ظهر شيء مثل نظام عقوبات ''هارتس4'' (حزمة قوانين اقرت في اطار سياسات الليبرالية

الجديدة التي اعتمدتها حكومة المستشار الالماني السابق "غيهرد شروردر"، قصلت المساعدات الاجتماعية الى ادنى حد، ووضعت شروطا صعبة للتمتع بها – المترجم)، والذي يستند بوضوح إلى نظرة تشاؤمية عميقة للجنس البشري، والتي بموجبها يستغل جميع البشر الأنظمة القائمة فقط لمصلحتهم الشخصية. والأنطولوجيات المماثلة غير المطروحة للنقاش هي أساس كل الاقتصاديات الكلاسيكية الجديدة homo oeconom-cus التي تجعل الإنسان ذرة أنانية لتعظيم المنفعة. وهنا يميل الفكر البرجوازي، وبدون امعان، الى تحييد الافكار المسبقة لطبقته وعصره، وهذا يعني، تاريخيا جعل التجارب الخاصة (الشخصية) وصفا عاما للكائنات. لهذا كتب هوبز خلال الحرب الأهلية الانكليزية صورته للانسان السيئ. ولهذ ايضا كتب لوك في السلام صورته للانسان الايجابي.

التفكير الديالكتيكي

لقد ردّ ماركس على هذا التفكير البسيط وغير التاريخي بالدياكتيك: الإنسان ليس ببساطة جيد ولا ببساطة سيئ. "الكائن البشري ليس تجريدا متأصلاً في الفرد"، بل "في واقع الأمر هو مجموع العلاقات الاجتماعية معا"(8). لقد اوضح المسرحي الماركسي برتولت بريشت هذه الطريقة الجدلية في التفكير: {ان جملة مثل "المطر جيد" او "المطر سيئ" هي بالتأكيد قصيرة جدا. فعندما يتساقط المطر، الذي تحتاجه البذور الشابة لكي لا تموت عطشا بغزارة، سيغرقها"(9). ان الاشياء متماثلة مع نقيضها، مع أضدادها، وعندما تفكر بها معا، هذا يعني انك تعتمد التفكير الديالكتيكي.

وعندما ننقل هذا الى حيز الدولة والمجتمع يعني أيضا، وبالقدر الذي نقرر فيه كنوع (أي جنس بشري) الكيفية التي نشكل فيها مجتمعنا، ونريد تنظيمه (لماذا، في الواقع ، هذا الشكل من اقتصاد الملكية الخاصة، نظام الاجور المنخفضة، وغير المضمونة بالنسبة للكثيرين؟ لماذا هذا الشكل من التجهيز الفردي – رفاهية شخصية – بمنازل ريفية وسيارتين، بغض النظر عما يقوله "المناخ" عنا)، يكون الانسان بالقدر ذاته جيدا او سيئا، تبعا للظروف التي يعيش بظلها. يمكن توضيح ذلك بمثال: هل توفر مؤسسة نقل في مدينة ما لعشرة من السكان، لأجل الوصول الى عملهم الذي يبعد بعض الكيلومترات، 12 دراجة او سيارة، او تقوم ببناء خط عام للسكة الحديد، عندها يستطيع أن يعيش هؤلاء الناس من الزاوية الافضل فيهم. اما اذا توفرت لهم 3 دراجات، فسنشاهد ما كان هوبز يخشاه: سيكون الانسان بالنسبة للانسان ذئبا. وبناءً على ذلك، من المهم إنشاء بنى يمكن للناس أن يظلوا فيها بشرا أو يصبحوا كذلك، اي يتعلمون التصرف بروح تضامنية انسانية. وبلغة بريشت، في النهاية البلد السعيد، هو ذلك البلد الذي لا ضرورة للناس فيه لامتلاك

"مزايا خاصة": "إذا كانت المؤسسات جيدة، لا يجب أن يكون الانسان جيدا بشكل متميز. وبالطبع، عندها تمنح له امكانية ان يكون كذلك"(10). وبالتالي، "وبشكل عام (...) أن كل بلد تكون فيه المزايا الخاصة ضرورية، يدار بشكل سيئ" (11). والآن بإمكان كل واحد التفكير بمدى جودة ادارة الرأسمالية في المانيا، في ان تُبذل جهود هائلة من مبادرات الترحيب بالناس الفارين من الحروب، وأن هناك ولائم خاصة لتأمين غذاء الناس الأكثر فقرا في بلد يمتلك ثروة هائلة، أو ان منظمات المساعدة الذاتية للمستأجرين تبذل جهودا كبيرة لمواجهة حيتان المؤجرين.

وهناك اسلوب علمي تقليدي آخر بالإضافة إلى التفكير الاستدلالي الاستنتاجي، الذي عارضه ماركس، هو مرة أخرى الوضعية الإيجابية، التي تريد المضي قدماً بطريقة تجريبية، أي أنها لا تستمد شيئًا، ولكنها تراقب وتصف الذرات فقط. وهذا الاسلوب يعاني من مشاكل عدة: اولا، ان الاشياء، كما قلت، هي في الواقع علاقات. ثانيا، حتى وان رفض المرء التصور الديالكتيكي، لا يمكن تصوير (استنساخ) العالم الكبير والمعقد المحيط بنا 1-1، وهي مشكلة تعرف نسبة لكاتب برتغالي بـ "مشكلة بورغس". والعلم ليس ممكنا بدون نظرية وتجريد مفاهيمي. ثالثا، وهو الأمر الحاسم، حتى لو كان العالم عبارة عن مجموعة من الذرات، وحتى لو كان بالامكان تصويرها بالكامل، فإن ذلك لن يقول أي شيء عن تطور الأشياء، والأشخاص ..الخ، والتي هي في الحقيقة علاقات. ولأنها في تدفق مستمر. ان اليرقة والفراشة وعلى اساس منطق الوضعية يجب ان تبدوان لنا كنوعين مختلفين من الحيوانات. ومن هذا تأتي مهمة وصف الأشياء في تطورها كعمليات، وأكثر من ذلك: شرح هذا التطور ومنطقه الداخلي. وبهذا فإن منهج جدلية التفكير مرتبط تلقائياً بالتاريخ.

وانطلاقا من هذا الفهم للعالم تأتي نتيجة سياسية مباشرة. ولنقولها بلغة الكاتب والملحن فرانس يوسف ديغنهارت (فنان شيوعي الماني معروف – المترجم) "لقد اصبحت كما هي، ولهذا السبب تتغير". ولهذا يصبح: "ما هو مؤكد، ليس اكيدا"، و"(هـ) كذا، لا يبقى الشيء كما هو"(12) ، ولأن الأمر هكذا، لم يكن هناك شيء، بعد نهاية الحرب الباردة، أكثر من تغييب للتاريخ وأدلجة من ادعاء "نهاية التاريخ"، كما فعل استاذ العلوم السياسية المحافظ الجديد في الولايات المتحدة، فرانسيس فوكوياما(13). في الواقع، ان التصور والأمل في ان الرأسمالية قد لا تكون نهاية التاريخ ليست خيالية. ان الأكثر خيالية هو الافتراض بأن الرأسمالية، التي ولدت قبل أقل من 500 سنة على بقعة صغيرة في العالم (إنكلترا) ثم انتشرت تدريجياً في جميع أنحاء العالم بالسيف والمدافع، والدبابات وديون تكميم الأفواه، ستظل إلى الأبد قائمة، او أنه لن يكون هناك في المستقبل شكل آخر للتنظيم الاجتماعي

للاقتصاد والمجتمع.
لا يتميز فكر ماركس فقط بالمنهج الجدلي التاريخي، بل يمتلك سمة أخرى، إنه مادي. وليس المقصود هنا أن ماركس لم يكن طوال حياته فقيرا، وكان يود أن يخزن الكثير من الأحذية أو الصور أو زجاجات النبيذ باهظة الثمن في منزله، خاصة وأن النبيذ في بيت ماركس لم يركن جانبا لفترة طويلة. المادية هنا تعني عكس الرؤية المثالية للعالم، والتي على اساسها يبني الانسان العالم في افكاره فقط. وان العالم موجود في خياله فقط. وادعى ممثلو اسلوب التفكير المثالي، مثل مدرسة ما بعد الحداثة الراديكالية، انه لا وجود لواقع حقيقي. وانه موجود فقط من التسميات اللغوية التي نطلقها. لقد ارادت هذه المدارس التي تبدو نقدية مدعية، ولكنها تلتحق بمدرسة الذاتية لليمين التاريخي المتطرف(14)، والمفرطة نظريا في ''تأثير الفردية'' لمجتمع التنافس الرأسمالي المنظم دوليا (15)، ارادت في الثمانينيات والتسعينيات، التخلي عن مطالبات ماركس بالحقيقة. وهذا اسعد المتسلطين جدا، في ان الاستغلال والاضطهاد، افكار متصورة ومتخيلة، او ذات وجهين. ولا يزال الجدل مستمرا عن العلاقة بين هيمنة ''ما بعد الحداثة النيتشوية اليسارية'' (جان ريمان) وصعود اليمين المتطرف. وردّ ماركس مرة اخرى على حركات الفكر المثالي في عصره: ليس الشكل، بل ''الوجود المجتمعي هو من يحدد وعي الانسان''(16). وبعبارة اخرى: إن التجارب التي يقوم بها الشخص، سواء أكان فقيراً ومهمشاً أو غنياً ومميزا، تحدد في نهاية المطاف آراءه ومواقفه وقيمه. ان ابناء العوائل الثرية لا يرون مشاكل التعليم، أو على الأقل لا يهتمون بها – النظام الثلاثي في المدارس، التكاليف الالزامية للمساعدة في الواجب البيتي، اجور الدراسة – او شح المساكن، لأنهم يتجاهون كيف يعيش الذين يطبخون طعامهم بأنفسهم، وينظفون مساكنهم، ويرعون ذويهم المرضى، وينقلون بريدهم ..الخ. بالمقابل ربما يطرح الفقراء السؤال هل ان جميع الامور تجري بعدالة، ويبحثون هذا السؤال بدقة، كما يفعل اليوم استاذ علم لاجتماع في جامعة هارفارد ماثيو ديزموند، الذي كتب كتاب ''اخلي قسرا''، لان عائلته عاشت تجارب الاخلاء القسري (17).

السؤال: مِن مَن – ولمن؟

ومن التفكير الديالكتيكي تأتي أهمية مصطلح ''المصالح''. ان الغاء الفقر يمثل بالنسبة للفقراء مصلحة موضوعية، وبالمقابل قد يكون مقلقا بالنسبة للأغنياء. وعندما ينظم الفقراء أنفسهم، أو يقتربون من الثراء بطريقة أخرى، ربما يتنابهم الخوف من الحشود، فيصبحون محافظين اجتماعيا. في حالات نادرة يخون الثري أو ذريته طبقته، وينمو خارجها وينحاز للفقراء.

في التفكير الذي ارتبط بماركس، ربط لينين فكرة المصالح المادية بسؤال مِن مَن - ولمن (18) هذا لا يعني شيئا سوى أن نسأل دائما: من المستفيد؟ من يستفيد من القانون، بمن يُلحق الضرر؟ من هو المطرقة، ومن هو السندان؟ مرة قال فرانس يوسف ديغنهارت، ان سؤال مِن مَن - ولمَن كان بالنسبة له ''سؤال صحيح للناظرين الى الجدار''، لانه مكنه في سن المراهقة من التشكيك في مسائل اساسية، وهو ''الذي ساعدني على خلق وضوح في التصورات عن الاحداث الحالية والماضية والتي كانت مجرد فوضى في الامام - وفوق - وجنب بعضها البعض(19).

لم يكن غرض ماركس من عمله فهم بيئته بشكل افضل وحسب. وللاسف، لم يعد هذا الأمر بديهيا تماماً لانصار ماركس اليوم. وغالبا ما يتخلفون عن ماركس نفسه، ويكتفون، مثلهم مثل ''النقاد النقديين'' الذين سخر منهم ماركس وانجلس (20)، وأن إعلانات (الفيسبوك وغوغل) أو الموسيقى المثيرة للشفقة تتلاعب بنا وباحتياجاتنا العاطفية، وان الرأسمالية تمارس استغلال العاملين والبيئة، وان النظام بمجمله نظام شرير، وخلافا لذلك، ولسوء الحظ لا أحد يدرك، ناهيك عن العمال الاجراء، ما هو سبب - يا ألم العالم! - للأسف ليس هناك ما يغير في ذلك شيئا. لقد ارادنا ماركس ان نكون قادرين على رؤية ''آلاف الخيوط'' التي تربطنا كافراد ظاهريا مع بيئتنا، والتي هي حسب المثقف الماركسي بيرند ستيغمان مهمة الفن النقدي(21)، وهذه كانت بالنسبة لماركس الخطوة الضرورية الأولى فقط. وما عدا ذلك كان لديه الطموح الثوري الاساسي، الذي جعل تغيير العالم بواسطة افكاره ملموسا. لقد كان هدفه التحرر: التحرر من البنى التي تواجهنا كقوى مجهولة مثل الرؤساء، المساهمين الرئيسيين، شركات التأمين، البنوك أو حتى الأزمات المالية، على الرغم من وجودها كعلاقات بين البشر. لقد أراد ماركس ان نصنع تاريخنا بأنفسنا، وان يعود العالم بأجمعه لأولئك، الذين صنعوا العالم الملموس من حولنا بأيديهم وادمغتهم، وبشكل فعلي مشترك. بعبارة أخرى: أراد ماركس أن يراقب ويحلل بنى (السلطة والحكم) والعمليات الهيكلية، لمعرفة الظروف التي يتم بموجبها اتخاذ إجراءات تهدف إلى التحرر الجماعي. ولهذا وصف الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس، الذي كان في السابق يستند الى ماركس، المنهج الماركسي بـ''الجدل النقدي'' (22). ففي كتبه السياسية الكبيرة مثل ''الصراع الطبقي في فرنسا 1848 - 1850'' والذي ادعى انه يفسر التاريخ الحقيقي وتطوره بشكل افضل، باعتباره تاريخا لصراع الطبقات بدلا من الشخصيات التاريخية الكبيرة مثل الإسكندر الأكبر، ونابليون وميركل (أي افضل من نظريات الرجال والنساء العظام في التاريخ)، صاغ ماركس وجهة نظره بعبارته الشهيرة: ''يصنع الناس

تاريخهم الخاص، لكنهم لا يصنعونه باختيارهم الحر، وليس تحت ظروف اختاروها بأنفسهم، بل تحت الظروف التقليدية المباشرة والموجودة والقائمة'' (23). وأنطونيو غرامشي، الذي أراد إعادة اكتشاف ماركس السياسي الثوري وفهم ثورة أكتوبر بأنها ''ثورة ضد رأس المال'' (على اساس ماركس)، فإنه تحدث في السجن، وبشكل مموه عن الماركسية باعتبارها ''فلسفة الممارسة'' (24). في الواقع ، كان هذا الفهم لماركس بالضبط هو الذي أدى إلى إعادة اكتشاف الفيلسوف المولود في تريير كمنظر في أعقاب الإضرابات العنيفة والإحياء الرائع للحركة العمالية، التي اعتقد انها ميتة، في أواخر الستينيات والسبعينيات، وضد سمينارات حول الماركسية كانت بعيدة عن الممارسة، وبمساعدة كتاب ماركس ''الخطوط العريضة لنقد الاقتصاد السياسي'' « Grundrissen der Kr-tik der politischen Ökonomie» ، و''كتاب التحول لبريشت ''Brecht-Me-ti: Buch der Wendungen'' : اعيدت قراءة ماركس ومناقشته على نطاق واسع(25).

لا تحييد

إذا كانت هناك مشكلة بورغس واقعية بأن العالم لا يمكن تصويره (استنساخه) 1 1- ، فأين يبدأ العلم النقدي؟ مع أي أسئلة يتحول إلى حقيقة؟ ان طرح السؤال بهذه الطريقة يعني ابتداء اننا نطرح السؤال بطريقة خاطئة. لان تصور الباحثين، ووفق غرامشي ايضا، ''جميع البشر (...) مثقفون'' حتى لو ''في المجتمع ليس [جميع البشر] يقومون بوظيفة المثقفين''(26) – وبالتالي فان التصور القائل بأن مراقبي العالم يقتربون من هذا الواقع من الخارج هو بالفعل تصور آيديولوجي. عاد العلم البرجوازي الى فكرة ''حيادية القيمة'' في دفاعه ضد ماركس والاتجاه الفكري الذي اسسه، وكان الباحث بامكانه ان يبقى خارج الموضوع الذي يبحثه. واعترض على هذا استاذ العلوم السياسية الماركسي روبرت كوكس: ليس هناك علم محايد. ان البحث ''هو دائما لشخص ما ويخدم غرضا ما''(27). لم تكن المعرفة محايدة، ولكنها اما تنتقد علاقات السلطة والحكم القائمة، وتحاول تقويضها وتغييرها، او تخدم المتسلطين، وتحافظ عليهم، وتزيد من كفاءتهم. في الواقع، وحسب عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو، لا توجد ''آيديولوجية أعظم من آيديولوجية عدم وجود أيديولوجية''. وبعبارة أخرى، فإن أي شخص يقول اليوم بأنه ليس هناك يسار ويمين هو على الأرجح يميني. ولهذا السبب وصف الماركسي الفرويدي ماكس هوركهايمر في النصف الأول من القرن العشرين العلم الذي لا يعي خضوعه وعمله لسلطة الرأسمالية، بالعلم التقليدي (ميز نفسه بشكل متزايد عن الفكر الماركسي)، والتمييز بينها وبين ''لنظرية النقدية'' التي سعى الى تأسيسها

واثباتها مع آخرين(28). وارتباطا بـ هوركهايمر، اعتبر روبرت كوكس هذا التعارض على أنه الفارق بين ''نظريات حل المشكلات''، الموجودة هنا الآن وحسب، والتي تريد جعل المتسلطين أكثر كفاءة ، وتطوير ''النظريات النقدية'' التي تهدف إلى خلق وتطوير مستقبل أفضل. وبالمعنى الماركسي، فإن ''النظرية النقدية'' هي التي تطرح افكارا وتوظفها في كيفية خلق تطوير افضل من الظروف الملموسة القائمة اليوم (29). والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم: بواسطة اي اناس أو مجموعات اجتماعية، أو طبقات يمكن ان يحدث هذا؟ اي طبقة (طبقات) ستكون لها مصلحة في تحويل النظام الاقتصادي والاجتماعي الحالي إلى مجتمع أفضل، وأكثر عدلا اجتماعياً، وبيئي ومستدام؟ وارتباطا بسلطة البرجوازية التي تريد، مهما كلف الأمر، الحفاظ على هذا النظام، ما هي الطبقات التي يمكن ان تمتلك مصادر القوة (السلطة) المضادة؟(30). وحتى لو كان المرء غير راض عن الوضع القائم في العالم اليوم، فان هذا لا يعني بداهة، انه قادر على تغييره، والمهمة ستكون اصعب عندما يعتمد على قدراته الفردية.

وبالعودة الى المعرفة، يسأل ماركس: من يفكر فعلا؟ ولمن اطلاقا؟ من اين يأتي منتجو المعرفة؟ من يشرح لنا ما هو الصواب وما هو الخطأ وما الذي نفعله؟ هنا كان ماركس شكاك جدا:''الافكار المهيمنة'' وفق الثوري القادم من ترير، ''هي افكار المتسلطين''(31). وهذا تصريح قوي، ولكنه يبين اذا ما ادرك المرء، انه في بدء تاريخ البشرية، كان الذي يفكر دائما هم الحكام. ان الديمقراطية القديمة - التي كانت من حيث مشاركة الجماهير النشطة متقدمة نوعيا بأميال على برلمانية اليوم الليبرالية، كما توصلت الى ذلك استاذة العلوم السياسية الماركسية إلن ميكسينز وود(32) – نعرفها اليوم فقط عبر النقاد والمعارضين العلنيين لذلك الوضع التاريخي، من خلال أفلاطون وأرسطو. ان الذين يحافظون حتى اليوم على هذا العالم – حسب فهم ماركس - ويخلقون كل الثروة كانوا في الواقع ولأطول المراحل، ومنذ ظهور الكتاب المقدس، لا يجيدون القراءة والكتابة. ان المرة الأولى التي تكلم فيها المحكومون كانت في الواقع في عام 1647 خلال مناقشات بوتني الدستورية في ''الحرب الأهلية الإنجليزية''(33). والى يومنا هذا، نرى ان الذين يعكسون لنا العالم هم: الأساتذة، المدرسون، الصحفيون، علماء النفس، مخرجو الأفلام ونجوم البوب، الذين ينحدر أكثر من نصفهم من اوساط البرجوازية – حيث نادرا ما يفهم المرء مشاكل الناس. وفي ما يتعلق بالفنون الجميلة، وصف الناقد الأدبي فلوريان كيسلر هذه المشكلة بأنها ''مشكلة ابن الطبيب''(34) ، حيث أن ابناء هذه النخب البرجوازية فقط ما زالوا يملكون الموارد المالية لمواجهة ارتفاع تكاليف المعيشة واجور المساكن

وهشاشة الحياة الثقافية، ليكونوا نشطين فنيا. ومن سيندهش، اذا تناولت الافلام والروايات بشكل متزايد حياة الاطباء والمحامين واساتذة الجامعات، واقل من ذلك بكثير حياة عمال الاسواق، وصانعي ادوات العمل، ومعلقي الملصقات، وعمال المطاعم؟ لا يحرم المحكومين من الكلام فقط، بل جُعلوا غير مرئيين. وكل هذا لا يكفي لأن الافكار المهيمنة تصبح باستمرار افكار المهيمنين، فحتى الذين يفكرون، فإنهم يفكرون بموجب عقود المهيمنين، الذين يملكون الصحف ودور النشر واستديوهات الافلام، وقنوات التلفزيون، او يملكون الشركات، التي تخصص عبر وسيط ثالث تابع لها، بشكل متزايد، الاموال الموجهة للبحث، او تمويل ملايين المدونين عبر الاعلانات المحدد محتواها سلفا. إن منتجي الوعي الجماهيري هؤلاء، وبلغة بريشت، "في عصر الاسواق والسلع" و"المثقف التابع"، "مؤجري العقل" وليس نادرا ايضا امعات "عقول تابعة"، "يد طولى"، وذيول عمل العقل (35).

وجهة نظر طبقية

وباختصار، مثّلَ العلم التقليدي في عصر ماركس، كما هو اليوم – بوعي وبدون وعي - وجهة نظر طبقية. وهذه تمثل بالطبع الطبقة العليا. لقد وضع عالم الاجتماع الالماني هانس – يورغن كرسمانسكين، وقدر تعلق الأمر بتخصصه، النقاط على الحروف: "في علم الاجتماع تراقب الطبقة الوسطى، بتكليف من الطبقة العليا، الطبقة الدنيا. وفي احسن الأحوال تراقب كتل في الطبقة الوسطى بعضها البعض" – كما تفعل البرجوازية الخضراء مع البرجوازية الصغيرة اليمينية الليبرالية. ولكنه يتساءل: "من يراقب في الواقع الطبقة العليا"(36). وبالمعنى الماركسي يذهب السؤال ابعد: من يمثل في الواقع في مواجهة وجهة النظر الطبقية العامة من الاعلى العلم في مصلحة غالبية الطبقة العاملة في الأسفل؟ ولذلك كان بالنسبة لماركس أن عمله المعرفي لم يكن غير متحيز، وإنما بالتاكيد متحيز. لقد وضع فكره في خدمة المستغَلين والمضطهدين، لان مصالح الجماهير العاملة – في عمل يمكّن المرء من العيش بإنسانية، وان يتخذ قراره بنفسه، في المشاركة الديمقراطية - في النهاية قابلة للتعميم.

*** الدكتور انغار سوتي، ولد في 14 نيسان 1979، كاتب وعالم اجتماع الماني. عمل كمساعد باحث في جامعة يورك الكندية، وتشمل اهتماماته البحثية الاقتصاد السياسي الدولي، وعلم الاجتماع السياسي، والنظرية السياسية، وعلم الجمال. منذ حزيران 2016 يعمل استشاريا لسياسة السلام والأمن في معهد التحليل الاجتماعي في مؤسسة روزا لوكسمبورغ التابع لحزب اليسار الألماني. له العديد من المؤلفات والبحوث في مجالات اهتمامه المختلفة.**

الهوامش:

1 - نشرت هذه المقالة في مدونة خاصة لمؤسسة روزا لوكسمبورغ بمناسبة الذكرى الـ 200 لميلاد كارل ماركس https://marx200.org/blog/philosophie-der-praxis

2 - Friedrich Engels: Dialektik der Natur, in: Marx-Engels-Werke, Bd. 20, Berlin 1978, S. 444-455

3 - Klaus Holzkamp: Grundlegung der Psychologie, Frankfurt/New York 1985, S. 172

4- Ebd., S. 352

5- Friedrich Engels: Die Entwicklung des Sozialismus von der Utopie zur Wissenschaft, in: Marx-Engels-Werke, Bd. 19, 1962, S. 177-228

6- Tony Kushner, Angels in America, New York 2003, S. 289

7- Franz Neumann: Die Herrschaft des Gesetzes, Frankfurt/M. 1980, S. 128-148

8- Karl Marx, Thesen über Feuerbach, in: Marx-Engels-Werke, Bd. 3, Berlin 1969, S.5ff

9- Bertolt Brecht: Me-ti. Buch der Wendungen. Große kommentierte Berliner und Frankfurter Ausgabe, Bd. 18, Frankfurt 1995, S. 88

10- Bertolt Brecht: Me-ti. Buch der Wendungen., Frankfurt am Main 1983, S. 121

11- Ebd., S.47

12- Bertolt Brecht: Gesammelte Werke, Bd. 2, Frankfurt am Main 1967, S. 895

13- Francis Fukuyama: The End of History and the Last Man, New York 1992

14- Vgl. Kurt Lenk: Deutscher Konservatismus, Frankfurt am Main/New York 1989

15- Vgl. Nicos Poulantzas: Staatstheorie, Hamburg 2002, S. 97

16- Karl Marx: Kritik der politischen Ökonomie, in: Marx-Engels-Werke, Bd. 13, Berlin 1978, S. 9

17- Matthew Desmond: Zwangsgeräumt. Armut und Profit in der Stadt, Berlin 2018

18- Lenin: Werke, Bd. 33, Berlin 1971, S. 46

19- Matthias Altenburg: Fremde Mütter, fremde Väter, fremdes Land, Hamburg 1988, S. 85

20- Karl Marx und Friedrich Engels: Die heilige Familie oder Kritik der kritischen Kritik. Gegen Bruno Bauer und Konsorten, in: Marx-Engels-Werke, Bd.2, Berlin 1980, S. 3-223

21- Bernd Stegemann: Lob des Realismus. Berlin 2015, S. 17

22- Jürgen Habermas: »Analytische Wissenschaftstheorie und Dialektik«, in: Max Horkheimer, Hg., Zeugnisse: Theodor W. Adorno zum 60. Geburtstag, Frankfurt/M. 1963, S. 473ff.

23- Karl Marx: Der achtzehnte Brumaire des Louis Bonaparte, in: Marx-Engels-Werke, Bd.8, Berlin 1978, S. 115

24- Antonio Gramsci: Gefängnishefte in zehn Bänden, Hamburg 1991ff.

25- في كتابه يصف بريشت "المنهج العظيم" باعتباره درسا عمليا كبيرا في التحالفات وفي انهاء التحالفات، توظيف المتغيرات والاعتماد على المتغيرات، احداث التغيير، وتغيير محدثيه، فصل وتشكيل الوحدات، عدم استقلال الاضداد من دون بعضها البعض، وتوافق الاضداد المستبعدة من بعضها البعض. ان المنهج العظيم يمكّن من التعرف على العمليات في الاشياء واستخدامها. ويعلم طرح الاسئلة التي تجعل التعامل ممكنا".
Vgl. Bertolt Brecht: Me-ti. Buch der Wendungen, Frankfurt am Main 1983, S. 69.

26- Antonio Gramsci: Gefängnishefte, Bd.7, Hamburg 1996, S. 1500

27- Robert W. Cox: Approaches to World Order, Cambridge 1996, S. 87

-28 Max Horkheimer: Traditionelle und kritische Theorie, in: ders.: Gesammelte Schriften 4, Frankfurt/M. 1988, S. 162-225

-29 Robert W. Cox, a.a.O., 88-91

-30 Vgl. hierzu die zeitgenössischen Arbeiten der marxistisch orientierten Jenaer Soziologen z.B. in Stefan Schmalz u. Klaus Dörre: „ Der Machtressourcenansatz: Ein Instrument zur Analyse gewerkschaftlichen Handlungsvermögens“, in: Industrielle Beziehungen, 21. Jg., H.3 (2014), S. 217-237

-31 Karl Marx und Friedrich Engels: Die deutsche Ideologie, in: Marx-Engels-Werke, Bd.3, Berlin, S. 17

-32 Ellen Meiksins Wood: Democracy against Capitalism, Cambridge 1995

-33 Vgl. Geoff Kennedy: Diggers, Levellers, and Agrarian Capitalism, Lanham 2008

-34 Florian Kessler: »Lassen Sie mich durch, ich bin Arztsohn!«, in: DIE ZEIT, 23.1.2014

-35 Bertolt Brecht: Gesammelte Werke 12, Frankfurt am Main 1967, S. 611

-36 Hans-Jürgen Krysmanski: „Die Geldelite verselbständigt sich“, in: Telepolis, 4.11.2012

حـــــــــــوارات

حوار مع الفيلسوف نمير العاني

اجرى الحوار: د.فوزي حامد الهيتي *

أقام قسم الفلسفة في جامعة الكوفة مؤتمره الفلسفي الاول في 24 /4 /2018، وكان ضمن محاوره دراسة المشهد الفلسفي العراقي المعاصر. وكلفت حينها بكتابة بحث تعريفي عن الفيلسوف العراقي المغترب نمير العاني الذي لم أكن اعرف عنه ساعة اقترح الموضوع سوى اسمه. وعند الشروع بجمع المادة العلمية عنه صار لنا اتصالات وحوارات مباشرة معه. جرى خلالها طرح اسئلة استفسارية للإلمام الكافي بجوانب فلسفته، كان من نتائجها إثارة موضوعات فلسفية مهمة منها نقده للقراءة الماركسية لعدد من الفلاسفة السوفيت المعاصرين، ونقده للمدرسة العقلانية النقدية ممثلة بكارل بوبر، فضلا عن تصوراته لمفهوم النظرية العلمية ومعاييرها. ولاهمية هذا الحوار ارتأينا نشره منفصلا بصيغة مقابلة او حوار فلسفي.

والاستاذ الدكتور نمير مهدي العاني، حاصل على شاهدتي دكتوراه في الفلسفة الحديثة كلاهما من جامعة سانت بطرسبرغ الحكومية الروسية (جامعة لينينغراد سابقاً) الاولى سنة 1971 موضوعها في (العلاقات الاجتماعية) والثانية دكتوراه علوم في الفلسفة وهي أعلى شهادة تمنح في روسيا، سنة 1983 والموسومة (الديالكتيك المادي النظرية الاعم للتطور). عمل تدريسيا في قسم الفلسفة/ جامعة بغداد في سبعينات القرن الماضي ومن ثم استاذا زائراً في جامعة عدن خلال عقد الثمانينات من القرن الماضي، واخيرا استاذ كرسي الفلسفة في جامعة الدولة لتكنولوجيا المعلومات والعدسات والميكانيكا الدقيقة (إيتمو) في سانت بطرسبرغ – روسيا الاتحادية، الى أن وصل السن القانوني للتقاعد عام 2002. لكنه واصل العمل (كمتقاعد عامل) في الجامعة نفسها حتى الأول من كانون الثاني عام 2017 حيث استقال من عمله وتفرغ تماما للبحث العلمي. لديه عدد كبير من الابحاث العلمية قاربت المئة بحث، فضلا عن عدد من الكتب والدراسات المنشور اغلبها باللغة الروسية وللأسف الشديد.

• خلال قراءتي لمشروعكم الفلسفي اثرتم في بداية حديثكم قضية مهمة تتلخص في تقديمكم قراءة جديدة للديالكتيك يعيد له طابعه الثوري المتمرد. هذه الصفة التي غابت في قراءة المدرسة السوفيتية الرسمية للديالكتيك والمدرسة الماركسية بعامة وأحالتها (الفلسفة الماركسية) من فلسفة وظيفتها - بحسب الفهم الماركسي تغيير الواقع - الى فلسفة تبرر الواقع، ووصفت هذه القراءة بفلسفة الركود او الجمود بحسب توصيفكم. ومن ثم شرعتم بشرح مقومات فهمكم للديالكتيك بعده برادايم للوجود يمكن من خلاله تفسير كل مظاهر الوجود وحركته التفاعلية التطورية. ولكن

لم نلاحظ خلال عرضكم أية مقارنة ومقابلة بين فهمكم للديالكتيك المادي وبين الفهم السوفيتي له الذي قاد الى حالة الجمود والتبرير. هل بالامكان ايضاح ذلك اكثر وبخاصة في جانب العلاقات الاجتماعية؟ هل القراءة التبريرية السوفيتية للماركسية هي التي افضت الى انهيار التجربة السوفيتية؟ الحديث بالعموميات لا يفسر. وما طرحتموه من قراءة مخالفة أمر مهم يمكن ان نحدد من خلاله فهمكم للديالكتيك الماركسي إذا ما جرى مقابلته بالقراءة الاخرى التبريرية. وبصراحة اكثر اين تكمن القراءة التبريرية للديالكتيك الذي احاله من منهج مغيّر للواقع الى منهج مبرر له؟

- في دراستي عن الديالكتيك لم تكن غايتي التحليل النقدي الشامل للمدرسة الفلسفية السوفياتية، فقد إنصب كل إهتمامي في هذه الدراسة على بلورة فهمي الخاص والمتميز للديالكتيك الماركسي. وبطبيعة الحال عند صياغة هذا الفهم وجدت نفسي مضطراً ان اتناول بالنقد هذه أو تلك من تصورات الكثيرين من الفلاسفة السوفيات، والتي شكلت في تقديري خروجاً عن روح المنهج الجدلي. ولهذا استطيع القول ان نقد هذه التصورات كان نتاجاً عرضياً للدراسة، ولذا فإن القارئ يجد هذا النقد منثوراً في اماكن مختلفة من الدراسة وليس ممركزا ومكرساً في احد فصولها دون غيره. فعلى سبيل المثال لا الحصر، اشير هنا إلى أنني عند صياغة تعريفي للتطور تعرضت بالنقد للفكرة التي كانت طاغية في الفلسفة السوفياتية والقائلة بالتطابق التام بين مفهومي التطور والتقدم. لقد رأيت في هذه الفكرة خروجاً فاضحاً عن المنهج الجدلي، معتبراً إياها فهماً وحيد الجانب، اي فهماً ميتافيزيقياً (إنني هنا وفي بقية اجزاء إيضاحاتي الحالية اردد هذا المصطلح بمدلوله المنهجي وليس النظري، اي بالميتافيزيقا اعني المنهج المناوئ للمنهج الجدلي، اللاديالكتيك). فالتطور ليس بحركة صاعدة على الدوام، ليس بسيرورة إلى امام على طول الخط. إنه، وكأي شيء في الوجود، ذو طبيعة متضادة داخلياً. ولذا ففي المنحى الذي نتحدث عنه هنا يشكل التطور وحدة جدلية للتقدم والتقهقر (التراجع، الإرتداد..إلخ). إنه، إذن، ليس بعملية خطية تجري بخط مستقيم، بل هو سيرورة متعرجة تجري في كافة الإتجاهات (صعوداً وهبوطاً، إلى الأمام وإلى الخلف). ومما له دلالة علمية في هذا الصدد ما اثبتته، مثلاً، الدارونية حتى في صيغتها الكلاسيكية في ان تطور بعض الكائنات الحية من الممكن ان يتم من خلال تبسيطها لبنيتها، اي بإنتقالها من المعقد (الأرقى) إلى البسيط (الأوطأ)، لأن تبسيط البنية يساعد هذه الكائنات على التكيف الأفضل للبيئة المتغيرة. وبهذا يصبح التقهقر شكلاً من اشكال التطور الحيوي. كما انه يتجلى ايضاً في الصيرورة التاريخية وفي التطور الإجتماعي. وليس ثمة ماهو غريب في ذلك إن اخذنا بعين الإعتبار ان التقدم والتقهقر هما ضدان جدليان لا يمكن لأي منهما ان يوجد بمعزل عن الآخر. فلا تقدم بلا تقهقر ولا تقهقر بدون تقدم. وبالفعل، إننا نجد ان أية ظاهرة في مجرى تطورها تتقدم في بعض جوانبها وتتقهقر في جوانب اخرى. كما وأضيفُ أن الصراع بين هذين الضدين بشكل عام لا بدّ من ان يحسم في كل طور من اطوار تطور الظاهرة لصالح احدهما. ففي هذا الطور يطغي التقدم على

التقهقر وبذلك تكتسب السيرورة التطورية للظاهرة دلالة تقدمية. وفي طور آخر يصبح التقهقر هو الغالب، الأمر الذي يضفي طابعاً تقهقرياً على تطور الظاهرة. فما هو غالب في طور يتحول إلى مغلوب في طور آخر، وبالعكس، ما كان مغلوباً يصبح غالباً. إننا نشاهد ذلك في كل مكان وزمان. فإن كانت الحياة على سطح كوكبنا تعيش في طورها الحالي فترة إزدهار وتقدم بشكل عام مع تقهقر محدود هنا وهناك، فهذا لا يعني إنها ستبقى كذلك إلى الأبد. فلا بد لهذا التقدم والإزدهار ان يخلي مكانه في طور لاحق لتقهقر عام للحياة، من الممكن ان يؤدي إلى تلاشيها من على سطح الأرض حتى قبل نهاية كوكبنا والمنظومة الشمسية. وليس هذا بالأمر الغريب في عالمنا. فهناك، مثلاً، فرضية تقول بان الحياة قد اقبلت، ومن ثم ادبرت على سطح المريخ، اي ازدهرت وبعدئذٍ تقهقرت واندثرت اخيرا هناك. وما قلناه حول التقدم والتقهقر من الممكن ان يؤكد ايضاً بخصوص المجموعة الشمسية، بل وعموم الكون. فإن اعتبرنا ان الحالة الراهنة لكوننا، والتي بدأت بنشوئه وبداية توسعه بعد الإنفجار العظيم، هي حالة تقدم وإزدهار، فهنالك العديد من الفرضيات في علم الكون (الكوزمولوجي) تذهب إلى إن هذه الحالة لا بد وان تخلي مكانها في الطور اللاحق في مسيرة الكون لنقيضها، اي لحالة التقهقر والإرتداد. ومن بين هذه الفرضيات اشير إلى تلك التي تقول بان توسع الكون لا يمكن ان يجري بلا نهاية، وإنه عاجلاً ام آجلاً لا بد وان ينتهي في ذلك الحد له، الذي عنده يبدأ الكون حركته المعاكسة، اي حركته إلى الوراء او سيرورته التقهقرية، التي تتميز بجريان الزمن فيها إلى الوراء من الحاضر إلى الماضي. وقد دعيت هذه السيرورة بـ"الإنكماش العظيم"، والذي سينتهي بالكون إلى الحالة المتفردة، التي من غير المستبعد ان يحدث فيها انفجار عظيم جديد.

هذا وهناك العديد من التصورات الأخرى للفلاسفة السوفيات التي اختلفت معهم فيها واخضعتها للنقد، أذكر من بينها مفاهيم الحركة والتغير والسببية والقديم والجديد والإبداع البشري وغيرها. وفي سبيل الإلمام بأوجه الإختلاف بيني وبين هؤلاء الفلاسفة ينبغي عليك قراءة دراستي من بدايتها وحتى نهايتها، أو في الأقل الإطلاع على كتابي حول "مبدأ التطور وعلاقته المتبادلة مع مبادئ وحدة العالم والتشارط المتبادل والتعاكس العام"، الصادر عن مركز الدراسات الإشتراكية في العالم العربي، دمشق، 1988، والذي في متنه تمت الإشارة إلى جزء من هذه التصورات. وقد وجدت من اللازم ان أقف في مقدمة هذا الكتاب وقفة موجزة على خلافي المنهجي مع الكثير من الفلاسفة المعاصرين الذين بحثوا وكتبوا في مشكلات الديالكتيك المادي. وهنا اسوق لك المقطع التالي الذي اقتبسه من هذه المقدمة، والذي يسلط بعض الضوء على هذا الموضوع، توخياً للإفادة:

"إن السمة الأساسية، بل واقول الخصيصة الماهياتية التي ينماز بها البحث الذي اقدمه إلى القارئ الكريم بين دفات الكتاب الحالي، بل وتنماز به مجمل الدراسة التي استل منها هذا البحث، من الممكن ان تلخص في إستخدام الديالكتيك المادي كمنهج فلسفي لبناء الديالكتيك المادي كنظرية فلسفية. او بكلمات

اخرى، استطيع ان اقول بان البحث الحالي (شأنه بذلك شأن الدراسة المذكورة برمتها) يشكل في حقيقته الفعلية خلاصة لإنعكاس الديالكتيك المادي في ذاته ومن خلالها، اي خلاصة لعكس الديالكتيك المادي لذاته في ذاته وعبرها. فهو، كما عبر بدقة أحد الأساتذة السوفيات الذين إطلعوا على الدراسة المشار إليها وشاركوا بتقييمها، اقرب ما يكون إلى "ديالكتيك عن الديالكتيك نفسه.

وأود ان اشير بالإرتباط مع ذلك على ان اعتمادي الفعلي على الديالكتيك المادي كمنهج اساسي كامل السيادة في تحليل ومعالجة وحل مشكلات الديالكتيك نفسه (اي، إستخدامي للديالكتيك منهجاً لبناء الديالكتيك نظريةً) هو الظرف الذي مكنني بالتحديد من الوصول في دراستي التي اشرت إليها آنفاً إلى ما انتهيت إليه من إستنتاجات وخلاصات مهمة تخرج في العديد من دلالاتها و مضامينها على ما هو شائع ومألوف من تصورات باتت اقرب إلى التقليد الفلسفي في ادبنا الماكسي المعاصر. لا يسعني في الوقت ذاته إلا ان الاحظ إن الكثير من الأعمال الفلسفية لمفكرين وفلاسفة معاصرين، والتي تتناول بالدراسة و البحث مشكلات الديالكتيك المادي واحياناً مشكلات فلسفية اخرى تخرج عن دائرة هذا الأخير المباشرة تعتمد في الواقع الفعلي وبالرغم من التصريحات والتوكيدات اللفظية المنهجية الميتافيزيقية في معالجاتها النظرية. وفي هذا بالذات يكمن، كما ارى، سر/سبب زوغان هذه الأعمال في العديد من موضوعاتها وإطروحاتها وإستنتاجاتها عن درب الحقيقة بشكل عام وحيودها عن النظرة الديالكتيكومادية الحقة على وجه التحديد.

ومن الغريب، بل ومن باب المفارقة حقاً، ان نلاحظ في هذا السياق ان الوزن النوعي لإعتماد وإستخدام المنهج الديالكتيكومادي في البحث هو اعلى في الدراسات العلموطبيعية منه في الدراسات العلموإجتماعية عموماً و الدراسات الفلسفية على وجه الخصوص. اما سبب ذلك وتفسيره، فيعود في التحليل الأخير، كما يبدو لي، إلى حالة الركود في السيرورة الإجتماعواقتصادية. وبالفعل، ان المنهج الوحيد الذي يستطيع ان يعبر باصالة عن هذه الحالة ويجسدها او يلخصها تجسيداً حقيقياً، اي المنهج الأصيل لـ"فترة الركود" لا يمكن ان يكون إلا منهجاً ميتافيزيقياً في مضامينه و دلالاته الفعلية.

إنني لا انوي هنا، بل ولا افكر إطلاقاً نفي القيمة الإيجابية العلمية للمنهج الميتافيزيقي سواءً في بعدها التاريخي ام في مدلولها الوضعي. بيد ان هذه القيمة تبقى قيمة محدودة بل ومحدودة جداً في بعض مجالات البحث والدراسة، ومن غير الجائز إطلاق معناها باي حال من الأحوال. هذا يعني إن المنهج الميتافيزيقي في البحث لا يمكن ان يضطلع في عصرنا إلا بدور ثانوي و وظيفة هامشية. ولذا، فإنه يبقى - مهما بلغت "قيمته العلمية" في هذا المجال او ذاك من مجالات البحث العلمي المعاصر - عنصراً منقاداً و مقهوراً (منزوعاً) في بنية منهجية عامة تظل ذات اصالة ديالكتيكية ببعدها العام و بدلالاتها الخاصة". ص 7-6.

لقد وجدت من المناسب ان أورد هنا هذا المقتبس الطويل من مقدمة كتابي المذكور تحسباً لعدم توفر المصدر تحت يديك، وإعتقاداً مني إنه سيعينك ولو بعض الشيء على تفهم مشروعي الفلسفي بصورة افضل.

• خلال رسائلكم السابقة تحدثتم وبإيجاز ايضا عن العقلانية النقدية وبخاصة لفلسفة كارل بوبر وتحديدا حول مسألتين: المسألة الاولى هي معيار العلم لديه (معيار التكذيب) وقلتم أن هذا المعيار مثله مثل معيار التثبت لا يكفي للتمييز بين القضايا العلمية عن غيرها، وقلتم إن معياركم هو (التثبت والتكذيب) وهذا ايضا كلام مبهم يحتاج الى ايضاح بأمثلة مقارنة. أنا افهم سبب تقديم بوبر لمعياره فهو جاء استجابة لفهمه وتصوره لمفهوم النظرية العلمية وتحقيقا لغاية الابستمولوجيا كما يقول هو ويحددها بالنمو والتطور فغاية الابستمولوجيا هي النمو والتطور وهذا لا يتحقق كما يقول كارل بوبر إلا من خلال اكتشافنا لأخطائنا لذلك اشترط في صياغة الفرضية العلمية أن تكون قابلة للتكذيب، اي يمكن تكذيبها تجريبيا والقضية القابلة للتجريب لا تعني بالضرورة هي كاذبة فهي تخضع لاختبارات مستمرة، وكلما اجتازت الاختبار يكون ذلك تعزيزا لها. أما سبب رفضه معيار التثبت او التحقق الذي قالت به الوضعية المنطقية فإن هذا المعيار يبرر معارفنا ولا يعيننا على اكتشاف الاخطاء؛ فكل قضية يمكن ان نجد لها تبريرا ومؤيدات في الواقع ولكن حالة واحدة مكذبة تكفي لاعادة النظر فيها والبحث عن فرضية خرى. وبجعة واحدة سوداء تكفي لهدم القضية القائلة كل البجع ابيض كما يقول هو.

- لقد سبق لي وان اشرت في رسالة سابقة إلى ان المصيبة الأساسية للفلسفة الغربية المعاصرة تكمن، كما ارى، في منهجيتها الميتافيزيقية. وعقلانية (كارل بوبر) النقدية لا تشكل إستثناءً في هذا الخصوص. فهذا الفيلسوف ينحو في اعماله منحىً ميتافيزيقياً يرى العالم من خلاله رؤيةً وحيدة الجانب. إنه، كغالبية زملائه من الفلاسفة الغربيين، يفكر ويبحث وفق مبدأ ''إما وإما''. فإن كان الوضعيون الجدد، على سبيل المثال، قد إختزلوا الإختبار/ البرهان العلمي بإرجاعه إلى الإثبات فقط، نجد أن بوبر يفعل العكس تماماً برده الإختبار إلى الدحض تحديداً - إني افضل إستخدام هذا المصطلح بدلاً من ''التكذيب''، لأن الكذب والصدق هي مفاهيم منطقية تعبر عن صفات الحكم المنطقي. هذا في حين إن البرهان العلمي، كما ارى، يجمع الضدين معاً، بحكم كونهما كاضداد جدلية متلازمين مع بعضهما البعض، بحيث لا يمكن لأي منهما ان يوجد بمعزل عن الآخر. فلا إثبات، إذن، بدون دحض، و لا دحض بلا إثبات. وعليه، فإن بوبر برفضه للاثبات، من خلال مطابقته الإختبار مطابقة تامة مع الدحض، يرفض في الواقع الدحض ايضاً، بالضبط كما ان الوضعيين الجدد برفضهم للدحض يرفضون الإثبات ايضاً. وبحكم العلاقة الجدلية بين الإثبات والدحض، فإن إختزال الإختبار اي البرهان العلمي برده إلى اي من هذين الضدين لا يعني في الواقع سوى إلغاء الإختبار/ البرهان نفسه. وبهذا أخلصُ إلى القول: اولاً، البرهان العلمي يشكل في حقيقته إثباتاً بدحض ودحضاً بإثبات. ثانياً، الإثبات نفسه ينقلب دحضاً والدحض نفسه يتحول إلى إثبات في مجرى هذه العملية؛ فالبرهان، إذن، هو إثبات بدحض ودحض بإثبات. وتأسيساً على ذلك استطيع ان أقول ان بوبر بعثوره على بجعة سوداء لم يدحض الفكرة القائلة بـ ''إن جميع البجع بيض'' وحسب،

بل واثبت صحة الفكرة التي تؤكد "إن بعض البجع أبيض" أو "إن ليس كل البجع أبيض". فدحضه يصبح، كما نرى، إثباتاً. اما (لافوزيه)، مثلاً، فبإثباته تجريبياً النظرية الأوكسيجينية للإحتراق كان قد دحض بلا شك نظرية الفولجستون التي كانت سائدة وقتذاك. في هذه الحالة نجد إن الإثبات نفسه ينقلب دحضاً. ومن بين المنجزات العلمية الكبيرة التي عاصرناها والتي تشهد على ما تقدم من المناسب ان اذكّر هنا بالأبحاث التي قاموا بها في تسعينيات القرن المنصرم العالمان الأمريكيان شاؤول برلموتتر وآدم رايس والعالم الإسترالي براين شميدت في مجرى دراستهم للمستعرات العظمى، التي فازوا بسببها بجائزة نوبل في الفيزياء لعام 2011. الدراسات التي توخوا من خلالها ليس الإثبات التجريبي لفكرة تباطؤ إتساع الكون، التي كانت سائدة آنذاك بلا منازع في علم الكون وحسب، بل واحتساب وتيرة هذا التباطؤ. ولدهشتهم ودهشة المجتمع العلمي برمته إن ابحاثهم قادتهم في المطاف الأخير إلى دحض هذه الفكرة، التي كانوا ينون إثباتها. ولكن هل دحضهم في هذه الحالة كان دحضاً مجرداً، خالصاً، دحضاً مطلقاً لا يبقي ولا يذر كالدحض البوبري؟ لا ابداً. إن دحضهم للفكرة المذكورة جاء، على الضد من ذلك تماماً، دحضاً جدلياً ملموساً، دحضاً متحققاً من خلال ضديده كإثبات. وبالفعل، إن دحض فكرة تباطؤ إتساع الكون تم بإثبات نقيضها، اي بإثبات فكرة تسارع هذا الإتساع. إن تاريخ العلم زاخر بالأمثلة والأدلة التي تؤكد على الطبيعة المتضادة داخلياً للبرهان العلمي وتثبت صحة فهمنا له كوحدة جدلية لا يمكن فصم عراها للإثبات والدحض.

إنني بما تقدم من توضيحات آمل في إزالة ما بدا لك من غموض في كلامي الوارد في رسالة سابقة لي عن فهمي لطبيعة البرهان العلمي ومعياره المتمثل بالإثبات والدحض معاً، وليس في الإثبات وحده كما ذهبت الوضعية المنطقية، ولا في الدحض فقط، كما يؤكد كارل بوبر، الأمر الذي وصفته في رسالتك الحالية بانه "كلام مبهم".

• المسالة الثانية تتعلق بنظرية التطور عند (كارل بوبر) حيث نفيتم أن تكون له نظرية تطور، وهذا أمر يحتاج ايضا الى تفسير اكثر. ان نظرية بوبر للتطور وحسب تصوراتي البسيطة والتي أسماها هو بنظرية العوالم الثلاثة: الاول هو العالم المادي، والثاني هو عالم العقل او النفس، والعالم الثالث هو منتجات العقل اي كل ما انتجه العقل البشري مثل الاساطير والاديان والفلسفات والنظريات العلمية ويصفها بالمعرفة الموضوعية. هذا هو البرداىم الذي اعتمده بوبر في بناء تصوراته للنظرية العلمية ومنهجه العلمي. وبوبر لا يدعي أن نظريته للوجود وتصوراته التطورية الانبثاقية له هي حقائق علمية بل هي تصورات ميتافيزيقية للوجود تعيننا على بناء تصوراتنا العلمية، وبما يحقق هدف الابستمولوجيا في النمو والتطور الدائم، أما سبب تبنيه لمفهوم التطور الانبثاقي (Emergent Evolution) فأن هناك حلقات في سيرورة التطور لا يمكن تفسيرها علميا مثل تطور الوعي عن المادة وتطور اللغة ومن ثم المعرفة العلمية عن الوعي، لذلك لجأ الى القول

ان هناك لحظات في مسار التطور حصلت انبثاقا وهو أشبه بالقول بالطفرة. وهو بالطبع يتبنى التصورات العامة التي جاء بها دارون (الصراع من اجل البقاء والبقاء للأصلح) بعد اجراء تعديلات عليها بما يبعدها عن الجانب الاستقرائي الذي يرفضه بوبر تماما.

• ان تكون لبوبر نظرية تطور صرح بها في كتبه هذا امر لا شك فيه، ولكن يمكن ان نخالفه في تصوراته لهذه النظرية. هو لم يقل مثلا الطابع الديالكتيكي لهذا التطور، أو على الاقل لم يصرح بذلك بل قال هناك صراع وان سيرورة هذا التطور ناتجة بسبب هذا الصراع. فالكائن الحي مثلا في صراع دائم مع محيطه والمتغيرات الحاصلة فيه وقدرته على البقاء تكون بحسب قدرته على التكيف والتفاعل مع هذه البيئة وعندما يفقد الكائن القدرة على التكيف سينقرض لا محالة؛ فالباقي هو الاكثر قدرة على الانفتاح والتفاعل وتطوير مهاراته بما يعينه على الاستجابة لكل المتغيرات البيئية.

- إن تصور كارل بوبر عن العوالم الثلاثة لا يمكن ان يدرج، كما أرى، تحت طائلة النموذج النظري العام (البراديما) للتطور باي حال من الأحوال. فالتطور هو سيرورة يولد من خلالها الجديد. ولا جديد بدون القديم الذي يشكل حاضنة أولية له. إنه ينشأ في رحم هذا الأخير بصورة بوادر أولية تنمو وتتكامل تدريجياً حتى تصل إلى تلك الحالة من النضج التي تمكنها من نقض حاضنتها (القديم)، وذلك بالإبقاء على ما هو إيجابي فيها، بالإحتفاظ به وتطويره ورفض ما هو سلبي فيها وفقد قدرته على الحياة. فالتطور هو إذن، سيرورة تنطوي في محتواها الداخلي على علاقة اتصال وانفصال بين الحاضر والماضي، علاقة إبقاء وإلغاء بين الجديد والقديم. فالحاضر ينفصل عن الماضي بقدر اتصاله به والجديد يبقي من القديم بقدر ما يلغيه منه. وعليه، فإن إلغاء الإنفصال بين الحاضر والماضي وإضفاء صفة مطلقة على الاتصال بينهما، او رفض علاقة الإبقاء بين الجديد والقديم وإطلاق علاقة الإلغاء بينهما يقودان إلى إلغاء السيرورة التطورية ذاتها. وهذا بالتحديد ما تقدم عليه الوضعية وما بعد الوضعية، اللتين تعتمدان المنهج الميتافيزيقي نفسه في معالجة هذه القضية ايضاً. فالوضعية تفهم التطور كعملية تراكمية خالصة تتم بصورة تدريجية خالية من اية طفرات. وهذا بالضبط ما يعنيه مبدأ التجميع او المراكمة (الكومولاتيفيزم) الذي صاغته هذه الفلسفة، والذي يفهم نمو المعرفة العلمية كسيرورة يتم من خلالها إضافة المعرفة الجديدة إلى جانب المعرفة القديمة دون اي تغيير في هذه الأخيرة. وبهذا، فمن الممكن تشبيه المعرفة العلمية في سيرورتها وفق التصور الوضعي ككرة الثلج التي تكبر وتزداد حجماً كلما تمت دحرجتها. فعن أي تطور من الممكن الحديث عندما يتم إطلاق التراكم الكمي وإلغاء الطفرة النوعية؟ أما ما بعد الوضعية فتقع في النهاية الأخرى، أو في الطرف الأقصى الآخر، حين تقوم بإطلاق ما تلغيه الوضعية وإلغاء ما تطلقه هذه الفلسفة. إنها تضفي على السيرورة العلمية طابعاً ثورياً، بل واستطيع ان اقول، طابعاً تدميرياً على وجه التحديد. إن (توماس كون) وبقية رواد ما بعد الوضعية بما فيهم كارل بوبر يفهموا الثورة العلمية كسيرورة يتم من خلالها

تحطيم التصورات العلمية السابقة بصورة كلية. فوفق توماس كون إن الثورة العلمية كحل لإشكالية الحالة التي يسميها بالاستثنائية في العلم هي سيرورة يجري من خلالها استبدال البراديجما السابقة، والتي ترمى جانباً، ببراديجما جديدة تضع بداية لحالة العلم التي يدعوها بالإعتيادية. وبهذا تصبح المسيرة العلمية مجرد مجموعة من الطفرات البراديجمية غير المتصلة مع بعضها. إن بوبر إذ يتبنى هذا التصور بشكل عام يضفي في الوقت نفسه على الثورة العلمية طابع الإستمرارية او الإستدامة. ولهذا، استطيع ان اقول بان العلم، في تقديره، يعيش على الدوام في حالة اقرب ما تكون إلى ما دعاه كون بالحالة الإستثنائية، اي بحالة الأزمة. فالعلم، إذن، يعيش في حالة ازمة مستديمة يجري حلها بثورة مستديمة. وبهذا تصبح السيرورة العلمية مجرد فرضيات تترى يجري دحضها الواحدة تلو الأخرى. وهذا ما يشهد عليه ويؤكده ما يدعوه بوبر بالفاصل الفكري والذي يلخص به نمو المعرفة في سيرورة عالمه الثالث. إن هذا الفاصل يبدأ بالمشكلة العلمية التي يتطلب حلها صياغة نظريات ما يجري إخضاعها للنقد الفاحص والذي يؤدي إلى دحضها ورميها جانباً، الأمر الذي يقود بدوره إلى ظهور مشكلة جديدة، وهكذا دواليك. إنه يرمز لهذا الفاصل بالمعادلة التالية:

P1 —> TT —> EE —> P2

اي: م1 (مشكلة اولية) – ن ن (نظريات) – نقد فاحص – م2 (مشكلة جديدة). وبهذا تصبح السيرورة العلمية مجرد سلسلة من النظريات المدحضة، المفندة، لا غير. فالدحض هو المصير المحتوم، هو قدر كافة النظريات العلمية بلا إستثناء. إن النظريات التي لا يجري دحضها مباشرةً تصطف بالدور (الطابور)، منتظرةً اللحظة التي ستدحض فيها، والتي ستحل إن عاجلاً ام آجلاً. فمن النظريات العلمية، إذن، "ما قضى نحبه، ومنها ما ينتظر". بهذه الصورة يقوم بوبر بإلغاء الطابع اليقيني للمعرفة العلمية، محولاً إياها إلى معرفة إفتراضية بشكل خالص. وهذا يعني إنه ينكر في واقع الأمر الحقيقة الموضوعية. إنه يعترف إعترافاً شكلياً بالحقيقة كهدف نهائي للمعرفة، لا تقوى على تحقيقه هذه الأخيرة باي صورة كانت. إنها افق المعرفة الذي كلما إقتربت منه يبتعد عنها. إنه لا يرى في هذه الحقيقة سوى حافز او قوة محركة للمعرفة، ليس إلا. فعن اية موضوعية لمعارفنا و عن اي تطور او حتى نمو بسيط للمعرفة العلمية من الممكن ان نتحدث بعد كل هذا؟ إن بوبر يفرغ معارفنا في واقع الحال من مضمونها الموضوعي ويحول السيرورة العلمية إلى ثورة مستديمة لا تبقي على ما هو إيجابي في هذه السيرورة، ولا تخلف وراءها سوى مقبرة للحطام المعرفي.

أضيف إلى ذلك سببا آخر يدعوني ان لا اعتبر "نظرية" بوبر في العوالم الثلاثة نظريةً في التطور. وهذا السبب يعود إلى أن كل من هذه العوالم يشكل في حقيقته واقعاً قائماً بذاته. فليس ثمة علاقة جوهرية تقوم بين هذه العوالم، التي لذلك لا تنجم عن بعضها ولا تتفاعل في ما بينها. وعليه، فمن المستعصي رد هذه العوالم إلى اساس أو مصدر مشترك نشأت عنه/ تطورت منه، أو إعتبار ان اي منها هو حصيلة لتطور الآخر. كما ولدي ملاحظات اخرى على هذه

"النظرية" لا يتسع المجال لإدراجها في هذه العجالة.

أما فكرة التطور الإنبثاقي التي اشرت إليها في رسالتك موضوع ردي، فأجدها فكرة خالية من المعنى الملموس. فإن كانت هذه الفكرة تعني النشوء من العدم، فهذا مجرد هراء، إذ أن من العدم لا يمكن ان ينشأ إلا العدم. أما إن كانت الفكرة تعني النشوء من أو عن مصدر أو اساس ما، فعندئذٍ ينبغي تحديد ماهية هذا المصدر/ الأساس. إن العلم يرفض رفضاً قاطعاً اي طرق غيبية في تفسير الواقع، ومـــــا لا يقوى العلم على تفسيره بمناهجه ووسائله اليوم سيقوم بتفسيره غداً لأن السيرورة العلمية هي سيرورة مستمرة لا تعرف التوقف ولا تعرف النهاية ما دام موضوع هذه السيرورة وذاتها موجودان.

وبصدد "تطور الوعي عن المادة"، والذي لا يمكن تفسيره علمياً، كما تقول، فأود ان اشير إلى إن من الخطأ الحديث عن تطور الوعي من المادة كتطور شيءٍ من شيءٍ آخر. فالوعي ليس بشيءٍ موجود إلى جانب المادة، مختلف عنها، بالرغم من نشأته في مجرى تطورها. إن الوعي انطولوجياً ما هو إلا مادة واعية. إنه محمول لحامل هو المادة الواعية. اي، بكلمات اخرى، إنه صفة تميز مادة عالية التنظيم والتطور. فالمادة في سيرورتها التطورية لا بد من ان تصل إلى تلك الحالة لها، اي إلى ذلك الشكل الراقي من اشكال وجودها والذي تظهر فيه صفة نوعية جديدة لها هي الوعي. فالوعي لا يمكن مقابلته بالمادة انطولوجياً كواقع متميز عن هذه الأخيرة بصورة مطلقة. إن التمايز بينهما هنا هو تمايز نسبي ملموس، هو تمايز بين المحمول والحامل، بين الصفة والموصوف. إن التعارض بين الوعي والمادة من الممكن أن يكتسب دلالته فقط على الصعيد الجنوسيولوجي (المعرفي). إننا هنا نجد أن الوعي كذات يقابل المادة كموضوع من الخارج، اي إنهما يصبحان ضدين متخارجين ومتلازمين في آن واحد. ولكن حتى هنا لا يقوى الوعي إلا ان يكون مجرد إنعكاس للمادة. نعم، إنه إنعكاس ليس خاملاً، بل إنعكاس فعّال يؤثر تأثيراً نشيطاً في المعكوس، يستطيع من خلاله ان يغير هذا الأخير. وبهذا نستطيع ان نقول بان الوعي لا يعكس العالم فحسب، بل ويغيره.

أما حقيقة ظهور الوعي كنتاج لتطور العالم المادي، فهي أمر لا يعجز العلم عن تفسيره، كما تعتقد. على الضد من ذلك تماماً، نجد ان العلم المعاصر قد قطع اشواطا مهمة في هذا الشأن. فعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم الحياة (البايولوجيا) وعلم فسلجة الجهاز العصبي المركزي وعلم الوراثة وعلم الجينوم وعلم الهندسة الوراثية وعلم النفس وطائفة اخرى من العلوم المعاصرة حققت إنجازات مهمة في تفسير كيفية نشوء وتطور الدماغ البشري، وكيفية تبلور وعي الإنسان بفعل عوامل ليس بايولوجية فقط، بل وإجتماعية ايضاً كالعمل واللغة والتواصل الإجتماعي، وفي الكشف عن الأساس الفسلجي (المادي) للعمليات السايكولوجية (الروحية) .. إلخ. وبفضل هذه الإنجازات وما سيلحقها من نجاحات تتكشف تدريجياً الصورة العلمية لنشأة الوعي الإنساني وتطوره.

• ماهي المعايير العلمية في بناء النظرية العلمية لدى العاني؟ هل لدى العاني معايير محددة تميز بين القضايا العلمية والقضايا غير العلمية وما هي معايير المفاضلة بين الفروض العلمية التي تنطبق عليها معاييره؟ عند بوبر مثلا المحتوى المعرفي.

- إنني اشخص اربعة معالم اساسية أو جوهرية تميز المعرفة العلمية عن سواها من المعارف الإنسانية. وأول هذه المعالم هو العقلانية. فالمعرفة العلمية هي، إذن، معرفة عقلانية، اي معرفة مستمدة من العقل وليس من الإيمان. وبهذا نجدها تختلف جوهرياً عن المعرفتين الإسطورية والدينية، والتي هي معارف حسية عاطفية تنبع من الإيمان. إن عقلانية المعرفة العلمية هي ما يقربها من المعرفة الفلسفية، والتي هي الأخرى معرفة عقلانية. و هنا لا بد لي ان اشير إلى واؤكد على إن العلم والفلسفة، كما ارى، هما شكلان متباينان للمعرفة العقلانية. فالعلم معرفة عقلانية - تجريبية، في حين إن الفلسفة هي معرفة عقلانية - تأملية خالصة، لا تعتمد الدليل التجريبي باي صورة كانت. إن الفلسفة لا تستخدم المناهج التجريبية في البحث ولا تمتلك قاعدة تجريبية لها، كما هو الحال في العلم، الذي يستخدم هذه المناهج ويمتلك مثل هذه القاعدة. إن هذا الفرق الجوهري بين المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية لا يسمح باي حال من الأحوال بالإرتقاء بالفلسفة إلى مصاف العلم، اي بإضفاء طابع علمي عليها. فالفلسفة ليست علماً، في تقديري، بل هي، كما أرى، معرفة لا علمية. او بتعبير ادق إنها احد اشكال المعرفة الخارجعلمية، اي واحدة من المعارف الموجودة خارج دائرة المعرفة العلمية. والجدير بالملاحظة إنني بتصوري هذا اختلف مع غالبية الفلاسفة بمن فيهم الفلاسفة الماركسيون المعاصرون الذين يعتبرون الفلسفة علماً.

أما المعلم الجوهري الثاني الذي تتميز به المعرفة العلمية، فهو نظامية هذه المعرفة. إن المعرفة العلمية هي نظام متناسق داخلياً من المفاهيم والتصورات، موحد على نفسه ومتوافق مع ذاته بشكل صارم، بحيث لا يدع اي مجال لأي تعارض (لا توافق) او تناقض بين العناصر التي يتألف منها. ومن هذا المنطلق يبدو العلم احادي النزعة، احادي الخيار، بحيث لا يتيح للأفكار المتضاربة والنظريات التي تستثني بعضها ان توجد وتعيش بسلام تحت خيمته. إن المعرفة الخارجعلمية هي وحدها التي تجيز لنفسها اعتماد افكار متضاربة والقول بتصورات تناقض بعضها بعضاً. اما المعرفة العلمية، فلا تجيز ذلك، لا من بعيد ولا من قريب. ففي علم الحياة، مثلاً، لا يمكن لفكرة التطور ولفكرة ثبات الأنواع ان توجدا جنب بعض وتعتمدا معاً كتصورات علمية مسلم بها. إن إقامة الدليل العلمي على صحة فكرة التطور حولها إلى مسلمة علمية تم في ضوئها دحض فكرة ثبات الأنواع، والتي بسبب ذلك رميت خارج دائرة العلم. إن الإختلاف في العلم مجاز، والنقاش مباح، بل ومحبذ على صعيد الفرضيات فقط. ولكن ما ان يتم إثبات فرضية من بين الفرضيات المتناحرة باقامة الدليل العلمي الصارم على صحتها وتحولها من جراء ذلك إلى مسلمة علمية ملزمة، حتى يتم نبذ كافة التصورات المخالفة لها كتصورات لا علمية.

إن المعلم الجوهري الثالث المميز للمعرفة العلمية هو برهانية هذه المعرفة. إن المعرفة

العلمية ليست معرفة اعتباطية، بل هي، على العكس من ذلك، معرفة مبرهنة، اي معرفة تم إثباتها بالبرهان والحجة. فعلى العلم ان يثبت صحة مفاهيمه وقوانينه ونظرياته بالدليل العقلي (البرهان المنطقي) و/ او بالدليل التجريبي (البرهان بالتجربة العلمية). فهناك، إذن، شاهدان او سلطانان وحيدان في العلم، هما العقل والتجربة، ولذا فكل ما يتعارض ويتنافى معهما من تصورات يلفظ خارج دائرة المعرفة العلمية. وعليه، استطيع ان أقول بان المعرفة العلمية ليست معرفة قابلة للبرهنة وحسب، بل هي معرفة تمت البرهنة على صحتها بإثباتها بالدليل العقلي و/ او بالدليل التجريبي. فهي، إذن، معرفة ليست إفتراضية، كما يدعي بوبر، بل يقينية بكل ما في هذه الكلمة من معنى. فلو كان قانون الجذب العام، مثلاً، معرفة افتراضية وليس يقينية، لما استطعنا باستخدام فعله ان نسيّر طائراتنا ونطلق مركباتنا الفضائية، ان نصل إلى القمر او المريخ، او ان نحدد بدقة عالية موقع الأجرام السماوية. فالمعرفة العلمية، إذن، هي معرفة مبرهنة، معرفة يقينية، لا يمكن لبوبر او لغيره دحضها مهما حاولوا ذلك. إنها معرفة لا تقوى السيرورة العلمية اللاحقة على تفنيدها وإلغائها بالكامل. إن جُل ما تستطيعه هذه السيرورة هو تدقيق هذه المعرفة أكثر فاكثر.

واخيراً، المعلم الجوهري الرابع المميز للمعرفة العلمية يتلخص في موضوعية مضمونها. إن مضمون هذه المعرفة لا يخضع، إذن، لا لوعي ولا لإرادة صناعها وحامليها، وأعني بذلك العالم والمجتمع العلمي. او بكلمات اخرى، إن هذا المضمون لا يخضع لوعي وإرادة الإنسان او الإنسانية بشكل عام. ومن هنا أخلص إلى القول بان مضمون المعرفة العلمية ما هو في الواقع سوى تجسيد للحقيقة الموضوعية بعينها. إن هذا المضمون والحقيقة الموضوعية المتجسدة فيه ومن خلاله هما تحديداً اللذان يشكلان، في تقديري، الأساس الموضوعي لعلمية ويقينية ما ندعوه بالمعرفة العلمية. ولذا، فبدونه لن تقوم للعلم قائمة. إن غالبية فلاسفة العلم في الغرب ينكرون وجود الحقيقة الموضوعية، ولهذا نجدهم يستبدلون المضمون الموضوعي للمعرفة العلمية بما يدعونه بالذاتية المشتركة (Intersubje-tive) للعلم. إن الذاتية المشتركة تتجاوز الذات الفردية وصولاً إلى الذات الجمعية، ولكنها لا تتجاوز الذات وصولاً إلى الموضوع. فمن يقول بالذاتية المشتركة للمعرفة العلمية يجرد في واقع الأمر هذه المعرفة من موضوعها. ولكن من يجرد العلم من موضوعه لا يقوم في الحقيقة إلا بإلغاء العلم نفسه.

وبناءً على ما تقدم أخلص إلى تعريف العلم نشاطاً إنسانياً هادفاً إلى إنتاج واستخدام وخزن ونقل بواسطة مناهجه ووسائله الخاصة المعرفة العقلانية المنظمة المبرهنة والموضوعية في مضمونها عن الواقع الموضوعي والذاتي.

*** الدكتور فوزي حامد الهيتي عضو الهيئة التدريسية لقسم الفلسفة، كلية الآداب الجامعة المستنصرية، معاون رئيس جامعة المستنصرية السابق للشؤون العلمية، حاصل على شهادة الماجستير والدكتوراه من جامعة بغداد، وكان عنوان اطروحة الدكتوراه "اشكالية الفلسفة في الفكر العربي الاسلامي: ابن رشد نموذجا"، بينما عنوان رسالة الماجستير "نظرية العوالم الثلاثة عند كارل بوبر".**

أدب
و
فن

اتحاد الأدباء يبقى صوتاً عالياً للناس: الماء والكهرباء والآذان الصمّ..

من تفاقم الأزمات التي تصرُّ حكومات المحاصصة والبطالة والفساد على استمرارها، ومن قلب الوطن الحامل آلام شعبه، وهو يقارع بيديه المسالمتين، لينال حقوقه التي حوّلها ساسة الظلام إلى محض أمنيات، ومن كل الحناجر التي تصدح باسم العراق رفعةً ونهوضاً...
يقف الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، في هذا المفصل التاريخي المهم، ليملأ الآذان الصمّ للمتنفذين بصوت الحقيقة الصادقة، الحقيقة التي يحاول أغلب أرباب السلطة الإشاحة بوجوههم عنها.
ونذكّر هنا بصوت الشعر الهادر الغاضب المنطلق من المحرّقات الذهبية للجواهري، حين وقف مع الجياع والعراة، وحين بزغت قوافيه لتقول:

أنا ذا أمامك ماثلا متجبرا
أطأ الطغاة بشسع نعلي عازبا

أنا حتفهم ألج البيوت عليهم
أغري الوليد بشتمهم والحاجبا

فيا حكّام الوطن المبتلى بكم منذ سنوات، لقد وصل الحال إلى فورته العليا، وأنتم تربضون في عليين غفلتكم، بل تغافلكم المتعمد عن هموم الناس.
وانتم ترون الفقراء والبسطاء يموتون بين قتل وتشريد ونفي وجوع ومرض، وفضلا عن كل ذلك تردي الوضع السياسي والأمني بفضل سوئكم، وغياب الخدمات التي هي من أبسط متطلبات الحياة للمواطنين، فعجيب أمركم..!!!
تتوالى الأيام والسنون ويزداد غيكم، ويتواصل الانحدار في ظلٍّ تنعمون به والناس بلا ظلٍّ في حرارة تموز الجهنمية، ويتكاثف السواد ولا ماء ولا كهرباء ولا شيء سوى خرابكم، وفوق كل ذاك عنجهيتكم التي تستضعف المحتجّين وتقتّلهم لأنهم فضحوا عجزكم أمام الملأ.
فيا أيها الحكوميون...
أبشروا بصواعق الغضب تأتي مزمجرة لتعاقبكم على هذا التنكيل بالشعب، فنحن هنا لا نطالب، بل نقتصُّ للدماء التي سالت في محافظات الوطن شهيدةً وشاهدةً لشهداء من أجل كرامة العيش...

فأين احتواؤكم لما يجري؟!
وأين عقوبتكم للجناة؟!
وأين امتثالكم لتعويض المتضررين؟!
لذلك... يقف اتحاد الأدباء دمعة مواساة، ووردة سلام، وبركان غضب مع الأبرياء، ويدعو لسرعة توفير ما يطالب به الناس عبر تشكيل خلية أزمة تحتوي ما جرى ويجري، كما يصرُّ على معاقبة الجناة، وتطبيب جراح المتضررين، والتعجيل بوضع حدٍّ لهذا الخراب، ونحن إذ نقترب من تاريخ أكبر ثورة أعلنت الخلاص من طغمة الفساد في الرابع عشر من تموز، نذكّر بأن الأجدى بالمسؤولين أن يتنبهوا لما يحصل ويعالجوه، فهذا خيرٌ من ممارسة الاستعراض الأجوف المطرز بالزي العسكري، فالعسكرية شرف كان ومازال قامعا للمتغافلين.
ستتوهج سوح الاحتجاج، وتزيل الزبد عن صدورها، لتتكاتف مع كل قطرة دم أريقت، ومع كل مطلب عزيز يجهر به أهلنا، ويحاول المتنفذون قمعه.
موعدنا العراق... ففجره سرمديٌّ وقريب.

الاتحاد العام للأدباء والكتّاب
في العراق
الاثنين 9 تموز 2018

سلاماً ابن التكية الحمراء

منذر عبد الحر

مفيد الجزائري وابراهيم الخياط في زيارة الى سعد محمد رحيم في بيته

السعدية من أعمال خانقين في سواد ديالى. تقع على الطريق العام بين بغداد والمنفذ الحدودي مع ايران، وتحدها جلولاء شمالاً وبحيرة حمرين جنوباً. يعود تاريخها إلى عصور قديمة وثمة تلّ أثري يدلّ على قدمها يسمّى تلّ سليمة

المدينة تحمل أيضاً اسما تركمانيا هو "قزلرباط" وجاءت التسمية من روايتين، الاولى تتكئ على قصة بنات كن يلعبن حول بئر في يوم ذي ريح صرصر فوقعن فيها وغرقن، اما الرواية الثانية فتعزو السبب لوجود تكية بالمدينة مبنية بآجر احمر وترجمتها التكية الحمراء.

ومن المفارقات أنّ على أرضها دارت طواحين معركة جلولاء وليس على أرض جلولاء الحالية، ولكنها لم تحمل اسم المعركة الشهيرة.

هوية السعدية اجتماعياً مركّبة، وحسب ابنها نفسه، ترفض هذه القصبة رتابة البعد الواحد والطابع الواحد، وتؤكد على الهجنة التي هي القوة؛ دالة التماسك الإنساني المدهش والفريد، وجمال التعدد والتنوع، وانتصار قيم العيش المشترك على ما عداها من قيم زائفة تختلقها السياسة والمصالح التافهة.

في السعدية، يعيش التركمان والكرد والعرب، ويتكلمون اللغات ثلاثتها ولكن تبدو، حسب ابنها أيضاً، وكأنها لغة واحدة، ففي الجلسة الواحدة، في المقهى على سبيل المثال، تتموج في الهواء الكردية والتركمانية والعربية، فيسأل أحدهم بالعربية ليجيبه الثاني بالتركمانية ويعقّب ثالث بالكردية.

وسعد محمد رحيم (تولد 1957) هو ابن هذي الديار وأهلها، فهو الأديب والباحث التركماني الكردي العربي في آن، وحسب قوله (إنّ ذكريات طفولتي وشبابي تنتمي لهذه البلدة المفتوحة على سماء رحيبة شاسعة، والمائجة بخضرة وألوان تُنعش الروح. تلك المواسم من سعدية الستينيات أبداً، في ضميري، لا تشيخ..).

ومن هذه المدينة القوية الصغيرة المنعشة، من حمضياتها وتمرها ومائها وظلالها وبساطتها ونقائها والأهم من تاريخها وتنوعها ولغاتها وقوس قزحها وصغرها، إكتسب سعد صحته الفكرية والاجتماعية، منها ومن ولعين تقاسما سنوات طفولته ومراهقته؛ الولع بالقصص والكتابة، والولع بكرة القدم..

أترك ولعه الثاني، فما يهمني هو بداياته مع الكتاب فيخبرنا بأن هوس الكتابة والأدب تغلّب عنده، تماماً في الثالث المتوسط مع حلم مرادف أن يكون لاعباً محترفاً معروفاً.

بدأ بقراءة القصص البوليسية ثم مال الى كتب توفيق الحكيم وطه حسين وعباس محمود العقاد، ومن ثم لنجيب محفوظ الذي يجعله من خلال (بيت سيء السمعة) أن يقع في حب القصة القصيرة، بينما من خلال أمّ غوركي وأحدب هيجو يستحوذ عليه عشق الرواية.

ولأنّ الورطة الكبرى في عالم الأدب والكتابة لن يكتمل إلاّ على يد معلم بوصلة لذا فهو يعزو تورطه اللذيذ الى مدرّسه د.محمد حسين آل ياسين في ثانوية السعدية للبنين أوائل السبعينات، والبدايات الصحيحة دائماً تؤدي الى نتائج صحيحة.

والنتائج الصحيحة تتبيّن اذا عرفنا أن سعداً نال عام 1992 الجائزة الثالثة في مسابقة المجموعات القصصية التي تجريها دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة ببغداد عن مجموعته (ظل التوت الأحمر)، ومع الجائزة أعطته الدار مائتا نسخة مطبوعة من مجموعته، فاحتار ماذا يفعل بهذا الكمّ الكبير؟ ولمن يوزع ويهدي؟ وهو لا يعرف إلا القليل من الوسط الثقافي،، وبعد عقد من الزمان والحصار فاز سعد بجائزة الإبداع في العراق عن روايته (غسق الكراكي)، ومع الجائزة أعطته الدار إياها مائتا نسخة مطبوعة من روايته، وهنا احتار أيضاً، اذ ماذا يفعل بهذا الكمّ القليل؟ فلمن يوزّع ويهدي؟ وقد بات اسما حاضراً قويا في الوسط الثقافي، ثم صار بعد عقد آخر قطّافاً ماهراً للجوائز العربية البراقة مع جهد نوعي جليّ في حقل المعرفة والفكر، فبعد رحيل الحميم أبي سرمد بأقلّ من شهر (رحل يوم الاثنين 9/ 4/ 2018 في السليمانية اذ كان مدعوا الى مهرجان "كلاويز") تجدني أكتب عنه اليوم، واليوم هو السبت 5 أيار 2018 ويصادف الذكرى المئتين لولادة كارل ماركس الذي إستعاده سعد عندما أجاب ولم يقصد التقريظ عن السؤالين العميقين: هل من حاجة لماركس ومنهجه وفكره في هذا العقد الأول من القرن الواحد والعشرين؟ وهل يمكن تصور مستقبل لهذا العالم خارج الأفق الذي كشف عنه كارل ماركس؟

سرديات الحزن وتفكيكها

جاسم عاصي

القاص (جوّدت جالي) معني بظاهرة الحزن المكثف الذي تنتجه الظواهر الاجتماعية والسياسية. فإنسانه واقع تحت تأثير المتغيرات الآنية، فهو يراقب نموذجه بحذر وحيطة وروح إنسانية، مقترباً حسياً منه، مضاف إليها حرصه على انتاج نص ذي حمولات فنية. القاص حريص على ترصين نصه، وتخليصه من الخطابات المباشرة، والعبارات الواصفة للظاهرة، بعيداً عن كونه ككاتب ينجز نصاً فنياً، وبعيداً أيضاً صورته المبتلات بجلد الذات وعقابها وإقامة طقوس التعزية إثرها. إنه كاشف لخلل الظاهرة من بين الظواهر الاجتماعية بشكل غير مباشر. إذ يطرح ظاهرة يمارسها الفرد أو تقع مؤثراتها على حياته، مما يُسبب له ارباكاً واضطراباً. هذه المؤثرات تخلق سلوكاً نفسياً، يتركز في الانعزال عن حراك الحياة، بسبب عجز الفرد على مقاومة ما يجري، ويأسه التام ممن يستطيع تغييره. فهو يستسلم للقدر كما تقول الحكاية الشعبية،وهو بذلك بطل تلك الحكاية التي تسرجها المدوّنات. بطرح مجموع صوّر للظاهرة التي تتخذ من صفة الحزن كرديف للفرح والمسرّة،وردود الفعل السلبية (الاستسلام) فقط دون أن يراكم ما يرافق الظاهرة من تأثيرات لخلق ظاهرة مقاومة الواقع. فالقاص لا يستنفد طبيعة ما يراه ويفحصه وهو يراقب ويستعيد ما اختزنته ذاكرته، بقدر ما يُعيد النسغ لمثل هذه الحياة البائسة، كي يضعها موّضع الامتحان الاجتماعي للآخر المراقب أو المار دون اكتراث، كذلك تعميق النظر إلى معاناة الإنسان النفسية، وتأثيرا الجوع والتشرد والبؤس الاجتماعي. وهو شديد الحساسية المتجسدة في ملفوظات تراجيدية إزاء مشاهداته، مستنداً إلى رؤية قارّة تعبر عن موّقفه الخاص والعام.

القاص معني بكثافة الظاهرة ومردوداتها النفسية، وليس لصوت يعلو على فضاءها ، فقد بدا في نصوصه جزء من الظواهر العامة، متشبث سيكولوجيا بتفاصيلها التي تظهر على شكل تعبيرات قصيرة خاطفة. أنها وكما أكد خلال السرد؛ أنها ظاهرة مهمة ومؤثرة، لأنها بمجرياتها تُعطل فرح الإنسان واستقرار وجوده. لذا نجده يوّزع رؤاه لما سمع أو شاهد أو عاش بتركيز سردي، دون أن يخل بمبنى النص. وأرى أن هذا مرجعه إلى ممارسة القاص للترجمة،حيث أخذت بقلمه نحو الترشيق في التعبير والاختزال لصالح بنية النص السردي. والأهم من كل هذا امتلاكه النظرة الموضوعية لما يُشاهد، دون الخضوع للدهشة والانبهار فقط. كذلك كوّنها ظاهرة

معرفية ؛تُنمي في ذات الكاتب حالة الانتقاء في ما هو ذي دلالة من الجملة القصصية في عمقها واختزالها. إنها كنصوص عبارة عن مثابات تتركز في مجموعة صوّر حياتية، تتخللها رؤى تنطلق على سجيتها من لدن نماذج القصص، الذين يتعاملون مع الوجود بعفوية واستسلام قدري، فيتلقون تأثير الأزمنة مرغمين، أو أنها حسب المعتقد الشعبي ؛ حقهم في الحياة، ولا إرادة تعلو على إرادة القدر، بعيداً عن أسس تشكّل الحياة وجدلية حراكها، والقوى المؤثرة في تصعيد وتيرتها، سواء بإيجابية أو سلبية. إن القصص خطابات تلام حراك الوجود العراقي بعد التغيير، موزعة نظرتها بفهم موضوعي، يحترم النص كوّنه بناء فني . إن نماذجه وكما ذكرنا لا تمتلك قوة الخطاب، سوى بسلوكها السلبي،هذه المفارقة تكاد تُشكل الرابط أو القيد النفسي الذي يكبل الإرادة، فلا مقاومة باتجاه ما يحيطهم من موت مؤجل. فقد ينتظرون شيء يكاد يكون غامضاً بالنسبة لهم. فقدرهم أن يعيشوا على مثل هذا الحال وهذا التقسيم الطبقي والفئوي، ولا إرادة هناك غير إرادة تحكم الصراع وفرز ظاهرة الفقر التي تنتج ظواهر منها الحزن الأبدي الذي لازم الإنسان كهوية أخلاقية، تؤكد هويته في الوجود. فالتقسيم الطبقي والفئوي واستفحال الضغط ذي الأوجه المتعددة، هي نتاج سلطة جائرة لا تُحسن سوى أسلوب القهر والعيش في رغد على حساب الكثرة. لذا فهؤلاء جميعهم يتكدسون في نصوص القاص، على اعتبارهم وجه العالم المهمش. هذه الظاهرة (سلب الإرادة الذاتية) محوّر مركزي يشكّل فضاءات كل النصوص، دون أن يكون ثمة ما يؤشر إلى هذا بشكل مباشر، فالحصيلة تكون بهذه الصورة من الاستسلام القدري. وهي سمة تشمل المعذبين في الأرض. والكاتب كثير الاهتمام بما ننعتهم هكذا؛ ممن يعيشون في هامش الوجود. فرؤى الطفولة مثلاً تنقاد إلى رؤى شعبية في مقابر الأطفال، وكيفية مداهمة الحيوانات التي تقتات على أجسادهم الساكنة في باطن الأرض. هذه الفكرة تعشعش في ذاكرة الطفل، معبرة ببساطة متناهية، تتركز في طلب تعميق حفرة القبر كي تشكل بهذا حاجزاً بين الحيوانات وسلامة الجسد. في هذه الفكرة، يبرز حرص الإنسان على جسده، حتى وهو ميت فاقداً لكل ما من شأنه انتاج الألم. وتكاد مؤثرات المعتقد، وطبيعة الحياة المريرة مثابرة في انتاج رؤى تُساعد على تفاقم الأزمة النفسية، كما حدث لنموذج نص (قطرات القبس) في حوار أداره بين (الجد والجدة وبلال) والتي أوصلت بلال إلى التشبث بالطبيعة من أجل الخلاص من شيء يداهمه، رامز له بعواء الكلاب. هذا الحراك الحواري الذي يُدار في ذهن الصبي، له مبرراته وهي تراكم المفاهيم والحياة غير المستقرة، وغير المؤمنة للإنسان أبسط مقومات الوجود.ولم تفارق الصبي كلمة (كلاب) ولا أصواتها المؤثرة. إذ نجد في سرديات القاص اهتمام وتركيز على الكثافة الحسية، التي تنتج حساً سيكولوجيا كمؤثر في وجود الشخصية. ومن أجل ضبط بنى السرد المنتَجة من طبيعة الإحساس بالخطر، نجده يوازي بين الأثر والتأثير والمؤثر كما في نص (الضبع). فنحن إزاء توازن حسّي خالص.

ورصد الحس موّزع بين الإنسان (الحارس) والحيوان (الضبع). إذ نقف على مجموعة خواص سردية منها الانضباط في اللغة القصصية، والابتعاد عن مؤثرات الواقعة الحسية والمادية، مما يذهب بالنص عبر لغته مبلغاً زائداً نطلق عليه (الترهل) في التعبير. فالقاص في النص وازن بين رؤاه الناتجة عن الإحساس بالخطر، وبين الحيوان خلال وجوده مداهماً. هذا التوازن هو الذي خلق نصاً منضبطاً، متماسكاً. فالنصوص موّزعة بين حرص الإنسان على البقاء بهذا الشكل أو ذاك (البحث في مكبات النفايات)، أو انثيالات مركزة لدى الشيخ والطفل المعوّق. كذلك نزوع إلى تجسيد صورة الواقع المأساوية، كما هي نظرات الغجرية في جملتها الأخيرة، التي هي محض تصوّر فقط (نظرت إلى بِركة الدم على الأرض الحصوية ؛ كانت أكبر من أن تكون للطفل وحده). ثم تجسيد صورة الطفل المريض الذي يعاني من تعطل في الدماغ. هذه مجتمعة تُسفر عن تصوّرات مدروسة يقينية عالية. ولعل العنوان (ضمور) يوحي بصوّر كثيرة، لكنها تكشف في النهاية عن عوّق مستدام.إن القاص وهو يقدم بضعة نصوص حرص على أن يكون أكثر تركيزاً، ومثابرة على رصد الأفعال وردودها، وهي من خاصيات دراسة وطرح الشخصية في النص. فشخوصه من عامّة الناس، ومن المهمشين الذي يتلقون الضربات الطبقية باستمرار.

القاص كان شديد الحرص على عتبات نصوصه، سواء العنوان الرئيسي للنص، أو الاستهلال، الذي بدا متميّزاً بالشد، كذلك العنوان المعبّر عن محتوى لاحق له. هذه الاهتمامات وغيرها رصنت نصوص القاص (جودت جالي).

مجيد الموسوي .. رثاء الذات عبر الآخر

جاسم العايف

(مجيد الموسوي)* مجايل لشعراء العقد السبعيني، ويشكل الشعر، له، عالما أوسع من وجوده الشخصي ، وعبر كل ما كتبه وأصدره كان - الشعر - السعي الذي لم يفارقه :

"أيها الشعرُ
أطلق زوابعك في سهوبي
ودعني أتحرر من خفة اللغة
وهشاشة الهواء
وهروب المعاني..!
فقد آن أنتزع من قفص الصدري فؤادي
وأرميه في التيّار الأعمق الهدارِ
التيار الذي يحفر مجراه معربداً
ويملأ الأقاصي بالزبد
وانحدرُ
معه
حيثُ
ينحدر!".

نتلمس القصيدة لديه، بصفتها حالة غامضة من الغياب - الحضور ، الحلم - اليقظة، التذكر - النسيان، حالة من احتدام الروح يغدو فيها الإمساك بالبدء أو المنتهى أقرب للمستحيل. وحتى اللغة لا تكاد تلتقط من هذه الحالة إلا بعض سطوعها وشراراتها. القصيدة لديه تريد أن تقول شيئاً، أن تبوح بسر ما، برؤيا، بحلم، بشيء مدهش، شيء من السحر يؤجج الأعماق، ويشعل الروح. إنها أشواق متحدة بالأقاصي، ونشوة شاملة تتلبس الروح، ومن هنا يصبح تحديد بدء القصيدة شاقاً وعسيراً!. كيف تبدأ القصيدة إذن لدى (الموسوي)؟. ثمة محفزات توقظ فيه الحنين إلى عالم الغرابة والمجهول والرؤى، ترنيمة بلبل، وجه عابر، أغنية، فتاة ناحلة محبطة، كلمة في الريح، مشهد ما:

" أخيراً: أيها الوجهُ البعيد تمدَّ لي خيطاً رفيعاً / تستفزّ به الكهولةَ، أي خيط للنعاس يجيءُ! / أي شذا تبقّى، بعد/ أي ملاءة كالريح خافقةٍ سألمسها / واغسل في مساحبها اكتظاظ الشعرِ/ أيّ حديقةٍ أولى تفتحُ لي/ فادخل".

هكذا تتفجّر المصادفة أو المفارقة أو اللوعة الخفية ، فيندفع للقول ، محاولاً الإيغال في عالم الشعر، والإمساك بشيء من لهبه ونشوته، من شذاه وغبطته وربما من جنونه وفوضاه. ولكن هل هذا التوصيف يكفي لولادة القصيدة؟. عند هذا الحد نغفل مسألة غاية في الأهمية ،يذكرنا بها شاعر صيني عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ، كان من سوء حظه أن يخسر موقعة عسكرية، لكنه ربح الشعر!. ذلك الشاعر الذي جعله "ماكليش" في "الشعر والتجربة" دليله لمعرفة عالم القصيدة. إنه الشاعر "لوتشي" الذي يحدد الحواضن الموضوعية لولادة القصيدة، من خلال جملة من المسائل،

يرى فيها الأساس في ولادة النص الشعري بوصفه اصواتاً وكلمات ، قبل أي شيء، فإذا أردنا أن نحدد ذلك بنقاط أوردها " لوتشي" يمكن أن ندرجها على النحو التالي: يجلس الشاعر على محور الأشياء، و يتأمل في سر الكون ويغذي عواطفه بمآثر الماضي. ثم يتنهد لمرور الزمن ،إذ يتقلب مع الفصول. ويعاني من البرودة وقلبه مفعم بالرهبة. فإذا اطمأنت روحه ، رمى بالكتب بعيداً، وتناول ريشته ليعبر عن نفسه بالكلمات. هذه القضايا هي التي تضبط إيقاع الشعر، وتحدد اتجاه بوصلة الشاعر، وتولد القصائد من خلال تلاحمها في سياق متصل خاص، وإذا تأمل المتلقي هذه الآراء التي تبدو للوهلة الأولى، محض تعبيرات، فإنها تنم لوحدها عن لَمع من المعرفة، تشع من وراء الأقاصي البعيدة التي يقطعها الساعون وراء الشعر:

" من ترى
أيقظني في آخر الليلِ
وغطّاني بغيم الأسئلة
من ترى
أسلمني الجمرةَ
وانسل بلا صوتٍ
إلى الغابة ملتفّاً بخفق النجمةٍ المشتعلة
تاركاً في معطفي البرقَ
وفي كفيَّ
عطر السنبلةْ
مضرماً في روحي النار
التي أسميتها : الشعر!
.....
تُراني
أرفض السرَّ
الذي أودعنيه
أم ترى أن أقبلهْ"؟.

الشعر لدى (الموسوي) ليس مجرد انتظار سلبي لانبثاق الرمز من أعماق اللاوعي، بل من قطبين هما، الإنسان - العالم، لينبثق بعد ذلك ضوء القصيدة المشع من الأشياء، التي يتأملها. أن هذا وصف خارجي لولادة القصيدة، ولكن بأي طريقة، يحدثنا "لوتشي" عنها؟. فالشاعر هو الذي "يأسر السماء والأرض داخل قفص الشكل". إنه بكلمات أخرى ليس ذلك المخترع للأشكال الحرة، بل العكس إنه يستخدم الشكل كشبكة، يتصيّد، ويأسر التجربة جميعها ويحدد "لوتشي" ذلك بقوله: " نحن الشعراء نصارعِ اللاوجود لنجبرهُ على أن يمنح وجوداً ونقرع الصمت لتجيبنا الموسيقى، إنك كشاعر تأسر المساحات التي لا حد لها في قدم مربع من الورق". بالنسبة للموسوي القصيدة لا تولد من فراغ أو من حسن النوايا، إنها معاناة خاصة تجمع طَرفَي التأمل والشكل، أي تفريغ رؤيا الشاعر في شكل، إنها الإنسان بكل تجلياته، ومعه الأشياء جميعها لكن داخل شكل محدد.

2

ثمة مهيمنات تلقي بثقلها على ديوانه "كوابيس انكيدو" ومنها علاقات المرثي - الراثي، وتوجه المرثية يقع بين ثناياها، ، فالمرثي ، غالباً ما يُقصى خارجاً ، ليكون الراثي (المهيمنة). "الموسوي" تلبس شخصية (انكيدو) عنواناً ومدخلاً، فالمرثي انكيدو يعادل - الموسوي- والنص - كوابيس انكيدو- هو في النهاية نص - الموسوي- ذاته، وشخصيات النص رمزية وغالباً ما تستبدل. الموسوي ابدي قدرة على الذهاب

نحو التماهي في رثاء ذاته من خلال رثاء الآخر ببلاغة وقدرات موهبته الشعرية:

"حين انحنيت اقبل وجنتيكِ الباردتين
تلك الليلة شممت رائحة الحليب الأول،
بشفتيّ المبللتين بالدمع،
كنتِ نائمة كسراج مطفأ
ويداكِ مكبلتين بالسكون
وجسدكِ هادئاً
كسنبلة قطعت وألقيت فوق التراب
التراب الذي صار سر يدكِ".

نلاحظ أن " الموسوي" هنا ينشيء نصاً يحاول فيه تلمس محنة الميت - الشاعر ذاته - والذي ما زال حياً ، و يعمد إلى افتراض نفسه في نصه الذي تهيمن عليه رؤى الغياب ، وعبره يدخل ذلك العالم الغامض ، الكامن خلف المشاعر والحواس وتوجسات المرئيات اليومية، فيذهب للتأسي على ذاته مع وصية لا تتحقق :

"حين أمضي
إلى جدثي صامتاً
عارياً
غير هذي الثيابْ
اتركي في الترابْ
عند قبري
قرنفلةً
وقميصَ الصبا
إنْ أذنتِ
وبعضَ نبيذ شفيف
وهذا الكتاب".

3

يفتتح "الموسوي" مجموعته الشعرية "دموع الأرض" بيوميات الربيع الدامي مستعيراً فيها ما ذكره هنري ملير:"الحرب هي شكل من أشكال الجنون، سواءُ أكانت أهدافها نبيلة أم منحطة. والقتال ليس سوى فعل يدل على اليأس لا القوة ". لذا فهو يلعنُ شعرياً الحربَ.. الحربَ التي تخّرب الأوطان والمدن والإنسان وقيمه وذاكرته وروحه:

" رؤوس تطوّح حاسرةً،
ودماءٌ
ت..
س..
ي..
لْ !".

أما عن ما يرافق الحروب من بربرية وانتهاكات ،عبر التاريخ، وفي كل مكان وزمان، فيرى:

" في هدأة الليل
تأتيني أصوات العويل البشري:
أصوات المذابح التاريخية كلّها
أصوات الجماجمِ
والأكف
والأرجل..
أصوات الموتى".

)الموسوي) من الشعراء العراقيين الذين يواجهون الواقع الضاري والعالم وبربريته برومانسية، تلك الرومانسية الخلابة المفتقدة حالياً، وعبر الـ (أنا) الخلاقة وغير منغلقة على ذاتها، بغنائية مترفة:

"هكذا
مثلما قد
ترى خفتَ اللحنُ في فم هذا الفتى..
واستحالت قصائده حجرا..
....
كاد يتبّع الطير
وهو يغادر مكمنه الحرّ
لكنه دونما سبب واضحٍ

رجع القهقرى".

ثمة ميل في توجه "الموسوي" إلى رصد الواقع وضراوته وإصرار على عدم التصالح معه، من خلال تساؤلات، وتقلبات ذاتية، إنه يواجه العالم الصلد ،والراهن الفظ ، بالشعر والذي يتميز غالباً بالبحث والتأمل والأسئلة التي لا جواب لها:

"لماذا
توجست، حين دخلتُ المدينة،
من شجرٍ غائم
وعيون
تراود
خطوي ونهر بلون الرماد!؟".

مفتتح القصيدة يستدعي قصيدة "البحث عن خان أيوب" لسعدي يوسف، لكنها تشق لها طريقاً آخر، لا يلتقيَ بتلك القصيدة. و يفترق عنها بالموضوع وبخصوصية التوجهات:

"لماذا رأيتُ الحدائق والشرفات الخفيضة
والطرقات التي كنت اعرفها
والمنائرَ والعشب
قد وشحت بالسواد
لماذا!".

ثمة نبرة خاصة للحلم والشفافية جعلت رؤيته تتجه صوب التأمل والتفكر ومعايشة الخيال فهو ينفذ إلى الوجود الإنساني عبر نصوصه الشعرية وغنائيته روحياً، وبوحه وحنانه المُفتقد :

" أترى:
كلما اقترب الوعدُ
واختلج النجمُ
ساوره الوهمُ ثانيةً
فاكتفى بوساوسه سفناً
ومضى
مبحرا..!".

3

(الموسوي) الشاعر مسكون بالأسئلة ، أسئلة غارقة في الوجدان، وهو المفتون بكل شيء يعيشه ويراه، ومنه مدينته، وعبر بعض قصائده يتفرس في بقايا الأمكنة المحلية وخصوصيتها التي كلما ننأى عنها، نعود لاستعادتها، بوسائل وطرائق وصيغ شتى، ونسقط على الكثير من بعض مظاهر الحياة المادية فيها، حاجتنا المتواصلة للإحساس بالحماية والأمن اللذين يمكن، في لحظة ما، أن يتوفرا لنا. ولا يفتر الموسوي عن ترديد (بَصّرته)، كأنما خلق لها، وغمس في تيارها واستنشقها:

" البصرة/ عين الأرض الأولى: الاهوار/ البردي/ القصب/ الصفصاف/ طيور الماء/ السمك البنيّ/النخل/ الطين الحريّ/ النبق/ العشبُ/ الشجرُ/ العشار".

"البصرةُ
لمعٌ في ذاكرة البرقِ
وسيدة لا تنسى حين تغادر:
تترك بعض أنوثتها
النفنوفَ المبتلّ الخفينِ
ودغدغةَ الآه!.
البصرة
آخر ما نملك في الأرض
وأول
ما يرفعه الله".

انه ذلك الوجد المتسرب لروح الشاعر ،التي لا تعرف استقراراً ولا تهدأ عن الهيمان. الموسوي يغريه الخوف من حيرة الجواب عن السؤال، فيواجهه بسؤال آخر، وهذا ما يميز شعره في "مخاطبات العشب"، و"يقظة متأخرة"، وكذلك مجموعته "دموع الأرض". ثمة ضجيج الأسئلة المتواصل إذ

تتكرر مفردة ”لماذا“ كثيراً وهو سؤال ينبع من المجهول الذي نلمسه في الوجود عامة وفي الحياة الخاصة:

” لماذا تركتِ يدي ومضيتِ
لماذا تركتِ قميصي المدّمى ببيتي
لماذا، وقد بح صوتكِ من وحشةٍ ،
بحّ صوتي
لماذا وقد قمت
من جدثي عارياً
بعد أن صلبوني عانقتني
وبكيتِ !“.

4

الأستاذ (محمد خضير) ذهب عبر كلمة له نُشرت في خاتمة مجموعة (الموسوي) الشعرية ”لتأخذني أقدامي هناك“: إلى أن البنية القصيرة لقصائد المجموعة ساعدت على إحداث آثار من نوع الآثار السردية في القصائد ،فالنواة السردية- المصورة في هيأة اثر شرقي، كالقباب والأوثان والسفن أو المشبعة برؤى شخصيات استثنائية كابن سيرين وابن زريق - تسبح في وسط رنيني، استرجاعي يملأ المساحة بين حاضر ثقيل العوام وماضٍ شفيف الكثافة - ص 168. ويرى الأستاذ (خضير) لابد من تشذيب رحلة السرد الشعرية البعيدة المدى من شوائب السرد النثري القصصي وتهاويل المفردات المعيبة للانسياب الشعري ودقة الوصف الشاعري، فقد يقع الشاعر في غفلة استعمال المفردة اللغوية كما يقع البحار في مصائد البحر.(ص 171) . كما ذهب الناقد (مقداد مسعود) في قراءته المعنونة ”نزهة في حدائق الشاعر مجيد الموسوي“ إلى أن ”المخاطبات“ فيها هي مخاطبات ”الموسوي“ لا ”النفري“ والعشب عشبه لا عشب الشاعر ”والت ويتمان“ ، في إشارة إلى ديوان الموسوي ”مخاطبات العشب“، وهذا لا يعني انه يتقاطع مع المخاطبات الأصل، المقصود ، مخاطبات (النفري)، فهو قد توقف طويلاً عندها وتحرى فيها ليصل بعدها إلى مخاطباته ”هو“ لا مخاطبات ”سواه “، والموسوي وبحسب الناقد (مسعود) استروح طويلاً عشب (ويتمان)، في إشارة إلى ديوان ”والت ويتمان“ المعروف بـ”أوراق العشب“، ويؤكد (مسعود)، على إنه يستريح قربه ويسقي أعشابه (هو) لا أعشاب (ويتمان). نلاحظ في مجموعة ”مراثي الأزهار البرية“ إن (الموسوي) حاول الإغفاءة قليلاً، لم يحلم بـ”كلكامش“ بل تراءت أمامه أزمات وكوابيس (انكيدو)، لتزيده الأسئلة إرهاقاً.. الأسئلة التي لا يزال باحثو الوعي الإنساني يحفرون في طبقاته الشقية، وهو لا يجد من شفاء لروحه إلا بالتوجه نحو العالم الأرضي:

” وأخيراً
توجهت للبحر
تجاوزت كل الصخور الأنيقة
والكتب المستريبة
والنوم
غادرت مملكة الارتخاء
وراء الزجاج الملون
غادرت منزلنا
وتوجهت للبحر.
.....
.....
-:اشعر إن الموت ينقر بابي“.

انه يتوقع المباغتة دائماً، والموت مهيمنة متكررة في شعره ، الموت ليس كمحاولة

لإلغاء الذات، بل الخوف على الذات من الانقراض الأشد قسوة ، والتصدي الذي يعمد إليه هو استعارات الغائبين ، والأمكنة النائية ، وعبرها يعقد علاقة تضاد بين رقة المتخيل والواقع الفظ والذي لم يتصالح معه نهائياً. وفي استعاداته للغائبين في ديوانه (دموع الأرض) ما يمكن أن يمنحه الشاعر من اهتمام وحنو تجاه الكثير من أصدقائه ومعارفه والأمكنة . ثمة بريق خاص في ما نفتقده من كائنات إنسانية كانت تشاركنا حياتنا، بكل ما فيها من بهجة نادرة، وذكريات لا يمكن نسيانها، لكن (ذئب) الموت انقض عليها، لذا يكتب، شعراً، عن: حديقة الأب، وقبر الجدة، وعبد الخالق محمود، ومهدي جبر، وعبد المنعم البارودي، ومحمد طالب محمد، ورشدي العامل، ومصطفى عبد الله، وجبار صبري العطية، ومحمود البريكان، ويعرب السعيدي، ومحمود عبد الوهاب:

" بغتةً
قد صار ينأى ... كيف
صرتُ أراه منبثاً ،خفيفاً ، فائضاً
ناديتُ :"محمود انتبه !. محمود "!.
لم يسمع ندائي
كان ينأى
مسرعاً
ينأى - ويحجبه المدى الأبديّ عن عيني -
ويتركني
وحيداً".

وسلام الناصر، وحسين عبد اللطيف، وموسى كريدي، وشقيقه حسون الذي غيبته الحروب، وصديق طفولته احمد الذي أجهزت عليه الأمراض، في سنوات الحصار، وأمه، ووالده، وخاله، وجده، وليلى العطار، وذلك الشاعر المجهول، ونازك الملائكة، و"الأمير السومري المتسول- كزار حنتوش":

" سأتنحى قليلاً
عن خطوتهِ الندية، المرتجفة
كي يمرَّ إلى مثواه
فلا يليق بالشاعر
غير
تاج الأبدية".

ودماء شباب سبايكر:

" رأيتُ الشبان ينامون على الحصب الدموي الساخن
منكشفين كوجه عارٍ في الريح
ومعتنقين براءتهم..
ووحيدين
وحيدين
وحيدين
كما لو كان الموت جرى في أرضٍ أخرى أو في زمن آخر..!".

و"مهدي محمد علي"، صديق الصِبا والشباب، بعد ارتحاله عن البصرة والعراق هارباً، برفقة عبد الكريم كاصد، منتصف عام 1978، عبر صحراء السماوة، وتنقله المتواصل بين البلدان المتعددة، وبعد وفاته في المنفى ، يوجه له قصيدته (موت المغني):

باردةٌ
وموحشةٌ
تلك الغرفةُ النائية
التي كانت عامرة
بالدفء والطبول
أيتها المزاميرُ
كفي عن الغناء
فقد انتهى الحفل!.

**

وقد آن لي
أن أقول
وداعاً، إذن
يا أميري الجميل..!
أهذا، إذن ، آخرُ المنتأى،
آخرُ الأرض،
آخرُ
هذا
الطواف
. الطويلْ ؟
أهذا ،إذن،آخر الحلم:
شاهدةٌ نصفُ مائلةٍ
وترابٌ نديٌّ
تسفسفهُ
الريحُ
تـأتي وتمضي..
وتأتي وتمضي..
وكفاكَ مسبلتانِ
وعيناكَ مطبقتانِ
ليلٌ يطوق قبركَ
ليلُ ثقيل..؟
أهذا إذن آخر العمرِ؟.
يا للزمانِ البخيلْ..!.

مراثي ''الموسوي'' للراحلين ومخاطباته للإخر، وللأشياء الزائلة التي مسكها شعرياً، هي توجه، لاشك فيه، لإملاء النقص الحاصل في الوجود اليومي، ومحاولة للقبض على تلك اللحظات التي تتبدد، ومعها تتسرب الحياة.

* مجيد الموسوي: ولد شتاء 1945 في البصرة، وتخرج في جامعة بغداد - كلية التربية قسم اللغة العربية- 1967، وعمل في التدريس، ثم رافق الشاعر (محمود البريكان)، 10 سنوات وأكثر، في ''معهد إعداد المعلمين بالبصرة''، وغادر عالمنا الراهن ولحظاته الساخنة المريرة صباح27 - 1 - 2018، وأصدر المجاميع الشعرية التالية: ''مخاطبات العشب'' اتحاد الأدباء في العراق - بغداد ، ''يقظة متأخرة''، و'' كوابيس انكيدو''، و''مراثي الأزهار البرية'' دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، و''دموع الأرض'' - دار ضفاف 2013، و''نجم آخر هناك'' - 2015 اتحاد أدباء وكتاب البصرة، وأصدر، بطريقة الاستنساخ، قصائد نثر مطولة، كرسها لأستاذنا الراحل ''محمود عبد الوهاب''، وأخرى بعنوان ''كتابة على ضريح'' خص بها الشاعر القتيل محمود البريكان''، وجمعها بعد ذلك في مجموعة شعرية واحدة تحت عنوان ''لتأخذني أقدامي حيث تشاء'' صدرت عام 2017 عن اتحاد أدباء وكتاب البصرة.
بعد صدور جريدة ''طريق الشعب'' عام 1973، ساهم الموسوي مع عدد من الأدباء والكتاب والفنانين والصحفيين، بمسؤولية وتواصل، عبر اللجان التطوعية - المتعددة التي عمل على تأسيسها المكتب الصحفي لجريدة (طريق الشعب) في البصرة لتفعيل المشهد الاجتماعي - الفكري - الثقافي - الفني - الصحفي - البصري - العراقي، ودأب على نشر قصائده في (ثقافية - طريق الشعب) وصحف أخرى. لم يتوقف النشاط الإبداعي للموسوي على كتابة الشعر فقط، بل نشر بعض القراءات - المتميزة لعدد من المجموعات الشعرية، في بعض الصحف والمجلات العراقية، ومنها قراءته، أواسط 1975، لـ ''التسول في ارتفاع النهار'' المجموعة الأولى للشاعر المغدور ''محمد طالب محمد''، في ثقافية ''طريق الشعب''. وبعد سقوط النظام نشر في صحيفة ''المنارة'' نصف الأسبوعية، والتي صدرت في البصرة، عن (مؤسسة الجنوب للطباعة والنشر والإعلان)، وكذلك جريدة (الأخبار) الأسبوعية التي كانت تصدر عن شبكة الإعلام العراقية عدداً من الموضوعات الثقافية ومنها قراءات جادة لبعض المجاميع الشعرية العراقية - العربية، وله الكثير من القصائد التي لم يمهله الزمن لضمها إلى مجموعة شعرية خاصة.

ملف عن الشعر الكوردي

ئاوات حسن أمين

كلمة لابد منها :

المشهد الشعري الكوردي، له تأريخ طويل وعميق وعريق من حيث حجم الشعراء الذين كتبوا وساهموا في رفد الحركة الثقافية الكوردية منذ اول شاعر الى يومنا هذا، وحقيقةً رصد هذا المشهد الشعري ليس بالهين فقد عالجته اكثر من أنطولوجيا شاملة مما قام بها الشعراء او النقاد او باحثو الأدب، وانا ايضا لي مساهماتي في هذا المسار من خلال تقديمي وطبعي لانطولوجيا شعرية جيدة وطبعها في كتاب مستقل حيث طبعت في كل من بغداد واربيل
تحت عنوان (مختارات قصائد لشعراء كورد معاصرين)، واليوم أقدم باقة منتخبة جديدة من ترجمة لقصائد شعراء كورد من اجيال مختلفة وتجارب متنوعة وجغرافيا متعددة من خريطة كوردستان، ولو انها محاولة ولبنة لكتابي الجديد وأنطولوجيا جديدة، ولكن يقيني تام بأنها تأريخ يستحق التوقف عندها وتأملها ودراستها بجدية.
ولي ملاحظة بان بعضا من الشعراء الذين قمت بترجمة قصائدهم فهذه أول مرة تترجم أعمالهم الى العربية، ولكن هم بصورة أو بأخرى كانت لهم مساهمتهم ودورهم في رفد الأدب الكوردي بالجيد والجميل، ولكن لم تسلط عليهم الاضواء ربما لسبب شخصي أو موضوعي، وأنا قمت بترجمتها وتقديمها الى القرّاء لمعرفة أجيال شعرية جديدة بجانب الأجيال الأخرى وهذا نوع من النظر للمشهد الشعري الكوردي ....

ئاوات حسن أمين
مترجم ومعد الملف

الأسير

شعر : أحمد عارف

عندما تدخلين ..
حديقة عامة،
في أية مدينة .
أنظري الى قامة
أية شجرة .
وفي أي مكان
رأيت وردة ..
جميلة ومفتحة
فهي بالتأكيد
أسيرة ..
لبستاني
ذي وجه أسود ..!

أمسى إنتظاري شرابا

شعر : محمد كه ساس

أنا السراب ..
أمام تحسي الشراب
أمسى إنتظاري شرابا .
ولكن من شفاه الشراب
رويدا .. رويدا
روحي تصير ، ضبابا .
و أذوب على صدرها
وأخيرا .. أكون كما أنا ..!!
***
أفتحي الشباك ذاك
أخاف على قلبي
من ضغط شراب شفتيها
تنكسر ..!
أو يمسي روحي بأنفسها
ماء ..
***
أفتح الشباك ذاك
لكي تخضر أرض أحزاني
بأمطار عشقها ..!
ولكي تملأ كأسي الفارغ
بنظراتها الشرابية .
أو ..بهارمونية صوتها
تملأ .. بسمتي بالقهقهات .
***
إذن .. إيتها العشق
المكسور الأجنحة
أيتها الحركة الدائمية
إسمحي لي .. أسكر
بشراب شفتيها
لكي تبحر أصابعي العشر
في رائحة جدائلها .
***
أفتحي الشباك تلك

لكي أمسك يدها المطري
ونرقص رقصة زوربا
ولا أترك يدها ..
حتى .. تبتل روحينا بالعشق
حتى .. شفتينا، تلون باللون الوردي .
وفي اللحظة الاخيرة..
ننسكب في البحر .

الألبوم

شعر : أوميد شيخ كريم

هذا الألبوم المهلهل
القابع في مخيلتي .
غيرت مكانه مرارا
لذا فقد أشياء
فحذفت منها صورا كثيرة
وطارت منها الذكريات
الحلوة
والمرة .
لكن هناك أشياء لا تنسى
أو تأبى أن تنسى ....
وتكون قد تموجت لواحة مخيلتي
مثل ...
بسمة أمي
وسيجارتها القصب
القابعة في شفتيها
كانوا يحرقون هموم الحياة
والتى الى الأن لا أنساها أبدا
ورائحتها تملأ أحاسيسي .
***
ورائحة التراب
والعرق ..
المتدفقة من ملابس
– چوغة ومراخاني – لأبي
لاتفارقني .. وثابتة في ذهني .
وكل يوم ولمائة مرة
يحفر روحي
منظر اليشماغ الملطخ بالدم
والمنديل الحرير
لصديقي الشهيد
لا يمكن تناسيه ...!

غرفتي

شعر: ئاوات حسن أمين

في هذا الكون الواسع جدا
وفي جغرافيا وطني الممتد
من سحيق الأرض الى سحيقها ،
وفي مدينتي الجميلة كمزهرية ..
لي غرفة .. بحجم الصومعة

فيها فراش . . يسع اثنين
وأعيش وحيدا ..!
ولي فيها مكتبة صغيرة
تحتوي على دواوين ..
شيركو بيكه س
و
كاظم السماوي
و
رامبو
وبعض من الأوراق المبعثرة
تفرش الغرفة .
مسودات قصائد،
وبدايات لكتابة سيرتي،
ورسائل من أصدقاء لي
أخذتهم المنافي ..!
وعلى الجدار ..
علقت صورا ..
لگوران ..
و
السياب
و
أحمد شاملو.
وصورة لي.. واقف بشموخ
أقرأ قصيدة للعصافير
في غابة الحياة ..!
وألبومي الملقى على الارض
المجسد لصور أصدقائي
وحبيبتي ..
وابني ..!
وكتب أحببت بأن تكون دائما بقربي ..
مذكرات پاپلو نيرودا
و
رواية حصيلة الأيام
لإيزابيل الليندي .
وفي زاوية من زواياها
هناك گيتار مقطوع الأوتار
تجسد حبي الأزلي للموسيقى
وحلم مراهقتى الفانية .
وشهادتي الجامعية الممزقة
في إطارها المكسور
ملقاة في ركن منسي من الغرفة ..!
وساعة متوقفة منذ زمن
كانت دقاتها نبض فلبى ..!
إشتريتها من سوق الخردة
تيمنا بتأريخها البالي .. !
ترمقني من البعيد بنظراتها .
هكذا هي غرفتي ..
متواضعة .. راقية .
فارغة .. مكتنزة .
جدرانها من خجل الزمن
صدئة ..!
قبل أقل من نصف قرن ..
أتيت الى هذه الحياة وحيدا،
في يوم مفعم بالمسرات

وبعد أن ..
أستمرت المسيرة
ودارت الأيام .
وها أنا وحيد ..
أتأمل الخوالي
وأبكي بصمت
على الأطلال،
أعيش وكلي أمل بأنه ..
..... بعد حفنة من السنين ..
سياتي ابني آزيز :
ويدق بابها الموصد
وعندما ييأس من عدم فتحها
يكتب على بابها ..
ها هنا عاش أبي
ردحا من الزمن
في متحف الحياة ...!

السليمانية
17-7-2015
***

نقطة تفتيش!..

شعر : دانا عسكر

عند وصولي لكويسنجق ،
كنت أود قبل أن يسألوني في نقطة تفتيش
بدلا أن يقولوا : أخي هويتك ..
ليسألوني : أية أغنية لطاهر توفيق تحب ..؟
وعند وصولي الى أربيل ..أن يقولوا لي من
قتل عبد الخالق معروف ؟
لماذا نسي ..؟!
عند وصولي الى زاخو .. لأن يقولو لي :
گازينو تحسين طه في أية محلة تقع ..؟
وعندما أأتي الى السليمانية ، أن يقولوا لي
:من حطم قلب مولانا خالد ..؟
من كون العداوة بين كامران موكري وگوران
..؟!
وعند وصولي حلبجة ، أن يقولوا لي : لماذا
الناس هنا يخافون حتى من طيران الحمام
..؟!
وفي دهوك أن يقولوا لي :
كم من السنين وعبد الرقيب يوسف لم يعد
الى هنا ..؟!
وفي سنندج أن يقولوا لي :هل تستطع من
آوير أن ترى .. هادي ضياء الدين ؟
وهل تستطيع بأن تضع مستورة في جمله
مفيدة ؟
دون ان تزعل أحدا ..؟
ولماذا أحد لا يضع سوارة ئيليخان زاده في
جملة العاشقين .
وعند قدومي الى مهاباد أن يقولوا لي :اتعلّم
بسليمان الموعيني يقع في أية أحداث

الثورة..؟!
وعند عودتي الى كركوك ..
أقول صبرا .. فقد نسيت هوية آزاد صبحي ،
أذهب وأأتي بها من شجرة البرتقال الواقعة
في فناء دارهم ..!
اتوسل إليكم ..
بدلا من طلب الهوية ..إسألوني سؤالا عن
قدسية المسرح
والمدارس الحداثوية للفن والثقافة العامة .
وقولوا لنا :
داخل السيارة ممنوع التنقل بدون كتاب ...!!
بدلا من جيوبنا .. فتشوا عقولنا ..!
بشرط ، من يقفون في السيطرة ..
أن يتعاملوا بأكثر عقلانية مع الكتاب والثقافة
ويصادقونها ....

بعيدا عن صلوات أمي

شعر : إبراهيم الهوراماني
أعرف ..
بعد برهة،
هذا الشارع
يغدو أكثر فراغا
أكثر صمتا
أكثر وحدة .
أعرف ..
بعد لحظة
حول حلقات ذكر الشجرة
وفراغ الشارع الوحيد
كوريقة متساقطة
من الشجرة ،
أنا .. أضيع نفسي
أعرف أن هذا الشارع
وحيد ..
ولكن أنا أكثر وحدة منه ..
أعرف بأني
لست وحيدا،
ولكن أكثر وحدة مني
هي نفسي ...!
هاهنا
في هذه قارعة الطريق
الوحيدة ،
كم
أحاول
دخان سبيلي
لا يرجع طريقي
الى ضوء القمر
ولا يرجع الى
حكايات عينيها
وقلبى .
كم أحاول
لا أعرف

متى يأتي الغروب ..؟
والأنجم .. متى
يعقدون دبكتهم الليلية
كم أحاول
لا أعرف
كم بقي من العمر
وللحظات الفراق
وظهور السياچمانة ..!
من هنا .. من هذا قارعة الطريق
الى أين أتوجه؟
فرع وحيد
مسجد وحيد
محلة وحيدة
صديقة وحيدة
نبح وحيد
أكثر وحدة من
قصيدة ممتزجة بمديات الرؤى .
من هنا
وبلبس أسود
أندمج
وأرقص
وأغني
مع اللون القطراني لليل
لا يعرف أحدانا الآخر
أنا منحت عمري للصمت
وأفنيت عمري الى قامته
شعيرة وأمام جثة وريقة
أنا وحيدة ..
وحيدة..
وحيدة
بعيدة عن عيون الليل النرجسية
وبعيدا عن صلوات أمي
وفي غفلة من الرسائل التي كتبتها لك
ومع رقصة غريبة قبل بلوغ الليل منتصفه
مسحت آخر آثار أقدامي المتبقية .

مجنون عاشق

شعر : آسو شيخ كمال
لا فصل يحتوي الموت ،
والنفس الأخير .. بداية للحياة .
***
أبدأ فصل الربيع بموت
شقائق النعمان .
***
في الصيف ..
تجف سنابل الحنطة
والشفاه مبتلة .
***
وفي الخريف ..
أوراق الأشجار
وبرقص .. تسلم

أنفاسها الاخيرة
الى الجداول .
***
الشتاء ..
تجعل أصابع الصعيق
ممتزجة ..
***
عند المجنون ..
العشق دائم الحياة ..!
***
عند العاشق ..
الجنون نوع من
التسامح ..!
***
الفصول والمجنون والعاشق
دائما شفاههم طرية ..!
***
كل الفصول .. لها
الجنون والعشق الخاص بها ..!
***
بداية ونهاية الفصول
فقط القبلة ..!
***
العشق يبدأ بالقبلة
والعاشق لا يعرف الموت ..!
***
المجنون ولهان بالشفاه
والعاشق مجنون بالشفاه ..!
***
المجنون والعاشق توأم
يضحكان .. في جميع الفصول ..!
***
كل الفصول ..
لها سمات مجنون
والمجنون له
سمات كل الفصول ..!
***
يتشابه المجنون والفصول..
والعشق جمع الألوان ..!

ومضات

النظرة ..
صورة الغيمة بعد المطر .
الرقص ..
لحظات الاعتناق .
القبلة ..
أول خطوات الغرق .
العين ..
بحر .. لامتزاج .
الحلم ..
فيلم للمستقبل .

لوحة

شعر : محمد البدري
نسر تائه وولهان
بكى على ضريح – مه م–
وقال :
إفتح عينيك ..
النبع الذي
كنت تتمنى
تثمر منها قطرة ،
اليوم ..
أمسى نهرا ..
وأمسى بحرا ..!

من يرجح همومي

شعر : عمر عبد الكريم
أمست همومي يتيمة
لا يوجد أحد ..
يمد يد العطف
فوق رأسها .
أنا ووحدي أنا
ونفسي الوحيدة
وظلي ورائي ..
ضعت في فوضى أحزاني
لا يوجد أحد ..
يخطو خطوة صادقة معي
ولا قلب ؛
يحضن قلبي الوحيد
بحرارة .
والجدائل الذهبية للشمس
قد ملت آهات همومي
وتزعل في الأماسي
وبعدها ..
تتركني .....!
وحيدا .. وحيدا
وعندما يأتي الليل
أريد أن أضع رأسي
على صدر ظلي المنهمك
حتى ولو لبرهة
يحس نفسي بالطمأنينة
ولكن ..
عندما يأتي المساء،
هو أيضا
وبلا ترحم ..
يتركني وحيدا ..!

بيت أبي

شعر: كژال أحمد
الى صديقي .. ئاوات حسن :
أقرع الجرس الوحيد
لبيت أبي
أنا لست موجودة ،

حتى بوجه مبتسم
وكلام أحلى ..
أفتح ثغر الباب المغلق
وأبي أضاع السمع في رحلة
الحياة
وأمي أضاعت رجلها في نفس الرجاع ..
ولكن رغم كل شيء
أنت ..
أقرع الجرس مرة ومرتين وثلاثا.
بعدها .. اذهب ،
لانه .. منذ فترة
ولا صديق من أصدقائي
وقف أمام هذا الباب ..!

سيلفي

شعر : د.آراس عزيز عبدالله

اليوم .. أبناؤنا
إشتروا كيسا من التمر
وكيلوغراما من
الزبيب الأسود
وثمرات من القيسي اليابس ..!
مع الخبز نوردو السفري لأمهاتهم
حضروا حقائبهم وجعبهم
بعد بضعة أيام أخرى ،
في سواحل إنجة
يتوارون عن الأنظار ..!
ويأخذون سيلفي
و ربما للمرة الاخيرة
يرمون صمون
السميد الأسطنبولي
الى نوارس البحر .

أفواجا .. أفواجا
أبناؤنا يقصدون أمواج البحر الهائجة .
وفي أصبوحة هذا العيد
بدلا من مرق القيسي الحلو
يأكلونها جافة .
مع النوارس.
وبعضا منهم والى الأبد
يمسون من نسل الحيوانات البحرية .
وبعضا منهم يضعون أقدامهم
على حافة الجهة الأخرى
ويجلسون القرفصاء في أحد المواقف
بانتظار عربة قطار
تقلهم نحو محطات مجهولة .
وبعضا منهم وفي شاحنات
مغطاة بأقمشة سميكة من الجلد
واحدا بعد آخر
يختنقون ...!
اليوم أبناؤنا
يتركون شهر العسل في الوطن
وفسحة في شارع سالم
وأماسي دباشان

والتسكع في ليالي أسكان
ومواضع اللقاء على جسر دلال .
اليوم أبناؤنا..
يحتفظون بصور عوائلهم
وصور معشوقاتهم
وبعضا من وريقات الدولار
في محافظهم الصغيرة
يذهبون ..
بعيدا .. بعيدا .. يذهبون .
بعد عدة أيام أخر
في سواحل إنجة
يتوارون عن الأنظار .
لا يسمعون شيئا
سوى ... نباح الكلاب
وصراخ الجندرمة .
وفوق قارب صغير مزدحم
وعلى الأمواج الهائجة
لا يفكرون بأحد ..
أو وطن ،
إلا الخلاص ..!
وكلهم .. يشهدون على أرواحهم
ويأخذون صورة سيلفي
ويمكن أن يكون هذا آخر مرة
يرمون صمون
السميد الإسطنبولي
الى نوارس البحر .

الإنصات للصمت

شعر : عبدالقادر سعيد

1

الحرب يعني :
عدم التفاهم بين صخرتين ..!

2

الحرب :
حقيقة
ممزوجة بالمهزلة ..!

3

قرار ..هو أن نهجم
عند الصباح،
وأنا ممتعض
من أن صورتك
تتلطخ بالدم
في جيبي ..!

4

في ساحة الحرب
نختلط ،
ولكن كنّا نعرفهم
من خلال عقارب
ساعاتهم،
فقد أخروها ..
(مئات السنين)
الى الوراء ..!

5

بيننا ..
بضعة أميال فقط
من الارض .
ولكن مئات أميال
من الحقد
يفصلنا عن بعض ..!
6
مصوبا فوهة بندقيتك
على قلب عدوك ،
ولكن ستجرح قلبا
بعيدا عن الحرب
بمئات الفراسخ ..!

الشباك المكسور لذكراي ، لا يعرف الشمس

ومضات : ده وه ن
مهداة الى الاستاذ عبدالكريم شيخاني .

الرائحة
خارج شباك ..
بدلا من أن تنبعث
رائحة العيد ،
أشم رائحة الخريف ..!

الثلج
من كثرما إنتظرت
هطول الثلج ،
ساعة يدي
أرقامها مسحت ..!

الذكرى
من كثر مللي من الحياة
كل ما لدي من الذكرى
وفي خيالي ووجودي
محوتها ..!

الحلم
الليل في الحلم
صلب،
اسكب لي جرعا من الكأس
فرويت الحلم للماء
وقال الماء:
قد تجرعت الجحود ..
وليس الشراب ..!

الموجة
يا معشوقتي ..
لا تغضبي،
من وحدتك وكتابك ..!
الأمواج ..
من ضجرهم
وفي ساحل البحر
يكسرون الذكريات ..!

كوكب الهوى/ ميلاد مدينة

حسن كريم عاتي

في إمبراطورية تتمدد على اتساع المدى، لا يوقف تمددها الأفق، أو حدود بصر. فإذا كان النظر يحده سراب يتلاصف في أطراف الفيافي والقفار، فالرؤيا المؤكدة في معرفة تأريخها، تؤكد امتدادها إلى خلف ذلك السراب. لم يظهر أي وهن في كيانها . فالحكومة الجديدة لأسرة نبيلة يسري الدم النبوي فيها كانت قد انقلبت على سابقتها منذ أعوام قليلة، فتركت الأسرة المنهارة أشلاء أبنائها تتبعثر في الآفاق ، ولم يجرؤ أعيانها وقادتها على الإعلان عن النفس، فاكتفوا بالتستر أو الهرب أو القضاء موتاً مبرماً في أرجاء دولة كانت تدين لها بالولاء أمصارها جميعاً. فكان خلفائهم الجدد يزدهون بعنصر القوة الجديد ،فأرجاء الإمبراطورية القديمة جميعاً بدلت ولائها، لتصبح تدين للخليفة الجديد في الإمبراطورية الجديدة.

غير إن أيه حاضرة من تلك الإمبراطورية لم تكن مضمونة الانتماء إليها. وان أعلنت ذلك. فتجربة الأمس تحضر اليوم. فتغير الولاءات يكون بتغير ولاة الحواضر واستبدالهم . وما يخبو تحت ذلك السطح ليس مؤكداً دائماً. وهو ما يجعل الخوف يتسرب إلى نفس الخليفة الجديد. فالشام محكومة الانتماء للدولة المنهارة. والكوفة منتمية إلى دولة سبقتها، انهارت أيضاً. والوقوف في أية مدينة من تلك العواصم لدول سابقة يعني الارتماء في أحضان المجهول.

ذلك ما أكده أهل الكوفة بتحريضهم الجند على الخليفة الجديد، في بادرة أولى لإيقاع الوهن في دولة متنامية. فأخذ عنصر قوته زاحفاً بهم إلى أرض جديدة يؤسس فيها عاصمة مفقودة لإمبراطورية أُستلمت حديثاً. غير إن قلق الخليفة ازداد مع إدراكه إن الهاشمية، العاصمة المتوقعة التكوين والحديثة النشأة، لن تكون ملائمة لعاصمة الأرض المملوكة له. فبعث رسله في خارطة عنكبوتية تجس منابع الأمن والرخاء في أرض مملكته، عسى أن يكون حظه أفضل في اختيار حل لازمة الإمبراطورية.

لم يكن للأرض على اتساعها ما ينم عن انتماء مؤكد للدولة الجديدة، أو حتى الإحساس بحياديتها، باستثناء أرض خراسان البعيدة ، التي انطلقت منها قافلة الوثوب على الأسرة المنهارة السابقة عليها. فالأرض تتربص انقلابا يحدث حين الغفلة ولو لهنيئة. ذلك ما اقلق الخليفة على مستقبل قد تنتهكه سيوف الخصوم في الثغور أو في الأمصار التي اعتلت تاريخ الدولة والناس، وانتمت إلى دول

تهالكت واهترأت وتلاشت دواوينها، وان لم تندرس.

كان الخليفة على دراية بتفاصيل تلك الأمصار والثغور. وعلى معرفة بأساليب إنشاء القوة الخفية التي تنام تحت عصا الطاعة، ضامرة العداء، لأنه كان أحد أهم روادها قبل انقلاب السلطة إليه. وان الركون إلى الدعة يعني ابتهالاً لليلة تشرق شمساً ملونة في صبحها بغير الطيف الذي غربت عليه. فتكون اشراقة النهار على خليفة جديد وولاة جدد وأمراء جيوش تتلون راياتهم بلون تغير الميول للانضواء تحت شعاع شمس الدولة الجديدة أو إعلان العصيان، لتتلقفهم سيوف حداد تبيح الدم وتسبي الزرع والضرع ، وما أضمروه من رخاء الدولة الآفلة. التي عدمت الرجاء بعودتها سليمة أو عليلة.

كان الخليفة الجديد كل الجدة في دولة جديدة كل الجدة أيضاً ، يعرف بكل الجد الذي تميز به ذلك. فلا يؤتمن عنصر الدولة الذي تقوم عليه هيبتها، من قادة أو جند، من النكوص على الخليفة، إن لم تكن خشيتهم منه تتراءى بين الحاجبين. علامة انتماء الى الخوف المتربص بين أصابع الخليفة الجديد وهو يمسك بقوة على مقبض السيف المغمض عيناً ويفتح عيناً باتساع الخطر.، حين يُغمد الى نصفه في غمد مغطى بالجواهر واللآلىء والأحجار الكريمة التي تدفع الشر وتجلب البركة. وباتساق ملائم مع ألوان أحجار مماثلة لها ترصع التاج الإمبراطوري، وبين قادة دفع بهم الثراء إلى تقليد الخليفة بإظهار الشجاعة والثراء والتهور، مع خشيتهم المقارنة التي تدفع إلى شك الطمع بالتاج الإمبراطوري العقيم ، الذي ينظر منه الخليفة إلى كل سلوك بمدى تقويم دعائمه أو الشك في محاولة ثلمه، الذي عقوبته السيف والنطع، وبين حاشية من زخرف اللون البشري، ولون الأثاث المقترن بالأبهة. فلم يكن اختيار العاصمة مكان نزهة أو استرخاء. بل مكان الأمر والنهي، مكان العفو والعقوبة ، مكان التقدم بالجيوش إلى الأمصار الخارجة عن الطاعة والوفود القادمة لإعلان الولاء. كما حدث فيما بعد في البصرة والكوفة والحجاز عند بدء بناء عاصمته وأثنائه. مكان عصابة الإمرة في الجيوش المتقدمة إلى الثغور لردع الممالك والإمبراطوريات المجاورة أو إثارة فزعها- والتي لم تنس ما فات عليه ما يزيد على قرن واحدٍ ما سلبتها الدولة الجديدة من أمصار وديار وهيبة مثلومة معلقة على راياتها، بانتظار ارتخاء يد الخليفة للانقضاض عليه مجدداً، ثائرة لمجدها الملطخ بوقائع الهزائم التي تسترد فيها نفس الراحة والآمان، في دولة تتوسع متى شاءت وبالاتجاه الذي تشاء. فكان يأتيه الخراج من مشرق الشمس ومن مغربها. ولم يكن للجنوب أو للشمال من مندوحة إلا إرسال البريد محملاً لبيت المال ما يفترض وصوله من خراج. لم تكن العاصمة بيت مال يخزن فيه الأبيض والأصفر. فهو بيت العطايا على حجم ما يمنحه الموهوب من راحة للخليفة أو حجم ما يوفره من اطمئنان له في خدمة بهية للحضرة البهية المشرقة بوجه الخليفة الجديد.

فلم يكن للقصيدة من ثمن ، إلا بمقدار ما تمنحه من كبرياء احتقار الخصوم.

لتتراكم النعوت ، تلال غرور لخليفة لم تجود بمثله ارض الله . فتتسع العطايا باتساع قاعدة تل المديح الممتد من إيوان القصر المزمع بناءه، أو في أروقته، أو في أزقة المدينة المنتظرة البناء، حتى قوائم كرسي العرش، أو شيوعها على السنة الأحبة والخصوم تخليداً لمجد بدأ البناء به منذ أمد ليس بالبعيد، لتتسرب الى المحال والأزقة والدروب، ولتنحدر مع مجرى أي من نهري المدينة التي تمد يدها لتغرف ما تشاء من أي منهما. فالأول يلامس أذيال ثوبها من الغرب. والثاني تندى به جبهتها عند مشرقها.

ذلك ما انتظره الخليفة لأمد، قلقاً، عسى أن يحظى بهبة إلهية تجود بها طوالع النجوم وأفلاك السماء التي تدور في جوف الكون الذي لا يحس عمقه إلا في النفس وفي ليل القرية التي بات بها وتركها الى غيرها، ليعود إليها مجدداً. وحين ترجل من جواده فيها، اخذ يذرع الأرض جيئةً وذهاباً في قلق يطفو فوق الجبين تقطيبه. لم يفك أسارها إلا قول وزيره عند عودته إليه من الدير القديم.

- خبر القيه إليك وأريحك من هذا العناء.

- قال: ما هو؟

- قلت : إن هؤلاء الرهبان معهم علم، وقد اخبرني راهب هذا الدير باسم من يبني مدينة هنا، ولم يكن اسماً لك أو لقباً أو كنية، انه يدعى (مقلاصاً).

فما كان من الخليفة إلا أن سجد في الموضع الذي هو فيه. واخذ سوطاً يذرع به. فأدرك الوزير إن الخليفة لحقه العناد. ولم يكتم ما اعتلج به فؤاده . فقال له:

- أظنك يا أمير المؤمنين أردت معاندة الراهب وتكذيبه؟

فلا يظن بمثله اللجاج في أمر كهذا. فالعاصمة مكان صنع الأمراء، ومن يرسل منها بكتاب مختوم بختم الخليفة ، ليعود من أرسل إليه خال الوفاض، إلا من غضب قد يقوده الى حد السيف. ومن ذهب به يعتلي المنبر في صلاة الجمعة ، ينادي بالناس:

- أنا الأمير وغيري فلا...

بل إن للسجع محله في إقصاء الأمراء، عندما تمتنع عليهم طواعية اللغة في ديباجة كتاب، أو استلذاذاً للنغمة التي يخلقها. فقد قال أحد الولاة يوماً:

- لم يخلعني إلا السجع. لعن الله السجع.

فتكون أمصار الإمبراطورية على توجس مما يرد به البريد القادم من العاصمة، عسى أن يكون خيراً! وخشية الشر فيه؟ فتدفع الأمصار بريدها من هذا التوجس بإعلان الطاعة مقرونة بالولاء الذي لا شائبة فيه، مع ما يسند الإمبراطورية من مال ، يدخل بيت المال وبيت الخليفة. يهبه لمن يشاء. فهو (قفل الله على ماله، إن شاء فتحه، وان شاء تركه مغلقاً). فتكون رسل الولاة متزينة بجلباب ما تتوقعه في الخليفة من زهد أو ترف. فترى الرسل في ضنك ظاهر . شعث ، غبر، عند لقاء الخليفة حين يظن به البخل أو الزهد أو حب التقشف. وفي ثراء يبهر أبناء الولاية وحاشية الخليفة في عاصمة الدنيا إن كان عكس ذلك.

فلا تكون الإمبراطورية بهذا الوصف إلا برأس السلطة فيها -الخليفة- وفي مقر الدولة -قصره- وفي مستقر الحكومة

-العاصمة- وبذلك تكون العاصمة ، الملك والمملكة، القوة والبطش، الطمع والتعفف، البخل والسخاء، الأمراء والجند، العامة والخاصة، الأمصار والثغور، العيون والعسس للدولة وأعدائها، الدواوين والكتاب، الجواري والمحظيات، الشعراء والصعاليك، المتصوف الزاهد والفضولي الانتهازي، طريق التجارة وطريق الحرب، بيوت الله وبيوت الخنا، مكان البغض ومكان الحب، أبواب الرزق وأسباب قطعها.

فالعاصمة تختصر الخليفة والإمبراطورية معاً، في حدود الأرض التي يختارها الخليفة مقراً جديداً له، بعد أن أتعبته ، ومن سبقه . مدن تعلن انتمائها إلى غيره أو تضمره، غير انه يدركه. فلم يترك خصوم الأمس الأقوياء على امتداد دولتين انهارتا قبله فرصة كافية لجس نبض الأرض لمعرفة ما تبوح به في باطنها من حب أو بغض. وحيث انه في طي الكتمان ، فلا يمكن الاعتماد على الحدس وحده لاتخاذ قرار الاستقرار في مدينة لم يكن متيقناً من ولائها له حد أن يكون ما يقف فوق كتفيه حقيقة أيضاً. فلا يمكن الاعتماد على حسن الطوية لعموم الأمراء والجند والعامة والسوقة. فإنها تدق طبول العصيان، وتبزغ من آفاق لم يكن بالإمكان توقعها، كما حدث لدولته الزاحفة في بدء إعلانها، والذي استغرق الترتيب له عقوداً، انفجر في يوم تلته أيام انتصارات بإعلان الراية الجديدة شعاراً لدولة جديدة. غير انه لم يفلح، أو من سبقه، في فض سر الأرض المنتمية إليه. فالكوفة أو الشام أو المدينة أو أرض الكنانة أو أرض الري أو خراسان أو سمرقند أو بخارى... جميعها لها من عيوب الانتماء القاتلة له. لم يترك محلاً لاحتمال اختيارها موطناً للخليفة أو الخلافة، ولا يؤتمن الغد من غدر يخبأ تحت عمائم أو جلابيب أو بيوت أو أزقة أو ثغور.. فاتساع أرض الإمبراطورية يمنح الخديعة احتمالات تتسع على تعدد الملل والنحل والمصالح ونقائضها. ولا يؤتمن العطاء سبيلاً وحيداً لشراء جميع الأشياء الممكنة المؤلفة للخديعة ووقوع المحذور الذي ثمنه رقاب ورقاب.

فلا يكون خروج الخليفة من الهاشمية مختاراً طريقاً محاذياً للماء إلى مشرق الشمس. وان انحرف عنها قليلاً نحو الشمال، يمثل نزهة إمبراطورية يحف بها السرور وتكتنفها البهجة. إنها ما جاد به الجد. ومبعثه القلق للبحث عن عاصمة جديدة لدولة جديدة. تنتمي إلى ما سبقها من حيث الاعتقاد، وتختلف عنها من حيث الانتماء. إنها مدينة يُطلب لها أن تكون مثل الكوفة أو البصرة أو المدينة أو الشام، بل وتتفوق عليها.

أرض بكر. يُشد إليها رحال المطايا من أطراف الأرض. لتكون مركز الدنيا، وصرة الأرض. قبلة الأمصار والثغور. تُحرث لها طرق جديدة في أرض لم تكن لها الأهمية نفسها قبل أن يتخذها الخليفة مقراً لملكه. فيكون اشتراك كل ذي ظلف أو خف سوية في حرث طرق جديدة بين جميع المدن والقرى لتتجه بحركة غير محسوبة نحو قطب جديد في أرض جديدة. ولتغير القوافل وجوه حركتها على ضوء المتغير الكبير الجديد. فتستحدث الشام طريقاً. والبصرة طريقاً. والكوفة طريقاً.

وخراسان طريقاً. واليمن طريقاً. ومصر طريقاً. كلها جديدة لتنمو مدن وقرى كان النسيان يطويها، لتبعث العاصمة حيوية غير متوقعة فيها. وتضمر مدن وقرى كانت مزدهرة لاجتناب القوافل السير إليها. ولتبعث حركة التجارة مع المركز الجديد الحياة في مهن وحرف تستوردها العاصمة في أعمالها الجديدة. وتنتكس مهن وحرف في المدن المتروكة بعيداً عن عاصمة الخليفة المستحدثة. وليكون طريق الحج قد اختار قافلة ومدن وأزياء ورياش تناسب الأبهة المستحدثة في الدولة المستحدثة في العاصمة المستحدثة.. ولتُعرف أنهاراً وجداولا لم تكن تهم أحداً سوى قوافل الحرب في صعوبة اجتيازها. فتبنى القناطر والجسور عليها لتشكل شرياناً يربط اليابسة بين ضفتيه. وتبنى القصور والأطيان. وتُقطع الأرض المهملة لتكون مصدر ثراء للقادة والأمراء.. لتزدهر رياض جديدة، قطوفها دانية من فاكهة لم تكن معروفة سابقاً. وحدائق غناء بزهور برية، قبل أن يستوطنها الخليفة، لتصبح نزهة الأنظار على سعة الأمصار. وتستحدث نافرات الماء المرفوع بدلاء تُدورها البغال، لتسقط شلالات ماء رقراق لنزهة الناظر في الطرقات، أو للوضوء في بيوت يبنيها الخليفة لله. وترصف الطرق بحجارة تجلب من بعيد. لتكون العاصمة جامعة مانعة، من خوف الخصوم، وسرور الأحبة. يتربع الخليفة عليهما معاً. ويحسب لكل احتمال حسابه. ذلك ما كان يفكر به الخليفة. ولو قال له اليعقوبي، ما قاله بعد بنائها بمائة وأربعين وسبع من سنين القمر، لما خطر للخليفة ببال أن تكون كما قال:

(جزيرة بين دَجلة والفرات، دَجلة شرقيها، والفرات غربيها، مشرعة الدنيا. كل ما يأتي في دَجلة من واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعُمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فإليها ترقى وبها ترسى. وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينية مما يُحمل في السفن في دَجلة وما يأتي من ديار مصر والرقة والشام والثغور ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحتط وينزل ، ومدرجة أهل الجبل وأصهبان وكور خراسان...).

فهي واسطة العقد في مدن الزمان ، على ما أجمع عليه قول الحساب، وتضمنته كتب الأوائل من الحكماء. عليها أن تقع في الإقليم الرابع . وهو الإقليم الأوسط، الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الفصول والأزمان. فيكون الحر فيها شديد أيام القيظ، والبرد قارساً في أيام الشتاء، ويعتدل الفصلان، الخريف والربيع، في أوقاتهما. وبـ ((اعتدال الهواء وطيب الثرى وعذوبة الماء (تحسن) أخلاق أهلها. و(تنظر) وجوههم . و(تتفتق) أذهانهم حتى (يفضلوا) الناس في العلم والفهم والأدب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحذق بكل مناظرة، وإحكام كل مهنة وإتقان كل صنعة. فليس عالم أعلم من عالمهم ولا أروى من راويتهم ولا أجدل من متكلمهم ولا أعرب من نحويهم ولا أصح من قارئهم ولا أمهر من متطببهم ولا أحذق من مغنيهم ولا ألطف من صنائعهم ولا أكتب من كاتبهم ولا أبين من منطقيهم ولا أشعر من شاعرهم

ولا أفتك من ماجنهم.)).
ستكون محور الأرض، وعاصمة الإمبراطورية. تدور الأماني والطموحات حولها. وتدور الدسائس عليها. ولحفظها يفترض الخليفة وقوف جيوش الخصوم والأعداء صباح كل يوم خارج أسوارها، من دون علم مسبق منه بها. فيكون للمدينة خيار نزع رداء الطاعة عنه ، ولبس رداء العصيان له. إن لم تكن قد حصنت نفسها من انتحار سريع يرغمها الأعداء عليه. وهو ما يجعل من تأسيس المدينة ،العاصمة، تأسيساً لدولة لا تأفل شمس العالم القديم عنها. فحيث تغرب تكون خيوط الفجر نسجت صبحاً عند مشرقها. وحيث صقيع بلد بسمك رمح في ثغر منها ، تكون الأرطاب قد نضجت في ثغر أخر. وحيث ينكص طرف من المملكة عن النصرة، تكون الأطراف الثلاثة الأخر قد اجتمعت جيوشها لردها إلى مسالك الطاعة، وقطع رؤوس الخصوم فيها. وحيث ان خراج الأمصار والمدن والثغور تترى بالتناوب لبعد الأمكنة بينها، فان بيت المال يملأ في كل حين بالأبيض والأصفر، وبكل ذات حافر أو ضلف. وبشر من اللون الأبيض والأسود والأحمر والأصفر. وإذا جفت ارض لاحتباس المطر عنها، تكون أراض أخر فاضت أنهارها لبناً، وعادت غلتها إلى العاصمة. فلا مناص من الاختيار الحساس والدقيق .
فالمدينة المنوي بناؤها تمتلك الحياة والموت. الخير والشر. الأمل والقنوط ،للخليفة وخصومه. فحصانتها تجعل من النقيض الأول حصة الخليفة، والوهن فيها يمنحه النقيض الثاني. وحيث إن تاريخ العائلة النبيلة وتضحياتها منحت نفسها بمسؤولية مناطه الخليفة، فعليه صيانة ذلك التاريخ. ومن المؤكد إن الغد متصل بنسله إلى يوم القيامة. فلم يكن من الحكمة المجازفة بمستقبل النسل والحرث والدين معاً، ليتركه للصدفة ولرحمة الخصوم الذين لم يرحمهم أي ممن سبقه في نزاع الكراسي العقيم، على امتداد تاريخ الإمبراطورية الذي لم يمض عليه أقل من نصف قرن تلا القرن الأول. فأقاليم الأرض السبعة، لم تكن بعيدة عن متناوله في يوم البحث عن العاصمة، أو في تاريخ لاحق عليها إن قرر الخليفة ذلك. فاختار الإقليم الرابع الذي كان بين يديه. والذي قال عنه الجغرافيون والفلكيون وأرباب معرفة الطوالع والنجوم والسحرة وضاربو الرمل :
انه إقليم بابل أوسط الأقاليم السبعة التي يتكون منها العالم، وأكثرها عمراناً واعتدالاً. فصيفه صيفاً حقاً. وشتاؤه شتاءً حقاً. وهو على اتساعه بين الهند والبحر المتوسط، ليس جميعه ملائماً ليكون عاصمة. والإمبراطورية تشمله جميعاً. فلا بد من خيار أدق تفصيلاً. وأكثر حصافة في التحكم بإقليم بابل على اتساعه. فلا بد من جوهرة العقد (العاصمة) لتتحكم، على بعدها بجميع الأقاليم. وان تدرك جميع الحواضر والبوادي، أناس مدر ووبر، الفيافي والقفار، الرياض والأنهار. من قرب العاصمة حضوراً نفسياً، ليكون الخليفة من خلالها حاضراً. ولتكن الإمبراطورية موحدة بشخص حاكمها. ولتكن قبلة الجميع في جميع المواسم والشهور والأيام، بعد مكة، التي تكون

قبلة الدين حسب. ولتكن العاصمة قبلة الدنيا. وقد تساعدها الظروف أن تجمع الدين والدنيا معاً. وهو ما قاله فيما بعد بلداني معروف عنها. إنها:

((كالجوهر القائم بنفسه، والبلدان دونها كالأغراض التي لا قوام لها إلا بما هو أثبت بها وأغنى عنها، فالدنيا (هي) والناس أهلها. والطاعنون (عليها) هم الطاعنون على اختيار الخلفاء، والطاعنون على الخلفاء هم الطاعنون على الأنبياء، والطاعنون على الأنبياء هم الطاعنون على رب الأنبياء)).

فيكون بذلك اختيار الخليفة للعاصمة الجديدة اختيار رب الخليفة لدولة الخليفة المتمثلة بعاصمته. فباسم الدين عنوان الخلافة تحكم الدنيا عنواناً للضد في الآن نفسه. فالمقبل من الأيام يدعم يقين الخليفة على إقبال الفتن وتتفتق الأرض عن جيوش جديدة ورجال حكم طامحون بكرسي الخلافة. لابد من مواجهتها بحزم. وأكثر ذلك حزماً، أن يكون مأوى الرأس آمناً في مدينة تدين له بالولاء عن يقين أو بالقوة. فوهن العاصمة شر مستطير، يُغري الخصوم بسهولة الإيقاع بها.

من المؤكد ستغير الأرض مسالكها، فتستحدث طرقاً جديدةً، وتوصل الكوفة والبصرة والشام والحجاز والمدينة ومصر وخراسان وبلاد ما وراء النهر بالمدينة الجديدة. فترسم قوافل الميرة والعيس طرقاً جديدة وتستحدث قناطر وجسور على جداول وانهار. وتلغى بالتدريج طرق العالم الذي سبق إنشاؤها. فتكون مجاهيل أرض كشفت أسرارها الطرق المستحدثة إليها. فلا تكون طرق البريد السريع تسير في قفر . بل محطات تؤسسها حاجة الدولة للتواصل وحاجة العامة إلى رغيف خبز ، لا يزدهر ما لم يحط رحاله في المدينة الجديدة، عارضاً بضاعة لا تبور في صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار. فهي أما محطة استقرار أو ارتحال. فلا يُظن بكسادٍ أو بوار لبضاعتها. فللشتاء فاكهة، وللصيف أيضا. فشتاء الشمال صيف الجنوب. وبضاعة الشرق تتسرب كقطرات ماءٍ من بيت أصابع الكف إلى الغرب مروراً بالمدينة أو تستقر بها. ولا يكون للشمال محور مرور إلى الجنوب إلا مروراً بها. فجعل السبل مقرها ومستقرها وافتراقها وتشعبها من المدينة الجديدة. كراية تتبعها المدن إلى حيث تقف أو ترتحل أو حيث تحب أو تكره أو حيث تغضب أو تفرح. فذلك مرهون بالخليفة الذي اختارها قائلاً:

((هذه والله المدينة التي أعلمني أبي، أني أبنيها وأنزلها وينزلها ولدي من بعدي. ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والإسلام.))

فتفتحت أسارير الخواص والعوام، لفرح كشف غوامض الأرض التي يقفون عليها، وهم يرون نهران يفيضان عسلاً ولبناً، ويمخران فج الأرض حرثاً وضرعاً وأمناً بتمترس المدينة خلفهما، من عدو متربص أو ثغور ثائرة. واستذكروا قول ابن عباس:

((أوحى الله إلى دانيال الأكبر أن أفجر لعبادي نهرين واجعل مغيظهما البحر، فقد أمرت الأرض أن تطيعك ، فأخذ خشبة وجعل يجريها في الأرض والماء يتبعه ، وكلما مر بأرض يتيم أو أرملة أو

شيخ كبير ناشدوا الله فيحيد عنها. فعواقيل دَجلة والفرات من ذلك.))
فكانت بشرى رخاء قادم يشمل العامة بفورة الخير، وهم يرون الخليفة يذرع سورها الأول ويدعوا المهندسين ويأمرهم بخط الرماد على اثر الذرع الذي يؤشر على نهر الصراط . ويأمر بنقل أبواب مدينة (الزندرود) الخمسة التي صنعتها الشياطين لمدينة سليمان النبي إليها. فجعلها أبواباً داخلية في السور التالي لسورها العظيم. وأضاف واحداً منها لباب البصرة الخارج . وجعل باب خراسان الذي عملته الفراعنة خارجاً من سورها، وقد حمل إليها من الشام، وجعل للكوفة باباً جُلب منها. وللشام باب صنع فيها.
((فكان تحول الخليفة من الهاشمية إليها والابتداء ببنائها سنة خمس وأربعين ومائة وذلك يوم العاشر من مردا ذماه سنة إحدى وثلاثين ومائة ليزدجرد واخر يوم من تموز سنة ألف وثلاثمائة وسبعين للأسكندر والشمس يومئذ في الأسد ثماني درجات وعشر دقائق، وزحل في الحمل درجة وأربعين دقيقة والمشتري في القوس ست درجات والزهرة في الجوزاء ثلاثين درجة، وعطارد في الجوزاء أربع وعشرين درجة والرأس في الجدي خمسا وعشرين درجة)).
ذلك ما أفادت به النجوم لميلاد بغداد.

نقرأ في أعدادنا المقبلة للأساتذة:

1- أشور ملحم
2- أحمد خالص الشعلان
3- باسم عودة
4- جواد وادي
5- خضر حسن خلف
6- حسين البعقوبي
7- د.باقر الكرباسي
8- د.صبيح الجابر
9- د.نجاح كبة
10- سلام القريني
11- سيامند هادي
12- صباح هرمز
13- عبد الرزاق دحنون
14- عبد السادة البصري
15- عبد الزهرة علي
16- فاهم وارد العفريت
17- قاسم شاتي
18- كاظم فرج العقابي
19- محمد علوان جبر
20- نصير الشيخ

لمحات حول الترجمة وأشياء أخرى

د.علي عبد الأمير صالح

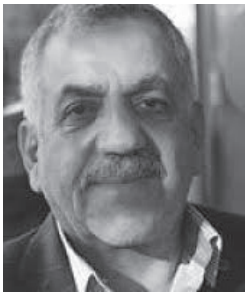

أتيتُ من الطب إلى الأدب، لكنني لم أتركْ الطب. الأشخاص القابعون فيَّ: القارئ، والكاتب، والمترجم، وطبيب الأسنان ينامون سويةً على وسادةٍ واحدة. منذ أربعين عاماً، وأنا لا أكاد أكتفي من القراءة والكتابة والترجمة، وأحاول على الدوام أن أغذي عقلي بالمزيد والمزيد من الأفكا، والرؤى، والأخيلة، كي لا ينال منها الصدأ أو وهم الاكتفاء المُهلِك، لا نجاحَ يُقنعني، ولا سعادةً تُهدئني، ولا زلتُ منكبّاً على مشروعي من دون هوادة منذ أن أدركتُ أهمية هذا المشروع وجدواه.

\لم يخطرْ ببالي يوماً أن أغدو مترجماً ناجحاً أو ذائع الصيت، كما لم يدرْ بخلدي أن يحالفني الحظ في يوم ما بالحصول على جائزةٍ عراقية أو عربية فيً حقل الترجمة الأدبية ... لا، لا هذا ولا ذاك . إن جل ما دفعني إلى خوض هذه المغامرات الصعبة، والشائكة، والعويصة التي أخذتْ أربعين عاماً من عمري هو الشغف passion، أو الفضول المعرفي cognitive curiosity، التزوّد بالعلم والثقافة والفكر، والبحث عن مغزى الحياة، عن مغزى الموت والحرية والحب والفقدان والحرمان.. كنتُ وأزال أتوق لمعرفة الآخرين، الآخرين المختلفين عنا حتماً، والتواصل معهم، معرفة أفكارهم، وجهات نظرهم، رؤيتهم للعالم، عاداتهم، طقوسهم، أعراسهم، أساليب حياتهم . كيف ينظرون إلى التاريخ، إلى العولمة الاقتصادية، وحقول الإنسان، إلى الدكتاتوريات العسكرية، إلى الشركات الضخمة متعددة الجنسيات التي همها الرئيس هو الظهور والهيمنة، ففي عصرنا هذا بات هر العولمة يلتهم فأر حقوق الإنسان، بحسب تعبير جوزيه ساراماغو. هذه الأشياء هي التي كانت تشغل بال طالب كلية طب الأسنان بجامعة بغداد في منتصف سبعينيات القرن العشرين . بالطبع، يومئذ كانت العولمة الاقتصادية في بداياتها، لكنني كنتُ أتلصص لمعرفة كل شيء وفهم كل شيء، من العلم إلى التكنولوجيا، إلى الاقتصاد، والسياسة والتاريخ وعلم الاجتماع والميثولوجيا والفلسفة وعلم النفس والفكر الماركسي – اللينيني، إلخ .

\منذ شبابي المبكر، وحتى الآن لديّ حب استطلاع ذهني أو فكري، ونهم إلى المعرفة التي لا تنفع لها غلة . أنا مهتم بكل شيء . أريد أن أخبر كل شيء، أن أتذوّق كل شيء، أذهب إلى كل مكان، أفعل كل شيء، وأقرأ كل شيء، وأرى كل شيء، يُسعدني دوماً أن أتصفح كتباً جديدةً، وأقتني وأقرأ كتباً جديدة، أن أزور مخازن الكتب في الكوت وبغداد والبصرة ودبي وطهران وأسطنبول والمدينة المنوّرة وباريس ومدريد وبيروت، وأزور

معارض الكتب في بغداد وبيروت وأبو ظبي . يفرحني دوماً أن أزور المكتبات العريقة، وأشمُّ رائحة الورق والحبر، إنها بالنسبة لي تضاهي رائحة امرأة تخرج تواً من الحمام، تفوح من جسدها رائحة الشامبو والعطر الأنثوي الساحر. لكنني، بالطبع، كنتُ مولعاً على الدوام بالكتب الأدبية، والروايات، والنقد الأدبي، وسير المبدعين، وذكرياتهم والحوارات وعلاقة الأدب بالفلسفة وعلاقة الرواية بعلم النفس، إلخ

قبل أربعين عاماً، عندما كنتُ أتعلّم كيف أمدُّ الجسور الاصطناعية في أفواه المرضى، انهمكتُ ولا أزال، وبلا هوادة، في مدّ جسور التواصل مع الآخرين، من خلال استكشاف الثقافات الأخرى، عبر القراءة بالإنكليزية حصراً، التي بدأتُ أتقنها بشكل جيد من خلال دراستي للطب واستخدامي المفرط للقواميس والتدقيق في تفاصيل معاني الكلمات ومرادفاتها بلغتنا العربية.

\في ذلك الحين، بدأتُ أقرأ مجلة "الأدب السوفييتي" Soviet Literature بالإنكليزية، وشرعتُ أترجم قصصاً قصيرة حظيتْ باهتمامي في ذلك الحين، وأنشرها في المجلات والصحف الأسبوعية العراقية، من مثل مجلة "صوت الطلبة"، وجريدة "المرفأ" البصرية. واستمر الحال بعد التخرج، والانخراط في الخدمة العسكرية. وبدءاً من العام 1985 انكببتُ على ترجمة الروايات والكتب حتى يومنا هذا .

ومنذ بداية مسيرتي في حقل الترجمة، كان هدفي هو التعرّف على الآخر، وفهمه والحوار معه. قد نتشابه ونختلف، لكن لا بأس، هذا مهم وضروري من أجل إثراء الفكر والمعرفة ومسيرة التقدّم التي لن تتوقف يوماً، مهما كانت الظروف. كانت بي حاجة ماسة لمعرفة الآخرين، في الثقافات الأخرى، والبلدان الأخرى، والناطقين باللغات الأخرى؛ كنتُ أريد أن أعرف كيف يفكر الآخرون، كيف ينظرون إلى التاريخ، إلى العالم، إلى الإنسان عموماً... ما هي الأفكار التي تدور في أذهانهم حين يرون العنف بكل تجلياته، هذا العنف الذي يطحننا جميعاً، منذ سنوات طويلة ... كان هَوَس البحث عن هذه المعاني كلها هو الذي دفعني لأن أبدأ مسيرتي في ميدان الترجمة، والترجمة الأدبية حصراً، من دون سواها من الحقول الأخرى .

ولم تكنْ هذه المسيرة سهلةً، على كل حال، لأن عليَّ أن أعرف طعم ورائحة ولون التجربة التي يخوضها الكاتب أو الروائي، إذ ينبغي لي أن أنقل ذلك كله بلغةٍ عربية جميلة، تعبّر عما قصده المؤلف على وجه الدقة، وبأسلوب عربي سليم، وتراكيب لفظية مفهومة ومتسقة. وكما تعلمون أن كثيراً من الحكايات والقصص التي يرويها الكُتّاب هي تجارب حقيقية تضرب جذورها بعمق في أرض الواقع الذي خبره المؤلف أو الروائي، ناهيك عن كونها أحداثاً متخيّلةً.. إن عدداً كبيراً من الكتاب الأجانب يلغون الحدود القائمة بين الواقع والحلم، بين الحقيقة والوهم أو الخيال ويجنحون في بعض الأحيان إلى الفنتازيا، ويستخدمون لغةً شعرية، أو هي خليط من اللغات أو يقتبسون من لغاتٍ أخرى من مثل الفرنسية أو اللاتينية أو سواهما.. غالباً وأنتَ تقرأ النص لا تعرف متى انتهى الواقع ومتى بدأ الخيال أو الحلم. وكي تتمكن من استيعاب النص ونقله إلى العربية لابد لك أن تعرف ماذا يريد أن يقول الكاتب ضبطاً... كان بورخيس يقول لمترجمه : لا أريدك أن تترجم ما كتبتُه

أو قلتُه، بل ما أريد أن أقوله.
بطبيعة الحال، لابد للمترجم، قدر الإمكان، أن يحافظ على لغة الكاتب وأسلوبه، وأن لا يكتفي بترجمة المفردات أو المعاني بل بظلال المعاني.. اللغة، بالطبع، جزءٌ لا يتجزأ من العمل الأدبي، وهي أكثر من مجرد وسيلة تعبير، لذلك ينبغي للمترجم أن يحافظ على رشاقة الكلمات وجمالها وإيحاءاتها... موسيقى الكلمات وإيقاعاتها أمورٌ رئيسية في الترجمة، التي أعدّها أنا ويعدّها كثيرون سواي عملية إعادة كتابة للنص الأصل . كما لابد للمترجم أن يحافظ على أسلوب الكاتب، قدر الإمكان، والذهاب وراء كل المعاني والإحالات والإشارات الغامضة التي يحتويها النص. منذ بداية مسيرتي في ميدان الترجمة دأبتُ على استشارة القواميس والمعاجم والإنسكلوبيديا البريطانية، لكنني في السنوات الأخيرة، أضفتُ وسائل مساعدة أخرى، ألا وهي الانترنت أو المواقع الإلكترونية للكُتّاب والصحف والمجلات والويكيبيديا. ليس هذا فحسب، بل بدأتُ منذ أربعة أعوام تقريباً أتواصل مع الكُتّاب ووكلائهم الأدبيين ومترجميهم كي أسبر أغوار النص الأدبي أو الروائي واكتشف ما لم أفهمه بشكل واضح ودقيق . هذا ما فعلته في ترجمتي لرواية "المطيرجي The dove flyer " للكاتب اليهودي العراقي إيلي عمير، ورواية "لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً Do not say we have nothing "، للكاتبة الصينية – الكندية مادلين ثين، ورواية "الأميرة باري Princess Bari " للكاتب الكوري الجنوبي هوانغ سوك – يونغ .
وهذا، بالطبع، ليس بالشيء الجديد، فقد دأب بعض الكتاب ومن بينهم غونتر غراس وأمبرتو إيكو على اللقاء بمترجميهم، ولابد للمترجم أن يشرح للمؤلف المشكلات التي يواجهها، وسيكون بمستطاع الكاتب أن يساعده، حتى إذا كان لا يُتقن لغة المترجم، كما حصل بين أمبرتو إيكو ومترجمته الروسية.
في كتابه المعنون "أن نقول الشيء نفسه تقريباً"، الصادر حديثاً بالعربية، يقول أمبرتو إيكو إن الترجمة تدخل أكثر في إطار "المفاوضات negotiations "، فثمة من جهة، النص في اللغة المصدر، بكل ما منحه الكاتب من حقوق مستقلة، وثمة من جهة ثانية المترجم الذي سينكبّ عليه، حاملاً معه الخلفية الثقافية التي نشأ في كنفها، ولابد أن يقوم الكاتب والمترجم، أو النص وثقافته وعالمه وتأثيراته، والمترجم وثقافته وعالمه وتأثيراته بعملية مفاوضات تكون سهلةً أحياناً وأحياناً أخرى عسيرةً ومعقدة، بغية التوصل إلى تصوّرٍ مُرضٍ للطرفين على السواء .
يتعمد الكاتب الأجنبي استخدام لغة عجيبة مختَرعة كما فعل جيمس جويس في روايته الشهيرة "يوليسيس Ulysses"، أو ما فعله أمبرتو إيكو في روايته المعنونة "باودولينو"، وشكّلتْ اللغة اللاتينية "المكسّرة" تحدياً لمترجمي الرواية من الإيطالية إلى اللغات الأخرى. والأمر نفسه، واجهناه خلال ترجمتنا لرواية مادلين ثين "لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً"، إذ أوردت الكاتبة كلمات عدة باللغة الصينية ناهيك عن مرادفاتها الإنكليزية، وتعين علينا أن ننقلها كما هي عبر تقنية خاصة إلى النص العربي. فضلاً عن ذلك، أنني أفضّل دوماً أن أضع هوامش ضرورية ومهمة وحتى مسهَبة أحياناً من أجل فهم أوسع وأشمل للنص الروائي أو الأدبي، وهو ما فعلته في ترجمتي لـ "المطيرجي" لـ إيلي عمير، أو لـ "الجبل السحري The Magic Mou-

tain " لـ توماس مان، ورواية "لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً " Do not say we have nothing لـ مادلين ثين. في الرواية الأخيرة، وضعتُ لائحةً تضم نحو مائة وخمسين هامشاً بالشخصيات الموسيقية الواردة في النص، وهم مؤلفون موسيقيون صينيون وألمان وروس وكنديون وسواهم، وكذلك أسماء الآلات الموسيقية الصينية التقليدية، وسواها من الأمور من مثل "الحرس الأحمر"، "عصابة الأربعة"، "حملة المائة زهرة"، "جلسة النزاع"، "جدار الديمقراطية"، إلخ . لأن القارئ العراقي والعربي، في الأرجح، لا يعرف ما تنطوي عليه هذه المصطلحات من معانٍ ومعلومات وتفاصيل وتضمينات. وغالباً ما تكون الإحالات فلسفية أو ميثولوجية او تاريخية أو حتى طبية أو علمية أو عسكرية أو موسيقية وسواها. ونحن لا نتردد في استشارة القواميس والكتب المتخصصة، أو استشارة أصدقائنا العسكريين أو الموسيقيين أو أساتذة الرياضيات والأطباء والمهندسين، كي نقلّص أخطاءنا وزلاتنا إلى أقل ما يمكن. وفي بعض الأحيان، يضع المؤلف ملاحظات في آخر الكتاب حول الاقتباسات الواردة في النص الروائي ويذكر رقم الصفحة بحسب النص الإنكليزي، أما نحن فيتعين علينا أن نضعها في هامش الصفحة من ترجمتنا، أي بمعنى أن المترجم هنا يلعب دور المحقق، ويُشير إلى أن الهامش هو هامش المؤلف وليس هامشه هو. في "المطيرجي"، ترد في النص الروائي اقتباسات من أغانٍ عراقية قديمة لسليمة مراد وسواها من المطربين والمطربات في عقود الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وكانت هنالك أسماء وكلمات بالدارجة البغدادية – اليهودية من مثل "قحوة لكبيغي"، "قحوة لزغيغي"، وكذلك بعض المعتقدات والعادات والطقوس والأعياد والمناسبات الدينية اليهودية، وسواها من الأمور، كان لابد لي أن أستشير وكيل الكاتب الأدبي كي أوضحها للقارئ العراقي والعربي من خلال الترجمة .

بطبيعة الحال، المترجم ليس معصوماً من الخطأ، لكن المترجم الجاد يحاول قدر الإمكان أن يتفادى الخطأ. غير أن هذا قد يحصل من دون قصد، من مثل الخطأ الذي وقع فيه المترجم هوجنز الذي نقل "بصرياثا : صورة مدينة" لأستاذنا محمد خضير إلى العربية، حينما ظن أن المقصود بـ "العين" هو حرف "العين" وليس كتاب "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي. لكنني لم أفهمْ حتى الآن كيف حصل أن أغفل مترجم "المطيرجي"، من العبرية إلى الإنكليزية فصلاً كاملاً، وهو الفصل الحادي والخمسون، خلال عملية الترجمة. مما حدا بنا أن نطلب من وكيل إيلي عمير الأدبي أن يرسل إلينا الفصل المفقود بالإنكليزية كي نقوم بترجمته إلى العربية، وهذا ما فعلناه.

في رواية "العمى" لـ ساراماغو التي ترجمها المترجم القدير محمد حبيب، ثمة جملة تشير إلى "الحرية تقود الجماهير"، أغفلها المترجم، ولا نعرف ما هو السبب. إنما في الأرجح، أنه لم يكنْ يعرف أن هذه الجملة هي عنوان للوحة شهيرة للرسام الفرنسي يوجين دي لا ركروا. ولا نعني هنا الإقلال من روعة ترجمة "العمى"، لكنها واحدة من التحديات التي نواجهها نحن المترجمين، بخاصة إذا كانت الإحالات أو المصطلحات تخصصية تدخل في سياق حقل معرفي معين، فني أو عسكري أو موسيقي أو هندسي، إلخ

يقول ميلان كونديرا لمحاوِرته : "وا أسفاه

مترجمونا يخدعوننا. إنهم لا يجرؤون على ترجمة اللا مألوف في نصوصنا – ما هو غير شائع، وما هو أصيل. إنهم يخشون أن يتهمهم النقاد بأنهم يترجمون بصورة رديئة. وكي يحموا أنفسهم، يجعلوننا تافهين، وسطحيين. ليستْ لديكِ فكرة كم أضعتُ من الوقت والطاقة كي أصحح ترجمات كتبي".

أن تترجم يعني أشياءً كثيرةً؛ أولاً أن تروِّج، أي أن تجعل الكلام أو النص ينتقل من شخص إلى آخر، أو من مكان إلى آخر، أي تجعلَه متداولاً بين الناس. ثانياً: أن تنقله من لغةٍ إلى أخرى . وثالثاً: أن تفسره . ورابعاً: أن تجعله أسهل منالاً . وفي هذا السياق، تقول سوزان سونتاج : "إن الترجمة هي جهاز الدوران بالنسبة للآداب العالمية، الذي بوساطته استطاعت شعوب الأرض أن تتعرف على أحدها الآخر " .

في الواقع، عمدتُ دوماً إلى ترجمة أعمال أدبية ضخمة ومعقدة وشائكة. حذّرني زملائي المترجمون من مغبة المغامرة ومشكلاتها. لكنني واجهتُ التحديات وخضتُ المغامرة في ظروف اقتصادية ومعيشية وإنسانية عسيرة جداً. لكنني كنتُ أشعر بالمتعة حين أخوض تجربةً مُتعِبةً، معقدةً، تنطوي على تحدياتٍ كفيلة أن تُشعرني بالرضا عن نفسي وعن قدراتي الفكرية. ترجمتُ خلال سنوات الحصار ستة كتب، لا مناص من خوض المغامرة، كنتُ أعرف مسبقاً الصعوبات التي سأواجهها خلال عملية الترجمة، لكنني انخرطتُ في العمل بلا هوادة، كان الحر قاتلاً، والعرق ينضح من جبيني، وورق النص الإنكليزي يتشرب عرق راحتي التي تمسك بدفتيْ الكتاب، تلك التجارب العسيرة لا تكاد تفارق ذاكرتي. حين أجد صعوبةً في النص أبحث في المصادر، والمجلات، والقواميس، وأستشير الأصدقاء، كان هذا قبل عصر الانترنت. من دأبي أن أقرأ عن الكاتب، والنص الروائي، والمراجعات والدراسات المكتوبة عنه، أبحث عن أسرار النص ورموزه وتضميناته وإيحاءاته. ثمة وجهات نظر يُمكن أن تحيل النص إلى سياق تأويلي غاية في السعة، والانفتاح. نعم، إن بعض الأعمال الأدبية تستدعي التكوين الصارم، والمواكبة المتأنية والجهد الدقيق في الفهم والاستيعاب.. إن ثقافةً من هذا النوع تفرض على المترجمين أن يغيّروا طرائق تفكيرهم وذائقتهم ووجهات نظرهم. والحق، يواجه المترجم تحديات كثيرة، من نقل مضمون لغة إلى لغةٍ أخرى مختلفة عنها في إنتاج المعنى والدلالة ولهذا نادراً ما ينال الثناء والمدح. أي بمعنى، أن المترجم يقف على ناصية التحدي اللغوي والثقافي في كيفية نقل ومواءمة هذا النقل للثقافة المنقول إليها

إن ذاكرة المؤلف، وكذلك ذاكرة المترجم لا تقتصر فقط على الأفكار والرؤى ووجهات النظر بل تحتوي أيضاً على أحداث تاريخية وذاكرة بصرية وسمعية وأغانٍ وحكايات .. ووصف للمكان والزمان. غالباً، ما تكون لغة الكاتب بذيئة أو سوقية، وتنغمس شخصيات الرواية بالملذات الحسية، وتمارس العربدة، إذا جاز القول، كما هو الحال في كتابات تشارلس بوكوفسكي، في سبيل المثال. إن المدرسة التي ينتمي إليها بوكوفسكي هي: الواقعية القذرة. للكاتب، أي كاتب، الحرية في ما يكتب ويعبّر ويفكر ويتخيل، هذا من حقه، وهذه هي خصوصيته. أما نحن كمترجمين، فلا حقَ لنا أن نفرض أيديولوجيتنا وذائقتنا عليه، لا يحق لنا أن نمارس سلطتنا عليه، أي أن نحاسبه، أو نحاكمه.. لسنا واعظين، ولا

ناصحين، ولا قضاةً نحكم باسم الأخلاق أو الدين أو الأيديولوجيا.. نحن نترجم ما قاله، أو يريد أن يقوله الكاتب، أو المؤلف، أو الروائي، ونفسر ما يريد أن يقوله على وجه الدقة، من دون ابتعادٍ غير مبرَّر عن النص الأصل، كما يعمد إلى ذلك بعض المترجمين، بقصد أو بدون قصد. وقلتُ في حوار سابق إن على المترجم ان يكون جريئاً بلا حدود، وذا ثقافة موسوعية تضاهي ثقافة الكاتب أو الروائي. كما لا بد أن يكون ثمة شغف بالنص الأصل الذي نروم ترجمته إلى لغة الضاد.

***

والآن نصل إلى "راوي مراكش"، التي نلنا عنها جائزة الإبداع العراقي لسنة 2017، قبل ثلاثة أسابيع ضبطاً، وبداية نقول إن الرواية صدرتْ بالإنكليزية في العام 2012، وكنتُ اشتريتُ نسخةً ورقية منها في شباط "فبراير" 2013، وشرعتُ بترجمتها في نيسان 2015 وأكملتُ ترجمتها في غضون ثلاثة أشهر. نُشرتْ الرواية في تشرين الأول "أكتوبر" 2016، ضمن سلسلة "إبداعات عالمية"، التي يصدرها كل شهرين المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت الشقيقة.

مؤلف الرواية هو: جويديب روي – باتاجاريا: وهو كاتب هندي، ولد في جامشدبور، درس الفلسفة وعلم النفس، وهو يقيم في نيويورك. روايته الأولى "نادي غابرييل"، التي تجري أحداثها الآسرة العنيفة في بودابست، نُشرت في ثمان لغات بستة عشر بلداً. أما روايته الثانية "راوي مراكش" فهي الأولى من سلسلة روايات – الثانية تجري وقائعها في بغداد، الثالثة في أصفهان – ينوي فيها المؤلف تسليط الأضواء على ثقافات الشرق الأوسط. أما روايته الثالثة "الساعة اليدوية" فقد نُشرتْ عام 2012

يستهل الكاتب روايته قائلاً: "ما يهم في النهاية هو الحقيقة"، وهذا بالطبع اقتباس من رواية "ليلة القدر" للكاتب طاهر بن جلّون.

وفي الصفحة التالية، يروي الكاتب على لسان بطله: "مساء الخير. اسمحوا لي أن أقدّم نفسي. اسمي حسن. أنا راوي قصص، ملك مملكة أوسع مما تتصورون، تلك هي مملكة الخيال. ذاكرتي لم تعدْ كما كانت من قبل، إنما إذا استطعنا أن نختار ثمناً ديمقراطياً، سأروي لكم حكايةً أتعهد بأنكم لم تسمعوا نظيراً لها من قبل. إنها قصة حب، شأنها شأن جميع القصص الممتازة، لكنها أيضاً قصة بوليسية، لأنها تتعلق باختفاء أحد العاشقين أو الآخر أو ربما كليهما أو لا أحدَ منهما. جرتْ الحادثة قبل سنتين خلتا، أو ربما وقعتْ قبل خمسة أعوام أو خمسة وعشرين عاماً. هذه التفاصيل لا أهمية لها. كان الغبار الورديّ معلقاً في الهواء ذلك المساء كما هو شأنه هذه الليلة، الضوء المنبعث من أكشاك البهارات والفواكه يطرح أطيافاً متوهجةً كأشباح الصحراء، وكان القرع المتواصل للطبول يعلو وينخفض كالأجساد في الرمال، وفي النهاية، فإن الوقائع التي أحاطتْ العاشقين جعلتْ مدينةً أسطوريةً بكاملها تصل إلى مرحلةٍ وجب فيها أن تتوقف، وحوّلتْ إلى الأبد شخصية ملتقاها الشهير: جامع الفناء، ولعل ساحة المدينة هذه هي الساحة الأكثر غموضاً في العالم، والأكثر اكتنازاً بالرسوم التاريخية".

لهذه الرواية وجوه عدة. أولاً هي رواية عن راوي يُدعى "حسن" يكسب رزقه من خلال سرد القصص في "ساحة جامع الفناء" ذائعة الصيت، وهو مكان للتبضع وساحة في مراكش لها حياتها الخاصة بها. والد

حسن هو أيضاً راوي قصص، وقد ورث هذه المهنة من أسرته . حسن له شقيقان، أحمد وهو رجل أعمال ؛ ومصطفى الشاب الرومانسي، الحالم، والمشاكس الذي يربك بسلوكه وملاحظاته الأشخاص الأكبر سناً . وخلال صفحات الرواية يسرد لنا حسن قصة أجنبيين (رجل وامرأة) غابا عن الأنظار في ليلة من الليالي. ويثير اختفاؤهما سلسلةً من التساؤلات والتكهنات: هل تم خطفهما أم أنهما لاذا بالفرار؟ هل كانا ساذجين متهورين، حينما كانا يتجولان بين مدَّخني الحشيشة وقارعي طبول منتصف الليل؟ أم أنهما كانا يبحثان عن نوع ما من الهرب والنسيان الشخصيين؟

كما إنها رواية عن ''ساحة جامع الفناء'' نفسها. هذه المكان سحري وله حياته الخاصة به. إذ يجتمع فيه بائعو البرتقال الجوالون، ممارسو الألعاب البهلوانية، قارعو الطبول، قارئات الطالع، بناة الأجسام، رجال من قبائل ''الطوارق''، التجار البربر، وموسيقيو ''الغناوة''، وشرائح أخرى متنوعة من المجتمع المغربي – كل واحد من هؤلاء يسرد نسخته من حادثة اختفاء المرأة الأمريكية – الفرنسية، ذات الجمال الباهر، ورفيقها الهندي الملتحي، ذي السلوك الغامض

تالياً، إنها رواية عن الذاكرة. حيث إن هذا الكتاب مدون باسلوب ما بعد الحداثة، يستخدم الخصائص الأدبية مثل تعدد الرواة، تعدد وجهات النظر، وما بعد السرد ''الميتافيكشن'' (هناك قصص مدفونة في داخل قصص، في الواقع، عنوان الرواية نفسه يكشف ذلك، طالما أن الرواية هي قصة عن راوي قصص، يسرد لنا قصة داخل قصة).

وقد لفت انتباهنا أن الرواة يناقضون أحدهم الآخر في ما يروونه عن الأجنبيَّين وما جرى لهما في ليلة اختفائهما. يروي لنا أحدهم ملاحظاته عنهما وكيف تصرفا خلال حضوره، ويأتي راوٍ آخر فيزعم أن ما سرده الراوي السابق محضُ تلفيق أو فبركة لا غير

وهي، أخيراً، رواية عن الحب. نعم، ربما يخفي العنوان هذا الأمر، إنما في نهاية الأمر، إنها قصة عن أقوى تجليات الحب، طالما أنه يتضمن التضحية بالذات

سنوياً، يجمع حسن المستمعين في ساحة مراكش الخرافية لكي يتقاسم معهم ذكرياتهم عن ليلة اختفاء الأجنبيَّين قبل سنوات عدة في محاولة منه لفهم حقيقة ما جرى – ولكي يصفح عن أخيه الأصغر مصطفى، الذي أودع السجن عن جريمة لم يرتكبها. ولأنه مقتنع ببراءة أخيه على الرغم من عدم رضاه على طرائق مصطفى الذي عُرف بانغماسه في الملذات، يحاول حسن وبتصميم وعزيمة البحث عن الحقيقة. وبما أن مستمعيه كانوا يقدمون شهادات متناقضة، وتفاصيل تزيح أو تذيب ضباب الذاكرة، يتخذ الأجنبيان مظهراً غامضاً كقدرهما، ويدفعاننا إلى أن نتساءل ما إذا أفلح حسن في مسعاه أم أنه هو نفسه، بصورة مزعجة، جزءٌ من القصة البوليسية

إن القصة التي يرويها حسن، ببساطة، ليستْ وصفا لجريمة. إنه يبغي أن يضايقنا بسلاسل متنوعة من الإشاعات، ويجعل مستمعيه ينتظرونه حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل. يشير حسن قائلا: ''ربما خيطٌ وحيدٌ يفصلنا عن الحقيقة، أو ربما بون شاسع، لكننا سنتيقن من ذلك فقط حينما ننظر إلى النسيج بأكمله''. وعندما يتقدّم الليل يتضح أن الحقيقة نفسها أصبحتْ شائكةً ومعقدةً، وأن خيوطها المجدولة كانت تنحل بشكل متزايد من قبل المستمعين أنفسهم.

تقول خديجة قارئة الطالع وهي تخاطب أحد الرواة – المستمعين قائلة: ”إنك تكسب رزقك هنا، إنما من خلال وصفك يتضح أنك لا تعرف أول شيء يتعلق بمكان عملك. الآن أصغِ إلى كلماتي جيداً. ساحة الجامع هي أختنا وأمنا؛ إنها تلبي احتياجاتنا وتتولى العناية بنا؛ إنها مصدر رزقنا وإذا ما وصفناها بشكل آخر فإننا نقلل من شأنها. عليك أن تعتاد على أوجهها الكثيرة. ففي بعض الأحيان تكون شابة، وفي أحيانٍ أخرى مسنةً ؛ تارة مليئةً بالحيوية، وطوراً متعبة. وحتى في أسوأ حالاتها لا تكون خطيرةً ؛ هي ذات نزوات، ونزواتها وتقلباتها تعكس الحالات التي يمر بها مجتمعنا . لكنها في أحسن حالاتها، تكون مليئةً بالفرح والسعادة والاحتفال، والناس يتقاطرون عليها لأنهم يسعون إلى مشاطرتها بهجتها. إن جوها المحموم – وهو ناجم عن انصهار عناصرٍ كثيرة – هو خلق لرغباتنا نحن . نحن جميعاً لدينا نصيب في تشكيل سحرها، وفي هذا السحر تكمن حياتها . إنه يتشبث بك ولا يدعك وشأنك، وإن حيويته وعواطفه آسرة . كل شيء ينشأ، ينسجم، ويقع في أشكال معينة هنا، ويولد الجمال . بهذه الطريقة تغيّرك ساحة الجامع، إنها تعيد صياغتك وتهبك صورتها هي . عليك أن تنظر إليها بعينَي طفل، وحينها ستجد نفسك قد تحولت . إنها مسألة روح – هل تفهم ؟ - بقدر تعلق الأمر بالحواس.

الساحة رمز، نقطة لقاء جميع الأقوام الذين مروا بها ويواصلون المجيء من خلال هذا الجزء من العالم. إنها مغربية، صحراوية، متوسطية، عربية، بربرية. رياحها تشتمل على الرواغ، الخماسين، السموم، اللفيج، الزفير. الموسيقى التي تنتج عن ذلك تحمل في طياتها جميع هذه الألحان . أصغِ إلى تلك الموسيقى: إنها فسيفساء تلك التعشيقات الأفريقية، الشرق أوسطية، اليهودية، الأندلسية، الموضوعات المعاصرة وتلك الخاصة بالعصور الوسطى. إن رقصتَ على موسيقاها فسوف تتعلّم أشياءً كثيرةً عن نفسك. حينما تكون هنا، تسبح القرون معاً، وتكون أنت ما وراء الزمن. عندما تكون هنا، تعلن الثقافات عن تشكيلة أنسجتها المتجانسة، وسترتفع أنت بعيداً عن أصولك . ذلك هو سحر ساحة الجامع . إنها الكون المُصغّر لبلدنا المغرب . لكنها كذلك أكثر من مجرد مكان للقاء، وإذا ما حدث أن صادفتها في ساعات الصباح الباكرة، عندما يحطُّ أول شعاعٍ من أشعة الشمس على جلدها، ستجد أنها قادرة على أن تضفي إحساساً بالهدوء والسكينة من الصعب أن تجده في أي مكان آخر في الكون. السعادة تصطبغ بمسحةٍ من الكآبة، وهذا نوعٌ نادرٌ جداً من السعادة: هنا يكمن سر غموضها ” .

ومن خلال روايته هذه، يمكننا أن نستشف أن المؤلف روي – باتاجاريا يتمتع بثقافةٍ موسوعية، وحس إنساني عميق؛ وأسلوبه السردي متين، ولغته سلسة ورشيقة، وعمله الروائي هذا زاخر بالأوهام والمخاوف والفن والخيال الخلاق والمشاعر المختلطة والاستعارات والرموز، ويتجسد فيه الترقب والانتظار مما يجعلك تلهث لمعرفة ما سيحصل لاحقاً .

استوحى الكاتب وقائع روايته هذه من خلال زيارة قام بها للمغرب، لكنه غاص عميقاً في طبيعة القيم والسلوكيات والأفراح وأنواع الملابس والمأكولات وطرق التحاور بين الناس . ودعم ذلك كله بتأملاتٍ عميقة في ماهية الحب، والجمال، والحقيقة، والحرية،

ومعلومات وافية عن تاريخ وجغرافيا المغرب، ولهجات أبنائه من عرب وبربر وطوارق، من مسلمين ويهود، ينحدرون من المدن والريف والجبال والصحارى والموانئ. كما منحنا الفرصة للاطلاع على نوعية الذائقة الجمالية واللغوية لهذا الشعب، وتحسُّسنا لطبيعة مشاعره وهواجسه وأحلامه، وصيغ تعبيره عن ردود أفعاله وتصويره لرؤيته لذاته ولأرضه وللآخر، وقدّم لنا صورةً واسعة عن الأفكار وطبيعة العلاقات الإنسانية ووصف لنا تفاصيل الهموم اليومية والمناخ العام السائد في مراكش والمغرب عموماً.

ونحن لا نجانب الواقع إذا ما قلنا إن هذا الأثر الأدبي يعيد إلى أذهاننا كتاب "ألف ليلة وليلة" حيث كل قصة تولّد قصةً أخرى في نسيج روائي متشابك وأحداث متلاحقة لا يملها القارئ، لا بل ينتظرها بشوق وشغف؛ هذه القصص يسردها رواة كثيرون من شرائح اجتماعية وأصول عِرقية مختلفة تعيش في مناطق شتى من المغرب لكنها تعيش في مراكش طلبا للرزق ولقمة العيش، وهذا الأمر عينُه فعله الكاتب التركي أورهان باموق، الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 2006، في روايته "اسمي أحمر" من حيث تعدد الرواة واختلاف وجهات النظر.

أرجو أن تلاحظوا أننا درجنا في الأعوام الأخيرة على كتابة مقدّمات للروايات التي نترجمها عن الإنكليزية، ومن بينها هذه الرواية، ورواية "الأميرة باري"، وكذلك رواية "لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً"، وفعلنا الشيء نفسه عندما ترجمنا "فنان الاختفاء"، وهو كتاب سردي يضم ثلاث روايات قصيرة لعميدة الأدب الهندي أنيتا ديساي. وفي كل مرة، كنا نتحدّث عن الكاتب وأجواء القصة وأبطالها وحبكتها وثيمتها وما إلى ذلك.

***

والآن، لابد لي أن أتحدّث شيئاً ما عن مسيرتي كقاص وروائي. والحق أقول إنني شخصٌ دقيق، ودأبتُ على تنظيم وقتي، وحياتي. نادراً ما يمرّ عليّ يومٌ من دون قراءة أو كتابة أو ترجمة. وأنا أعتقد أن جُلَّ ما نحتاج إليه هو الصبر والمثابرة، هاتان الصفتان هما ما نحتاجه في عملية الكتابة، إلى درجة أن تصبح طاولة الكتابة جزءاً من جسم الكاتب، إذا ما جاز لنا أن نقتبس تعبير أورهان باموق. وأعتقد أن الأفكار تظل حبيسة رؤوس أصحابها ما لم تمنحها الكتابة عبر اللغة قوةً عابرةً للأزمنة والأمكنة، من خلال تثبيتها وتسجيلها وتوثيقها وإطلاقها لتدور في عالم لا منتهٍ، منفتح على الآخر وما يمكن أن يضيفَه بدوره، ولهذا تكون محرّضةً على التفكير، ومتجاوزةً لزمانها ومكانها.

صحيح أن الموهبة ضرورية، والإلهام ضروري، لكن ما من كتاب مؤثر وعميق نتج عن الموهبة وحدها، أو الإلهام وحده، بل لابد من الكدّ، والتعب، والعمل بجد؛ وبالمناسبة قال لي صديقي الشاعر حسين عبد اللطيف أن محمد خضير كتب مسوّداتٍ كثيرةً جداً تملأ كيسَ خيش كبيراً من مجموعته القصصية "المملكة السوداء"، قبل أن يدفعها إلى النشر.

أنا أعتقد أن الأدب لا يعكس دوماً رأي المؤلف، ولكن المؤلف يستخدم الشخصيات لعرض مشاكل محددة نواجهها في العالم. وأن الكاتب الحقيقي ينبغي ألا يدير وجهه عن الحقيقة، وألا يتردد يوماً في قول ما يجول في ذهنه. بالطبع، يستطيع الكاتب أن يشير إلى المشكلة، ولابد له أن يتخطى السطحي والعابر

ويلامس ما هو جوهري في الحياة الإنسانية.. إن ما يدعو للأسف أننا لا نزال نتخبط في مشاكلنا العويصة، والمزمنة، والقيم الإنسانية إما تختفي أو يُداس عليها بوحشية أكبر يوماً بعد يوم .

وأعتقد أن الأدب هو وسيلتنا الوحيدة التي نداوي بها جراحاتنا، أوجاعنا، مآسينا. إنما لابد لنا أن نتنفس عبر الحكايات التي نرويها، ونغني ونرقص ونلهو ونمرح ونصرخ. أعتقد أنه يتعين على الكاتب أن يكتشف تقنياتٍ من شأنها أن تجعل الواقع أكثر قوةً وكثافةً مما هو عليه، أي أنك تجربه في الكتابة بصورةٍ أقوى مما تفعله خارج الكتابة أو بكلمةٍ أخرى، أن نعيد إنتاجه بطريقة حيوية تثير مخيلة القارئ وتدفعه إلى التأمل وتوجيه الأسئلة.

أنا مدين لمهنتي الطبية في إتاحة الفرصة لي للتواصل مع الآخرين، والتحدث إليهم، والإنصات إلى معاناتهم وعذاباتهم وأوجاعهم، لكنني في كتاباتي كنتُ أؤكد على ضرورة أن نحافظ على الأمل الهش الذي بقي لدينا. لم أكنْ أدوّن القصص والروايات انطلاقاً من اليأس والقنوط بل انطلاقاً من إحساسي بالأمل، وهو ليس الأمل الساذج، الغيبي، الذي يتشبث به المؤمنون بالقضاء والقدر، بل الأمل الناجم عن إدراك حركة التاريخ والإيمان بقدرات الإنسان وصلابته، وكان أبطال قصصي ورواياتي يكشفون من خلال أفعالهم عن ثقتهم بأنفسهم، وعن قدرتهم على تجاوز ظروف حياتهم المحيطة بهم .

أفكر دوماً بمئات الآلاف من ضحايا الحروب، والعنف، والفساد، والديمقراطيات الزائفة، أفكر بالأمراض والأوبئة التي تتفشى تباعاً في هذا البلد أو ذاك. أتخيّل كاتباً خمسينياً خارت قواه، وتهاوتْ دفاعاته، يجلس إلى طاولة الكتابة، أو أمام شاشة الحاسوب، وما إن يمسك بقلمه أو يضع أصابعه على لوح الأزرار حتى تبدأ دموعه بالهطول.. تهطل الدموع مع هطول كلماته على الورق، أو مع ظهورها على شاشة الحاسوب. إنه يكتب كي يتذكّر عذاباته هو، وعذابات الآخرين، عذابات العالم الذي خبره وعاش فيه. يكتب كي يجفف دموعه التي لا تفتأ تنهمر من مقلتيه اللتين تعبتا من ملاحقة الكلمات، والسطور، وعلامات الترقيم. لكن، هل يستطيع أن يداوي جراحاته، هل يستطيع أن يبرأ من كل هذا الشقاء الذي يحيط به، ومن كل هذه التعاسة التي تطوّقه من الجوانب كلها.

في رواية ''العمى'' لـ جوزيه ساراماغو، يحدّثنا الكاتب البرتغالي عن كلب يتصرّف كالبشر، إنه يتطلّع دوماً إلى عينين تذرفان الدموع، وعبر صفحات الرواية نتابعه وهو يرافق العميان في بحثه المحموم عن الطعام والشراب في مدينةٍ بلا اسم، وشوارع وساحات لا نعرف في أي بقعةٍ من العالم هي. إنه لا ينتظر شيئاً أو أحداً.. إنه لا يكاد يفعل شيئاً سوى لعق الدموع.. أما نحن، نحن الأحياء، المبصرون، القانعون ببؤسنا، القانعون بذلنا، بخوائنا الروحي والفكري، نحن الذين ننتظر السوط الذي يستفزنا، السوط الذي يحرّضنا على الثورة، فمَن سيلعق دموعنا؟ من يلعق دمامل وتقرّحات أراملنا المسربلات بالسواد وأيتامنا المساكين في منزل الجنون هذا؟ مَن يواسي عشاقنا المتيمين الذين يقضون أعز سنوات شبابهم في أزقة الوحل والخراب وضياع الفرص؟

هذه هي الأسئلة التي تراودني دوماً، وأنا، بالطبع، لا أنتظر جواباً من أحد. لأن الأجوبة عمياء، وحدها الأسئلة ترى.

مطبوعات وصلتنا :

• د.خليل عبد العزيز، محطات من حياتي. الطبعة الاولى (بغداد: دار سطور للنشر والتوزيع، 2018)
• د. صباح أحمد جمال الدين، الطائفية جاءت من السماء (شعر) دار (إي- كتب) لندن 2017
• انمار مردان ، متى سكون الموت هامشاً (شعر).دار الفرات للثقافى والاعلام – العراق /بابل 2017.
• سعد قاسم الأسدي، بقايا نهار (رواية).دار سطور للنشر والتوزيع – بغداد 2017.
• حامد فاضل، ألف صباح وصباح ،متوالية حكائية. منشورات اتحاد الادباء – بغداد 2017.
• عبد علي اليوسفي، تنابلة هارون (قصص).مكتب زاكي، بغداد 2017.
• أحمد الناجي ، تنوعات الأسطورة وجماليات التأويل. تموز، طباعة، نشر، توزيع. دمشق 2017.
• سالم سالم، السماء تمطر شتائمها (شعر). دار جان للنشر – المانيا.
• اياد خضير، نافذة على فضاءات الحكاية. دار الجواهري للنشر والتوزيع – بغداد 2017.